

شخصيات لها تاريخ

نسيم مجلي


مكتبة
طريق العلم

هذا الكتاب:

يتناول شخصيات لها تاريخ متميز، لعبت أدوارًا بارزة فى ميادينَ مختلفةٍ، كالثقافة، والفكر، والترجمة، والسياسة، أمثال: حنين بن إسحق، طه حسين، محمود شاكر، زكى نجيب محمود، عزيز سوريال، شفيق غربال، أنور لوقا، بابلو بيكاسو، بناظير بوتو.. وغيرهم الكثير ممن بذل حياته رخيصة فى سبيل مبادئه وإيمانه بوطنه.

ISBN# 9879779101972

6 221149 041691

نهى مصطفى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

شخصيات لها تاريخ

نسيم مجلى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

مجلى، نسيم.

شخصيات لها تاريخ/ نسيم مجلى. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

٣٠٤ص: ٢٤ سم.

تدمك ٢ ٠١٩٧ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ الرجال ـ تراجم.

٢ ـ الأدباء.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤٧٩/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0197 - 2

ديوى ٩٢٠,٧١

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج على

اسم الكتاب : شخصيات لها تاريخ
تأليف : نسيم مجلى

الإخراج الفنى : شيماء محروس

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

• هذا الكتاب

هذه فصول نشرت فى أوقات متفرقة، ورأيت أن أجمعها فى كتاب أملًا فى زيادة الانتفاع بها وتزويد عامة القراء بقدر من المعرفة عن هذه الشخصيات المهمة التى لعبت أدوارًا سواء فى ميدان الثقافة والفكر، أوميدان السياسة، ومنهم من مات شهيدًا فى سبيل مبادئه وإيمانه بوطنه مثل بناظير بوتو.

نسيم مجلى

(الهرم فى ٢٦ ديسمبر ٢٠١١)

١ ـ حُنين بن إسحق وعصر الترجمة العربية

يقول سارتون فى كتابه «مدخل إلى تاريخ العلوم» إن بعض المؤرخين قد حاولوا أن يغضوا من قدر العرب وإنتاجهم فى عالم الفكر حينما ادعوا أن ما جاء به العرب لم يكن فيه شيء مبتكر ـ لأن العرب لم يكونوا إلا مقلدين. إن مثل هذا الحكم خطأ فليس هناك ابتكار أعظم من ذلك التعطش الذى ملك على قادة الفكر العربى حواسهم فى سبيل المعرفة ... ولا يمكن أن يكون هنالك ابتكار مخلوق من العدم.(مدخل إلى تاريخ العلوم).

هذا التعطش الشديد إلى المعرفة هو الذى دفع حنين بن إسحق للبحث والتنقيب فى دروب اللغات والعلوم وتحدى كل الصعاب والمعوقات حتى صار هذا العالم الفذ الذى يشهد بعظمته وأصالته كبار العلماء والمؤرخون فى الشرق والغرب.

وهذه لفهم دور العبقرية الفردية فى حوارها مع روح العصر العباسى الذى برزت فيه وأتاح فرصة النمو والازدهار لكثير من العلماء والمفكرين والشعراء فى عصر الحضارة العربية، وهذا يتطلب منا جمع وتحقيق هذا التراث، وخصوصًا تراث حنين بن إسحق ومدرسته.

-كتابة بيوجرافيا أو سيرة حياة هذا العالم العربى الكبير بصورة دقيقة وموثقة وإبراز دوره فى حركة الترجمة ليس فقط كمترجم لقرابة مائة كتاب من اليونانية إلى السريانية وسبعة وثلاثين كتابًا إلى العربية، وليس فقط كفقيه لغوى ومؤلف لعدد من كتب فقه اللغة العربية ونحوها وإنما كرسول ثقافى حضارى قام بأسفار عديدة للحصول على الكتب والمخطوطات وأقام علاقات مع الروم والبيزنطيين من أجل هذه الغاية. وقد أتاحت هذه الأمور فرصة للحساد للكيد والدس له عند بعض الخلفاء مما عرضه لأشد المحن التى تغلب عليها بإيمانه بالله وبرسالته كطبيب مهمته هى علاج المرضى وتخفيف آلامهم، وليس صنع السموم الفتاكة لقتل الخصوم مما أكسبه مكانة عالية لدى خلفاء الدولة العباسية، وله فى هذا المجال مواقف مشهودة سجلها القفطى وابن جلجل، وابن أبى أصيبعة فى كتابه تجعل من هذا العالم نموذجًا فى الالتزام بالأمانة العلمية والإصرارعلى ربط رسالة العلم بخدمة الإنسان.

ثم إن دراسة العصر، وإبراز العوامل التى دفعت المسلمين للانفتاح على الثقافات الكلاسيكية مثل اليونانية والفارسية والهندية دون خوف من الغزوالثقافى أوالمؤامرات الخارجية مثلما يحدث الآن قد يفيدنا فى النظر إلى ما حولنا فى عصر العولمة، وانهيار الحواجز أمام وسائل الاتصال الحديثة، وتدفق المعرفة فى كل وسائل الاعلام وخصوصًا الإنترنت.

وقد فكرت كثيرًا فى هذا الموضوع لأننى أرى أن حركة الترجمة العربية فى العصر العباسى كانت أول، وأعظم حركة ثقافية تجسدت فيها فكرة حوار الحضارات ليس فقط، لأن الترجمة شملت نقل التراث الإغريقى والفارسى والهندى، أى التعامل مع ثقافات وثنية وعقلانية مختلفة؛ بل لأن هذه الحركة اعتمدت أساسًا على مترجمين وعلماء مسيحيين ويهود وصابئة ومن كل الأجناس. وبهذا جسدت فكرة الحوار والتعايش ـ شكلًا ومضمونًا ـ بين العرب المسلمين وبين غيرهم من الشعوب والجماعات العرقية والدينية.

كذلك فإننى أرى أنه اذا كانت حركة الترجمة قد جسدت هذا وأكدته فإننى أرى فى شخصية حنين بن إسحق وأعماله شاهدها الأكبر. فقد كان طبيبًا لأربعة خلفاء من العباسيين وموضع ثقتهم ورعايتهم. وقد عينه المتوكل عميدًا لدار الحكمة حيث جمع حوله عددًا من التلاميذ النجباء منهم ولده إسحق ابن حُنين وابن أخته حبيش

ابن الأعسم ورهط آخر نذكر منهم عيسى بن يحيى بن إبراهيم وموسى بن خالد وأبا عثمان سعيد وعيسى بن على،وجعل منهم مدرسة للبحث العلمى وترجمة العلوم الطبية والفلسفية.وقد أرست هذه المدرسة أصول المصطلحات العلمية فى لغتنا العربية وهى قضية مازالت تشغلنا حتى الآن، وتحتاج منا لاهتمام جاد.لقد أدت حركة الترجمة إلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية التى أضاءت بلاد الشرق فى الوقت الذى رانت فيه حجب الجهل والظلام على كل بلاد أوروبا.

وأعتقد أننا مطالبون بالكشف عن هذه الروح التى اتسمت بها الحضارة العربيةالإسلامية والتى تنبذ التعصب والإرهاب، ليس فقط من أجل مخاطبة الآخرين وإنما لإنعاش ذاكرتنا القومية، وإذكاء هذا الوعى فى شبابنا لحمايته من شرور التفسيرات الخاطئة للدين. وحمايته من الدعوات الضالة التى تدفعه إلى طريق العنف المدمر لما نبنيه من تقدم وازدهار. وبهذا نؤكد مصداقية خطابنا الثقافى فى الرد على دعاوى الحرب المجنونة التى تنشرها قوى الاستعمار الغربى، والتى تتخذ من أحداث الحادى عشر من سبتمبر دليلًا على حتمية الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية.

لابد من الربط بين الدور الذى لعبته الترجمة العربية فى حماية تراث الإنسانية وإسهام العرب فى النهضة الأوروبية، وتأكيد ذلك بشتى الطرق من أجل صياغة مشروع ثقافى معاصر يستند إلى العقل والعدل لتحقيق السلام والتنمية والرخاء لنا ولشعوب العالم أجمع.

ولا بأس أن يتم الربط من خلال إحيائنا لتراثنا العلمى، فقد بدأت النهضة الأوروبية بإحياء التراث الكلاسيكى من خلال ترجمتهم للعلوم العربية.فهل نأمل فى إكمال دائرة التشابه فنخرج من حالة الحيرة والتخلف التى تعانيها شعوبنا العربية لنساير هذا العصر وثقافته بخطى ثابتة؟فى تصورى أن هذه خطوة ضرورية؛ لأننا مفتونون بفكرة الأصالة، قد أدمنا تعاطى التراث بصورة مخيفة حتى كاد أن يصبح مرجعيتنا الوحيدة، نتيجة لإغراق العقول فى تراث العصور المتخلفة وفى التفسيرات الدينية المعادية للعقل ولحرية الإنسان جريا وراء هذه الأصالة المزعومة، رغم أن الأصالة الحقيقية موجودة فى الابتكار والإبداع والتجديدوفى تراثنا العلمى، أعنى فى مقوماته العقلية والوجدانية

التى أدت إلى إنتاج هذا التراث وإبداع ذخائره، هذه القدرات النفسية والعقلية هى التى دفعت أبناء هذه الأمة إلى الانفتاح على تراث الإغريق والفرس وتراث الهند دون خوف أوتردد فحققوا أعظم أمجاد الحضارة العربية.

وإننى حين أدعو إلى هذا فإننى لا أدعو إلى حالة ردة أوتراجع وإنما أدعوللاقتراب أكثرمن علوم العصر وثقافته، ويكفى دليلًا على ذلك أن نعرف مايقوله المستشرق ماكس مايرهوف من أن كتاب «العشر مقالات فى العين» الذى وضعه حنين بن إسحق، هو أقدم كتاب مؤلف على الطريقة العلمية «فى طب العيون، وأن جميع أطباءالعيون المتأخرين قد اقتبسوا من ذلك الكتاب وشرحوه» أومايقوله المستشرق الألمانى شتروهماير من أن أساليب حنين بن إسحق فى جمعه للمخطوطات العديدة وتحقيقها وعمله فى تطوير اللغة لكى تلائم الاحتياجات العلمية عن طريق الترجمة تجعله زميلًا لنا على الرغم من هذه الأحد عشر قرنًا التى تفصلنا عنه».

من هنا فإن عملى هذا هودعوة للتصالح مع النفس ومع العقل من أجل كسر حاجز الاغتراب والدخول إلى حضارة العصر من الطريق، الذى ألفناه وهوطريق التراث. ليست إذن رجعة إلى الورا ء وإنما خطوة إلى الأمام فى سبيل اللحاق بعلوم العصروالمستقبل.

لقد تعرض تراثنا العلمى للإهمال الشديد وتأكيدا لذلك يكفى أن تعرف أن أول مرة بل وآخر مرة يتم فيها الاحتفال بذكرى حنين بن إسحق فى العالم العربى كانت فى «مهرجان أفرام وحنين» الذى أقيم فى بغدا د سنة ١٩٧٤م.

كذلك تأخر اهتمام الأوروبيين بهذا التراث ربما نتيجة تعصبهم لفكرة مركزية الثقافة الأوروبية. فقد شكى نيجيبور Otto Neugebauer من موقف الباحثين إزاء محاولته لعرض العلاقة بين الرياضيات عند الإغريق وعند البابليين قائلا:

«كل محاولة لربط إنجازات الإغريق بما قبلها لدى الأمم الأخرى تصطدم بمعارضة حادة. فليس هناك من يرضى بتعديل صورة الإغريق التى اعتاد عليها، على الرغم من أن كل التحولات التى طرأت عليها منذ زمن وينكلمان Winkelmann وأبسطها التعرف

على ألفين ومائة عام من التاريخ قبلهم، كان من نتائجها أن أصبح الإغريق فى المتصف وليس فى المبتدأ (فؤاد سيزكين: «مكانة حنين فى تاريخ الترجمة»).

وقد يتساءل البعض عن سر اهتمامى بحنين بن إسحق بالذات دون غيره من العلماء والمترجمين الذين برزوا فى هذه الفترة، والإجابة هى أن حنين بن إسحق لم يكن مجرد عالم بارز أومترجم نادر فقط، بل كان رائد مدرسة من العلماء العرب الذين «شكل اشتغالهم بالعلوم الإغريقية مرحلة الانتقال من التلقى إلى الإبداع» (نفس المرجع).

ورغم الاعتراف فيما يشبه الإجماع على قيمة الدور الذى لعبه هذا الرجل فى نقل العلوم الإغريقية إلى العرب وعلى قيمة مؤلفاته الطبية والفلسفية، فإنه كمايقول ماكس مايرهوف، «لم تكتب بأية لغة أوروبية ترجمة وافية لحياة حنين الذى يصفه المؤرخ الفرنسى ليكلرك بأنه من أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقًا وربما كان أقوى شخصية أنجبها القرن الثالث للهجرة، أما فى اللغة العربية فقد أفرد له ابن أبى أصيبعة فصلًا مسهبًا ضمنه تاريخ حياته وما ترجمه وألفه من كتب ورسائل. وهذا الذى كتبه ابن أبى أصيبعة، قد اتخذه كتاب العرب والفرنجة مادة يصنعون منها صورة غير كاملة لحياة حنين على أن ابن أبى أصيبعة إنما اختزل مقالة ابن القفطى على ما بها من نقص ظاهر، وفى كتاب الفهرست لابن النديم ترجمة قصيرة ناقصة نقصًا كبيرًا وكذلك سائر التراجم العربية التى بين أيدينا فإنها بعيدة كل البعد عن أن تفى بالمراد. ولست تجد فى جميع اللغات الأوروبية سوى مقالات قصيرة، لا تتناسب ومكانة حنين كرجل من رجال العلم». (مقدمة كتاب «العشر مقالات فى العين» لمايرهوف).

وقد تناول بروفسور فؤاد سيزكين فى مقالته «مكانة حنين فى تاريخ الترجمة» مسألة تأخر الاهتمام بقضية نشاة العلوم عند العرب،وخاصة العلوم الطبيعية والفلسفية فقال سوف يمضى وقت طويل حتمًا قبل أن يتحقق أملنا بأن يصدر يومًا حكم صائب حول إنجازات العلماء الذين دونوا آثارهم باللغة العربية، لأن الباحثين فى مضمار العربية لم يوضحوا معظم المشكلات الأساسية بعد، ومن جهة أخرى فإن المادة لم تجمع ولم تحلل وتبحث بشكل كافٍ إلى يومنا هذا.فضلًا عن ذلك، فإن مجال البحث مثقل بآراء متضاربة وبأحكام مسبقة وتصورات خاطئة حول نشأة العلوم العربية.

فقد كان أول اهتمام بنصوص من ترجمة حنين فى أواخر القرن الماضى، عندما قام كلامروث M.Klamroth بدراسة ما أورده اليعقوبى من مختصرات مترجمة عن مؤلفات إغريقية، ليتبين علاقتها بتراجم حنين. ولقد تتبع سيزكين هذا التاريخ ورأى أن مكانة حنين فى تاريخ العلوم عند العرب قد أخذت تتضح بظهور دراسات أخرى حوله، كدراسة استينشنيدر M. Steinschneider حول التراجم العربية من الإغريقية، وبنشر الترجمة العربية لكتاب التشريح لجالينوس وهذا مما دعا برجسترا سر Bergstrasser إلى أن يخصص دراسة مستقلة بعنوان «حنين بن إسحق ومدرسته» فى سنة ١٩١٣، كما نشر فى عامى ١٩٢٥ و١٩٣٢ بعض رسائل حنين ذات الأهمية القصوى: «رسالة فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم» Leipzig ١٩٢٤. و«مقالة فى ذكر الكتب التى لم يذكرها جالينوس فى فهرست كتبه» Leipzig ١٩٣٢. وقد كتبت مع مرور الزمن عدة مقالات أخرى حول حنين وأعماله ولكنها جميعًا لم تتجاوز محاولة Bergstrasser الأولى بشكل جوهرى. وهكذا ظل بحثه إلى الآن هو المؤلف الوحيد حول صناعة الترجمة وأسلوبها لدى حنين وانتشرت عن طريقه تسمية «مدرسة حنين».

بعد ذلك توالى ظهور الد راسات حول حنين ولعل أبرزها كتاب «العشر مقالات فى العين» الذى حققه المستشرق الفرنسى ماكس مايرهوفوف وأهداه إلى كلية الطب بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٧ بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على إنشائها، وتناول فيها دراسة تاريخ علوم الطب عند العرب وخاصة طب العيون وهو ـ بتعبير الأب قنواتى ـ أهم فروع الطب الذى تخصص فيه العرب ووصلوا فيه إلى نتائج مدهشة.

وبعد نصف قرن تقريبًا عقدت فى مؤتمر المستشرقين بباريس فى يولية ١٩٧٣ حلقة خاصة حول حنين بن إسحق، عولجت فيها جوانب من نشاطه وآثاره، ونشرت أبحاث هذه الحلقة فى عدد خاص من مجلة Arabic ج٢ (أكتوبر ١٩٧٤) كذلك أقيم فى بغداد مهرجان بعنوان «أفرام وحنين» فى فبراير ١٩٧٤، وقدمت فيه مجموعة الأبحاث التالية والتى نشرت فى مجلد ضخم بعنوان «مهرجان أفرام وحنين» مطبعة المعارف بغداد.

١- مساهمة جمهرة الكتاب المسيحيين الشرقيين فى تاريخ الأدب السريانى
بروفيسور أندريه دى هاليه.

٢- حنين بن إسحق - الأب يوسف حبى عضو مجمع اللغة السريانية

٣- بين العربية والسريا نية د. إبراهيم السامرائى

٤- حنين بن إسحق المترجم د. إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة

٥- مخطوطات سريانية جديدة لحنين بروفيسور آرثر فويس

٦- حالية حنين بن إسحق بروفيسور جيرار تربو - المعهد الوطنى للغات / باريس

٧- دور المراكز الثقافية فى تفاعل العرب والمسلمين الحضارى.د. حسين قاسم العزيز

٨- كتاب علم الأخلاق فى النيقوماخية لأرسطو كلاوس دنلوب

٩- حنين بن إسحق والسلطة العباسية د. فاروق عمر فوزى / آداب بغداد

١٠- مكانة حنين فى تاريخ الترجمة الإغريقى والسريانى إلى العربية
فؤاد سيزكين

١١- أدوية العين عند حنين بن إسحق د. جورج قنواتى

١٢- مصادر الدراسة عن الحكيم حنين بن إسحق فؤاد قزانجى الأستاذ بجامعة بغداد

١٣- أثر مدرسة جند يسابور فى المصطلحات الطبية لحنين د. فيصل دبدوب

١٤- حنين بن إسحق الفقيه اللغوى بروفيسور كوتهارد شتروهماير

١٥- مكتبة حنين بن إسحق كوركيس عواد

وقد تحد ث البروفسور أندريه دى هاليه عن دلالة المؤتمر فقال:

لقد التزمت الحكومة العراقية بقرارها التاريخى فى نيسان ١٩٧٢بضمان الحقوق الثقافية للمواطنين الناطقين بالسريانية من آشوريين وكلدان وسريان. إذ أكد القرار على وجوب تدريس اللغة السريانية على جميع المستويات وعلى نشرها بواسطة الإذاعة والتليفزيون، وأعطى المجال لتأسيس أكاديمية أومجمع للغة السريانية. وما المهرجان سوى إشراقة خير لذلك.

لقد كانت غاية المشرع زيادة التحام الإخوة والوحدة الوطنية العراقية بروح ديموقراطية، غير أن الاعتراف بالقيم التراثية للحضارة السريانية القديمة لقى أصداء تتعدى حدود الجمهورية العراقية إلى سائر بلدان الشرق الأوسط حيث لا يزال التكلم باللغة السريانية قائما أولأنها مستعملة كلغة طقسية بصيغتها الفصحى.

(مقال «مساهمة جهرة الكتاب المسيحيين الشرقيين فى تاريخ الأدب السريانى)

وتحدث البروفيسور جيرار تروبوالأستاذ بالمعهد الوطنى للغات الشرقية بباريس فقال: «لقد اجتمعنا لنحتفل بالتذكار المئوى الحادى عشر لوفاة الطبيب العراقى المشهور حنين بن إسحق الذى يعد من أكبر العقول ومن أنبل الطباع التى يعثر عليها فى التاريخ. فيجب علينا أن نتساءل عن الأسباب التى دفعتنا، نحن فى القرن العشرين إلى الاحتفاء بذكرى علامة عاش فى القرن التاسع الميلادى».

ثم يجيب بأنه «رغبتنا فى أن نمجد هذا الطبيب العبقرى الذى لعب بنشاطه العلمى الواسع دورًا رئيسيًا فى حركة التبادلات الثقافية التى حدثت فى بغداد فى القرن التاسع وهيأت ازدهار الحضارة العربية فى القرن التالى».

إلى جانب هذا فإن لحنين حالية مدهشة (أى حضور معاصر) تظهر فى عدة ميادين عصرية هى:

١ - ميدان التقاء الثقافات المختلفة حيث نرى حنين كمثال فى هذا المجال إذ التقت فى شخصه ثلاث ثقافات هى: العربية والسريانية واليونانية.

وقد اختلطت تلك الثقافات الثلاث فى شخصية حنين وانتج هذا الاختلاط ثقافة جديدة شديدة الثراء لها صيغة متميزة.

٢- وفى ميدان تعدد المعارف، فالمعرفة اليوم غير منقسمة والمحاولات تجرى لإزالة الحدود المصطنعة بين العلوم المتفرقة. أما حنين فله فضل السبق فى هذا المجال، إذ إنه اهتم بجميع فنون المعرفة البشرية فى زمانه. فاهتم بجميع فروع الطب وخصوصًا طب العيون وعلم الأغذية وعلم الأدوية، وكذلك بالطبيعيات والرياضيات، إلى جانب التنجيم وتعبير الرؤيا، والفلسفة والتاريخ والنحو واللغة.

٣- وفى مجال نقل الثقافات الاجنبية فإنه لعب دورًا مهمًا جدًا بترجماته من اليونانية إلى السريانية أو إلى العربية وكما قال ابن خلكان: «ولولا ذلك التعريب لما انتفع أحد بهذه الكتب لعدم المعرفة بلسان اليونان».

ونتيجة لجهود حنين تم انتقال جزء كبير من العلم اليونانى القديم، أولا إلى الشرق الإسلامى فى القرن التاسع، ثم الغرب اللاتينى المسيحى فى القرن الثانى عشر عن ترجمة كتبه إلى اللاتينية.

وفى الختام يعرض بروفيسور جيرار على المجتمعين صورة صفحة من مخطوطة لاتينية محفوظة فى المكتبة الوطنية فى باريس، تتضمن صورة أربعة أطباء من العصور القديمة كما كان يتخيلهم رسام غربى فى العصور المتوسطة فتقع صورة حنين فى الزاوية العليا اليمنى ونقرأ الكلمات الأولى من كتابه المسمى بالمسائل فى الطب التى تخرج من فمه مترجمة إلى اللاتينية.

٤- وأخيرًا تظهر حالية حنين فى ميدان رابع وهو الحوار الإسلامى المسيحى الذى ينبذ المجادلات غير المثمرة ويقوم على احترام عقائد الآخرين ويحاول أن يفهمها، حيث مارس الحوار مع صديق مسلم فى موضوع حقيقة الديانة. كان على بن يحيى قد وجه إلى حنين رسالة يبرهن له فيها على حقيقة ديانته ويدعوه إلى الإسلام. وفى جوابه على تلك الرسالة نجد حنين لا يرد على الإسلام ولا يدافع عن المسيحية، بل يبين الأسباب التى منها يقبل الحق والأسباب التى منها يقبل الباطل واكتفى بالتصريح بأنه قبل ديانته من الأسباب التى منها يقبل الحق دون أن يحاول أن يقنع صديقه بحقيقة ديانته.

بالإضافة إلى هذه الميادين الأربع، فإن معاصرة حنين تظهر فى جانبها الإنسانى وبالتحديد فى ترجمته الذاتية التى تعد من أول التراجم الذاتية فى تاريخ الأدب العربى، وذلك فى الرسالة التى صور فيها «المحنة» التى حلت به بفعل مكائد حساده من الأطباء المسيحيين المنافسين له، وهى بنفس العنوان.

١ ـ انتقال العلوم اليونانية إلى بلاد المشرق

إن معجزة اليونان العظيمة فى الفنون والعلوم والثقافة على مدى قرنين قبل العصر المسيحى كانت قد أوشكت على الاندثار لولا عملية نقلها خلال العصورالوسطى. وكما يقول جورج سارتون فى كتابه «تاريخ العلوم»: «إن انتقال العلوم لا يقل أهمية عن اكتشافها، فلوقدر لكل العلوم القديمة أن تختفى أوتضيع أثناء عملية النقل لانتهى أمرها فكأنها لم تكن».

وقد انتقلت العلوم اليونانية من مراكزها الأصلية فى الإسكندرية وأثينة إلى الشرق، فكانت الأماكن التى ازدهرت فيها هذه العلوم هى الأماكن التى تتكلم السريانية والفارسية مثل: الرها Edesse ونصيبين Nisibin والمدائن وجنديسابور فى خوزستان بالنسبة للنساطرة، ثم إنطاكية وآمد بالنسبة إلى اليعاقبة وإلى جانب ذلك كانت هناك مدارس فى الأديرة اسمها بالسريانية «اسكول» المأخوذة من اللفظ اليونانى scholae.

وقد صنع العرب من هذا اللفظ كلمة «اسكول»، وهى تدل على مدرسة مسيحية أومدرسة ملحقة بدير وبطبيعة الحال كان يدرس فيها اللاهوت والعلوم الدينية،بجانب بعض العلوم الدنيوية مثل: النحووالبيان والفلسفة والطب والموسيقى والرياضيات والفلك، وقد اقتصر التعليم الفلسفى فيها على بعض أجزاء المنطق الأرسطى والتعليم الطبى على مؤلفات إبقراط وجالينوس. وأهم هذه المدارس كان مدرسة دير القديس أفثينوس فى قنسرين بسوريا. وكان علماء هذا العصر غالبًا من رجال الدين مثل: الطبيين الإسكندريين: سرجيوس واهرن (جورج قنواتى-المسيحية والحضارة العربية ص١٠١-١٠٥)

وعن قيام المدارس العلمية فى الشرق يقول الدكتور فهيم أبادير فى كتابه «تاريخ الطب عند العرب» ص ٢٥، فى عام ٣٢٥ م، تأسست فى مدينة إنطاكية بشمال سوريا

مدرسة على غرار مدرسة الإسكندرية، وكانت الصلات الثقافية فى العصر اليونانى بين مصر وسوريا قوية، ولما كانت مؤلفات الإغريق فى ذلك الوقت هى المرجع الوحيد لجأ أساتذة مدرسة إنطاكية إلى ترجمتها إلى لغتهم وهى السوريانية.

وفى عام ٤٢٨ م عين أحد خريجى قسم اللاهوت بمدرسةأنطاكية بطريكا على القسطنطينية ويدعى «نسطور»، ثم حدث جدل وخلاف على تفسير بعض العقائد الدينية كان نتيجته فصل نسطور عن الكنيسة المسيحية.وتم ذلك عن طريق مجلس دينى فى مدينة أفسس عام ٤٣١ م ثم اعترض عدد كبير من السوريين على هذا القرار وتضامنوا مع نسطور وانشقوا عن الكنيسة المسيحية الأم. وأصبحت هذه الجماعة المنفصلة تسمى بالنسطوريين نسبة إلى رائدها المفصول البطريرك نسطور، ثم رحلت هذه الجماعة إلى مدينة «نصيبين» فى سوريا وإلى «الرها» وهى مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام وباشروا نشاطهم العلمى فى تدريس الطب حتى أصبحت مدرسة «الرها» من أشهر المدارس الطبية.

وفى أواخر القرن الخامس للميلاد ولما تزايد اضطهاد المسيحيين الأرثوذكس لهم، هاجروا إلى العجم حيث استقبلتهم الأسرة الساسانية بكل ترحاب وأسسوا فى النصف الثانى من القرن الخامس فى مدينة جنديسابور مدينة طبية يتبعها مستشفى للعلاج وجنديسابور أوجند شهبور هذه مدينة تقع فى الجهه الجنوبية الغربية من إيران بناها سابور أحد ملوك العجم وسميت باسمه.

وكانت هذه المدرسة مركزًا مهمًا لترجمة علوم اليونان الطبية إلى اللغة السوريانية ومن أوائل الذين قاموا بترجمة المؤلفات اليونانية «سرجيوس الرأس عينى» توفى ٥٣٦م، ترجم قسمًا من مؤلفات جالينوس وهى موجودة بالمتحف الإيطالى الآن ونقح حنين ابن إسحق العبادى هووزملاؤه فى «دار الحكمة» ببغداد ترجمة سرجيوس الأصلية بعد مرور قرنين من الزمان

ونلاحظ أن معظم الأطباء فى العصر الأموى والعباسى كانوا من النصارى الذين يجيدون السوريانية ونسبة منهم كانوا ممن درسوا بمدرسة جنديسابور أوفى «الرها»

و«نصيبين» وكان هذا مثار حسد وغيرة من الآخرين. وهذا ما يوضحة الجاحظ فى حديثه الساخر عن الطبيب البغداى «أسد بن الجانى».

كان أسد بن جانى طبيبًا فأكســـد مرة، فقال قائل السنة وبئة، والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك بصر وخدمة ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتى فى هذا الكساد قال: أما واحدة فإنى عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطيب، لا .... بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب واسمى ثانية أسد، وكان ينبغى أن يكون «صليبا» و«مرابل»و«يوحنا» و« بيرا» وكنيتى أبوالحارث وكان ينبغى أن يكون ردائيًا حريرًا أسود وأخيرًا لفظى لفظ عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسايور (البخلاء- القاهرة ١٣١٣. هجرية ص ١٠٩)، وعلى سخرية الجاحظ يرد بروفسور شتروهماير بأن مايقوله الجا حظ ليس الحقيقة بكاملها، حيث إن اللغة السريانية كانت لاتزال هى لغة الطب المفضلة، فكان حنين يترجم لزملائه السريان باللغة السريانية، وحين كان يراجع ترجمة لابنه أولتلميذه عيسى بن يحيى، كان يقدم ترجمة سوريانية وليست عربية. لقد استجاب حنين فى أخريات حياته لرغبة العرب، وبعد اهتمامهم بعلوم الطبيعة والطب، قام بترجمة الكتب إلى العربية، أما عند توفر التراجم السريانية فكان يقوم بترجمتها إلى العربية تلميذه حبيش بن الحسن وعيسى بن يحيى لأنهما لايعرفان الإغريقية (مقال: حنين بن إسحق الفقيه اللغوى).

لقد كانت جنديسايور هى مركز الطب السريانى. يقول الدكتور عبد الحليم منتصر:

«رحل السريان إلى جنديسايور هربًا من اضطهاد أباطرة بيزنطة وأساقفتها للمذهب النسطورى الذى اعتنقوه. وكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى شغل بالخلافات الدينية ومحاربة الهرطقة وقد شغلوا بهذا كله عن العلوم والفلسفة وبقيت الكتب العلمية فى مكتبات بيزنطة بعيدة عن متناول الباحثين خوفًا عليها من الزيغ. واحتفظ السريان بكتبهم المترجمة وحملوها إلى منفاهم ولا نزاع فى أن الطب السوريانى فى جنديسايور كان أرقى كثيرًا من طب البلاد المجاورة بها فى ذلك بيزنطة وإنطاكية والإسكندرية. (ميخائيل جميعان: المؤثرات الثقافية الشرقية ص ٣٠٢).

وهذا ما جعل المنصور العباسى (١٥٩ هـ - ٧٧٥ م) يستعين بأطباء هذه المدرسة لعلاجه. فعندما أصيب المنصور بمرض أفقده شهيته للطعام وفشل أطباء بغداد فى علاجه استقدم جرجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور (عام ١٤٨ هـ - ٧٧٥م) وقد نجح هذا الطبيب النسطورى فى مداواته وتحقق الشفاء فنال بختيشوع حظوة لدى الخليفة وأصبح طبيبه الخاص. وتوارث أبناؤه وتلاميذه هذه المكانة عند خلفاء الدولة العباسية على مدى ثلاثة قرون كانوا هم خلالها أطباء البلاط وعلماء الطب.

وهكذا انتقل مركز الطب والعلوم والترجمة إلى بغداد، وأخذت حركة الترجمة تزدهر حتى بلغت أوج عظمتها فى عصر المأمون. «إذ صار بيت الحكمة» أهم وأعظم معهد علمى وثقافى بعد أن خفتت أضواء مدرسة الإسكندرية التى أنشأها بطليموس سوتر فى المتحف قبل الميلاد بثلاثة قرون.

وكان «بيت الحكمة» هو حجر الأساس لمدرسة بغداد التى ظل تأثيرها حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، ويرجع الفضل إلى هذه المدرسة الزاهرة فى الحفاظ على استمرارية الحضارة وإصلاح سلسلة المعارف الإنسانية التى حطمها بقسوة فى القرن السادس الميلادى اضمحلال روما وسقوطها.ولواقتصردور حضارة العرب على مجرد إنقاذ العلوم القديمة والحفاظ عليها بعناية ثم نقلها للأجيال التالية، لكانت هذه خدمة تجل عن الوصف، ولكن لم يكن الأمر كذلك، فإن علماء وفلاسفة مدرسة بغداد ورثوا روح وتعاليم مدرسة الإسكندرية، فأضافوا وأثروا الحضارة القديمة بإضافات مبتكرة فى كل فروع العلم، باكتشافات لا حصر لها فى الفنون التطبيقية. وفوق كل ذلك باكتشافات طرق جديدة للبحث والاكتشاف.

حنين بن إسحق

هوأبوزيد حنين بن إسحق العبادى والعباد (بكسر العين وفتح الباء الخفيفة) من بطون القبائل العربية التى تنصرت فى القرون الأولى للمسيحية، واستوطن قسم منها الحيرة وكانت تنتمى إلى كنيسة الشرق المسماة بالنسطورية، ثم سميت الأشورية والكلدانية.

ولد حنين فى الحيرة سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م، وهى مدينة قديمة شهيرة وعاصمة اللخميين فى جنوب العراق، فقد سكنوها منذ القرن الثالث الميلادى، وكلفهم الفرس الساسانيون بحراسة الحدود ضد هجمات الروم على بلاد ما بين النهرين السفلى، وهى من أشهر المدن العربية فى القرون الثلاثة الأولى قبل الإسلام، وكان العباد يشكلون ثلث السكان فيها، وكانت تسمى حيرة النعمان أوحيرة المنذر وأشتهرت بقصرى الخورنق والدير وانتشرت الأديار فى أطرافها ومنها دير هند (يوسف حبى: حنين بن إسحق).

ويتفق الأب يوسف حبى مع القفطى على أن والد حنين كان صيدلانيا وكانت الصيدلة حين ذاك تعنى صناعة العقاقير من الحشائش والنباتات وبيعها بطريقة تستوجب الحنكة والدراية بأمور الطب وفيها شىء من المتاجرة بالنقد واستبداله. ويقول إنه من الصعب تحديد تسلسل لأحداث حياة حنين ودراسته وضبط أمكنتها؛ لذا فإن بعض ما يذكره هومن باب الترجيح والإستنتاج ليس إلا..وهويحاول ملء بعض الفجوات الموجودة فى كتابات ابن النديم والقفطى وابن أبى أصيبعة.

نشأ حنين فى الحيرة (وليس فى بغداد أوالشام كما جاء عند البيهقى) وتأثر حنين بصناعة أبيه فمال إلى دراسة الطب وتعلم مبادئ العلوم فى الحيرة مسقط رأسه وتمكن من السريانية لغة كنيسته حتى أنه لبس الزنار وصار شماسًا. ثم درس الفارسية وصناعة الطب فى أكاديمية جند يسابور المشهورة فى خوزستان ببلاد فارس. وكانت معهدًا أنشأه سابور الثانى أحد ملوك بنى ساسان فى أوائل القرن الرابع الميلادى. وقد اشتهرت جند يسابور ببيمارستانها ونبغ فيها آل بختيشوع.

وفى بغداد لزم حنين بن إسحق الطبيب الشهير يوحنا بن ماسوية الجند يسابورى الأصل والمتوفى سنة ٢٤٣/ ٨٥٧، إذ ينقل ابن أبى أصيبعة عن يوسف بن إبراهيم قوله «أول ما حصل لحنين بن إسحق من الاجتهاد والعناية فى صناعة الطب هوأن مجلس يوحنا بن ماسويه كان أعم مجلس فى التصدى لتعليم الطب وكان يجتمع فيه أصناف أهل الأدب» وكان حنين ظمأنًا إلى المعرفة، مولعًا بالطب، فلم يكتف بمجلس واحد، بل كان مواظبًا أيضًا على بيت الحكمة البغدادى. وبيت الحكمة البغدادى كان يومذاك أكاديمية عظيمة، بل جامعة راقية، من أعظم بيوت الحكمة وأشهر معاهد العلم،

تشكلت نواته كخزانة للكتب فى عهد أبى جعفر المنصور، وتوسع فى عهد الخليفة هارون الرشيد،حتى بلغ ذروة ازدهاره فى خلافة المأمون حين تم تنظيمه على غرار المدارس البيزنطية والسريانية والفارسية وجمع أقطاب النقلة ومشاهير العلماء وكان العمل فيه جماعيًا والمال متوافرًا بفضل سخاء الخلفاء والوزراء والأعيان وتشجيعهم للحركة الفكرية.

ثم يضيف يوسف حبى أن حنين تخلص من ركاكة لغته المشوبه بألفاظ سريانية، بأن درس لغة الضاد فى البصرة حتى برع فيها براعة يشهد بها المؤرخون، معتمدًا فى دراستها كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدى. وله الفضل فى إدخال كتاب العين إلى بغداد.

وهنا يبدأ الخلاف حول هذه الأمور فى غيبة الوثائق التيكان يمكن أن تحسم هذا الأمر خصوصًا وأن حنين تعرضت حياته لمحن ونكبات شديدة أدت إلى تدمير مكتبته وكل أوراقه الخاصة فى عهد الخليفة المتوكل.

فنحن لا نعرف من أساتذته سوى يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع فى الطب. وقد تفوق عليهما بعد عدة سنوات.أما مسألة تحصيله للغة العربية واليونا نية فلا نعرف بشكل مؤكد أين ومتى حدث هذا.

يقال ـ مثلا ـ إنه نشأ فى الحيرة ودرس فيها السريانية، ولبس الزنار (أى أصبح شماسًا فى الكنيسة)، ثم ذهب إلى جند يسابور وتعلم الفارسية كما يؤكد الأب سمير خليل. لكننا لا نعرف على وجه الدقة أين تعلم العربية ومن كان معلمه نتيجة للتضارب فى أقوال المؤرخين، فالقفطى يقول إنه «دخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد حتى برع فى اللسان العربى» أما ابن جاُجل فيقول «وكان الخليل بن أحمدالنحوى ـ رحمه الله ـ بأرض فارس فلزمه حنين حتى برع فى لسان العرب»، فى حين ينقل ابن أبى أصيبعة حديث الشيخ شهاب الدين عبد الحق الصقلى النحوى «أن حنين بن إسحق كان يشتغل فى العربية مع سيبويه وغيره ممن كانوا يشتغلون على الخليل بن أحمدالفراهيدى». غير أنه يستحيل أن يكون حنين قد درس على الخليل بن أحمد المتوفى بين ١٧٠، ١٧٥ هجرية؛ أى قبل أن يولد حنين بحوالى عشرين عامًا.

وكذلك الحال بالنسبة للغة اليونانية فلا يجزم أحد أين تعلمها ومتى ولا نجد سوى بعض الاستنتاجات التى تقول إنه غاب خمس سنوات قضاها فى بلاد الروم حيث تمكن من اللغة اليونانية والثقافة الهيلينستية (يوسف حبى) فى حين يتفق القفطى وابن أبى أصيبعة فى أنه دخل بلاد الروم للحصول على الكتب ولا يوجد تحديد لتاريخ دخوله أوخروجه.

لم يستكمل حنين دراسته فى بغداد لأنه أغضب أستاذه يوحنا بن ماسويه والسبب يرويه القفطى وابن أبى أصيبعة وابن العبرى ومفاده أن حنين كان «صاحب سؤال» وكان يصعب على يوحنا إجابة كل أسئلته. وفى يوم من الأيام أحرجه بسؤال حول كتاب «فرق الطب» فنهره يوحنا بغطرسة وقال له «ما لأهل الحيرة وتعلم الطب عليك ببيع القلوس على الطريق»؛ أى يعمل بائع سريح. ويضيف ابن أبى أصيبعة أن حنينًا كان من أبناء الصيارفة من أهل الحيرة وكان هذا أيضًا يباعد بينه وبين يوحنا الجند يسابورى لأن «أهل جند يسابور ومتطبيبها يختلفون عن أهل الحيرة ويكرهون أن يدخل فى صناعتهم أبناء التجار» فأمره أن يخرج من داره، فترك حنين المجلس وخرج باكيًا. وصمم على التحدى حتى يتفوق على الجميع، وأقسم أن يكون بريئًا من دين النصرانية، أن هو رضى أن يتعلم الطب حتى يحكم اللسان اليونانى إحكامًا لا يكون فى دهره من يحكمه إحكامه».

ولكن إلى أين ذهب طيلة هذه الفترة التى تغيب فيها عن بغداد ؟ يقول نفر من العلماء بأنه ذهب إلى القسطنطينية. أماشتروهماير فيلاحظ، أن حنين غاب عن بغداد لمدة خمسة أوستة أعوام وعاد قبيل وفاة المأمون عام ٨٣٣ بفترة وجيزة، وهذا يعنى بأنه قد غادر بغداد حوالى عام ٨٢٧م. ووفقًا لرأى ابن أبى أصيبعة فإن حنين قد ولد عام ١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م أو ٨١٠ م. وفى رسالته عن ترجمات جالينوس يخبرنا بنفسه بأنه قدم أول ترجمة فى عمر ١٧ عامًا، وهذا يوافق عام ٨٢٧ م الذى قام فيه برحلته الطويلة أوقبيل ذلك ببعض الوقت كما يذكر أنه زار الإسكندرية وسوريا.

أما الشاب الإغريقى الذى التقى به حنين خلال زيارته لبغداد خلسة، فقد كان قد تعلم على خالته الأدب الإغريقى أثناء إقامته فى بغداد وهكذا لم يكن صعبًا على شاب عربى اكتساب ثقة هؤلاء الناس والتعلم منهم. ومع ذلك، فلا يمكن استبعاد احتمال

سفره إلى القسطنطينية لإكمال دراسته الإغريقية. ففى القرن الحادى عشر الميلادى يذكر العالم البيزنطى ميخائيل بسيلوس مفتخرًا بأن أحد تلاميذه كان قد جاءه من بغداد. ومن المحتمل أن يكون هذا قبل مائتى عام. وفى الوقت الذى غادر فيه حنين بغداد كان هناك عالمان ألمعيان يغريان التلاميذ بشد الرحال إلى القسطنطينية، هما يوحنا النحوى وابن أخيه ليون الفيلسوف الذى حاول المأمون إغراءه بالانخراط بين علماء قصره. وفى الوقت ذاته كانت هناك حركة واسعة للبحث عن المخطوطات وجمعها فى القسطنطينية إذ لا يوجد أى مركز آخر فى عموم الإمبراطورية البيزنطية للدراسات العلمية.

هناك مصادفات أخرى ليست عارضة. تلك هى أن يوحنا وليون كانا آخر شخصيتين قياديتين من شيعة تحريم الأيقونات قبل الانتصار النهائى لعبادة الصور عام ٨٤٣م. وقد كان حنين من حملة الرأى القائل بأن صور المسيح ومريم ليست مقدسة إنما هى مجرد صور غير جديرة بالتكريم وقد يكون هذا الموقف هوالذى أدى إلى محنته المعروفة أيام المتوكل.

هذه وجهة نظر بروفسور شتروهمايروهى مجرد استنتاج مبنى على بعض القرائن الموجودة فى بعض الكتب التى قرأها هذا أوذاك لأن كل واحد من الباحثين كان مهتما بجانب معين وكان تركيزه على الكتب التى تتناول موضوعه، فليس فيهم من قرأ كل كتبه ومخطوطاته من أجل تحديد مراحل حياته تاريخيًا بصورة وافية.

وأعتقد أنه يمكن استكمال هذه السيرة بدقة أكثر إذا أمكننا الاطلاع على جميع الكتابات الباقية لحنين بن إسحق، وهذا ما أسعى إليه من الآن بعد أن حصلت على عدد كبير من مؤلفاته وعرفت أماكن بعض المخطوطات الأخرى. ذلك أن حنين اعتاد أن يتكلم فى داخل مؤلفاته أوترجماته عن بعض المصادفات التى تواجهه وعن بعض الأشخاص وأحيانًا يذكر التواريخ. وأعتقد أن متابعة هذه الإشارات بدقة وبانتظام يمكن أن يوصلنا إلى شواهد أكثر إقناعًا فيما يخص حقائق حياته الشخصية. وهى مسألة ضرورية لفهم أسرار هذه العبقرية بل وفهم روح العصر كله الذى ازدهرت فيه هذه الحضارة العربية الزاخرة.

ويشهد المؤرخون ببراعة حنين فى اللغة اليونانية فيقول ابن جلجل «إن حنين غدا بارعًا بلسان العرب، فصيحًا جدًا باللسان اليونانى، بارعًا فى اللسانين بلاغة بلغ بها

تمييز علل اللسانين». إذ كان يعرف لغة اليونانيين معرفة تامة [٨] حتى أنه وضع كتابًا فى أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين ويؤكد البيهقى أنه «لم يوجد فى هذه الأزمنه بعد الإسكندر (الأفروديس) أعلم منه (أى من حنين) باللغة العربية واليونانية».

عاد حنين إلى بغداد حوالى ٢١١ هـ / ٨٢٦ م وقد اكتسب ثقافة رفيعة يستطيع أن يناقش بها أعظم المتعلمين فى العاصمة العباسية فهويمتلك زمام أربع لغات: العربية والسريانية واليونانية والفارسية: وهوضليع بصناعة الطب مع الإلمام بالعلوم الأخرى الشائعة يومذاك، وهومتمكن من أسلوب نقدى صحيح فى الترجمة وخبير بخفايا الثقافة الهيلينستية، وقد كانت هى المشعل المنير لدروب المعرفة بشتى فروعها.

فلا عجب أن أخذ نجم حنين يتلألأ فى الأوساط الثقافية ببغداد رغم صغر سنه إذ يروى القفطى على لسان يوسف بن إبراهيم أنه كان يومًا عند إسحق بن الحسينى فرأى شخصًا قد جلله الشعر حتى ستر بعض وجهه يتمشى وهو ينشد شعرًا من أشعار هوميروس، فسأله عنه وعرف أنه حنين غير أن حنين طلب منه أن يستر أمره، ثم مرت ثلاث سنوات على هذه الحادثة المذكورة، فكان يوسف عند جبرائيل بن بختيشوع الطبيب المتوفى (٢١٤هـ / ٨٢٩ م) فوجد أن حنين قد ترجم أقسامًا من كتاب التشريح لجالينوس وجبرائيل يمتدحه على ذلك ويبجله. فطلب حنين من يوسف أن يضع بين يدى يوحنا بن ماسويه معلمه السابق ترجمة له هى الفصول المسماة بالجوامع (الفاعلات) دون أن يخبره لمن الترجمة. ووفى يوسف بالوعد، فلما تصفح يوحنا الكتاب تعجب كثيرًا من دقة الترجمة، وفصاحتها وسأل هل أوحى المسيح لأحد من أبناء دهرنا فأجابه يوسف بنهم لحنين بن إسحق، فسأله أن يصلح ما بينهما فتم ذلك [١٢].

ونظرًا للمنزلة التى يتمتع بها جبرائيل بن بختيشوع لدى الخليفة، فقد نال حنين الحظوة لديه لملازمته لجبرائيل ولم تؤثر وفاة جبرائيل على شهرة حنين التى أخذت ترتفع سريعًا بفضل ثقافته وإنتاجه العلمى الرائع واحتضنه يوحنا بن ماسويه فنقل له حنين كتبًا عديدة لجالينوس وغيره من الحكماء.

وقد قيل: إن «يوحنا بن ماسويه» كان ممن نفذ إلى بلاد الروم وأحضر «المأمون» أيضًا «حنين بن إسحق» وكان فتى السن، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين

إلى العربية، وإصلاح ما ينقله غيره، فامتثل أمره. ومما حكى عنه: أن «المأمون» كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلا بمثل.

حياته العائلية

فإذا انتقلنا إلى حياته الخاصة فإننا لا نجد ذكرًا لزوجته فى حين يؤكد القفطى وابن أبى أصيبعة أن لـه ولدين من «داود» و«إسحق»، واشتهر الأخير وتميز فى الطب وفى الترجمة حيث اهتم بنقل كتب الفلسفة والحكم، أما داود فلم يشتهر كطبيب وليس له سوى كناش واحد.

المترجم والفقيه اللغوى

إن من أعظم سمات الحياة الفكرية للعصر العباسى هى الاحتفاء بالفلسفة والعلم الإغريقيين. وفيما كان التأثير الفارسى والهندى فى القرن الثامن الميلادى هوالراجح فى تلك الحياة، نجد أن بيت الحكمة الذى أسسه المأمون قد لعب دورًا فى هيمنة فكر أرسطووابقراط وجالينوس وبطليموس على النفوس المستنيرة فى بغداد وأرجاء العالم الإسلامى. ففى القرن التاسع الميلادى برزت ثلاث شخصيات عظيمة هى ثابت بن قرة أحد صابئة حران والكندى الفيلسوف المسلم العربى العريق وحنين بن إسحق المسيحى النسطورى.

ومن رأى الأستاذ كوركيس أنه «لم يقم بين المترجمين فى العصر العباسى، من فاق حنين بن إسحق فى وفرة التصنيف، من تأليف ونقل ومراجعة وتصحيح،ولا من جاراه فى حسن الأسلوب ودقة الترجمة» (مكتبة حنين بن إسحق).

وقد برز حنين بن إسحق كأقوى شخصية فى هذا العصر، إذ تفوق فى ميدانى الترجمة والتأليف وحقق أمجادًا عظيمة فى علوم الطب والفلسفة واللغة. «ويؤخذ من قائمة وضعها حنين وأتمها أحد تلاميذه أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتابًا وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين. هذا إلى جانب أنه راجع ترجمة تلاميذه فأصلح ستة كتب مما نقل إلى السريانية ونحوا من سبعين كتابًا إلى العربية،

كما راجع وأصلح معظم الخمسين كتابًا التى كان قد ترجمها إلى السريانية سرجيس الرأسعينى وأيوب الرهاوى وغيرهما من الأطباء المتقدمين».

وفى رأى الأب جورج قنواتى أن، «حنين بن إسحق كان حريصًا على تأدية المعنى بدقة، فاهمًا تمامًا لمقتضيات النشر العلمى ووجوب الرجوع إلى أحسن المخطوطات. وبجانب ترجمته لكتب جالينوس، نقل حنين عددًا من كتب ابقراط».

لم ينحصر جهد حنين فى ميدان الترجمة بل تعداه إلى ميادين أخرى. فكان طبيبًا ماهرًا متقدمًا عند الخلفاء تميز فى معالجة أمراض العين، وألف فى هذا التخصص أهم كتبه الطبية. وقد شملت مؤلفاته الطب والفلسفة واللغة. وقد أورد ابن أبى أصيبعة أكمل قائمة لمؤلفاته وهى تضم مائة وأحد عشر كتابًا.

لكن عنايته الفائقة بطب جالينوس وبكتبه كان مثار اهتمام كبير، إذ أصبح جالينوس، بفضل هذه العناية أشهر الأطباء الإغريق فى تراث العربية. لقد انغمس بشدة فى دراسة طب جالينوس وفى ترجمته حتى ألف أسلوبه وأصبح إذا قرأ نصا استطاع أن يحكم هل هومن وضع جالينوس أومدسوس عليه» (إبراهيم مدكور)

وفى هذا يقول ابن جلجل: «وحنين بن إسحق هوالذى أوضح معانى كتب ابقراط وجالينوس، ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استطاع منها، وأوضح مشكلاتها (طبقات الأطباء والحكماء ص ٦٩). أما ابن أبى اصيبعة فيعبر عن رأيه فى ترجمات حنين لمصنفات جالينوس بعد أن قارن بينها وبين ترجمات الآخرين لنفس المصنفات» فلما طالعتها وتأملت ألفاظها تبين لى بين نقلها ونقل الست عشرة التى هى نقل حنين تباين كثير وتفاوت بين..... «فأين الألكن من البليغ وأين الثرى من الثريا» (عيون الأنباء جـ ٢، ص ١٤٩).

التزم حنين الأمانة فى نقله لكتب الثقافة اليونانية كما كان أمينًا فى ممارسته للطب والتمسك بأخلاقيات الطبيب. فحرص على الدقة فى ترجمة النص اليونانى، وحرص على وضوح المعنى بدرجة لم يصل إليها أحد من أقرانه فكان يحقق ويدقق فى قراءة النص وفى قراءة الترجمة ثم يصحح ويراجع ولا يأنف أن يعيد ترجماته القديمة إذ وجد فيها نقصًا. ورغم انتسابه إلى الثقافة السريانية فقد عشق العربية وأتقنها وكتب بها شعرًا.

وقد تناول بروفسور شتروهماير ترجمات حنين بالفحص والدراسة ورأى أن المؤرخين حينما اهتموا بحنين باعتباره طبيبًا ومترجمًا، لم يهتموا به كلغوى بارع فى فقه اللغة حتى عام ١٩٢٥ عندما نشر كوتهليف بيركسترابر سر «رسالة حنين بن إسحق إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وما لم يترجم». ومنها تتضح لنا القواعد التى كان يسير بمقتضاها، فهولم يكن يسلم ترجمة سريانية أوعربية لنص ما لم يتمكن من جمع عدة نسخ لذلك النص، فيقرؤها ليس قراءة عامة إنما يقرؤها كلمة كلمة ويطابقها وهذا العمل كان يضطره للقيام برحلات عد يدة بحثًا عن تلك المخطوطات لمقارنتها، فوصل لحلب وفلسطين ثم الإسكندرية. والغرض من ذلك ليس قراءتها وإنما لغرض اقتنائها ومطابقتها مع نصوص المخطوطات الأخرى لديه.

وفى شبابه لم يكن قادرًا على ذلك، لأنه كان يترجم النسخة المخطوطة الوحيدة التى لديه لذا اضطر فى أواخر حياته إلى مراجعة تراجمه على ما وقع عليه من مخطوطات أخرى. ثم يورد شتروهمايرملاحظاته حول ترجمته لكتاب جالينوس (حول الفرق الطبية) الذى قرأه أمام (يوحنا بن ماسويه) فى الوقت الذى بعد فيه عن مدرسته: «إنى ترجمت وأنا حدث من أبناء عشرين سنة أوأكثر قليلا لمتطبب من أهل جنديسابور يقال له (شير يشوع بن قطرب) من نسخة يونانية كثيرة الإسقاط، ثم سألنى بعد ذلك وأنا من أبناء أربعين سنة أونحوها، حبيش تلميذى إصلاحه بعد أن كانت قد اجتمعت له عندى عدة نسخ يونانية، فقابلت تلك النسخ بعضها ببعض حتى صحت منها نسخة واحدة ثم قابلت بتلك النسخة السريانية وصححتها، وكذلك من عادتى أن أفعل فى جميع ما أترجمه».

وحينما كان حنين يجد قراءات مختلفة فى المخطوطات المتباينة، كان عليه أن يقرر أيها هى النسخة أقرب إلى الأصل. وهذا مثيل ما يقوم به المحقق فى الوقت الحاضر لنص قديم وذلك بإخضاع النص المختلف القراءات إلى نظام نقدى أصبح الآن سهلا بعد اختراع الطباعة. وعلى كل حال فإن حنين كان يضطر إلى إضافة الشروح على تراجمه أوفى حواشيها بغية إفهام القارئ اختلاف المخطوطات اليونانية والإفصاح عن الشكوك التى تساوره فى أحد تلك الأجزاء من النص. ثم يمثل لذلك بكتاب جالينوس «العلاج

بالتشريح» والذى ترجمه إلى السريانية أيوب الرهاوى وصحح حنين فيها بعد ترجمته العربية التى قام بها حبيش.

وقد ترجم حنين إلى السريانية لبختيشوع وهوفى السابعة عشرة من عمره كتاب جالينوس (أصناف الحميات) ثم كتابه فى (القوى الطبيعية). لكن حنينا نفسه لم يرض عن ترجمة هذين الكتابين ولا عن ترجمة كتب أخرى أنجزها فى صباه فصححها جميعًا بل ترجم بعضها من جديد فيها بعد. لكن جبرائيل اغتبط بذكاء وكفاية فتاه اللغوى. وامتدحه عند الخليفة الذى عينه عميدًا (لبيت الحكمة) الذى أنشئ سنة ٢١٥ هـ. واختزنت فيه جميع المخطوطات اليونانية التى جمعها المأمون من أماكن كثيرة فى إمبراطوريته الشاسعة، ومن آسيا الصغرى التى كانت لا تزال ترفرف عليها راية الدولة البيزنطية ومن الأستانة، واستخدم فيها رهطًا من شباب المترجمين لنقل الكتب اليونانية إلى السريانية أولا ثم إلى العربية ثانيًا.

وفى أثناء ذلك توفى جبرائيل وأصبح ابنه بختيشوع (المتوفى عام ٢٥٧ هـ) صديق حنين ووليه الذى يحبوه برعايته. ولقى حنين فوق ذلك من يوحنا بن ماسويه أستاذه السابق وسلمويه بن بنان منافسه العلمى (المتوفى عام ٢٢٥ هـ) خير عطف وعناية. وقد ذكر حنين نفسه كيف شارك الأخير فى بعض غزوات المأمون ضد الدولة البيزنطية. ولما مات المأمون عقب ذلك بقليل عين ماسويه رئيسًا لأطباء المعتصم بالله (٢١٨- ٢٢٧ هـ) الذى خلف المأمون وأصاب عنده مكانة. ومما لا ريب فيه أن حنينًا ظفر منه بصديق قوى استظل بحمايته، وترجـــم لـه خلاصة ثلاثة عشر كتابًا من أهم كتب جالينوس وأصاب مثل هذه الحظوة عند الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٤٢ هـ) الذى كان يعظم العلماء ويتعشق محادثتهم. وكان حنين خلال ذلك قد ترجم قدرًا هائلا من كتب جالينوس وغيرها من الكتب الطبية والفلسفية عن اليونانية. ولقد قام حنين برحلات طويلة جاب فيها أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر (الإسكندرية) سعيًا وراء الحصول على المخطوطات العلمية اليونانية. إلا أننا لا نعرف بالضبط فى أى وقت قام بهذه الرحلات.

رعاة الترجمة

وكان الخليفة وكبار رجال البلاط يدفعون نفقات هذه الرحلات وأثمان الكتب النادرة، وغنى عن البيان أن كبار رجال البلاط كانوا هم أنفسهم من جلة العلماء المبرزين فى حلبة المعرفة أمثال بنى موسى بن شاكر منجم المأمون. وكانوا ثلاثة نخص منهم بالذكر محمد وأحمد اللذين كانا من مشاهير الرياضيين. واللذين قدما بالإضافة إلى حنين بن إسحق ثابت بن قرة الحرانى الطبيب الصابئ والفلكى العظيم إلى الخليفة. وقد قال ابن أبى أصيبعة أن بنى موسى بن شاكر كانوا ينفقون خمسمائة دينار تقريبًا فى كل شهر على أعمال الترجمة. ويرى حنين نفسه أن ترجمته تحسنت كثيرًا بعد أن بلغ سن الثلاثين. ومن المحتمل أن حبيشًا ابن أخت حنين اشترك فى أعمال الترجمة بعد ذلك بقليل مع خاله الذى أصبح بفضل حدبه عليه أحد مشاهير المترجمين.

بداية المحن

وفى أيام الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ) بلغ حنين قمة مجده كمترجم وطبيب. لكنه خلال نفس هذا الوقت نكب بمحن جرّها سوء ظن المتوكل به وحسد زملائه النصارى له. وأول هذه المحن ما رواه ابن أبى أصيبعة من أن المتوكل لما قوى أمر حنين وانتشر ذكره بين الأطباء أمر بإحضاره. فلما حضر أقطع إقطاعات حسنة، وكان الخليفة يسمع بعلمه ولا يأخذ بأى دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره، وأحب امتحانه حتى يزول ما فى نفسه عليه، ظنا منه أن ملك الروم ربما كان عمل شيئًا من الحيلة به، فاستدعاه يومًا وأمر بأن يخلع عليه وأحضر توقيعًا فيه إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم. فشكر حنين هذا الفعل. ثم قال الخليفة بعد أشياء جرت: «أريد أن تصف لى دواء يقتل عدوًا نريد قتله سرًا». فقال حنين: «يا أمير المؤمنين إنى لم أتعلم إلا الأدوية النافعة. وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها. فإن أحب أن أمضى وأتعلم فعلت ذلك». فقال الخليفة: «هذا شىء يطول». ورغبه وهدده فلم يزد حنين عما قاله. فأمر بحبسه فى بعض القلاع ووكل به من يوصل إليه خبره وقتًا بوقت ويومًا بيوم. فمكث سنة فى حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف غير مكترث بما هو فيه: فلما كان

بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره وإحضار أموال يرغبه فيها. وأحضر سيفًا ونطعًا وسائر آلات العقوبات. فلما حضر قال له الخليفة: «هذا شيء قد كان. ولا بد مما قلته لك. فإن أنت فعلت فزت بهذا المال وكان لك عندى أضعافه. وإن امتنعت قابلتك بشر مقابلة وقتلتك شر قتلة».

فقال حنين: «قد قلت لأمير المؤمنين انى لم أحسن إلا الشيء النافع ولم أتعلم غيره». فقال الخليفة: «فإننى أقتلك» فقال حنين: «لى رب يأخذ بحقى غدًا فى الموقف الأعظم فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل». فتبسم الخليفة وقال له: «يا حنين طب نفسًا وثق بنا فهذا الفعل كان منا لإمتحانك، لأنا حذرنا من كيد الملوك وإعجابنا بك. فأردنا الطمأنينة إليك والثقة بك لننتفع بعلمك» فقبل حنين الأرض وشكر له. فقال الخليفة: «يا حنين ما الذى منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا فى الحالتين». فقال حنين: «شيئان يا أمير المؤمنين» فقال المتوكل: «وما هما». قال: «الدين والصناعة» فقال الخليفة وكيف ؟ ! قال حنين: «الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقاؤنا، ويبعد ويحرم من لم يكن كذلك والصناعة تمنعنا من الإضرار ببنى الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم».

ومع هذا فقد جعل الله فى رقاب الأطباء عهدًا مؤكدًا بإيمان مغلظة: ألا يعطوا دواء قتالا ولا ما يؤذى. فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين ووطنت نفسى على القتل. فإن الله ما كان يضيع من بذل نفسه فى طاعته. وكان يثيبنى. فقال الخليفة: «إنهما شريعتان جليلتان». وأمر بالخلع فخلعت عليه. وحمل المال بين يديه. وخرج من عنده وهوأحسن الناس حالا وجاهًا.

كانت هذه التجربة امتحانًا قاسيًا وسوف تعقبها محنة أشد فكلما ارتقى حنين فى فكره وعلمه زاد حساده والحاقدين عليه. فما أسهل اللعب بعقول الحكام المستبدين.

فبعد مضى سنوات قليلة ابتلى حنين بمحنة أخرى إذ كان بختيشوع بن جبرائيل – وفى رواية أخرى إسرائيل بن زكريا الطيفورى الطبيب النسطورى قد قلب لحنين

ظهر المجن وأصبح يعاديه ويحسده على علمه وفضله، فحاك له مكيدة عرضته لغضب الخليفة فأمر بسجنه وتعذيبه وتبديد مكتبته وبيته وكل ماكان يمتلكه وقد سجل حنين تفاصيل هذه المحنة بقلمه ونقلها إلينا ابن أبى أصيبعة فى كتابه الحافل:

(«عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» تحقيق الدكتورعامر النجار القاهرة ٢٠٠٠- الهيئة المصرية العامة للكتاب)

ـ نشر هذا البحث فى مجلة «نزوى» إبريل ٢٠٠٤، وهى فصلية ثقافية تصدر فى عمان.

٢- الأسعد بن مماتى

كاتب وشاعر ورجل دولة. عاش فى عهد الأيوبيين. ألف أكثر من عشرين كتابًا، ولكن القراء لا يعرفون له سوى كتابين «الفاشوش فى أحكام قراقوش»، و«قوانين الدواوين».

«والفاشوش فى أحكام قراقوش» ينتمى إلى أدب الفكاهة والسخرية والهجاء ويمثل بحق أسلوبًا فنيًا بارعًا فى تصوير الغرابة والشذوذ وإحداث المفارقة. وهذا الكتاب الذى أضحك أجيالًا ومازال يضحكنا، كتبه صاحبه باللغة العامية المصرية، ووصل به إلى أعرض الجماهير حتى صار قراقوش فى المخيلة الجماعية للشعب مثالًا لكل حاكم أخرق ينحرف عن طريق العقل والمنطق فى سلوكه وتصرفاته.

أما الكتاب الآخر «قوانين الدواوين» فهوكتاب علمى صرف يتحدث فيه ابن مماتى عن مصر بصفة عامة ونهر النيل ومساحة الأرض وتحقيق أسماء ضياعها وكفورها وخلجانها، بالإضافة إلى تناوله الأراضى المختلفة، والفصول الزراعية، وأنظمة الرى، وأنواع المزروعات وأوقات غرسها وحصادها وغير ذلك من الأمور المهمة.

كذلك يتصدى الكاتب إلى كثير من المسائل الخاصة بأنظمة الحكم فى عصر بنى أيوب. مثال ذلك «الباب الثامن» الذى استعرض فيه المؤلف وظائف الدولة وشرح

اختصاص كل منها، كما أنه أتى فى الأجزاء الأخيرة من الكتاب على شذرات كثيرة طريفة عن بعض الدواوين ودور الحكومة وموارد الدولة.

وأنا أنقل هذه المعلومات الآن من مقدمة الكتاب الذى حققه العلامة الكبير الراحل عزيز سوريال الذى يعلق على هذا بقوله:

«وقيمة الكتاب ليست مقصورة على سعة إطلاع المؤلف وغزارة علمه وحدة ذهنه، وإنما ترجع كذلك إلى مكانته الخاصة فى المجتمع المصرى ومركزه السامى فى حكومة البلاد، فابن مماتى - كما سيظهر من تاريخ حياته فيما بعد - تقلب فى كثير من دواوين الحكومة، وانتهى به الأمر إلى تقلد الوزارة نفسها، وبذلك أصبح كل ما يكتبه ذا صبغة تجعله وثيقة رسمية صدرت عن قلم أحد وزراء الدولة المسئولين.

كذلك يخبرنا الدكتور عزيز سوريال أن ابن مماتى اعتذر عن تقديم بعض المعلومات لأنه اعتبرها من أسرار الأمن القومى أومن أسرار الدولة التى لا يجوز إذاعتها - هذه الشخصية التى تجمع بين الخيال الأدبى الساخر والدقة العلمية المفرطة إلى جانب الحس الوطنى اليقظ كيف نراها؟

لقد تساءل المستشرق الفرنسى الكبير كازانوفا، الذى حقق كتاب الفاشوش، وعلق عليه قائلًا:

«فكيف نوفق بين صورة هذا المؤلف الذى يخوض فى كتابات الفكاهة ويكتب فيها كتابًا بالعامية، ثم يكتب كتابًا آخر بالفصحى عن الأرض ومساحة المدن ويعزف عن إباحة أسرار الدولة، فيرتفع إحساسه بالمسئولية إلى هذا الحد من التعقل؟».

إن الصورتين تتكاملان لوعلمنا أن ابن مماتى كان غاضبًا حانقًا بلا شك على القائد قراقوش الذى يقربه صلاح الدين إليه. وهوحانق من وجهة نظر مذهبية كما يذهب كازانوفا، وهوحانق كذلك لأن أمور مصر ساءت على الرغم من الإنجازات التى حققها صلاح الدين فى الخارج من صفحات وضاءة فى الفتوحات وصد الصليبيين، ولكن هذه الصفحات كانت مصابة ببقع الحكم الاستبدادى فى الداخل وإطلاق الشهوة «القراقوشية».

ولعل هذا الوضع يبرر من الحكام باسم المصلحة العامة (باستخدام أسلوب العصر) ولكنه لا يبرر من زاوية المحكومين دائمًا. كما أننا نتصور أن حنق هذا الاقتصادى أوهذا المالى ابن مماتى على قراقوش هوحنق له ما يبرره لأن الاقتصادى ينظر للأمور نظرة مخالفة لنظرة القائد العسكرى، مما يثير الفرقة فى النظر دون شك.

ويتأكد التكامل فى شخصية المؤلف بصورة أوضح حين نقرأ تقديمه لكتاب «الفاشوش فى أحكام قراقوش» بقوله:

«إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم. الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتط اشتياط الشيطان، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين.

فغرضه من هذا الكتاب هوتحرير الشعب المصرى وتخليصه من تسلط قراقوش وقهره له.. لأنه سخر الشعب المصرى لبناء أمجاد صلاح الدين وتأكيد سلطانه، دون مراعاة لحقوق الفقراء ومشاعرهم، فإذا تفكرنا أيضًا أن كتاب «قوانين الدواوين» قدم لصلاح الدين أوأحد أبنائه من أجل تحرى الواقعية والعدل فى تقدير الجزية والضرائب على أفراد الشعب بجميع فئاته.. فإننا نكتشف البعد الآخر أوالدافع الرئيسى لابن مماتى، وهومصلحة مصر والشعب المصرى عمومًا. فإذا عرفنا أن صلاح الدين كان كرديًا وأن قراقوش قائد جيشه كان من الصقالبة من مماليك القوقاز فى حين كان ابن مماتى مصريًا أبًا عن جد.. لمحنا أثر الصراع بين المصريين والحكام الأجانب.. ولعل هذا ما جعل كازنزفا يقول:

«إن ابن مماتى كان يسعى إلى هز الثقة بقراقوش، وهوقائد صلاح الدين الأيوبى ومن أقرب المقربين إليه، لأنه كان يعهد إليه بأمانة الأشراف على مصر نيابة عنه حين يضطر إلى السفر إلى سوريا للقاء الصليبيين». فصلاح الدين لا ينيب عنه مصريًا مهمًا كان قدره أبدًا، وقد كان ابن مماتى مثلًا رئيسًا لديوان الجيش وديوان المال فى ذلك الوقت، وهوأهم الدواوين فهذا يجعلنا نقبل ما يذهب إليه كازنوفا حين يقول:

«إن ابن مماتى أراد فى الحقيقة أن يسخط الشعب على الدولة الأيوبية الجديدة التى ورثت الحكم الفاطمى وخاصة أن الأيوبيين كانوا من السنة والفاطميين من الشيعة. ولذلك يمكن الظن بأن كتاب الفاشوش هودرب من دروب الدعاية السياسية، وحرب الدعاية بين المذاهب مثلما نشأت فى أيامنا هذه».

إذن فنحن بإزاء كاتب عملاق ومعاصر أيضًا وهو رائد فى أدب الفكاهة والسخرية ورائد فى دراسة نظم الحكم ومناضل وطنى شريف وضع نفسه فى مهب الأعاصير من أجل أهله ووطنه. وكان من نتيجة ذلك أن انتهت حياته نهاية مأسوية بفعل الاضطهاد والمطاردة التى دفعته إلى الهروب إلى ما وراء الحدود؛ حيث قضى بقية أيامه بمدينة حلب حتى مات بعد عامين فى ٦٠٦ هـ (١٢٠٩م) وعمره اثنتان وستون عامًا.

هذا الكاتب العملاق لا نعرف له حقًا سوى كتابين.. رغم ما يذكره ياقوت من أسماء مؤلفاته التى تربوعلى العشرين. وهو شىء مؤسف أن يضيع تراث هذا الرجل بفعل الزمان أونتيجة الإهمال، وقد حفزنى هذا الاهتمام بكتاباته والبحث عنها وتحقيقها حتى تكتمل صورتنا عنه بل وعن عصره ورجاله، ذلك العصر الذى يبدوواضحًا تمامًا فى أذهان بعض الناس بينما هوغامض أشد الغموض عند من يتعمقون النظر فى قراءة التاريخ.

وقد قطعت ـ والحمد لله ـ شوطًا أساسيًا فى التعرف على مصادر هذا الكاتب وترجماته، واستطعت أن أحدد أماكن بعض مخطوطاته، وحصلت على اثنين منها هما:

«لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة» الذى لخص فيه كتاب ابن بسام المسمى «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» وقمت بتحقيق هذا المخطوط - أما المخطوط الثانى فهو«متبلج الأنوار ومتأرج النوار» مما جمعه ابن مماتى من رسائل القاضى الفاضل. وقمت بقراءته ونسخه وتصحيحه وتحقيقه أيضًا - وأمامى شوط طويل للحصول على بقية المخطوطات الأخرى.. وخصوصًا أن له ديوان شعر قال ابن خلكان إنه اطلع عليه بخط ولده، كما أنه ألف «سيرة صلاح الدين شعرًا ونظم كتاب «كليلة ودمنة» كما أن كتاب «قرقرة الدجاج فى لغة ابن الحجاج» يدل من عنوانه أنه فى أدب السخرية، وربما

كان مثل كتاب الفاشوش، خصوصًا وأن الحجاج كان أحد كبار الموظفين فى دولة بنى أيوب.

والبحث عن هذه الآثار ودراستها يعد مرحلة ضرورية فى دراسة أدبنا وفهم تاريخنا الأدبى فى عصر الدولة الأيوبية بل وفى العصور الوسطى عمومًا.

وقد كانت نقطة البداية بالنسبة لى هى هذان الكتابان المطبوعان فقرأتهما قراءة متأنية، انتقلت بعدها إلى المراجع المذكورة فى هذه الكتب وغيرها وجمعت كل ما وقع تحت يدى منها بالعربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية. ولاحظت أن ما كتبه المستشرقون بلغاتهم يتجه إلى دراسة الكتب والمخطوطات. فى حين يختص أصحاب الموسوعات القديمة من أمثال: ياقوت الرومى وابن خلكان والمقيزى والأصبهانى والعينى وغيرهم حتى الأب لويس شيخواليسوعى بترجمة حياة ابن مماتى. وياقوت هو عمدة هذه المصادر بغير شك، يأتى بعده فى الأهمية ثلاثة هم ابن خلكان والمقريزى والأصبهانى. ولا تهتم كتب التاريخ العربى والإسلامى الأخرى بهذا الكاتب فتكتفى بذكره فى بضعة سطور، وكلها تعتمد على ما قاله ياقوت وابن خلكان والأصبهانى ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا الأب لويس شيخوالذى خصص فصلًا مهمًا للحديث عن ابن مماتى وشعره فى كتابه «شعراء النصرانية بعد الإسلام» بالإضافة إلى صفحتين كتبهما الدكتور عزيز سوريال عطيه عن ابن مماتى فى دائرة المعارف الإسلامية ثم أعاد نشرهما فى دائرة المعارف القبطية التى نشرتها جامعة يوتا الأمريكية.

والآن لم يبق أمامنا قبل الحديث عن مخطوط «لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة» إلا أن نستعرض أهم هذه الترجمات ولنبدأ من البداية:

يقول ياقوت المتوفى سنة ١٢٢٩م تحت عنوان «أسعد بن المهذب بن أبى مليح مماتى» ما نصه:

«أحد الرؤساء الأعيان الجلّة، والكتّاب الكبراء المنزلة، ومن تصرف فى الأعمال، وولى رياسة الديوان، وله أدب بارع، وخاطر وقاد مسارع، وقد صنّف فى الأدب وعرف، ومات بمدينة حلب فى ثامن عشرى جمادى الأول سنة ٦٠٦ هجرية،على ما نذكره إن

شاء الله تعالى. وأصله من نصارى أسيوط بُليدة بصعيد مصر، قدموا مصر وخدموا وتقدموا وولوا الولايات. وهو مع ذلك من أهل بيت فى الكتابة عريق، وهوكالمستولى على الديار المصرية ليس على يده يد، والمسمون بالخلافة محجوبون ليس لهم غير السكة والخطبة، وكان إلى مماتى كثير من أعماله..إلخ.

.. وكان مماتى مع ذلك كريمًا قد مدحه الشعراء، فذكر أبوالصلت فى كتاب الرسالة المصرية له أن أبا طاهر إسماعيل بن محمد النشاع المعروف بابن مكنسة كان منقطعًا إليه، فلما مات مماتى رثاه ابن مكنسة بقصيدة منها:

ماذا أرجى من حياتى — بعد موت أبى المليح
ما كان بالنكس الدنى — من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعدما — غدروا به دون المسيح

كذا قال، ولعلهم اغتالوه أوقتلوه. ولما ولى الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى بعد أبيه دخل ابن مكنسة مادحًا، فقال له: ذهب رجاؤك بموت أبى المليح، فما الذى جاء بك إلينا؟ وحرمه ولم يقبل مديحه وأما المهذب والده، وكان يلقب بالخطير، فإنه كان كاتب ديوان الجيش بمصر فى أواخر أيام الفاطميين، وأوائل بنى أيوب مدة، فقصده الكتاب وجعلوا له حديثًا عند السلطان، فهم به صلاح الدين يوسف بن أيوب، أوأسد الدين شيركوه، وهويومئذ المستولى على الديار المصرية، فخاف المهذب فجمع أولاده، ودخل على السلطان وأسلموا على يده، فقبلهم وأحسن إليهم وزاد فى ولاياتهم وجب الإسلام ما قبله، ووجدت على ظهر كتاب من تصانيف ابن مماتى مكتوبًا: كان المهذب أبوه المعروف بالخطير مرتبًا على ديوان الإقطاعات وهوعلى دين النصرانية، فلما علم أسد الدين شيركوه فى بدء أمره بمصر لأنه نصرانى وأنه يتصرف فى (عمله!) بلا غيار نهاره، وأمر بغيار النصارى ورفع الذوابة وشد الزنار وصرفه عن الديوان، فبادر هووأولاده فأسلموا على يده، فأقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه، فقال فيه ابن الذروى:

لم يسلم الشيخ الخطير — لرغبة فى دين أحمد
بل ظن أن محالَهُ — يُبقى له الديوانَ سرمد
والآن قد صرفوه عنه — فدينه فالعود أحمد..!

قال ووجدت بخط ابن مماتى:

صح التمثل فى قديم الدهر أنَّ العود أحمدْ

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغيار، وأن يعمموا بغير عذبة،

قال عمارة اليمنى:

يا أسد لدين، ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غيارًا شد أوساطنا فما الذى يوجب كشف القفا؟

وجرى معه حديث النحويين وأن أحدهم ينفد عمره فيه ولا يتجاوزه إلى شىء من الأدب الذى - يراد النحو لأجله - من البلاغة وقول الشعر ومعرفة الأخبار والآثار وتصحيح اللغة وضبط الأحاديث، فقال الأسعد: هؤلاء مثلهم مثل الذى يعمل الموازين وليس عنده ما يزن فيه فيأخذها غيرهم (غيره!)، فيزن الدر النفيس والجوهر الفاخر والدنانير الحمر والجواهر البيض، وهذا عندى من حسن التمثيل.

وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأديب، وفى معرض وقائع تجرى ويعرضها على الأكابر لم تكن مفيدة إفادة علمية، إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبى وأضرابه، فمن ذلك: كتاب تلقين التفنن فى الفقه، كتاب سر الشعر، كتاب علم النثر، كتاب الشىء بالشىء يذكر وعرضه على القاضى فسماه سلاسل الذهب لأخذ بعضه بشعب بعض، كتاب تهذيب الأفعال لابن ظريف، كتاب قرقرة الدجاج فى ألفاظ ابن الحجاج، كتاب الفاشوش فى أحكام قراقوش، كتاب لطائف الذخيرة لابن بسام، كتاب ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار، كتاب سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب، كتاب أخاير الذخاير، كتاب كرم النجار فى حفظ الجار عمله للملك الظاهر لما قدم عليه، كتاب ترجمان الجمان، كتاب مذاهب المواهب، كتاب باعث الجلد عند حادث الولد، كتاب الحض على الرضا بالحظ، كتاب زواهر السدف وجواهر الصدف، كتاب قرص العتاب، كتاب درة التاج، كتاب ميسور النقد، كتاب المنحل، كتاب أعلام النصر، كتاب خصائص المعرفة فى المعميات. وكان علم الدين ابن الحجاج شريكه فى ديوان الجيش، وكان بينهما ما يكون بين المتماثلين فى العمل، فعمل فيه الكتاب المتقدم ذكره وهجاه بعدة أشعار.

هذه أقدم سيرة نعرفها لابن مماتى، كتبها ياقوت فى الفترة الأولى من القرن الثالث عشر الميلادى، إذ توفى سنة ١٢٢٩م أى أنه كان معاصرًا لابن مماتى المتوفى سنة ١٢٠٩م. ويلاحظ الدكتور عزيز سوريال أن ياقوت لم يعتمد فقط على رواية الرواة من أهل العلم وإنما اطلع أيضًا على شيء مما كتبه ابن مماتى بخطه، ولذلك يجوز لنا أن نعتبرها وبلا تردد وثيقة من أهم الوثائق عن مؤلف كتاب «قوانين الدواوين»، وهى وإن كانت فى ذاتها واضحة لا تحتاج إلى إفاضة أوتفسير، إلا أنه يدهشنا فيها سقوط الكتاب المذكور من بين محتويات القائمة التى جمع فيها ياقوت عددًا كبيرًا من مؤلفات ابن مماتى، كما يلحظ أيضًا أن كاتب هذه السيرة اهتم بالناحية الأدبية من حياة ابن مماتى أكثر من بقية النواحى الأخرى التى أجملها إجمالًا. يتلوذلك فى الترتيب الزمنى ما ذكره ابن خلكان المتوفى ١٢٨٢م فى كتابه المشهور «وفيات الأعيان» حيث يقول:

«القاضى الأسعد أبوالمكارم أسعد بن الخطير أبى سعيد مهذب بن مينا ابن زكريا أبى قدامة بن أبى مليح مماتى المصرى الكاتب الشاعر، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية،وفيه فضائل، وله مصنفات عديدة، ونظم سيرة السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله تعالى ـ ونظم كتاب كليلة ودمنة، وله ديوان شعر رأيته بخط ولده ونقلت عنه مقاطع، فمن ذلك قوله:

تعاتبنى وتنهى عن أمور ... سبيلِ الناس أن ينهوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عينى ... وحقِّك ما علىَّ أضر منها

وكان ابن خلكان هوالوحيد الذى اهتم بنطق الاسم فقال:

«ومينا بكسر الميم وسكون الياء المثناه من تحتها وفتح النون وبعدها ألف، ومماتى بفتح الميمين والثانية منهما مشدَّدة وبعد الألف تاء مثناه من فقها وهى مكسورة وبعدها ياء مثناه من تحتها، وهولقب أبى مليح المذكور، وكان نصرانيًا، وإنما قيل له مماتى لأنه وقع فى مصر غلاء عظيم وكان كثير الصدقة والإطعام وخصوصًا لصغار المسلمين فكانوا إذا رأوه نادى كل واحد منهم مماتى فاشتهر به، هكذا أخبرنى الشيخ الحافظ زكى الدين أبومحمد عبد العظيم المنذرى نفع الله به، ثم أنشدنى عقيب هذا القول مرثية فيه، وقال أظن هذين البيتين لأبى طاهر بن مكنسة المغربى وهما:

طويت سماء المكرمات | وكورت شمس المديح

مــاذا أؤمّل أوارجى | بعد مـوت أبـى المليح

ثم كشفت عنهما فوجدتهما له، وله مدائح أخرى.

قال المقريزى فى خططه:

«وأما ابن مماتى فإنه (أسعد) بن مهذب بن زكريا بن قدامة بن نينا(مينا !) شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح الكاتب المصرى، أصله من نصارى أسيوط من صعيد مصر، واتصل جده أبوالمليح بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير مصر فى أيام الخليفة المستنصر بالله، وكتب فى ديوان مصر، وولى استيفاء الديوان، وكان جوادًا ممدوحًا انقطع إليه أبوالطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكيسة(مكنسه!) الشاعر فمن قوله فيه لما مات:

طويت سماء المكرمات | وكورت شمس المديح

وتناثــرت شهب العـلا | من بعد موت أبى الملـيح

ما كـــان بالنكس الدنىء | من الرجال ولا الشحيح

كفر النصارى بعــدمـا | غـدروا به دون المســيح

ورثاه جماعة من الشعراء، ولما مات ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر فى آخر الدولة الفاطمية، الدواوين حتى ففى ذلك مدة أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأيام ابنه الملك العزيز عثمان، وولى نظر الدواوين أيضًا، واختص بالقاضى الفاضل، حظى عنده، وكان القاضى الفاضل يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه وله مصنفات عديدة».

ثم ذكر المقريزى أسماءها جميعًا وأضاف إليها كتاب «قوانين الدواوين» الذى لم يذكره أحد غيره».

وقد علق الدكتور عزيز سوريال على ما جاء فى كتب المؤرخين بملاحظات عدة نذكر منها:

أولًا: إن مؤلف كتاب «قوانين الدواوين» لم يكن أول شخص عظم شأنه فى دواوين الحكومة من بين أفراد أسرته، إذ نجد أن جده أبا المليح الذى عاش بمصر فى العصر الفاطمى عمل فى خدمة الوزير بدر الجمالى والخليفة المستنصر بالله حتى بلغ فى سلم الترقى إلى وظيفة «مستوفى الديوان» وهى من الوظائف الرئيسية فى الدولة الفاطمية، وبعد موته تولى ابنه واسمه المهذب بن أبى المليح رئاسة ديوان الجيش والدولة الفاطمية تحتضر فى وزارة أسد الدين شيركوه السنى المذهب، وفى عهده أسلم هو وأولاده لكى يفلت من التضييق الذى وقع على النصارى وقتئذ، ويحتفظ بمكانته السامية فى دواوين الحكومة، وأما ابنه وهو حفيد أبى المليح واسمه الأسعد فقد قضى الجزء الأول من حياته فى عصر الانتقال من الفاطميين للأيوبيين، وورث فى بداية الأمر عن أبيه وجده «ديوان الجيش» الذى احتفظ به فى عهد صلاح الدين الأيوبى (٥٦٤ - ٥٨٩هـ/ ١١٦٩ - ١١٩٣م) وفى سلطنة ابنه العزيز عماد الدين عثمان (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ / ١١٩٣ - ١١٩٨م)، ويظهر مما ورد فى رواية ياقوت الرومى أنه أضيف إليه أيضًا «ديوان المال» الذى يعتبر فى كل العصور أهم الدواوين والوزارات، ويلوح أنه ظل محتفظًا بوزارته ودواوينه أيضًا خلال سلطنة المنصور محمد (٥٩٥ - ٥٩٦ هـ/ ١١٩٨ - ١١٩٩م) وشطر من سلطنة العادل سيف الدين أبى بكر (٥٩٦ - ٦١٥ هـ/ ١١٩٩ - ١٢١٨م)، ولكن كثرت عليه المؤامرات فى عهد هذا الأخير وأودت بمركزه وماله، وأدت إلى هروبه فقيرًا ذليلًا إلى ما وراء الحدود المصرية فى الشام؛ حيث قضى بقية أيامه بمدينة حلب ومات بها فى جمادى الأولى عام ٦٠٦ هـ (نوفمبر ١٢٠٩م) وعمره - إذ ذاك - اثنتان وستون عامًا.

ثانيًا: يلاحظ أن الوزارة لم تشغل الأسعد عن الأدب والتأليف، ونظرة واحدة فى أسماء الكتب التى صنفها والتى ذكر أكبر عدد منها ياقوت الرومى تكفى لإيضاح هذه الحقيقة، ولكن الغريب فى ذلك هو أنه لم يتحدث عن «كتاب قوانين الدواوين»، من بين قدماء المؤرخين سوى المقريزى، وربما يرجع ذلك إلى أن المقريزى من بين هؤلاء المؤرخين هو الوحيد الذى اهتم بمثل ما ورد فى ذلك الكتاب من المحتويات، بينما اقتصر الآخرون على الناحية الأدبية البحته من تأليفه، ورواية المقريزى فى هذا الصدد عظيمة الشأن، ويفهم منها أن ابن مماتى ألف الكتاب للملك العزيز، ثم يزيد على ذلك أن

الكتاب المتداول فى أيدينا إنما هونسخة مختصرة من الكتاب الأصلى الذى كان يقع فى أربعة مجلدات ضخمة».

كان الدكتور / عزيز سوريال مهتمًا أساسًا بالناحية العلمية والفكرية لكتاب «قوانين الدواوين» أما نحن فاهتمامنا الأول هو الجوانب الأدبية كما تبدو فى كتبه وأولها «لطائف الذخيرة وطراف الجزيرة.

٣ - محمد شفيق غربال وتاريخ مصر القومى

الدكتور محمد شفيق غربال، مؤسس مدرسة التاريخ الحديث بالجامعة المصرية، التى عمدت إلى تمصير دراسة التاريخ عن طريق التدريس باللغة العربية، وكذلك بتوجيه الاهتمام إلى دراسة تاريخنا الوطنى الحديث.

تخرج محمد شفيق غربال فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٥ وذهب إلى إنجلترا لدراسة التاريخ؛ حيث حصل على ليسانس الآداب من جامعة ليفربول سنة ١٩١٩ وعلى درجة الماجستير فى التاريخ الحديث من جامعة لندن فى سنة ١٩٢٤ عن بحث عنوانه «بداية المسألة المصرية وظهور محمد على»، وقد نشر هذا البحث فى كتاب سنة ١٩٢٨ وكما يقول الدكتور عزت عبد الكريم: «وهو أول عمل علمى أصيل فى تاريخ مصر الحديث لأستاذ مصرى معتمد على وثائق أصلية بلغات مختلفة لم يسبق نشرها».

وقد أشاد المؤرخ الكبير أرنولد توينى فى المقدمة التى كتبها لهذه الرسالة بالصفات التى يتحلى بها شفيق غربال والتى تجعل منه مؤرخًا مرموقًا.

وعند عودته عين أستاذًا للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا وما لبث أن أختير أستاذًا

بكلية الآداب جامعة القاهرة، فأتيحت له الفرصة للتجديد والتطوير لمناهج دراسة التاريخ وتوجيه التلاميذ، ويقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم:

كانت «المدرسة» الرسمية مدرسة المؤرخين الأجانب من فرنسيين وإنجليز قد اتجهوا إلى كتابة تاريخ محمد على وإسماعيل، ورأى شفيق غربال أن يوجه تلاميذ مدرسته إلى البحث فى تاريخ الأمة المصرية والمجتمع المصرى، كتاريخ التعليم والصناعة والطباعة والتجارة والفلاح المصرى إلخ.، ووجههم إلى الاهتمام بجمع المادة التاريخية الأصلية من مصادرها فكانوا الرعيل الأول من طلاب البحث المصريين الذين ارتادوا دور الوثائق فى مصر، ونقبوا فى محتوياتها، وبذلك عاونوا أكبر معاونة فى تنظيمها وتنسيقها وتيسيرها للباحثين من بعدهم - وبذلك وضع شفيق غربال وتلاميذه الأساس لبناء التاريخ المصرى القومى فى العصر الحديث على أسس سليمة.

درس شفيق غربال الأصول التاريخية لتطوير مصر فى القرن التاسع عشر فكتب بحثه العميق «مصر على مفترق الطرق» وهو تحقيق لنص مخطوط من أيام حملة بونابرت على مصر يحوى إجابات حسن أفندى كبير أفندية الرزنامة على أسئلة وجهها إليه بعض علماء الفرنسيين عن أحوال مصر على عهد العثمانيين. وقد قدم فى هذا البحث نموذجًا لنشر النصوص التاريخية نشرًا علميًا محققًا وفتح به ميدان البحث فى تاريخ مصر العثمانية.

كما درس غربال ظاهرة التقاء الشرق بالغرب أثناء الحملة الفرنسية على مصر، وما صاحبها من تفكير فى مستقبل مصر السياسى على أساس الاستقلال ونشر هذه الدراسة بعنوان

«الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١» الذى نشرته دار المعارف سنة ١٩٣٢. بعد ذلك نشر كتابه «محمد على» فى سلسلة أعلام الإسلام. والكتاب ليس ترجمة لسيرة محمد على، لكنه بحث عميق فى أصول المجتمع المصرى كما كان يعيش فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ثم تقصى دقيق لما طرأ على هذا المجتمع من تغيرات واسعة خلال النصف الأول من القرن الأخير.

استمر شفيق غربال مثابرًا على التدريس والبحث والمحاضرة والإشراف على رسائل طلابه لم تصرفه عن ذلك عمادة كلية الآداب حين تولاها سنة ١٩٣٩ ولا المناصب الإدارية التى دعا إلى النهوض بأعبائها فى وزارة المعارف، ثم وزارة الشئون الاجتماعية (بين سنتى ٤٠-٥٤ مستشارًا فنيًا للتعليم فوكيلًا للوزارة وظلت الأستاذية هى السمة الأصلية فيه، لم تكن طابع حياته العقلية وإنما كانت حياته الشخصية أيضًا فكان يتناول المسائل التى تعرض عليه فى مناصبه الإدارية بالحلم والأناة والتواضع والحرص على الحق والأنفة من التعصب.

وظل شفيق غربال معنيًا بالمسألة المصرية التى بدأ حياته العلمية بالكتابة فيها، وكانت هذه المسألة قد تحولت من مجرد صراع بين الدول الأوروبية الكبرى على السيطرة على مصر إلى كفاح وطنى قام به المصريون ضد الاحتلال البريطانى ما لبث هذا الكفاح أن تحول إلى السعى لحل القضية الوطنية بالوسائل السلمية، فكانت المفاوضات التى بدأت من ١٩٢٠ حتى انتهت ١٩٥٤ بجلاء الإنجليز عن مصر.

واتجه مؤرخنا إلى دراسة المسألة المصرية فى مراحلها الأخيرة وذلك فى مقدمة كتابه «تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية» الجزء الأول ١٨٨٤-١٩٣٦ تناول فيه طائفة من الأحداث التى توالت على الميلاد، كما تناول طائفة من الرجال، الذين شاركوا وكانوا لا يزالون يشاركون فى الحياة العامة، ولم يمنعه هذا من التصدى للحكم على هذه الأحداث وهؤلاء الرجال،لا حكم رجل السياسة – فهولم يكن قط رجل سياسة – وإنما حكم المؤرخ الباحث عن الحقيقة، فجاء كتابه هذا – الذى منح جائزة الدولة – نموذجًا لكتابة التاريخ المعاصر فى تقصيه للمادة، وقدرته الفائقة فى تأليف الصورة المركبة، الشجاعة فى الحكم، والإخلاص للحق وحده»، وهذه الصفات، ذاتها هى التى تجلت فى تناوله لتاريخ المعلم يعقوب حنا ومشروعه لاستقلال مصر، الذى نتناوله بالتفصيل هنا.

– لمزيد من المعلومات راجع «المجلة التاريخية المصرية». المجلد الحادى عشر، ٣، ١٩.

الجنرال يعقوب ومشروع الاستقلال الأول

ظهر المعلم يعقوب فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وسطع نجمه إبان الحملة الفرنسية على مصر، ولعب دورًا مهمًا فى ضرب الأتراك والمماليك؛ لأنه كان يرغب فى تخليص مصر منهم، لكن سوء الحظ كان يترصده فمات وهوعلى ظهر الباخرة قبل أن تطأ أقدامه أرض فرنسا ويكشف عن أهدافه الرئيسية من الرحلة. ورغم أن التاريخ قد سجل مشروعه الخاص باستقلال مصر فإن موته المباغت قد ألقى ظلالا من الغموض حول هذا المشروع وأتاح الفرصة للاختلاف فى تقييم دوره وتحديد أهدافه.

وكان المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال أول من اكتشف وثائق هذا المشروع فكتب عن يعقوب وعن دوره الريادى فى كتابه «الجنرال يعقوب والفارس لاسكارس» الذى نشرته دار المعارف سنة ١٩٣٢، (والذى نقدمه فى الفصول التالية)، وقارن فيه بين يعقوب وبين زعماء الكفاح الشعبى فى تلك الفترة من أمثال السيد عمر مكرم وغيره ثم وضع يعقوب فى مكانة متقدمة وذلك نتيجة لإحساسه العميق بقوميته المصرية وبعد نظره وتلمسه الوسائل العملية لتحقيق الاستقلال الوطنى.

وكان آخر من دخل إلى حلبة الجدال حول يعقوب هوالدكتور أنور لوقا بكتاب أسماه «هذا هوالمعلم يعقوب» الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٢، والذى يؤكد فيه أن يعقوب رجل ينتمى إلى التاريخ الاقتصادى - الذى تحول تحولًا جذريًا فى عصره - ولا ينتمى مطلقًا إلى الطائفية (فكلمة «قبطي» لم ترد أبدًا فى مشروعه) حيث يقول:

من جذوره العريقة بالصعيد، ودرايته العملية بالقيم الاقتصادية، وانخراطه فى تيارات التواصل التجارى الدولية المتلاقية فى مصر رغم القيود المحلية نبع مشروع استقلال مصر، وأصبح عبر الأحداث غاية كفاحه المتواصل ضد الرجعية.

والدكتور أنور لوقا من أقدر الباحثين على كشف خبايا هذا الموضوع الذى يؤرخ لفجر النهضة المصرية، لأنه يقع فى بؤرة اهتماماته البحثية فقد حصل على دكتوراه الدولة من السربون سنة ١٩٥٧ فى الأدب المقارن برسالة رئيسية عنوانها: «الرحالة والكتاب

المصريون فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر»، ورسالة تكميلية عنوانها «دراسة تأصيلية للنص الطهطاوى - تخليص الإبريز فى تلخيص باريس» ثم ترجمة فرنسية له ثم استمر فى أبحاثه على مدى أربعين عامًا ليتتبع آثار «المهاجرين المصريين» فى فرنسا. معتمدًا فى البداية على وثائق قصر فانسين Vincinnes (أوراق «جيش الشرق» Armée d'orient) ووثائق وزارة الخارجية (Quai d'Orsay) ووزارة الداخلية (Archives Nationales) ثم راح يستقصى أبعاد هذا الموضوع فى دور المحفوظات المتفرقة فى جنوب فرنسا، وخرج من ذلك كله بحصيلة معرفية بالغة الأهمية.

من ذلك مثلا، الأثر الذى أحدثه وصول المهاجرين المصريين إلى فرنسا فى الأزياء وفى الفنون الجميلة وفى الأدب والفكر مما أصبح من قيم الحياة الرومانتيكية فى عهد الإمبراطور نابليون. كذلك اكتشف - من بين الجنود المجهولين الذين ذهبوا مع يعقوب - روادًا كبارًا فى الفكر واللغة والأدب. فهو يقول: «وممن صنعوا نهضة الاستشراق اللغوى فى أوروبا فتى مغمور من أبناء أسيوط عمل كاتبا عند يعقوب ويحمل اسمه- إليوس بقطر - قاموس فرنسى عربى وضعه فأصبح عمدة الدارسين وبداية نقل ألفاظ الحضارة العصرية.» بالإضافة إلى العلامة القس يوحنا الشفتشى الذى جمع بين تعمق اللغات القديمة فكان العضو الشرقى الوحيد فى لجنة تأليف موسوعة «وصف مصر» ورغم دوره فى المسئولية العسكرية ضابطًا فى الفيلق القبطى، فإ التاريخ قد نسى وجوده مع أن شامبليون استقى منه صوتيات اللغة القبطية، فكأن باعث الحضارة الفرعونية تسلم منه المفتاح الذى فك به رموز الهيروغليفية.

وبعيدًا عن هذه الجوانب الطريفة والمهمة، أحب أن أعرض على القراء لمحة من حياة يعقوب.

ولد المعلم يعقوب فى ملوى عام ١٧٤٥، والتحق فى عهد على بك الكبير بخدمة سليمان أغا الانكشارية أورثيسها واستطاع من خلال إشرافه على إدارة أملاك الأغا أن ينمى ثروته الخاصة، حتى أصبح من الأثرياء وبنى قلعة على رأس سوق القبيلة عند حارة النصارى.

وحين نشب القتال بين مراد بك وجيش قبطان باشا اشترك المعلم يعقوب مع مخدومه فى هذه الحرب، وظهرت مواهبه فى القتال كما ظهرت فى الإدارة. وعندما دخل الفرنسيون مصر، التحق المعلم يعقوب بخدمتهم وانضم إلى حملة الجنرال ديزيه إلى الصعيد لمطاردة المماليك، وحارب المماليك بشجاعة مما ساعد فى القضاء على بعض أوكارهم كما حدث فى بلدة العتامنة من أعمال محافظة أسيوط، مما جعل الجنرال ديزيه يهنئه ويقدم له سيفًا تذكاريًا تقديرًا لبسالته.

ولما غادر نابليون مصر عاد المعلم يعقوب إلى القاهرة وكلفه كليبر بتنظيم مالية البلاد، وعينه قائدا للفيلق القبطى الذى شكله فى مصر ليعاون الفرنسيين فى حربهم ضد المماليك والأتراك. ثم عين المعلم يعقوب مستشارًا لمسيواستيف مدير الإيرادات العامة ورقاه القائد العام عبد الله جاك مينو إلى رتبة جنرال وجعله مساعدًا للجنرال بليار فى مارس ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد هجوم الجيس التركى والإنجليزى.. ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطى بمصير الجيش الفرنسى،وعند تسليم القاهرة فى يونيه سنة ١٨٠١ دخل الجنرال يعقوب فى اتفاقية التسليم.

ورحل الجنرال يعقوب ومعه جماعة من فيلقه القبطى مع القوات الفرنسية عند جلائها عن مصر، ولكن الجنرال يعقوب كان يحمل فى جعبته مشروعًا خطيرًا كان فى نيته عرضه على الإنجليز والفرنسيين وهذا هو«مشروع استقلال مصر».

ويلخص لويس عوض مشروع الجنرال يعقوب لاستقلال مصر على النحوالتالي:
«ومحور نظرية الجنرال يعقوب التى يبسطها أمام الإنجليز، هوأن استقلال مصر فى مصلحة إنجلترا أكثر من أى بلد آخر فإنجلترا سيدة البحار وهى تستطيع أن تمنع بأساطيلها فرنسا من الاستئثار بمصر، ولكن إذا حاولت إنجلترا نفسها غزومصر فإنها ستصطدم بأكبر قوة عسكرية فى أوروبا، وهى فرنسا، فمصر المستقلة ـ إذن ـ هى الحل الوحيد الذى يوفق بين مصالح إنجلترا ومصالح فرنسا، مع مزايا إضافية للإنجليز وهى أن تجارتهم البحرية سوف تنتفع من زراعة مصر التى لا يمكن أن تزدهرإلا فى جو يسوده السلام، كما أنها ستنتفع من منتجات إفريقيا التى تعد مصر بابها الطبيعى.

وسوف تحافظ مصر على استقلالها فى المرة الأولى على الأقل بموافقة الدول الأوروبية. فإذا لم تكف القوى الأوروبية المتضافرة للحيلولة دون عدوان الترك والمماليك على مصر، فالجنرال يعقوب يرى الحل فى وجود قوة أجنبية مرتزقة فى مصر قوامها بين ١٢ ألف أو ١٥ ألف جندى تتكون منها نواة الجيش المصرى. وهى فى نظره كافية تمامًا لرد عدوان الترك على حدود الصحراء وقمع المماليك فى داخل البلاد.

أما نظام الحكم الذى يقترحه الجنرال يعقوب لمصر المستقلة فهوقيام حكومة وطنية يكون هدفها الأول تحسين حال الفلاح. وهو يرى أن طول استعباد المصريين تحت الترك والبكوات المماليك قد حرم مصر من النور الكافى لتكوين رأى عام بصير يمكن أن يخرج منه عمل سياسى لتغيير نظام الحكم، فهو يرى - إذن - أن كل تغيير فى نظام الحكم لابد وأن يأتى من القمة، أى من الحاكم ولكن يعقوب يرى أن إنشاء حكومة قومية تعمل بروح العدل المقرون بالحزم وتستهدف إسعاد المصريين، لا شك سيؤلف من حولها قلوب الأكثرية الساحقة من سكان البلاد الوادعين الجهلاء. إلا أن الجنرال يعقوب لا يفصل فكرته عن تكوين هذه الحكومة القومية أوسلطاتها أوطريقة ممارستها لحكم البلاد.

وبعد تحليل مستفيض لأحوال مصر آنذاك يميز الدكتور لويس بين ثلاثة تيارات كبرى فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ البلاد:

١ - تيار «أى شىء إلا حكومة الأوروبيين» ولوكان استمرار حكومة الترك والمماليك وقد جرف هذا التيار المتطرف المصريين الذى قاتلوا تحت لواء العثمانيين فى ثورة القاهرة الثانية بين ٢٠ مارس و٢١ إبريل ١٨٠٠ بقيادة ناصف باشا ونصوح باشا.

٢- تيار «أى شىء إلا حكومة الترك والمماليك» ولوكان قبول حكومة الأوروبيين، وقد جرف هذا التيار المتطرف الذين قاتلوا المماليك ثم الترك تحت لواء الفرنسيين بقيادة الجنرال يعقوب وهم الوجه الآخر لثورة القاهرة الثانية.

٣- تيار «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» ممثلا فى علماء الأزهر وأعيان البلاد المعتدلين الذين تكونت منهم أجهزة الحكم القومى ولا سيما الديوان العمومى والديوان

الخصوصى. وهوتيار يقوم على قبول الأمر الواقع بالقوة القاهرة ريثما تسنح الفرصة لتغييره. وقد استمرت هذه التيارات تتلاطم فى محيط السياسة المصرية والفكر المصرى ولم تندمج فى تيار واحد كبير بصورة ملموسة إلا فى ثورة ١٩١٩.

جاء هذا الكلام فى كتاب لويس عوض «تاريخ الفكر المصرى الحديث» سنة ١٩٦٩ وبعدها أخذت تنهال عليه الاتهامات من جلال كشك ثم محمود شاكر ومحمد عمارة وأحمد الصاوى وآخرين وقد أوذى لويس عوض كثيرًا من هذه الهجمات الظالمة، وكتب شهادته عليها فى سيرته التى سماها «أوراق العمر» فقال:

«جر ذلك على الكوارث لأنه فتح دمل التعصب الدينى فى بعض المثقفين المصريين فطفح كل ما فيه من قبح على السطح وسوف يحاسب التاريخ الرجعية العربية حسابًا عسيرًا لأنها سجدت أمام التمثال الذى أقامه شفيق غربال للجنرال يعقوب ثم مزقتنى إربًا لمجرد أنى رددت آراءه وترجمت وثائقه ونقادى لا يستطيعون ادعاء الجهل لأنى أصلت لهم كل شىء قلته عن الجنرال يعقوب فى شفيق غربال. فإذا كانوا قد رجعوا إليه ومع ذلك تعمدوا تمزيقى لطرحى قضية «يعقوب اللعين» بهذه الحيدة أوبشيء من التعاطف فإن هذا يثبت سوء نيتهم. وإذا لم يهتموا بالرجوع فهذا يثبت انحطاطهم لإصرارهم على الإدانة رغم وجود شهود النفى. وعلى كل فقضية الجنرال يعقوب أخطر من أن تصرف بكلمتين فلى إليها عودة فى مكانها الطبيعي».(ص ٣٢٩).

ومن الملاحظ أن من كتبوا قبل ثورة يوليه ١٩٥٢ يجمعون ـ مسلمين ومسيحيين ـ على تمجيد يعقوب ورفعه إلى مرتبة البطل الوطنى واعتباره رائد دعوة الاستقلال. وفى مقدمة هؤلاء الدكتور شفيق غربال فى كتابه «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس» ١٩٣٢ والأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف الذى اشترك فى تحقيق كتاب الجبرتى «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»وذلك فى مقاله «المعلم يعقوب وموقفه من الحملة الفرنسية «بجريدة البلاغ (١٩٤٧/٩/٢٢) وفيه يقول إن يعقوب كان أول سياسى مصرى فكر فى جعل المسألة المصرية مسألة دولية على أن تستقل مصر استقلالًا تامًا عن الحكم العثمانى وأن تكون باستقلالها هذا واسطة لكبح أطماع فرنسا وإنجلترا، وهما الدولتان اللتان كانتا تتصارعان لتوطيد النفوذ فى مصر وحوض البحر المتوسط.

وعلى نقيض هذا جاءت كتابات الستينيات التى نشرت ردًا على الدكتور لويس عوض.. فقد أصر كتابها على إدانة يعقوب واتهام لويس عوض بالفرعونية والطائفية.. ويرجع سبب هذا التناقض فى رأى إلى أن شفيق غربال ومحمد فهمى عبد اللطيف وغيرهما كانوا يعيشون فى مناخ الديمقراطية الليبرالية فى مصر الثلاثينيات والأربعينيات وكان لديهم الحرية والدافع لرؤية الواقع التاريخى لمصر العثمانية على حقيقته دون تحيز أوتزييف. أما كتاب الستينيات وما بعدها الذين عارضوا لويس عوض فقد تأثروا بأيديولوجية الوحدة القومية فى عهد عبد الناصر أوأيديولوجية الدولة الدينية التى يحلمون بها وأسقطوا هذا الإحساس على مصر العثمانية الإسلامية فرأوا يعقوب خائنًا أوفى أحسن الحالات منشقًا على نظام المجتمع الإسلامى كما يظن الدكتور أحمد حسين الصاوى فى كتابه «المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة».

فالواقع أن يعقوب لم ينشق على حكم الأغلبية المسلمة من المصريين. إذ كان الحكم فى يد الوالى العثمانى ومماليكه وعساكره. ولم يكن فيه من الإسلام إلا الواجهة. أما ما يقوله الدكتور أحمد الصاوى من أن مصر تحكم فى ظل الخلافة العثمانية تبعًا للشريعة الإسلامية «غالبية من المسلمين مع أقلية من الذميين الذين حددت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم دون تعصب أوتطرف» (ص ٨٠). فهذا كلام بعيد عن الحقيقة ومرجعنا هوكتاب «المجتمع والشريعة والقانون» للدكتور محمد نور فرحات (دار الهلال يونيه ١٩٨٦) حيث يقول:

«وغلبة قيمة النظام على قيمتى العدل والحرية ظاهرة يلحظها الباحث فى النظام القانونى لمصر العثمانية، فلم يكن النظام القانونى العثمانى يولى اهتمامًا يذكر لقضية العدل فى توزيع ثروة البلاد، كما أن فكرة المشاركة السياسية من الشعب لولى النعم فى سلطته كانت أقصى المحرمات قاطبة التى يعاقب عليها بعقوبة البغى والإفساد فى الأرض (ص ٢٠) فكيف سمح الدكتور أحمد الصاوى لنفسه أن ينسب هذا المجتمع إلى الشريعة التى هى العدل والرحمة، أو يتكلم عن أغلبية أو أقلية حتى بالمفهوم الدينى.

لم يكن هنالك شىء من هذا، وكما يقول شفيق غربال: «أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى هوتخليص وطنه من حكم لا هوعثمانى ولا هومملوكى، وإنما هومزيج

من مساوئ الفوضى والعنف والإسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة. فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت. وثانى ما فى تأييده للاحتلال إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية. ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال وإلا لما سمح الفرنسيون بإنشائها غير أنه يلزمنا أن نذكر أن القائد كليبر نفسه الذى أذن بإنشاء القوة القبطية كان لا يرى البقاء فى مصر. ثم يشير الدكتور شفيق غربال إلى «أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها وأنهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس يجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها».

ثم يمضى شفيق غربال فى توضيح رأيه قائلًا:

«كان وجود الفرقة القبطية ـ إذن ـ أول شرط أساسى يمكن رجلًا من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادًا. وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيث كانوا بالأمس: الصبر على مضض أوالالتجاء لوساطة المشايخ أوالهياج الشعبى الذى لا يؤدى إلى تغيير جوهرى والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم.. وهنا الفرق الكبير بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر مكرم يعتمد على الهياج الشعبى الذى لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر».

ثم يضيف غربال: «وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر مكرم لما وجد أمامه محمد على ليس خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك الأداة التى اختارها السيد عمر مكرم ليست فى الواقع إلا مظهرًا لفروق أعمق. إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان». بعكس يعقوب الذى.. «لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تعزيز مصير البلاد بدلا من أن يبقى حظهم

ـ كما كان فى الحوادث الماضية ـ مقصورًا على التفرج أوالاشتراك فى نهب المهزومين.. أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك وعوّل على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية فكان سباقًا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أوقل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظامهم وبخاصة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان».

وقد تميز كتاب أنور لوقا بشجاعة الرأى فى نقده الصريح لخصوم يعقوب وكشف أكاذيبهم ونفاقهم بداية من الجبرتى «الذى صور يعقوب فى موقف الموتور الحانق والمدافع عن أقليته القبطية المضطهدة، وهى الصورة نفسها التى نجدها بعد أكثر من قرن ونصف فى كتابات المتطرفين الذين هبوا لمعارضة لويس عوض حين نسب إلى يعقوب مذهبًا سياسيًا حديثًا. ولماذا ننسى أن الشيخ الجبرتى نفسه قد تعاون مع الفرنسيين إذ كان عضوا عاملا «بالديوان» فى عهد «مينو» -القائد الفرنسى صاحب نظرية احتلال مصر احتلالا دائما؟ وتكفيرًا عن ذنبه هذا سارع الجبرتى إلى الترحيب الصاخب بعودة الاحتلال التركى، وأهدى للصدر الأعظم يوسف باشا كتابه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» وهذه أول سطوره:

«حمدًا لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا،وجعل الدولة العثمانية، والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا».

هذا ما يقوله الجبرتى عن الدولة العثمانية التى أذلت العرب وخربت ديارهم وأورثتهم التخلف المزمن الذى لم يستطيعوا الإفلات من قبضته حتى اليوم.

ومن المهم أن يعرف القارئ أن المصريين قد حرم عليهم الاشتراك كجنود عاملين فى الجيش منذ الاحتلال العربى لمصر سنة ٦٤١ وهذا مايؤكده كتاب «الوطن الأم- دراسة فى الثقافة القومية المصرية - تأسيس تاريخى «حيث يقول المؤلفان(أحمد عاشور وصبحى السيد عاشور):

«قام نظام الإدارة العربية فى مصر على عدة ثوابت لم تتخل عنها، كان إبعاد المصريين عن الجيش العامل أولها، خشية أن يحيى فى المصريين روح القومية المصرية وأن يقوموا بطردهم من مصر متى حانت لهم الفرصة فلم يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية».

وهونفس الأسلوب الذى اتبعه العثمانيون والمماليك وكان يعقوب هو الاستثناء فقد تعلم فنون الفروسية والقتال وشارك فى معارك الحرب التى دارت بين جيش مراد بك وجيش قبطان باشا التركى إلى جانب مخدومه سليمان بك، ثم قاتل الممليك بعد وصول الحملة الفرنسية وكان الطليعة والرائد فى هذا المجال المحرم على المصريين وكان طبيعيًا أن يفكر فى تكوين جيش مصرى يحمى استقلال هذا الوطن بعدخروج الفرنسيين من أهل الفلاحة والصناعة ـ حسب تعبير شفيق غربال ـ وكان وجود الفرقة القبطية ـ إذن ـ أول شرط أساسى يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادًا».

والسؤال المنطقى الذى يطرح نفسه هنا: هل كان يمكن ليعقوب أن يدعو المصريين المسلمين للاشتراك فى هذا الجيش؟

وكيف يكون ذلك، إذا كان الشيخ محمد كريم يقول للقائد الفرنسى إنه يدافع عن أرض السلطان ولم يقل عن أرضنا أوأرض المصريين والشيخ عمرمكرم ومعه الشرقاوى والسادات وغيرهم من زعماء المسلمين كانوا مصممين على البقاء فى تبعية الدولة العثمانية وتحت حكم المماليك مكتفين بالوساطة بين العامة والحكام فى أوقات الأزمات مراعاة لمصالحهم الخاصة مع هؤلاء الحكام ولم تطرأ على أذهانهم فكرة الاستقلال بعكس يعقوب الذى يريد التخلص من الأتراك والمماليك والفرنسيين وإقامة حكومة وطنية من المصريين مسلمين ومسيحيين كما أن مشروع يعقوب لاستقلال مصر وحيادها بين إنجلترا وفرنسا لم تذكر فيه كلمة «قبطى» أبدًا فيعقوب تأثر بفكر الفرنسيين عن الحرية والإخاء والمساواة وكان متوافقًا فى فكره وسلوكه ووصل به هذا التحرر أن يتزوج بزوجة سورية كاثوليكية وهوما يعتبر خروجًا على الكنيسة القبطية ولم يكن ذلك إلا لأنه لم يعرف التعصب الطائفى أو المذهبى، وإنما كان التعصب فى موقف الآخرين الذين قسموا البشر إلى مسلمين وكفرة وحرضوا مرتين على قتل الأقباط وهتك أعراضهم ونهب ممتلكاتهم والفضل يرجع إلى يعقوب وأتباعه الذين صدوا حملات الإبادة التى كان يقودها حسن الجداوى ودراويشه بتحريض من العثمانيين وعملائهم

من المصريين. وهذا مسجل بوضوح عند الجبرتى ولاينكره إلا من أعماهم التعصب والذين يستكثرون على الأقباط حق الدفاع عن النفس أوحق المبادرة لحماية الوطن.

يشرح الدكتور أنور لوقا الأسباب الحقيقية التى حتمت تكوين الفيلق القبطى تحت عنوان (حتميــة المقاومة).

فيقول: تولى يعقوب بعد عودته من الصعيد، فى سبتمبر ١٧٩٩، إدارة النظام المالى فى مصر، إلا أنه لم يستطيع تحقيق أى إصلاح تحت ضغط الأحداث التى تلاحقت وأجبرته على تكوين قوة مسلحة.

كان كليبر قد عقد مع ممثلى الدولة العثمانية فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ معاهدة العريش التى نصت على جلاء الفرنسيين وجدولته. وطوت الدولتان صحيفة القتال. ولكن الحكومة الإنجليزية رفضت إقرار الاتفاقية فانتهز العثمانيون الفرصة ونقضوا عهدهم. وزحف يوسف باشا - الصدر الأعظم حتى بلبيس، وتقدمه طليعة جيشه بقيادة ناصف باشا نحو المطرية وهب الفرنسيون غاضبين فهجموا على الأتراك هجومًا حاسمًا فى موقعة عين شمس (٢٠ مارس ١٨٠٠) وهرب ناصف باشا وبعض رجاله فتسللوا إلى القاهرة ومعهم من المماليك إبراهيم بك والألفى وحسن الجداوى. ويسجل عبد الرحمن الرافعى «ومع أن ناصف باشا كان فى الواقع فارًا من ميدان القتال، وعلى الرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثمانى، فإن الإشاعات كانت قد طارت من المدينة بأن الجيش الفرنسى انهزم». وأشعل الهاربون ـ ليقلبوا الأوضاع ـ فتنة طائفية احتدمت ضد الأقباط ـ ويلقى الجبرتى المسئولية على نصوح باشا الذى نادى «اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم» ويبرز دور الحجازية والمغاربة فى ارتكاب المنكرات من نهب وقتل، ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعًا فيها على رأسها وشعرها من الذهب «وارتاع بعض أغنياء الأقباط فغادروا الحى ولجأوا إلى دور بعض أصدقائهم المسلمين فى مصر القديمة. ولم يتزعزع يعقوب بل تحصن فى الحى ونظم الدفاع عنه والعيش فيه بشجاعة وحكمة، طول حصار دام عشرين يومًا ويقول الجبرتى: «أما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى، واستعد استعدادًا كبيرًا

بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت)، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه».

وأسفرت المحنة عن تكوين جيش من الأقباط، نظمه يعقوب على نفقته الخاصة، وجمع فى صفوفه شبابًا من القاهرة ومن الصعيد. وتلك ظاهرة فذة فى تاريخ مصر: جيش وطنى لاحظ شفيق غربال أنه «أول جيش كون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة». وارتدى هؤلاء الجنود زيًا خاصًا، ودربهم ضباط فرنسيون على أساليب الدفاع والقتال الحديثة، تحت إشراف المعلم يعقوب، الذى قلده كليبر قيادة الفيلق ملقبًا إياه أغا.

وقد ذهب بعض الكتاب إلى إدراج هذا الفيلق القبطى فى قائمة التشكيلات التى استحدثها بونابرت فى مصر وضمها إلى وحدات جيشه للاستعاضة بها عما كان يفقده من الرجال واختصاصهم منذ انقطعت صلته بفرنسا بعد شهر واحد من نزوله مصر إذ حطم الإنجليز أسطوله فى موقعة أبى قير البحرية (أغسطس ١٧٩٨).

وهذا ما يرفضه أنور لوقا إذ كانت تلك الفرق كما تدل عليها أسماؤها ـ «الانكشارية»، و«المماليك»، و«اليونان»، «السوريون» تتشكل من أغراب نزحوا إلى مصر وافدين من مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية، فهم أشبه بالجنود المرتزقة فى العصور السابقة. ويكفى لتمييز الفيلق القبطى أنه لم يظهر إلا مؤخرًا ـ فى إبريل ١٨٠٠ ـ أى بعد انقضاء ثلاثة أشهر على تقرير جلاء الفرنسيين فى معاهدة العريش، وأنه تعبير عن مقاومة حتمية ضد المماليك والترك فى سياق علاقة سياسية ترجع إلى ما قبل الحملة الفرنسية، وأنه تنظيم صدر عن تمويل مالى ذاتى، وستتجلى هذه الأصالة فى مشروع استقلال مصر الذى أصبح هدف المعلم يعقوب.

ويعلق الدكتور أنور لوقا على هذا بقوله:

«لذا استعصى على خصوم لويس عوض – الذى أهمل بدوره التاريخ الاقتصادى – أن يقيسوا معه فى مجال السياسة وحدها جرأة الدور الذى أداه يعقوب، فى مرحلة التحول التاريخى الداهم التى اجتازها، وأن يعترفوا بفضل هذا الرجل إذ اختط فى

معمعة تلك الأحداث خطة مصر كأمة متماسكة. فلم ترد فى مشروع يعقوب إطلاقًا كلمة «قبطى» وإنما كانت مصر- أرض الوطن شغله الشاغل، بشخصيتها الأصيلة، وثروتها، وموقعها التواصلى بين الأمم، دون ممالاة للترك والمماليك والفرنسيين والإنجليز المتصارعين عليها «كالكلاب النوابح»

ومن المؤكد أن «قبطية» يعقوب - التى جلبت عليه اللعنات حتى اليوم - كانت نعمة كبرى، أنارت وعيه وفطنته، ولولاها لفقد وضوح الرؤية وتخبط..لقد أدرك إدراكًا داخليًا- وقد انتبذ فى طليعة الأقلية المصرية الساهرة مكانًا ضمن له استقلالًا ونفوذًا معًا - إن الأوضاع تتحرك وأن موازين القوى تتغير، وأن عهد اغتصاب الترك والمماليك لبلاده قد انتهى، وفى محل السلطة الذى خلا ستحقق مصر وظيفتها الفطرية والرئيسية اللازمة للجميع، ألاوهى التوسط بين الجنوب والشمال والشرق والغرب. سيقولها جمال حمدان فى شرحه الجغرافى للموضع والموقع، وقد أثبتت الأيام أن تخطيط يعقوب السياسى ما كان سوى إرهاص بالحياد الإيجابى المقبل، الذى ستبتدعه مصر، وبمبدأ عدم الانحياز الذى ستنتزعه مصر.

لعل انحسار بعض العقليات دون هذا التقدير هو الذى يصدمها بظهور تلك الزعامة قبل أوانها. غير أن المؤرخ الحق هو الذى يصل بين العصور والدول والتيارات.

بقيت هناك نقطة واحدة تحتاج إلى توضيح بالنسبة لمشروع الاستقلال الذى حمل لواءه يعقوب وشرحه لقائد السفينة الإنجليزية قبل موته المفاجئ، إذ حاول بعض المتطرفين التشكيك فى نسبته إلى يعقوب بدعوى أنه من تفكير سكرتيره لاسكارس الذى كان يقوم بالترجمة، وهو أمر مضحك يدل على تحكم عقدة الخواجة فى هذه العقليات فحتى الاستقلال لابد أن نستكثر التفكير فيه على أنفسنا، مع أن كلام شفيق غربال واضح فى هذه النقطة بالتحديد إذ يقول:

«يحق لنا أن نقرر أن كلمة الوفد المصرى والأدلة التاريخية والفلسفية من أفكار لاسكارس وأن يعقوب لم يقرر إلا الفكرة الاستقلالية» وهذا يكفى، فالفكرة الاستقلالية هى لب الموضوع كله وهى ترتبط ارتباطًا عضويًا بتكوين الفيلق القبطى

الذى جرى التفكير فيه من أجل حماية استقلال مصر ضد العثمانيين والمماليك بعد جلاء الفرنسيين والإنجليز عنها.ومن هولاسكارس هذا حتى ينسب إليه مشروع استقلال مصر، إنه مجرد تابع ليعقوب يقوم بدور المترجم بينه وبين القبطان جوزيف إدموندز قائد السفينة الإنجليزية -التى كانت تنقل يعقوب وأتباعه إلى فرنسا-، وهذا الموقف يوضحه لنا الدكتور أنور لوقا فى كتابه (ص ٩٥) حيث يقول:

«ويبدو التناقض بين الرجلين من أول وهلة فى الرسالة التى أرفقها جوزيف إدموندز بالوثيقة. فهويشهد بمهابة يعقوب ورجاحة شخصيته ونفوذه، وجدية محادثاته، بل وبحرصه على إبلاغ موضوعها إلى القائد العام ومنه إلى الحكومة البريطانية،وعلى تعهد له بعدم إفشائها تحسبًا لعواقب الأمور. أما عن لاسكارس فيقول جوزيف ادموندز: «إنه ذوعقلية متحفزة الخيال،وأظنه من أهل البيمونت (شمال إيطاليا ويقال إنه كان من فرسان مالطة الذين غادروا الجزيرة مع بونابرت) ولم أفلح فى أن أتبين هل هوعضومن أعضاء الوفد أم أن مهمته مقصورة على السكرتارية والترجمة».

ويعلق أنور لوقا على هذا بقوله «مقابل الثقة فى يعقوب ومسئولياته، يثير لاسكارس حيرة جليسه واستفهامه «لكنه لم يثر حيرة المتعصبين المصريين الذين فضلوا أن ينسبوا مشروع الاستقلال إلى هذا المغامر المالطى حتى لاينسب إلى يعقوب حنا القبطى.

وكم ذا بمصر من المضحكات   ولكنه ضحك كالبكا.

لحسن الحظ أن هذه المضحكات لم تغرقنا جميعًا فهناك من الرجال من يشهدون للحق وفى مقدمتهم المؤرخ الرائد محمد شفيق غربال والكاتب الصحفى الكبير محمد فهمى عبد اللطيف الذى حقق تاريخ الجبرتى والذى كتب فى جريدة «البلاغ» (٢٢-٩-١٩٤٧) يقول: «إن يعقوب كان أول سياسى مصرى فكر فى جعل المسألة المصرية مسألة دولية على أن تستقل مصر استقلالًا تامًا عن الحكم العثمانى وأن تكون باستقلالها هذا واسطة لكبح أطماع فرنسا وإنجلترا وهما الدولتان اللتان كانتا تتصارعان لتوطيد النفوذ فى مصر والبحر المتوسط».

٤- طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه

كان طه حسين شخصية فذة فى قهر الصعاب وتحدى الجمود الفكرى والتخلف الثقافى والاجتماعى، وكانت أعماله أنوارًا كاشفة تضىء ظلمة العقول والقلوب. وسوف تظل هذه الأعمال زادًا شهيًا يغذى عقول أجيال عديدة وينير لها سبيل التطور والرقى بل إن هذه الشخصية بما اتسمت به من حب جارف للمعرفة وشجاعة فى الرأى، وقدرة على التمرد والثورة، سوف تظل نموذجًا رائعًا للإنسان المصرى، القادر على الارتفاع والسمو فوق الظروف والمعوقات، وهو من هذه الناحية سوف يبقى مصدرًا لاكتشافات عديدة حول دور الفرد فى الجماعة وتأثير الجماعة فيه. وهى جوانب نفسية واجتماعية تستحق الاهتمام.

وقد كتب الكثير عن طه حسين،إلا أن هذا الكتاب يتميز بقدر كبير من النزاهة والموضوعية، ويكشف عن إخلاص كاتبه وسعة اطلاعه وعمق ثقافته، كما يتسم أسلوبه بالوضوح والدقة، إلا أن الكاتب يشوبه الحذر فى تناول موقف طه حسين إزاء علاقة الدين بالدولة وكذلك المفاهيم الدينية السائدة.

ولعل مرجع ذلك، أن المؤلف راهب مسيحى هوالدكتور كمال قلتة الذى أحب طه حسين، وأقبل على أدبه فقرأه مرات ومرات. وسعى إلى عميد الأدب العربى وجالسه

وتناقش معه عدة مرات. وبلغ من شدة اهتمامه بموضوعه وتعلقه به أن ذهب إلى باريس والتقى بالدكتور مؤنس طه حسين، واستكمل منه بعض نقاط البحث، كذلك درس بعض مؤلفات الفلاسفة والكتاب الفرنسيين الذين تأثر بهم طه حسين، وتعمق فيها بل وقف على نقطة مهمة جدًا وهى أن طه حسين لم يكن مجرد متلق للفلسفة والثقافة الفرنسية، بل كان معطيًا أيضا أى أنه تأثر وأثر وفتح عيون الفرنسيين على الثقافة العربية والإسلامية، وأوضح لهم أن الدين الإسلامى يدعو إلى إعمال العقل والفكر وإلى الجهاد والحرية لا إلى الاتكالية والاستسلام. وهنا يجدر بنا أن نتوقف لنسأل: بمن تأثر طه حسين من الفرنسيين ؟ وكيف حدث هذا التأثير ؟ هل حدث عن طريق القراءة فقط أم عن طريق الصداقة والمجادلة ؟ وإلى أى مدى بلغ تأثيره بهذا أوبذلك من الفلاسفة والكتاب ؟

والإجابة عن هذه الأسئلة تكشف جوانب الأصالة والتجديد فى فكر طه حسين، وتعطى مثلًا ممتازًا لدراسة الآداب المقارنة. فقد أجرى الباحث مقارنات وافية بين فكر طه حسين وبين من تأثر بهم من الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين من أمثال: فولتير ورينان وتين وأوجست كونت وبول فاليرى ودور كايم الذى درس عليه طه حسين فى السربون. وكذلك قارن بين فكره النقدى وبين منهج ديكارت وسانت بيف.

وكانت نتيجة هذه المقارنات أن توصل المؤلف إلى أن طه حسين لم يتأثر بكاتب واحد أوبعدد من الكتاب بل إنه وجد تيارًا حضاريًا كاملًا فراق له وسار معه وكان من نتيجة ذلك منهجه النقدى ودراساته الأدبية والاجتماعية. وقد تبلور تأثره فى ثورة عارمة لتحرير الأدب من ارتباطه بالدين. حيث يؤكد فى كتاب «الشعر الجاهلى» أن الأدب كان قبل الدين وكان دائما وينبغى أن يدرس لذاته وليس لأشياء أخرى، فليس من الضرورى أن يكون الأديب مبشرًا بالدين أو هادمًا للإلحاد، والأدب فى حاجة ألا يعد علمًا دينيًا ولا وسيلة دينية. وهو فى حاجة إلى أن يتحرر من عبودية الدين وفى حاجة إلى أن يكون كغيره من العلوم قادرًا على أن يخضع للبحث والنقد والتحليل والشك والرفض والإنكار.

وكان مذهب الشك عند ديكارت يقوم على قاعدة «لا يسلم بشىء إلى أن يعلم أنه حق» التى تهدف إلى تحرير القل من سلطان الوجود. فالفكر يكفى نفسه بنفسه،

وهذا يعنى رفض التاريخ إلا بعد فحصه ودراسته، ورفض المعتقدات إلا ما ينبع عنها العقل ويقتنع بها. وتبعًا للقانون الديكارتى أعلن طه حسين تحرره من ربقة القدماء فشك فى كل الدرسات السابقة وشك فيما وصلنا من شعر ونثر قديمين فى أقوال الرواة والمؤرخين، ولم يكن شكه نهاية المطاف وإنما انطلاقًا للوصول إلى الحقيقة. فقد كان طه حسين يرغب من أعماقه أن يتسع أفق الإنسان العربى إلى صنوه الأوروبى. وأن ينهل من الثقافات بقدر استطاعته لا أن يتقوقع فى إقليمية ضيقة محدودة البصيرة. فإنه ما دامت الدراسات رازحة تحت عبء الدين أوالسياسة أوالتعصب العنصرى، فإنها لن تصلح أن تكون دراسات حرة دقيقة وإنما يسيرها الهوى أوتتحكم فيها العاطفة.

وقد ساعد الباحث فى بلوغ هدفه، أنه بدأ بدراسة حياة طه حسين فى طفولته وصباه وكذلك مرحلة الدراسة بالأزهر، واستطاع أن يتعرف على مقوماته الشخصية والنفسية قبل أن يسافر إلى باريس، وكان من أهم هذه المقومات شوقه الجارف للعلم وللمعرفة وذكاؤه الحاد وقوة ذاكرته وإيمانه بحرية التفكير لدرجة جعلته يختلف مع بعض الشيوخ، مثل ما حدث مع الشيخ سليم البشرى الذى كان يفسر الآية ١١١ من سورة الأنعام، ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

فاعترض طه حسين على تفسير أستاذه بقوله: إن هذا جبرية مطلقة، فقال الشيخ البشرى: من أين تعلمت هذا الكفر ؟ من أساتذتك الإفرنج ؟ وكان طه حسين يريد أن يمتد النقاش فحثه «سانتلانا» أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية آنذاك على السكوت.

وهذا المثل الذى أورده الباحث يوضح إيمان طه بحرية الإرادة وحرية التفكير كما يوضح أيضا أنه كان متفتح الذهن مهيأ لتقبل الفلسفات العقلية والتأثر الشديد بها. وطه حسين يصف مرحلته الأزهرية بأنها فترة انتقال:

«إن المدة التى قضيتها فى الأزهر كانت فترة انتقال فكان محمد عبده يفسر القرآن على طريقة حديثة، والشيخ المرصفى يعلمنا الأدب، وكلاهما تعلم الطرق الأزهرية، وكان

قاسم أمين يقول بحرية المرأة، وفتحى زغلول يترجم لنا كتب قيمة » والجريدة «تنادى بمعايير جديدة فى السياسة والاجتماع فكنا فى اضطراب ذهنى لا يستقر، وشعرنا نحن تلاميذ الشيخ المرصفى أن طرق الأزهر عنيفة فكنا نتكلم ونتناقش عن الإصلاح الذى كان يقول به الشيخ محمد عبده. وقد حضرت له محاضرتين».

أما المصدر الثانى لثقافته الفرنسية فكان اللغة الفرنسية التى تعلمها فى الجامعة على يد أساتذه الفرنسيين.وبهذه اللغة بدأت معرفته بالثقافة الفرنسية التى أصبحت تيارًا جارفًا حين ذهب طه حسين إلى باريس عام ١٩١٥ وبدأ يتعمق فى بحرهذه الثقافة. وواضح من أحاديثه التى يسوقها عن باريس أن هناك نوعًا من الانسجام بين طه حسين وبين الفكر الفرنسى.فالعالم ـ فى نظره ـ لايستطيع أن يستغنى عن فرنسا والحياة فى مصر هى الحياة فى أعماق الهرم والحياة فى باريس هى الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق.

ومنذ أن عاد إلى وطنه لم تنقطع صلته قط بفرنسا وأدبائها. فقد ارتبط بصداقة الكثيرين من المفكرين المعاصرين مثل: أندريه جيد وماسينيون وسارتر، بل ربما كانت فرنسا هى بيئة وحية التى ألهمته كثيرًا من مؤلفاته الخالدة. كذلك درس الأدب والثقافة اليونانية والرومانية متأثرًا بقول الفرنسيين: «لوأن هذه الحضارة الحديثة أزيلت وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطاطاليس أساسًا لنهضة الحضارة الجديدة «بل إن طه حسين ذهب إلى أبعد من هذا حين قال أن فهم التاريخ المصرى والتاريخ الإسلامى عامة يرتكز على فهم التاريخ اليونانى، وكما كتب عن الأدب الفرنسى وترجم منه، كذلك فعل مع الأدب اليونانى إذ ترجم نماذج من الشعر التمثيلى وترجم «نظام الإثينيين»، وكان يهدف من وراء هذه الترجمات أن يقدم أشكالا أدبية جديدة إلى الأدب العربى، ويفتح أذهان المصرين على العصور والمجتمعات التى أنتجت هذه الروائع العظيمة.

فالأدب الفرنسى عنده نموذج رائع للآداب وصور حية وامتداد للأدب اليونانى فى تطور العقل البشرى وأثره العظيم فى كل عصر ومصر. وكان حبه لباريس التى تختصر العالم الإنسانى باختلاف أزمنته وأمكنته من أقوى مظاهر تأثره بالثقافة الفرنسية. يقارن

طه حسين الفرنسى بالإثينى فى حبه للعدل والحرية فيقول «والفرنسى كما يحب الحرية يحب العدل الاجتماعى وما ينتج عنه من المساواة بين الأفراد. ولعله لم يعش منذ القرن الثامن عشر لفكرة كما عاش لفكرة الحرية والعدل الاجتماعى، ومن هنا كثر التطرف فى الآراء السياسية والاجتماعية. وظهرت أعراض الاشتراكية والشيوعية فى فرنسا قبل أن يظهر كارل ماركس ولينين. والفرنسى يؤمن بشخصيته وبشخصيته العقلية الخاصة وهو ساخط أبدًا، يسخط جادًا ويسخط هازلًا».

وكان طه حسين يشارك فى الحفلات الفنية، ويسجل خواطره ناقدًا لما يسمعه. ويقارن بين بعض المصريين وميلهم إلى الحزن والمرارة وبين مزاج الفرنسيين الذى يميل إلى الضحك الذى يريح النفس من أصداء الحياة العامة، ويعجبه رجل الدين الفرنسى لأنه يساير الحياة العصرية ويقارن بين رجل الدين الأوروبى وبين رجال الدين فى مصر فيقول:

«لو يعلم رجال الدين عندنا ماذا يصنع رجال الدين فى أوروبا من هذه الناحية لدهشوا دهشًا عظيمًا وتعلموا أنهم بعيدون كل البعد عن أداء واجبهم الدينى «ثم يذكر أن الكنيسة انفصلت عن الدولة فى فرنسا وانقطعت معونة الدولة للكنيسة فما انهارت ولا افتقر رجالها وإنما أدى الناس إلى الكنيسة ورجالها أضعاف ما كانت تؤديه الدولة. فأين رجال الدين فى الشرق الإسلامى من حال رجال الدين فى الغرب المسيحى؟»

وكما هاجم فولتير رجال الكهنوت، وسلطان الكنيسة هجومًا عنيفًا لا هوادة فيه، كذلك هاجم طه حسين رجال الأزهر الذين فرضوا أنفسهم فى ظن طه حسين على الإسلام: «اتخذت مشيخة الأزهر لنفسها منذ ذلك الوقت اسم الرياسة الدينية العليا وهو اسم مبتدع لا يعرفه الإسلام ولا يؤمن به مسلم يعرف واجباته الدينية حقًا».

«وبهذا تقدم الأزهر خطوة أخرى فى سبيل السيطرة والسلطان وأحس الأزهريون أنهم يستطيعون أن يخيفوا الحكومات ويكرهوها على أن تزعن لهم وتنزل لهم عندما يريدون. وأغلب الظن أن طه حسين كان يتفق مع فولتير فى وجوب أن تخلص الدولة من نير السلطان الدينى، وأن تحرر من ربقة الكهنوت، لتصبح دولة علمانية. فقد أعلن

أنه غير راض على ما نص عليه الدستور بأن الإسلام دين الدولة» وكان هذا النص مصدر فرقة بين المسلمين وغير المسلمين من أهل مصر وإنما نقول إنه مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم».

إن ثورة طه حسين ضد بعض رجال الأزهر كانت ضد الجمود والتخلف والتعصب للرأى عن جهل دون مناقشة أودراسة، كانت ثورة شاب مصرى يريد الخير لأمته، وثورة شاب مسلم عظيم الإيمان بإسلامه يريد الخير لدينه.

كان طه حسين مفكرًا وأديبًا ومصلحًا اجتماعيًا يؤمن بالعقل والعلم كسبيل للتقدم والمدنية، ورغم إيمانه بالله وبالإسلام إلا أن منهجه فى كتاب الشعر الجاهلى أثار عليه بعض رجال الأزهر وخصومه السياسين فاتهموه بالكفر والإلحاد. وكان من نتائج ذلك أنه لم يستمر على منهج ديكارت بل إن أبحاثه فى عثمان وعلى وبنيه أوفى أبى بكر وعمر «الشيخان» أو فى «هامش السيرة» تسير فى الخط العاطفى الذى سار فيه ابن خلدون، فلم يعد يأخذ الأمور بالتحليل والنقد.

قد آمن طه حسين بالجبرية التاريخية التى قال بها مونتسكيوورينان وتين.وآمن تبعًا لهذا بأن الشخصية الإنسانية نتاج الظروف التاريخية والبيئية. ويبدوأن البيئة والمناخ الفكرى. قد حدت من انطلاقة فكر طه حسين وحاصرت منهجه النقدى والفكرى. ولعل هذه البيئة الرجعية مازالت تمارس تأثيرها على حرية الفكر والتفكير حتى الآن بدعوى المروق والكفر وهى نفس التهم التى قذفوا بها طه حسين رغم أنه ظل طوال حياته مسلمًا صادق الإيمان.

وقد أطلق عليه بعض الفرنسيين اسم فولتير العرب أومارتن لوثر الإسلام نظرًا للثورة العارمة التى واجه بها الجمود والتخلف والرجعية أيام تخرجه فى الجامعة، غير أن الفرق بينه وبين لوثرهوأن لوثر لم يتراجع أبدًا وشق للفكر المسيحى طريقًا للتحرير من البابوية. وقد أعترف الدكتور مؤنس طه حسين بأن والده لم يصل إلى الإلحاد الذى وصل إليه ديدروكما لم يصل إلى التطرف فى النظر إلى الأنبياء كما وصل فولتير. وذلك بفضل دراسته وحفظه للقرآن الكريم، وربما كان للقرآن الكريم الفضل نفسه على كثيرين من معاصرى طه حسين وأبناء جيله الذين حملوا لواء الفكر والأدب فى الشرق العربى.

وهنا مكمن الأصالة فى فكر طه حسين، فقد ربط حرية العقل بأصولها فى القرآن والدين الإسلامى. لقد كتب صديقه أندريه جيد يقول عن القرآن إنه مدرسة مقفلة «إن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم، فيما بدا لى أنه وهو الإنسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة أمخطئ أنا؟ هذا ممكن؟ ولكنى لم أحس قط كبير قلق فى نفوس هؤلاء الذين كونهم القرآن وأدبهم. إنه مدرسة للطمأنينة قلما تغرى بالبحث وهذا فيما أظن الذى يجعل تعليمه محدودًا».

ورد عليه طه حسين قائلًا: «لم تخطئ أنت وإنما دفعت إلى الخطأ. لقد خالط كثيرًا من المسلمين ولكنك لم تخالط الإسلام فليس على الإسلام بأس مما ألقى فى روعك خلطاؤك المسلمون لقد عرفتهم فى مصر مؤلم من تاريخهم، عصر انحطاط فى العلم والدين وفى الشعور الدينى جميعًا.ولم يكن من اليسير أن يظهرك الذين لقيتهم من المسلمين على حقائق الإسلام» فالإسلام لا يغرى بالدعة ولا بالخمول، وإنما يحث على التروى والتفكير، ويدعو إلى التدبير والاستبصار. وأى شىء أدل على ذلك من القرون الخمسة الأولى من تاريخه؟

وهناك حقيقة لم يظهرك عليها العرب ولا المستعمرون وهى هذا القلق الدينى الذى أثاره الإسلام فى النفوس أثناء القرن الأول والثانى للهجرة، هذا القلق الدينى الخصب الذى منح الآداب العالمية من شعر الحب العذرى والطموح إلى المثل ما ليس له فى الآداب الأخرى نظير».

لقد كان طه حسين قارئًا نهمًا قوى الذاكرة شديد الحساسية مما جعل لقراءته آثار عميقة وأخرى هامشية. وربما كان هذا من أسباب صعوبة هذا البحث، لكن الباحث استطاع بذكائه وشدة حساسيته، أن يتتبع آثار قراءاته وصلاته للمفكرين الفرنسيين ويحصر هذا الأثر فى حدود واضحة ويقسمه إلى جملة أشكال: شكل فكرى فلسفى، شكل اجتماعى تاريخى وشكل نقدى، ورابع روائى، ثم أجمل تأثيرًا خامسًا وهو الخصائص الأسلوبية والفنية عند طه حسين المتأثرة بالأدب الفرنسى، وطريقة التفكير الفرنسية.

قد حصل هذا البحث على درجة الماجستير فى الآداب من قسم اللغة العربية تحت إشراف الدكتور شكرى عياد. ولعل أفضل ما نختتم به كلامنا هو قول الدكتورة سهير

القلماوى فى مقدمته: «إن هذا البحث إنما يدل على شخصية الباحث شخصية ثابتة، مؤمنة تريد أن تزرع الخير للناس بكل وسيلة. ومن أخلص الخير أنه يقدم لعقول الناس غذاء يجعلها قادرة على أن تزرع بدورها الخير لنفسها ولغيرها.

وإنى لأرجو أن يظل المشعل ـ الذى يحمله الأب كمال قلتة ـ مضيئًا أبدًا وأن يكون زيته مهمًا أخذ من صحته ومن جهده جاهزًا دائمًا حتى يتوهج نور المشعل مضيئًا له وللآخرين من حوله طريق الحياة».

ـ نشر هذا المقال بمجلة «الكاتب» مارس ١٩٧٦.

٥- سلامة موسى وقضية التعليم والثقافة

كان سلامة موسى من رواد الثقافة ورواد الاشتراكية والفكر الاشتراكى وكانت قضية الأمية وما زالت هى العقبة الكؤود فى وجه أى تنمية ثقافية واجتماعية.. ومن ثم كان يهتم اهتمامًا شديدًا بقضية تعليم الشعب وتنويره باعتبارها الدعامة الأولى للتحرير والاستقلال، وعن هذا الدور يتحدث الدكتور حسين مؤنس فى مقال له بجريدة «البلاغ» ٢٣ يوليوسنة ١٩٤٧ حيث يقول:

«قرأت الكتاب البديع الذى أخرجه سلامة موسى منذ أسابيع تحت عنوان «التثقيف الذاتى أوكيف نربى أنفسنا» ولست أعرف بين كبار كتابنا واحدًا يهتدى بشبه الإحساس الغريزى إلى ما يحتاجه القارئ مثل الأستاذ سلامه موسى، فهويعيش بإحساسه فى يومه ولكن ذهنه يسبق ذلك اليوم بعشرات السنين، ويتحسس حاجات أهل عصره ويوافيهم بما يريدون فى أسلوب يكاد يقرب من الإعجاز بلاغة وسهولة. وهوفى حياته الأدبية طليعة لا تزال تتقدم الصفوف وتستكشف المعالم وتبلغها للركب السائر. فهوالذى بسط فكرة التطور وعرف الناس بها على أسلوب جعل فكرتها عند قراء العربية من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى زيادة بيان وهوالذى يقرب إلى إفهامنا النظريات السيكولوجية الحديثة وعرفنا بفرويد ويونج وأدلر».

أما لويس فيقول:بقدر ما وجدت طه حسين مهيبًا، وعباس العقاد شامخًا وجدت سلامة موسى متواضعًا. كان غزير العلم فى غير تكلف..ولم تكن هيئته تدل على شىء، كان يمكن أن يكون مدرسًا بالمدارس الثانوية أوطبيبًا أورئيس مصلحة حكومية. ولكن ما أن يبدأ فى الكلام حتى يتدفق علمه الموسوعى ويتجلى ذكاؤه الحاد كالنصل القاطع.

كان سلامة موسى قد نذر نفسه ووقته لتربية الشباب فى صالونه بنادى الشبان المسيحيين، وعلم ذلك الجيل الكثير عن الاشتراكية الماركسية،والاشتراكية الفابية والديموقراطية والواقعية الاشتراكية. وهوالذى عرفهم بحضارة مصر القديمة. فقد كان - على حد قول لويس عوض - من دراويش مصر الفرعونية فأيقظ عندهم الاعتزاز بهذه الحضارة. وهوالذى يصفه الشيخ محمود شاكر بالتسرع السليط اللسان؛ لأنه هوالذى أطلق عبارة السلفيين على دعاة العودة إلى الماضى. فتلقى لويس عوض بصورة أرحب وأعطاه من وقته وجهده الشىء الكثير» فلم يكتف بتوجيه تلميذه إلى قراءة مسرحيات برنارد شو، بل أخذ يناقشها معه كل أسبوع، ويشرح له العلاقة بين الأدب والمجتمع، ومعنى الواقعية الاشتراكية ومعنى الفابية. كذلك دله على سيدنى وبياتريس وب وكتابها الشهير: الشيوعية السوفيتية - حضارة جديدة.

وكان هذا غالبًا هوأسلوب سلامة موسى مع تلاميذه وحوارييه الذين لايزالون يذكرونه ويشيدون بفضله. وهوأسلوب مصرى أوتقليد مصرى عريق فى التربية والتعليم بدأه حكماء مصر القديمة فى العصر الفرعونى وأخذه عنهم فلاسفة اليونان أفلاطون وأرسطووغيرهم. وسار عليه آباء الكنيسة القبطية والمعلمون فيها. وسايرهم فى ذلك النهج علماء الأزهر الشريف وكانت العلاقة بين التلميذ وأستاذه أوشيخه علاقة مباشرة وقوية، ترقى بالأستاذ إلى مرتبة الأبوة المسئولة. وبهذا سار سلامة موسى هومرشده الفكرى الذى يوجه خطاه إلى طريق واضح المعالم.

وفى أوائل الخمسينيات حدثت معركة أدبية ساخنة بين شباب الأدباء وشيوخهم تبادلوا فيها الاتهامات الحادة وعبارات السخرية الجارحة. وكانت بدايتها مقال كتبه لويس عوض فور توليه الإشراف على صفحة الأدب بجريدة الجمهورية التى أصدرتها ثورة يوليو،فى ٧ ديسمبر ١٩٥٣ م. وكان مقاله فى شكل بيان ثورى بعنوان «هذه الصفحة».

ينعى فيها نهاية الأدب القديم ويبشر ببداية الأدب الجديد بقوله:

«انتهى الأدب الأنانى.. الأدب الذى يعبد نفسه ويزعم للناس أنه يعبد فنه وإذ لم يكن قد انتهى فسوف نعمل على إنهائه. فنحن على أعتاب عصر جديد ونحن نكتب الأدب فى سبيل الحياة الجديدة، فلقد ورد فى الأساطير أن العنقاء تحرق نفسها كل مائة عام كلما أدركتها الشيخوخة لتخرج من رمادها العنقاء الجديدة. ومصر هى العنقاء الجديدة والعنقاء لا تموت. لهذا نكتب الأدب فى سبيل الحياة الجديدة. ومن يكتب الأدب فى سبيل الحياة الجديدة فهو ملتزم لكن بماذا يلتزم ؟ ثم يجيب: نحن نلتزم بالواقع وبالخيال. وبالجديد وبالقديم.. بكل هذا وبأكثر منه. نحن نلتزم بالحياة. ففى الحياة يتداخل الواقع والخيال والجديد والقديم. فى الحياة الناضجة المكتملة يتداخل ألف شريان وشريان».

ومن هذه العبارات نعرف أن دعوة لويس عوض للأدب فى سبيل الحياة، لا تضع قيدًا ولا نفرض شكلًا أو غطاءً وإنما هى دعوة مفتوحة للإبداع الحر.

وأخذت هذه الدعوة بعدًا جديدًا بدخول الدكتور عبد الحميد يونس إلى ساحة الكلام بمقاله «نحو أدب جديد» (فى ١٣/ ١٢/ ١٩٥٣) إذ اتجه إلى البحث فى جذور المشكلة ورأى أن محنة الأدب تتمثل أسبابها فى إهمال تراث الأدب العامى أو الأدب المصرى وقصر الاحتفال على أدب الفصحى بما فيه أدب الأجراء من المداحين والهجائين.

ثم شن الأستاذ إسماعيل مظهر هجومًا عنيفًا على أدباء العهد البائد وعلى أدب ما قبل الثورة فوصفه بالفساد (١٥ / ١٢/ ١٩٥٣) إذ قال: وأصح ما يقال فى هذا الأدب هو أنه «أدب التفريغ» أو «أدب الاستنزاف» الذى امتص أخص ما فى حياة الأمة من قوة، وأخذ يبددها تبدد المسرفين المتلفين، واتخذ إلى ذلك حديث التضليل وحشد الضلالات حتى كادت الأمة تخر صريعة تحت أقدام الأصنام وأشباه الأصنام، ثم رحب بدعوة الأدب الجديد: أدب الحرية. أدب الحق الأدب الذى يرمى إلى تكييف حياة الأمة بحيث تصبح أمة حرة تعيش فى أرض حرة.

وأثارت هذه الكتابات طه حسين فكتب مقالا بعنوان «الأدب والحياة «(١٨ / ١٢ / ٥٣) يفند فيه آراء هؤلاء الكتاب ويسخر من دعوة الأدب للحياة ويقول إنهم مخطئون

حين يظنون أنهم يبتكرون شيئًا لم يألفه الناس منذ أقدم العصور. فكل أدب فى أى أمة من الأمم إنما يصور نوعًا من أنواع حياتها، ولونًا من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها وانعكاس الحياة فى نفوسها، ثم يرفض طه حسين أن يكون للأدب غاية يسخر من أجلها لأن الأدب نفسه غاية والأديب لا يستطيع إلا أن يكتب كالزهرة التى لا تملك إلا أن تنشر العطر أوالنحلة التى لا تسأل لماذا تنتج العسل وأغلب الظن أن طه حسين كان يخشى من تقييد حرية التعبير أوإلزام الأدباء بهدف محدد أوغاية معينة ويحذر من خطورة ذلك. ثم يتهم الكتاب الشبان بتملق الثورة ومحاولة إرضاء قادتها وبعد أن قدم دفاعًا مجيدًا عن الأدب القديم وأدب المديح بصفة خاصة، دعا المتخاصمين معه إلى أن يريحوا أنفسهم من هذا كله وأن ينقلوا الخصومة إلى صورة الأدب الذى يريدون أن ينشأ فى حياتنا الجديدة وأن يواجه الناس.

كان اتهام طه حسين لهؤلاء الأدباء قاسيًا ومحرجًا لهم فانتفضوا جميعًا يحتجون عليه ويرفضون اتهاماته. كان لويس عوض أول المحتجين فقال إن دعاة الأدب الجديد قد بدءوا أدوارهم قبل الثورة بسنوات وتحملوا فى سبيل أفكارهم الجديدة كثيرًا من العنف والاضطهاد. ولم يثبت فى طبعهم حب التسلق أوالتزلف لأصحاب السلطان.

أما إسماعيل مظهر فهاجم طه حسين (٢٣/ ١٢/ ٥٣) واتهمه بأن هوالذى يتزلف بهذ الكلام إلى قادة الثورة.

وجاء الاحتجاج الثالث من جانب الدكتور مندور (٢٦/ ١٢/ ٥٣) حيث دافع عن الدعوة وأصحابها الشبان دفاعًا مؤيدًا بالحجة من التاريخ الأدبى لكنه لم يعف طه حسين من اللوم فوصفه بالاندفاع العاطفى فى المحاجة.

رحب طه حسين بما وجه إليه من هجوم وأعرب عن اغتباطه بما أثاره من غضب وثورة فى صفوف الأدباء والمثقفين، فكتب يقول:

«فقد أردت إلى أن يستيقظ النائم، ويتنبه الغافل ويخرج الهادئ عن هدوئه ويزعج المطمئن الراضى عن اطمئنانه ورضاه. فما أعرف شيئًا أضر بالحياة العقلية وأدفع لها إلى البلادة والجدب من هذا الذى كان شبابنا وشيوخنا من الأدباء والمثقفين يتورطون فيه

من الجمود والخمود والركود والرضا بما كان والاطمئنان إلى ما هو كائن والاستخفاف بما يمكن أن يكون «ورغم ذلك كتب عبد المنعم مراد (٣/ ١/ ٥٤) بجريدة المصرى يصف طه حسين بأنه «عميد الأدب القديم» وفى روز اليوسف كتب صلاح حافظ (١٨/ ١/ ٥٤) يلفت النظر إلى أهمية دور العلم فى حياتنا الحديثة وإلى أهمية الاعتراف بقوانين العلم الخاصة بالتناقضات الطبقية والاجتماعية.

ثم ينتقل الجدل إلى مسألة الصورة الفنية وترتفع حرارته ببيان من عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم على صفحات المصرى (١٤/ ٢/ ١٩٥٤) يعلنان فيه أنهما على خلاف تام مع هذه المدرسة القديمة، لأنهم يؤمنان بأن الأدب «صورة ومادة»، ثم يعرضان نظريتهم فى خمسة بنود يأخذان فى تطبيقها على الأدب العالمى أولا ثم ينتقلان إلى الأدب المصرى فيقرران أن الشعر فى مصر لا يزال أبياتًا متناثرة. ولوراجعنا تاريخ النقد القديم لوجدنا أنه لا يخرج فى مجمله عن البحث الجاد عن اللفظة الرائعة للمعنى ألفه ويقول إنه أفضل من ألف قصيدة.

ورد العقاد بمقال عنيف عنوانه «إلى أدعياء التجديد» أما طه حسين فقد أوسعهما سخرية وتقريعًا، إذ أخذ يفند أقوالهم فقرة فقرة ثم يسأل القراء إن كان أحد يفهم هذا الكلام.. ويقول إنه طلاسم سريانية أوأنه كلام يونانى لا يقرأ... ثم صارت هذه العبارة مثلاً يعبر بها عما يصعب فهمه ويستصعب تحصيله.

مغرى التجديد فى الأدب

حينئذ دخل المعركة الدائرة قطب الفكر الاشتراكى الكبير سلامة موسى ليرد على مغالاة طه حسين والعقاد وأصحاب الأدب القديم، فكتب سلسلة من المقالات فى الأخبار والرسالة الجديدة يفند فيها دعواهم ويوجه لهم طعنات جارحة. وقد جمعت هذه المقالات ونشرت فى كتابه المهم «الأدب للشعب» سنة ١٩٥٥م.

وقد أثبت سلامة موسى أنه قد سبق الجميع إلى المطالبة بالتجديد فى الأدب وفى تحديد دواعيه وغاياته، بكتابه «الأدب الإنجليزى الحديث» سنة ١٩٣٤ الذى استقطب فيه الأضواء حول عبارة «الأدب فى خدمة المجتمع» وبين فيه أن الأدباء الأوروبيين لا

يكتبون فى الخواء وإنما يعالجون المشكلات الاجتماعية والإنسانية وهم يكتبون للشعب بلغة الشعب فالأديب مطالب بأن «يوجد حوله مناخًا تستطيع الحريات أن تحيا فيه وتنمووتنتصر وكل هذه معان لم يكن أدباء العرب يعرفونها. ولهم العذر الواضح هنا. أنهم لم يكتبوا للشعب الذى يحتاج إلى أن يتعلم بلغته التى يفهمها» وجريا على أسلوبه العلمى يبدأ الأستاذ سلامة موسى نقده بتعريف الأدب القديم أولا فيقول:

هوأدب كان يؤلفه الكتاب والشعراء لأجل الخلفاء والأمراء والفقهاء لأن جميع هؤلاء كانوا «الدولة» ولم يكن للشعب وجود فى أذهان الكتاب. ولم يكن هناك قراء يمكن أن يعتمد عليهم فى مكافأة المؤلفين وكان أدب الخلفاء والأمراء نوادر وقصصًا وأشعارًا تسلى وتذهب بالسأم، أى سأم البطالة.. بطالة المترفين.

وكان أدب الخلفاء أحيانًا تواريخ تؤيد دولتهم وتثبت حقوقهم فى تبوء الحكم وكان أدب الفقهاء شروحًا وتعقيبات على الدين والمذاهب.

ولما ظهرت الدولة الفاطمية فى مصر، وظهرت الدولة المستقلة فى المغرب والأندلس، وكثرت السياحات ظهر أدب يكاد يكون شعبيًا فى قصص الرحلات، بل شعبيًا خالصًا فى كتاب ألف ليلة وليلة مثلا.

ولكن الشعوب كانت لا تزال فى التراب، فلم يرتفع هذا الأدب عن التراب».

الماضى وذكريات الموت:

يقول سلامة موسى: إن الحياة عندما تخمد أوتهمد فى الشعب، تهفوإلى الماضى وتثير ذكرياته فى اشتياق كما لوكان يشتاق إلى الموت ! لأن فى الماضى كثيرًا من سمات الموت، بل موت. وهذا الماضى يشيع فى نفوس أبنائه عقائد، فى حين أن المستقبل يطالب بالمنطق والعقل والتزام الحقائق.

ثم يضيف:

«إن الانغماس فى دراسة الماضى، إذا كان الدارس أديبًا، ينقل إلينا أساليب التفكير

والتعبير الماضيين. وهذا ما نرى مثلا فى كثير من أدبائنا. فإنهم كانوا لا يرون عيبًا فى تسلط فاروق التركى على بلادنا، ألم يفعل ذلك السلاطين ؟

وكان ذلك أمرًا طبيعيًا لأن الشعب عند الرومان والعرب القدماء، بل كذلك إلى حد ما عند الإغريق، لم يكن موجودًا فى وجدان الأدباء والفنانين. وهذه الأجزاء العشرون من الأغانى هى قصص السادة ملوكًا وأمراء، ومن كان فى مستواهم من رجال الدين والحرب والسياسة، ولست هنا أنسى قيسًا ولبنى وأمثالهما، ولكن هذه القصص لا تبلغ جزءًا من مائة من صفحات الأغانى».

ومثل هذا الكتاب الذى يتحدث عن القصور والخمور والغوانى والمغنيات هوفى رأى سلامة موسى،هوأدب ملوكى يعادى الثورة والتقدم ولا يمكن أن يكون مصدر إلهام لشىء من القيم العظيمة، ولا ينقل للأجيال القادمة الإعادة الخنوع والاستسلام، ويدلل على ذلك بالآتى:

«إن فى الأغانى شخصية واحدة، شخصية عظيم من عظماء العرب، يدعى على بن أحمد، حاول أن يحرر العبيد ويرفعهم إلى مقام البشر. ولكن مؤلف الأغانى، الذى كان يجهل الأهداف الإنسانية والروح الديموقراطى، كان يصفه بكلمات: الخبيث والغاسق والكافر واللعين.

رأى على بن أحمد هذا الهوان، فجمع العبيد فى البصرة، وثار على الخليفة العباسى يريد تغيير المجتمع.ولكن الخليفة هزمه بجيوشه الأجنبية التركية.مثل هذا العظيم، هذا الإنسان الكمالى، هذا الرائد للحرية، لم يجد من أديب «الأغانى» سوى أنه: خبيث وفاسق وكافر ولعين (الأدب للشعب ص١٤١).

ثم يرصد الأستاذ سلامة موسى الآثار الضارة لمثل هذا التراث الأدبى فيقول إنه لما جاء نابليون إلى مصر ألف مجلسًا استشاريًا من شيوخ الأزهر، وحدث أن طلب إليهم تعيين بعض الكبار من الموظفين مثل: «حكمدار» القاهرة، ورئيس الحسبة الذى كان يشرف على الأسواق والأسعار، ورئيس القضاة، فرفض هؤلاءالشيوخ تعيين هؤلاء الموظفين من المصريين وأصروا على أن يعينوهم من الأتراك.

ويعقب على ذلك قائلا: «إننا نفهم من الاستبداد أنه استعباد الأمير أوالملك للشعب فقط. ولكن الرق كان فى قلوب هؤلاء الشيوخ الذين رفضوا أن يكونوا أصحاب بلادهم، وآثروا الأتراك على أنفسهم فى هذه المناصب.هذا الرق لايزال فى قلوبنا نحن أيضا. إنه رق التقاليد التى تخنق تطورنا. ورسالة الأديب أن يكافح هذا الرق فى النفس المصرية.» (الأدب للشعب ص٢٤)

وكان خصوم سلامة موسى يشيعون أنه يدعوللكتابة بالعامية ويروجون هذه التهمة بين الناس. وكان رده أنه يدعوإلى أدب الشعب بلغة الشعب، ويشرح ذلك قائلا:

«الأديب الحق هوالذى يجمع بين العمق واليسر، فيكتب للشعب مثل تولستوى، دون أن يبتذل الأدب فيحيله إلى أدب غوغاء ورعاع. ومع ذلك يجب أن أصرح بأن الأدب العامى إذا كتب بإخلاص فإنه يرتفع على الأدب الفصيح البليغ إذا كتب للملوك والأمراء. وأنا أوثر لهذا السبب بيرم التونسى لأزجاله العامية على أحمد شوقى وعلى الجارم لأشعارهما الملوكية».

لقد أساء بعض الكتاب فهم هذا الكلام وقالوا – عن حسن نية أوسوء – إن لغة الشعب تعنى اللغة العامية. وأشاعوا ذلك حتى فوجئت بما ينفى هذا نفيًا قاطعًا. فقد كتب فى يومياته بالأخبار فى ٢٤ يناير١٩٥٤ ينتقد الأديب الكبير محمود تيمور لاستخدامه العامية فى الكتابة ويقول:

«أهدى إلى الأستاذ تيمور مسرحيتين جديدتين من تأليفه، وقد دهشت لبدعة غير موفقة ابتدعها وهى أنه صاغ كلتا مسرحيتيه فى لغتين: الأولى بالفصحى والثانية بالعامية. وأقول أنها غير موفقة، ذلك لأعتقادى أن اللغة العامية لا تكفينا فى التعبير الفنى. وهناك من الكتاب من افتروا على وزعموا إنى دعوت فى وقت ما إلى اللغة العامية، مع إنى لم أفعل هذا قط. ولست هنا أجهل أن النهضة الأوروبية حفزت الأمم الأوروبية إلى اتخاذ لغاتها العامية بدلا من اللاتينية. ولكنى أظن أن موقفنا هنا مختلف وأننا لسنا فى حاجة إلى اللغة العامية أولا ؛ لأن الكاتب الشعبى يستطيع أن يكتب فى

لغة فصحى ولكنها مع فصاحتها ميسرة العبارة، يستطيع العامى بل الأمى أن يفهمها حين يسمعها، وثانيًا ـ لأننا فى اتجاهنا السياسى العربى الحاضر لم يعد يسعنا أن تستقل كل أمة عربية بلغتها العامى، فتنفصل عن الأخرى.

وقد حاول لويس عوض أن يكتب بالعامية، ولكنه فشل.

واعتقادى أننا كما ندعو إلى الأدب الشعبى، كذلك نحتاج إلى أن ندعو إلى اللغة الشعبية، وذلك بأن نستعمل جميع الكلمات التى تجرى على ألسنة الشعب ولا تتعارض مع اللغة الفصحى، وهذا ما أفعله أنا فإنى لا أقول «فحسب» بدلا من «فقط» ولا أقول أن «وضعت الحرب أوزارها» بدلا من «انتهت» ولا أقول «تنفس الصعداء» بدلا من «تنهد» انا وخالد محمد خالد نقول: الرجعية أسخم من الاستعمار. وهذا كله كلام عربى فصيح تفهمه العامة، فلا حاجة بنا إلى ترك الفصحى.

ورد عليه تيمور: (الأخبار - ٢٠ / ٢/ ١٩٥٤) يدافع عن اختياره للغة العامية ويقول «فرضت اللغة العربية على الكاتب المسرحى دربًا من التعنت والعزف، ثم يتساءل هل عرفت اللغة العربية المسرحية، فى أى عصر من عصور أدبها القديم أو الحديث ؟ والجواب الذى لا خلاف عليه أنه ليس بين أيدينا من أسانيد العلم وشواهد التاريخ ما يشير إلى أن العرب عالجوا هذا الدرب من الأدب. والمسرحية دخيلة فى أدبنا. ليس لنا فى شأنها أوضاع أو تقاليد توارثناها فيما توارثناه من أدبنا العربية وما دامت المسرحية مستحدثة فى الشرق طارئة من الغرب، فمن صحيح المنطق أن تتخذ فى نشوئها النحو الذى اتخذته تلك من قبل، وأن يجرى تطورها هنا كما جرى تطورها هناك» ويضيف إلى ذلك قوله:

«والمستقرئ لتاريخ المسرحية فى الغرب، لا يلاحظ أنها كانت فى أسلوبها الكتابى صورة من اللغة السائدة فى ذلك الحين».

وثمة عامل نفسى آخر، لعله كان أولى بالتقديم والابتداء ذلك أن المسرحية تقوم على الحوار. فهو كيانها العام. ونحن فى مصر يتحدث بعضنا إلى بعض بالعامية.

فالكاتب يسجل لغة الكلام المهيمنة فى عصره وبديهى أنى أقصد بالمسرحية التى أؤثر لها العامية فى التعبير تلك المسرحية المصرية العصرية ذات اللون المحلى الخالص،

أما المسرحية التاريخية التى تصور عصرًا من عصور التاريخ بعيدها أوقريبها فكلتاهما جديرة أن تصاغ بالفصحى. ولاشك فى قيمة هذه الشهادة التى قدمها محمود تيمور لأنها خلاصة تجربته فى الكتابة المسرحية، فتجربة تيمور بين العامية والفصحى هى حكم عملى كما قال العقاد فى يومياته كما أنها أوضحت وأكدت هذا الخلاف البسيط فى وجهتى النظر.

٦-الأب جورج قنواتى ودوره فى حوار الحضارات

رحل الأب جورج قنواتى وشيعت جنازته اليوم (السبت ٢٩/ ١/ ١٩٩٤) عن عمر يناهز التسعين بعد حياة حافلة فى ميادين الدين والعلم والفلسفة. فلم يكن الأب قنواتى راهبًا عاديًا، بل عالمًا وأديبًا ومفكرًا، وعاش ابنًا بارًا لمصر ورسولًا للحوار بين الحضارات.

ويهمنى أن أقول هنا إن قلة من الناس يتعلمون العلم ويعلمونه ولكن قلة القلة من العلماء هم الذين يجعلون من العلم والمعرفة عطاءً ممنوحًا لكل السائلين والطالبين.. ومن هذه القلة القليلة يقف الأب قنواتى فى موضع الصدارة.

لقد جعل الأب قنواتى من دير الدومينيكان روضة مزدهرة، بل قبلة يحج إليها الباحثون من الشرق ومن الغرب.. ومن كل جامعات مصر فيجدون النصح والإرشاد كما يجدون المودة والترحاب. وبفضله أصبحت مكتبة دير الدومينيكان أعظم مكتبة للتراث العربى والإسلامى فى هذه المنطقة.

كنت أتابع بعض ما يكتبه، وما يكتب عنه.. ثم سعيت منذ سنوات قليلة إلى لقائه، فقدمت له بعض كتبي لأعرفه بنفسي فغمرني بالحب والاهتمام، وأخذ يذكر اسمي وكتبي لبعض الباحثين الغربيين الذين يلتقي بهم في المؤتمرات العديدة. ثم يدعوني إلى لقاء من يأتي منهم لزيارته.. ويقضي معنا أوقاتًا طويلة دون ضيق وكأنه قد أخذ على عاتقه أن يقيم جسور الصداقة والمودة بين كل من يعرفهم من الباحثين. أوكأنه أراد أن يكون أبناء الكنانة دائمًا في حدقة عينيه، وموضع رعايته باعتبارهم ورثة الحضارة العريقة، ودعامة الإنسانية الجديدة التي يتطلع إليها أبناء العالم أجمع في ظل سيادة عصر من المحبة والسلام.

إن الأب قنواتي يمثل نموذجًا متفردًا في ثقافتنا المعاصرة.. فهوعالم وفيلسوف ورجل دين.. والمتأمل في سيرة حياته يجد هذا الربط المتواصل والمتتابع بين العلوم التجريبية والفلسفة العقلية وعلوم اللاهوت.. وكإنما الأقدار قد اختارته ليكون حلقة من حلقات الوصل بين الثقافات وأن يكون رسول مصالحة بين عديد من المناهج والفلسفات.. ففي شخصه يلتقي الإيمان بالله ومحبة البشر أسلوبًا عمليًا وبسيطًا يجمع حوله المريدين والمحبين.

لقد ولد في الإسكندرية ونشأ فيها..كانت الإسكندرية منارة العلم والمدنية في العصر الهيلينستي وعاصمة الثقافة العالمية في ذلك الوقت، وقد صارت الإسكندرية العاصمة الثانية التي تطل على البحر المتوسط.. في المدينة العريقة نشأ الأب جورج شحاتة قنواتي ودرس في بيروت ثم في فرنسا. درس الصيدلة والهندسة الكيميائية، ثم انخرط في علوم اللاهوت. وخصص القدر الأكبر من جهده لدراسة التراث العلمي عند العرب وأثره في الحضارة الغربية.. وهكذا جرت المسيرة ليكون ابن الإسكندرية ابنًا عالميًا تحتفل به كل المجامع والجامعات.. وكأنه يذكرنا من ناحية أخرى بمسيرة التاريخ وما قدمته الإسكندرية في عصرها الذهبي للعالم من عطاء عظيم.

ففي الإسكندرية قامت مدرستان عظيمتان للفكر، مدرسة أقامها بطليموس الأول في الإسكندرية لدراسة الهندسة والجبر وحساب المثلثات والفلك والجغرافيا والميكانيكا وازدهرت على مدى قرنين أوأكثر من الزمان.. فكانت الإسكندرية وقتها هي عاصمة الدنيا.

هذه المدرسة الوثنية التى عنيت بالعلوم التجريبية والعقلية أنجبت من نوابغ العلماء عددًا كبيرًا منهم إقليدس عالم الرياضيات العظيم صاحب كتاب «عناصر الهندسة» الذى يلخص نظريات فيثاغورث وغيره من الرياضيين، وأريسطارخوس ساموس الذى قال إن الكواكب تدور فى مدارات متعددة حول الشمس التى هى النار المحورية. وأكسبه هذا الاكتشاف لقب كوبرنيكوس العصر القديم. كما أنجبت هذه المدرسة «أرشميدس» صاحب قانون الطفو وقانون الروافع والذى قال: «أعطنى مكانًا أقف فيه بالفضاء وأنا أحرك لكم الأرض».

كما أنجبت أيضا عالم الجغرافيا العظيم المعروف عند العرب «كلوديوس بطليموس» صاحب كتاب «الماجسطي» أو التكوين العظيم.

هذه المدرسة العظيمة التى أخذت فى الاضمحلال نتيجة الصراعات الدموية بين الرومان والمسيحيين فى الإسكندرية.. لم تكد تغرب شمسها حتى برزت فى مكانها مدرسة جديدة وجليلة هى مدرسة اللاهوت المسيحى.. وكان من معلميها وعلمائها العظام القديس بنتينوس وتلميذاه كليمنضس السكندرى وأورجينوس: هؤلاء الثلاثة الذين جددوا شباب اللغة القبطية وطعموها بحروف اللغة اليونانية وترجموا إليها الإنجيل. وهكذا تمت أول ترجمة للكتاب المقدس فى تاريخ المسيحية.

فى الإسكندرية ظهر هؤلاء جميعًا وكان عطاءهم للعالم كله.. ومن الإسكندرية خرج الأب قنواتى كوارث لهذا التراث العظيم ومبشر بالمحبة بين الأمم، وكان دوره فى حوار الثقافات وفى حوار الأديان عطاءً للعالم كله، وكتابه «المسيحية والحضارة العربية» هو أعظم دليل على ذلك.

والكتاب يقدم لنا دراسة للإطار التاريخى والاجتماعى والثقافى للمسيحية فى البلاد العربية منذ نشأتها حتى مرحلة بلوغ الحضارة العربية أوجها فى العصر العباسى. ثم يقدم لنا أهم الشخصيات المسيحية التى تركت بصماتها على صفحات التاريخ من الشعراء والفلاسفة والأطباء والصيادلة وكذلك من المؤرخين ورجال اللاهوت، الذين أسهموا فى بناء هذه الحضارة.

لم يفعل ذلك بدافع الزهووالتفاخر والاستعلاء كما يفعل البعض الآخر.. وإنما بغرض واحد نبيل هوالكشف عن دور هؤلاء العلماء الذين قاموا به مشاركة لأشقائهم المسلمين فى تشييد صرح الحضارة العربية العظيمة التى استمرت زهاء خمسة قرون.

وكذلك للكشف عن الوشائج العميقة التى تربط بين أبناء هذه الأمة من مسيحيين ومسلمين فى مضمار الحضارة الإنسانية وتجعل منا شركاء فيها حتى لا يقال ظلمًا إنها الحضارة الغربية بل هى الحضارة الإنسانية العالمية.. فليس هناك الآن إلا حضارة واحدة مشتركة.. أليس هذا وصلًا للأصالة والمعاصرة؟

هذه هى ملامح الدور العظيم الذى قام به هذا الأب الجليل. والتى تجعل منه علمًا كبيرًا بين أعلام الفكر الإنسانى وداعية من دعاة المحبة والسلام بين الأمم..

رحم الله الأب جورج قنواتى وطيَّب ثراه.

٧- محمود شاكر
ومفهومه للثقافة القومية

الآن وبعد أن بلغنا نهاية المطاف فى تحقيق هذ المعركة العنيفة التى شنت ضد لويس عوض، والتى نشرت فى كتابى «لويس عوض ومعاركه الأدبية» لا بد لنا من وقفة متأنية عند بعض التساؤلات التى بقيت تشغل الذهن حول مفهوم شاكر للأصالة القومية، وموقفه المتطرف الرافض للثقافة الغربية أوالثقافة الأوروبية، خصوصًا أن هذا الموقف لم يكن طارئًا أوعارضًا بفعل هذه المعركة.. وإنما هو موقف أساسى ثابت عند شاكر نجد تبريراته ومنطوقاته النظرية فى كتابه المهم «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» الذى نشره عام ١٩٨٧م.

وواضح مما سبق أن هذا الموقف يقوم فى جوهره على أساس دينى شامل للثقافة يستبعد من حوزته كل من لا ينتمى إلى هذا الدين، بل يضعه فى معسكر الأعداء، ويظل منه فى موضع التوجس والريبة والشك بدرجة يستحيل معها الحوار وينعدم عندها التفاعل.. ولا يبقى هنالك مجال إلا الصدام.

وفى رأيى أن بدايات هذا الموقف قد تجلت بوضوح فى صدامه الأول مع طه حسين حول الشعر الجاهلى، ثم تطورت بفعل عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية حتى أصبحت أيديولوجية شاملة عنده.

وحتى يتسنى لنا أن نفهم الأسباب والنتائج، يلزمنا التعرف على صاحب هذه الأيديولوجيا.. وتتبع مراحل حياته وصداماته المتعددة مع أبناء عصره.

وصاحب هذا الموقف غنى عن التعريف، فهوالعلامة محمود محمد شاكر شاعر وباحث نقادة للشعر، ومحقق كبير للتراث العربى والإسلامى، يجمع فى شخصه بين العالم والفنان، والحديث عن جوانب نشاطه الفكرى والأدبى يحتاج إلى مجلد كامل؛ لهذا سأضطر هنا للإيجاز والتركيز على اللحظات الحاسمة والمنعطفات الفاعلة فى تشكيل هذه الرؤية الفكرية.

ينتمى الأستاذ محمود محمد شاكر إلى أسرة أبى علياء من أشراف جرجا بصعيد مصر، وينتهى نسبه إلى الإمام الحسين بن على رضي الله عنهما.

ولد فى الإسكندرية فى أول فبراير سنة ١٩٠٩، وتوفى فى ٧ أغسطس ١٩٩٧م.

انتقل إلى القاهرة فى صيف ١٩٠٩ بتعيين والده وكيلًا للأزهر (١٩٠٩ - ١٩١٣).

تلقى تعليمه بمدارس القاهرة ثم أكمل دراسته الثانوية بالمدرسة الخديوية وحصل على شهادة البكالوريا (القسم العلمي) عام ١٩٢٥، لكنه لم يتجه إلى إحدى الكليات العملية لدراسة العلوم أوالرياضيات التى تخصص فيها فى البكالوريا، واتجه إلى كلية الآداب لأن ميله للأدب غلب ميله للرياضيات، وتحقق له ذلك بتوصية من طه حسين لأن كلية الآداب لم تكن تقبل طلبة القسم العلمى.

صدامه مع طه حسين حول الشعر الجاهلى

ويحكى لنا الأستاذ شاكر فى مقدمة كتابه «المتنبي» تفاصيل علاقته بالشعر الجاهلى وصدامه مع طه حسين، ومنه نعرف الأمور التالية:

أنه بدأ دراسته بالخديوية الثانوية، مولعًا أشد الولع بالرياضيات، فدخل القسم العلمى لكنه كان «شغوفًا بالشعر منهومًا بالأدب كلفًا بالتاريخ»، حتى أنه هجر «الرياضيات هجرًا مصممًا»، وأقبل على الشعر والأدب بقلبه كله كما يقول، فحفظ ديوان المتنبى كله وحفظ «المعلقات العشر الجاهليات» ثم قرأ على الشيخ سيد بن على المرصفى أستاذ طه حسين بالأزهر كتابين جليلين، أولهما كتاب «رغبة الآمل» وهو شرح الشيخ على كتاب «الكامل» للمبرد. وثانيهما كتاب «أسرار الحماسة» وهو شرح الشيخ أيضًا على كتاب «الحماسة» لأبى تمام الطائى الشاعر.

ويؤكد الأستاذ شاكر أن هذا التحول قد حدث بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة قبل دخوله كلية الآداب بقليل. وهذا يدل دلالة واضحة على استعداده وقوة ذاكرته كما يدل على أثر أستاذه وهذا ما يوضحه بقوله:

«وفى زمان هذه القراءة كان أثر الشيخ عليَّ أثرًا شديدًا، فقد أثار اهتمامى وصرف قلبى كله إلى الشعر الجاهلى وبعض الشعر الأموى، وأخذنى ما يأخذ الشباب فى ريعان طلب المعرفة، فارت بى هذه النشوة الجديدة بالشعر الجاهلى، فجعلت تثبط همتى عن الشعر العباسى».

لقد وقع الفتى فى أسر هذا الشعر وبدأ يرتبط به فى علاقة خاصة جدًا تملأه بالنشوة والسعادة والتيه مثل أى شاب مراهق مع أول تجاربه فى الحب، انشغل حتى أصبح ممسوسًا بهذا الحب. اسمعه وهو يقول:

«وجدت يومئذ فى الشعر الجاهلى ترجيعًا خفيًا غامضًا، كأنه حفيف نسيم تسمع حسه وهو يتخلل أعواد نبات عميم متكاثف، أو رنين صوت شجى ينتهى إليك من بعيد فى سكون ليل داج، وأنت محفوف بفضاء متباعد الأطراف».

إلى هذا الحد بلغ به الهوى والتيه حتى أخذ يحدث به الشيوخ الكبار ممن يعرفهم ويلتقى بهم.. وصار هذا حاله حتى دخل كلية الآداب، وفوجئ الفتى بالدكتور طه حسين يلقى محاضراته التى عرفت بكتاب «فى الشعر الجاهلى» فصدم صدمة عنيفة اهتزت لها نفسه، إذ أحس بأن ما يقوله طه حسين ما هو إلا هجوم ساحق سوف ينسف عالمه المسحور الذى يعيش فيه ويطمئن إليه.

ولعل فى كلام الدكتور شكرى عياد تصويرًا بليغًا لهذا الموقف إذ يقول:

«من خلال تلك الدواوين (دواوين الشعر الجاهلي) لمح الفتى جمال محبوبته الخالد، وفى قاعة محاضرات فى كلية الآداب رأى ذراعًا غليظة تزيح تلك الدواوين نفسها من على منضدة الدرس، لتسقط فى فراغ العدم، أوفى سلة المهملات، بحجة أنها «منتحلة» صنعها الرواة. ولعل أصحابها المزعومين لم يعيشوا قط. كيف وكل بيت فيها ينبض بالحياة؟ ريع الفتى، وأنكر: وهم بأن يعترض، فأخرسه احترام السن، وهيبة الأستاذية»[٤٥].

لم يطق الفتى صبرًا، وقرر المواجهة. فهويقول:

«وفى اليوم التالى جاءت اللحظة الفاصلة فى حياتى. فبعد المحاضرة، طلبت من الدكتور طه حسين أن يأذن لى فى الحديث، فأذن لى مبتهجًا أوهكذا ظننت. وبدأت حديثى عن هذا الأسلوب الذى سماه «منهجًا» وعن تطبيقه لهذا «المنهج» فى محاضراته، وعن هذا «الشك» الذى اصطنعه، ما هو، وكيف هو؟ وبدأت أدلل على أن الذى يقوله عن «المنهج» وعن «الشك» غامض، وأنه مخالف لما يقوله ديكارت. وأن تطبيق منهجه هذا قائم على التسليم تسليمًا لم يداخله الشك، بروايات فى الكتب هى فى ذاتها محفوفة بالشك، وفوجئ طلبة قسم اللغة العربية، ولما كدت أفرغ من كلامى، انتهرنى الدكتور طه وأسكتنى وقام وقمنا لنخرج.

لقد فوجئ زملاء الطالب محمود شاكر بجرأته على أستاذه وأستاذ أساتذته. ويبدوأن طه حسين أراد أن يرشد ويقود تلميذه شاكر بهدوء إلى أسلوب الحوار الصحيح بين التلميذ وأستاذه فاستدعاه إلى مكتبه. وحسب قول شاكر:

«وجعل يعاتبنى، يقسو حينًا ويرفق أحيانًا، وأنا صامت لا أستطيع الرد. لم أستطع أن أكاشفه بأن محاضراته التى نسمعها كلها مسلوخة من مقالة مرجليوث، لأنها مكاشفة جارحة من صغير إلى كبير، ولكنى على يقين أنه يعلم أنى أعلم».

لكن التجريح حدث فهويقول: «ومن يومئذ لم أكف عن مناقشة الدكتور فى المحاضرات بغير هيبة». لقد أسقط شاكر الكلفة فى حديثه مع أستاذه ولم يكتف بذلك، بل أخذ يشهر به بين الطلبة والأساتذة جميعًا. وطبقًا لكلماته «ولكن من يومها لم أكف

عن إذاعة هذه الحقيقة التى أكتمها فى حديثى مع طه حسين، وهى أنه سطا سطوا كريمًا على مقالة المستشرق الأعجمى فكان يبلغه ما أذيعه بينى وبين زملائى وكثر كلامى عن الدكتور طه نفسه وعن القدر الذى يعرفه عن الشعر الجاهلى. وعن أسلوبه الدال على ما أقول، واشتد الأمر، حتى تدخل فى ذلك وفى مناقشتى بعض الأساتذة كالأستاذ جويدى والأستاذ نلينومن المستشرقين، وكنت أصارحهما بالسطو، وكانا يعرفان، ولكنهما يدوران، وطال الصراع غير المتكافئ بينى وبين الدكتور طه زمنًا إلى أن جاء اليوم الذى عزمت فيه على أن أفارق مصر كلها، لا الجامعة وحدها، غير مبالٍ بإتمام دراستى.

إن تحليل هذا الموقف تحليلا صحيحًا سوف يضع أيدينا على البواعث الأساسية التى دفعت شاكر إلى ترك الدراسة وهجر الوطن. فهذه البواعث هى التى شكلت موقف شاكر من المستشرقين ومن الثقافة الغربية عمومًا، لكن قبل أن نجرى هذا التحليل، ينبغى علينا أن نجيب عن الأسئلة التالية:

١- هل أخطا طه حسين حقًا فى فهم «منهج» ديكارت أوفى تطبيقه؟

٢- هل سطا طه حسين فعلًا على آراء مرجليوث ونسبها إلى نفسه؟

٣- هل اتخذ طه حسين إجراءً أوتصرفًا متعسفًا اتجاه هذا الطالب الجرىء الذى يسفه آراءه علانية أمام تلاميذه؟

لقد مضى على ذلك خمسة وسبعون عامًا تقريبًا وظهرت عشرات الدراسات التى تبرئ طه حسين من تهمة السطو، بل إن مرجليوث اعترف أن طه حسين توصل إلى رأيه الخاص فى الشعر الجاهلى فى الوقت نفسه، كما أثبت ذلك عدد من أساتذتنا الباحثين. وفى هذا الصدد يكفى أن أشير إلى مثلين نشرهما «الأهرام» على حلقات عن عميد الأدب العربى.

أولًا ـ مقال «العميد وديكارت» فى ١٩٨٦/١٢/٢٤ للدكتور أحمد عبد الحليم عطية الأستاذ بجامعة القاهرة، إذ يقول وهويرد على ما أثاره خصوم طه حسين: «ويستطيع القارئ أن يدرك أن بين منهج ديكارت ومنهج طه حسين بونًا شاسعًا.

منهج الأول فلسفي، والثانى أدبى. شك ديكارت منهجى وسيلة لليقين، وشك طه حسين مطلق، وسيلة للإنكار. وكلنا نعلم أن ديكارت فيلسوف شغلته قضايا الجوهر والذات والوجود، وغيرها من القضايا الميتافيزيقية التى لم يشر إليها طه حسين لا من قريب ولا من بعيد. ولا يعنى ذلك عدم تعامل طه حسين مع ديكارت وعدم استخدامه لبعض آرائه، لكنه يعنى أنه لم يتأثر بفلسفة ديكارت ومنهجه بنفس الدرجة التى تأثر بها بمناهج الكتاب الإسلاميين الذين قرأ لهم وعنهم فى الأزهر، ويمكن القول أخيرًا: إن شك ديكارت منصب على القضايا العقلية، بينما كان شك طه حسين منصبًا على القضايا النقلية.

وعلى ذلك يمكن القول: إن تعامل طه حسين مع الشك فى منهج ديكارت تعامل يحسب لصالحه، فقد استطاع أن يستوعب فكر ديكارت فى نقده الأدبى وأن يخضع القواعد الفلسفية للتاريخ الأدبى بشكل لم يقم به الفيلسوف نفسه. وهذا يؤكد أصالة طه حسين.

والمثال الثاني: من مقال الأستاذ عبد الرشيد الصادق بالأهرام ٧/ ١/ ١٩٨٧ تحت عنوان «العميد.. ومرجليوث والنقد الحديث» أشار فيه إلى ما قاله الشيخ محمد الخضر حسين من أن طه حسين قد «أغار» على الدليل اللغوى ودليل المحتوى الدينى عند مرجليوث، بأن تهمة السطو لا يمكن أن تقوم لها قائمة. فالدليلان موضوع الحديث ليسا من ابتداع مرجليوث، ولكنهما من قبيل الأفكار الشائعة فى تراث نقدى مألوف بالنسبة للمستشرق الإنجليزى والأديب المصرى. وإذا أمعنا النظر فى أوجه الخلاف بينهما تبين لنا أن هذا الأخير كان أحسنهما استيعابًا للتراث المشترك وأكثرهما وعيًا بأبعاده وأشدهما أصالة.

فمرجليوث يورد الدليلين فى إطار سلسلة من الأدلة لا ينتظمها إلا ترتيب منطقى مجرد قوامه التفرقة بين أدلة خارجية تتعلق بالظروف المحيطة بالشعر مثل: (موقف القرآن من الشعراء وأساليب حفظ الشعر ونقله) وأدلة داخلية تتعلق بالشعر ذاته لغة ومعنى ومبنى. أما طه حسين فيتبع ترتيبًا آخر من شأنه أن يضع الشعر بحيث لا يقتصر على المحتوى الدينى، وبحيث ينص فى صياغته الجديدة على أن «الشعر الجاهلى

لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم» «فى الشعر الجاهلي» ص ٤١، ومن الواضح أن هذا التعميم يتفق وعمومية فكرة المضمون أوأنه يحقق كل إمكانياتها كما يحقق كل إمكانيات فكرة «البيئة» بحيث تشمل كل جوانب الحياة. ويضاف إلى ذلك ثانيًا أن طه حسين يضع كلا الدليلين فى بداية البحث. أما بقية الشواهد التى تساق عادة للتشكيك فى صحة الشعر الجاهلى، فهويدرجها فى إطار البحث عن الأسباب والدوافع والقوى القبلية الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية التى أدت إلى وضع الشعر فى الإسلام وإضافته إلى الجاهلية.

ثم يضيف الأستاذ عبد الرشيد الصادق إلى ذلك قوله: «لم يفت طه حسين أن يبرز الأسس المنهجية التى يقوم عليها هذا المذهب الوضعى، وقد حقق أقصى إمكانياته فأصبح بحثًا تاريخيًا منظمًا.. فهويفترض مبدأ ديكارتيًا معدلًا. فلقد اشترط ديكارت فى الأفكار التى ينبغى أن يقوم عليها بناء المعرفة أن تنطوى فى حد ذاتها على بينة صدقها، أى أن تكون متميزة وواضحة بذاتها. وقد عدل طه حسين هذا المبدأ ضمانًا بما يتفق وطبيعة الدراسة الأدبية فاشترط أن يحصل النص الشعرى بينة صحته بالإشارة إلى البيئة التى صدر عنها؛ فشفافية النص بهذا المعنى تقوم إذن مقام الوضوح والتميز فى حالة ديكارت».

ثم يختم كلامه قائلا: «فطه حسين مفكر مبدع. وقد استطاع أن يدرج الدليلين موضوع الاهتمام فى رؤية متكاملة لا يمكن أن تنسب إلا إليه وحده. وهى رؤية عميقة الجذور فى حياته الأدبية. فهى ترجع إلى مراحل فى تطوره سبقت صدور دراسة مرجليوث بسنين». فطه حسين لم يكن بحاجة لمرجليوث، بالإضافة إلى كلام مرجليوث الذى يشير إلى سبق صدور كتاب طه حسين. وكلام هذين الباحثين ينفى عن طه حسين تهمة السطوالتى رماه بها شاكر.

وفيما يخص السؤال الثالث، فإن الأستاذ شاكر لم يذكر أن طه حسين قد ضيق عليه فرصة القول أوهدده أوروعه بدرجة تجعله يخاف على مستقبله الدراسى مثلا. لكن الذى حدث هوأن الطالب محمود شاكر لم يقنع بالتعبير عن رأيه فى مواجهة أستاذه طه حسين وأمام زملائه بل كان ينتظر – فيما يبدو– أن يعلن طه حسين الاقتناع بوجهة نظر شاكر ويكف عن إلقاء محاضراته، بل ويعترف بالسطوعلى مقالة مرجليوث.

لقد أتيحت لشاكر حرية التعبير عن رأيه بصورة ربما لم تتوفر لطالب مثله على مر التاريخ. لكنه أراد بالمقابل أن يسلب أستاذه طه حسين حق التعبير عما ارتآه سواء أكان ذلك من خالص فكره أم استعاره من فكر الآخرين.

كان طه حسين يغالى فى طعن الشعر الجاهلى وفى دعوى الانتحال.. لكن شاكر كان أكثر تطرفًا ومغالاة.. فإن كان طه حسين يطمح فى تعليم الشباب منهجًا جديدًا فى البحث الأدبى.. فما عذر شاكر بعد أن أعلن رفضه لهذا المنهج فى السر والعلن؟ وما الباعث الحقيقى لهذا العناد الذى دفعه لهجر الدراسة بل وهجر مصر كلها؟

وأنا وإن كنت أدافع عن سلامة موقف الدكتور طه حسين هنا.. فأنا لا أخطئ موقف الفتى محمود محمد شاكر.. لأنه عند قياس الأمر بالمنطق العقلى أوبالمناهج الموضوعية، فإننا لن نعثر على الدافع الحقيقى لتصرف شاكر.. لأن هذا الباعث يكمن فى ذات نفسه وفى تكوينه النفسى والعقلى والاجتماعى.. إنه يريد من طه حسين اعترافًا صريحًا بالسطو.

يقول عن المستشرقين نولينووجويدي: «فكنت أمتنع عن التسليم لهما بما يقولان عن البحث العلمى والأدبى وعالمية الثقافة حتى يطالبا الدكتور طه بالإقرار وأن يقرا هما أيضا، بأن ما يقوله مسلوخ كله مما قاله مرجليوث» (٤٦) فما أغرب هذا الطلب!!

لم يكن محمود شاكر شابًا عاديًا.. فقد نشأ فى عائلة ذات توجهات دينية وسياسية واضحة. فقد كان والده شيخًا لعلماء الإسكندرية، ثم عين وكيلا للأزهر الشريف. وكان هذا الوالد على علاقة بالزعيم مصطفى كامل، كما كان شقيقه الشيخ على محمد شاكر عضوًا عاملًا بالحزب الوطنى، فصحب شباب الحزب الوطنى واتصل برجاله، ومنهم: حافظ رمضان، وعبد الرحمن الرافعى، وأحمد توفيق، والدكتور محجوب ثابت، والشيخ عبد العزيز جاويش.

وكان الشيخ عبد العزيز جاويش ومعه فريق من أعضاء هذا الحزب يتبنون فكرة الجامعة الإسلامية التى رفع لواءها الأفغانى والشيخ محمد عبده، والتى عفى عليها الزمن وتجاوزتها الأحداث حين قامت ثورة ١٩١٩ وبرزت فكرة الجامعة الوطنية

المصرية التى حمل لواءها الزعيم سعد زغلول. وقد حاول منظروهذه الفكرة تأكيد مفهوم القومية المصرية بالبحث عن جذورها فى التاريخ الفرعونى.

فى هذه الفترة صدر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ على عبد الرازق الذى يثبت فيه أن الخلافة نظام مدنى ليست لها أسس من الدين.. ثم جاءت محاضرات طه حسين عن الشعر الجاهلى.. وكان شاكر ـ بطبيعة منبته ـ متعاطفًا مع الحزب الوطنى وفكرة الجامعة الإسلامية أوالخلافة الإسلامية التى أخذت تنهال عليها الطعنات فى ظل ازدهار فكرى وطنى ليبرالى يدعوللاستقلال الوطنى وللدستور وللديموقراطية وتقديس حرية التفكير والتعبير.

فى ظل هذا المناخ أحس شاكر بأن الأرض تهتز من حوله، وأن هذه الظروف لن تتيح له فرصة لفرض آرائه.. خصوصًا ونحن نعرف أن شاكر كان شابًا موهوبًا، شديد الحساسية، متقلب المزاج.. فقد ابتدأ ولوعا شديد الولوع بالرياضيات، ثم لم يلبث أن هجرها هجرًا كاملًا لوقوعه فى أسر الشعر الجاهلى.. عاشقًا متبتلًا فى محرابه.. وفجأة وجد أمامه من يطعن فى أصالة هذا الشعر.. ويحاول تحطيم المعبد على رأسه.. وتهشيم الأيقونة التى يتعبد أمامها.. وهنا ثارت نفسه وانتفض كيانه.. فقد أصبح الأمر عنده مسألة كرامة تستوجب التصدى والدفاع وإلا كيف يكون التعبير عن الحب عند أمثاله من الشبان النابهين، أومن يقبل أن تهان محبوبته على مرأى منه؟ لم يقبل هذا الهوان طبعًا وانقطع عن الدراسة.

ونعرف مما تحكيه تلميذته المقربة السيدة عايدة الشريف فى كتابها «من مذكرات شاهدة ربع قرن» أن المستشرق نيلينوقد زار تلميذه شاكر لكى يقنعه بالعدول عن قراره، لكنه رد عليه بقوله: نعم أنا مقتنع بكل ما تقوله عنى وعن تسرعى وتهورى ومخاطرتى بمستقبلى، لكنى لم أكن كما وصفت إلا لشىء واحد، هوأن معنى (الجامعة) فى نفسى قد أصبح أنقاضًا وركامًا، فإن استطعت أن تعيد لى البناء كما كان، فأنا أول ساكن يدخله لا يفارقه. قال نيلينوما هذا؟ ماذا يعني؟ ثم وجم وأحس الفتى بنظرات العيون تنفذ كالسهام فى جميع أعضائه. وبغتة قال الشيخ عبد الوهاب النجار «مؤلف كتاب قصص الأنبياء» الذى استغله جميع كتاب العربية: «إن هذا الفتى كان فى رأسه

أربعة وعشرون برجًا فطارت ولم يبق إلا برج واحد عسى أن ينتفع به يومًا، فيسترد الأبراج التى طارت»[٤٧].

هكذا رأى فيه الشيخ عبد الوهاب النجار شخصا مجنونًا أومشرفًا على الجنون، ولا شك أن تصرفه هذا كان يدل على شخصية انتحارية لا تقبل بالممكن وإنما تتشبث بالمستحيل. كان يريد أن يهاجر إلى أرض أجداده بالجزيرة العربية ليكون قريبًا من الينابيع التى أوحت بهذا الشعر لشعراء الجاهلية ومن جاء بعدهم.. وكان أبوه يرى أنه يجرى وراء أوهام لن يجد شيئًا منها.. ولم يثنه ذلك عن عزمه.. ووجد فى مكانة أبيه سندا لمغامرته.. فرتب له السفير السعودى بالقاهرة رحلة على الباخرة إلى جدة.. وهناك استقبله محمد أفندى نصيف قائمقام جدة وصديق الملك عبد العزيز، وأنه التقى بالملك أيضا» [٤٨].

فى مكة أحس بالرهبة فلم يمكث طويلًا بعد أداء العمرة، لكنه فى جدة أحس بالصدمة.. فقد كان يشكوأن تلاميذ المدارس المصرية قد أفرغوا من تقاليد آبائهم وأجدادهم.. وفى جدة لم يجد مدارس ولا تلاميذ من أى نوع، واضطر لفتح مدرسة ابتدائية وعمل بها لمدة تقرب من عامين ثم عاد إلى القاهرة، ليتفرغ للقراءة والبحث.

وبعد سنوات قليلة بدأ يكتب فى مجلة «المقتطف» ١٩٣٢، ثم فى مجلتى «الرسالة» و«البلاغ»، لكنه ظل على صلة دائمة بالرسالة فى كتابة متقطعة من حين إلى حين حتى توقفت الرسالة عن الصدور. وفى هذه الفترة شارك فى إخراج مجلة «المختار» بناء على دعوة من صديقه فؤاد صروف صاحب «المقتطف»، وكان يسهم فى اختيار مواد المجلة وترجمتها بدءًا من عددها الثانى لكنه توقف بعد قليل، وأدخل عددًا من المصطلحات الجديدة فى اللغة العربية للتعبير عن وسائل ومخترعات حديثة مثل «الطائرة النفاثة» ومجلة «المختار» هى الطبعة العربية لمجلة Reader's Digest وهى مجلة تهدف إلى نشر الثقافة الأمريكية على مستوى العالم كله ومنها الشرق الأوسط.

فهل كانت هذه الحقيقة غائبة عن ذهن الأستاذ شاكر حين شارك فى تحريرها؟ ولماذا عاب ـ إذن ـ على طه حسين وسلامة موسى ولويس عوض الاشتراك فى تحرير «الكاتب

المصري» رغم أن «الكاتب المصري» قد قامت بنشر عدد كبير من الكتب والدراسات المهمة فى النقد والأدب، ولم تتجاهل حتى قضية فلسطين أوخطورة الصهيونية [٤٩].

لم يكتف شاكر بالتحقيق والكتابة وإنما انشغل بالعمل السياسى.. فطرح فكرة «جمعية الشبان المسلمين» وهوطالب بالجامعة وأنشئت الجمعية من طلاب الآداب «الفلسفة» ودار العلوم، وكان منهم الأستاذ محب الدين الخطيب وعبد الحميد سعيد، لكنه سرعان ما اختلف معهم وتركها بعد عشرة شهور على وجه التقريب. قال لى إنه كان يريدها جمعية ثقافية ولكن بعض الأعضاء أخذ يعمل على إعطائها شكلًا تنظيميًا وأخذ يسعى للزعامة.

وفى أواخر الأربعينيات تعرف على فتحى رضوان فى المترووبدأت صلته بالحزب الوطنى الجديد فى عام ١٩٥٠، وأسهم بالكتابة فى مجلة «اللواء الجديد»، ثم دعاه فتحى رضوان للوقوف إلى جانبه أثناء الحملة الانتخابية عام ١٩٥١. فقد كان فتحى رضوان من أصول شركسية، وكان يبدوأرستقراطيًا متعاليًا، وكان يحتاج إلى شاكر بسحنته المصرية القحة حتى يملأ الفجوة بينه وبين أبناء البلد فى دائرته الانتخابية. ومع ذلك، لم يفز فتحى رضوان فى هذه الانتخابات التى حصل فيها حزب الوفد على أغلبية مكنته من تشكيل حكومة برئاسة النحاس باشا، وقد أقيلت هذه الحكومة مباشرة بعد حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢.

فى هذا الوقت انقطع شاكر عن الكتابة فى الصحف والمجلات بعد إغلاق «الرسالة» القديمة فى ١٩٥٢ وتفرغ للعمل بالتأليف والتحقيق ونشر النصوص، فأخرج جملة من أمهات الكتب العربية مثل: «تفسير الإمام الطبري» و«طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحى «وجمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار، وشارك فى إخراج «الوحشيات» لأبى تمام و«شرح أشعار الهذليين».

ونشر فى عام ١٩٥٢ قصيدته «القوس العذراء» التى استوحاها من قصيدة الشاعر العربى الشماخ، وهى تنتمى إلى الشعر الحديث من ناحية استلهامها لعناصر الموروث الشعرى، لكنها تحافظ على وحدة القافية وتلتزم بحرًا متساوى الشطرين كالشعر القديم.

وقد أعيد نشر هذه القصيدة عام ١٩٦٤. وفى عام ١٩٥٧ أسس مع الدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ إسماعيل عبيد مكتبة «دار العروبة»، لنشر كنوز الشعر العربى، ونوادر التراث وكتب بعض المفكرين، وباعتقاله هووشريكه فى ٣١ أغسطس عام ١٩٦٥ تم وضعها تحت الحراسة.

انتخب عضوًا مراسلًا فى مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٠.

اعتقل مرتين فى ظل حكم عبد الناصر: الأولى لمدة تسعة أشهر فى الفترة من ٩ فبراير سنة ١٩٥٩ إلى أكتوبر سنة ١٩٥٩ مع الإخوان المسلمين رغم خلافه الشديد معهم. فهويرى أن التيارات المتطرفة لدى الشباب تصدر من ينبوع واحد هو«الانفعال الشعري» لا من الدرس الصحيح، وأن امتلاك «أدوات التفكير» - على حد تعبيره بالمعرفة - ينبغى أن يكون سابقًا على تكوين الرأى أوالتعصب. وعن هذا الخلاف يحدثنا الأستاذ عبد الرحمن شاكر عن عمه شاكر فيقول: [٥٠].

كان من أشد المتحمسين لثورة ١٩٥٢ ولإنجازاتها الأولى فى القضاء على حكم أسرة محمد على، وطرد الاستعمار البريطانى، وتحقيق العدالة الاجتماعية، بالإصلاح الزراعى، بل كان فى رأيه أن قانون الإصلاح الزراعى كان شديد التساهل إزاء «الطبقات المستغلة» التى شكلها محمد على والإنجليز من خدمهم وعملائهم لقهر الشعب المصرى واستعباده.

وكان هذا الرأى من جانبه صدمة لفريق كبير من «المتدينين» من أصدقائه الذين كانوا يبدون حساسية مفرطة إزاء تلك الإجراءات، ويحاولون أن يلصقوا بها تهمة مخالفة الشرع، وانتهاك حق الملكية المقدس، وأنها تفوح منها رائحة اليسارية المستهجنة عندهم، ولكنه استمر على رأيه وخطأهم طيلة فترة الصدام بينهم وبين السلطة، حتى كانت الوقيعة الكبرى بين الفريقين، وزج الساخطون فى السجون. ووصلته أنباء بما يدور فيها من وسائل التعذيب والإذلال. فكان له رأيه الذى يجاهر به فى كل مجلس حتى أمام بعض المسئولين من رجال الدولة. وكان من رأيه أنه لا شىء يُسَوِّغُ للحاكم أولغيره أن «يمتهن كرامة الإنسان من حيث هو إنسان»، ولم يبال بأية نصيحة، ليكف

عن مهاجمة ما تفعله السلطة حتى أدخل السجن لأول مرة سنة ١٩٥٩ لمدة تسعة أشهر حتى أفرج عنه فى أكتوبر سنة ١٩٥٩.

ثم سجن للمرة الثانية لمدة ثمانية وعشرين شهرًا من ٣١ أغسطس سنة ١٩٦٥ حتى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٦٧ بعد انكشاف مؤامرة الإخوان المسلمين لقلب نظام الحكم.. ورغم أنه لم يكن على علاقة بهم.. بل لمجرد أنه صاحب رأى مستقل وشجاع وله مريدون وبيته منتدى يؤمه كثير من المثقفين. قال بعد خروجه من السجن سنة ١٩٦٧:

«إن نبأ الهزيمة قد دوخه حينما بلغه فى السجن، حيث رأى الاستعمار يفعل بجمال عبد الناصر وحركته، ما فعله من قبل بمحمد على وحركته، احتواها من الداخل، ثم دمرها لمزيد من تدمير الأمة ودفع أبناءها إلى اليأس من كل شىء».

وهنا يظهر الأستاذ شاكر وعيًا وضميرًا وطنيًا يقظًا يفرق فى موقفه من النظام وموقفه من الوطن.. بعكس ما قاله الشيخ الشعراوى لطارق حبيب فى التليفزيون: «أنه عند سماعه بنبأ هزيمة سنة ١٩٦٧ صلى ركعتين شكرًا لله لأن النصر لم يأت على أيدى الشيوعيين».

وقد أدهش هذا القول الكثيرين، وأثار كثيرًا من النقد والرفض، فكيف يتقبل العقل هذا القول: فإن كان جمال عبد الناصر ورجاله شيوعيين، فهل كان أبناء مصر والأردن وفلسطين الذين استشهدوا على هذه الجبهات جميعًا شيوعيين؟ وهل كان جنود إسرائيل الصهاينة الذين ذهب إليهم النصر أفضل عند الله من الشيوعيين المصريين؟ سؤال لا يجد له العقل جوابًا، وحين نقارن بين هذا الموقف وموقف شاكر نكتشف شيئًا مهمًا فى معادن الرجال.

وشاكر كرمته الدولة فأهدته «جائزة الدولة التقديرية فى الآداب» عام ١٩٨١ تقديرًا لجهوده، وإسهاماته المتعددة فى خدمة تراث الإسلام، ودرايته الواسعة بعلوم العربية، ومكانته المتميزة فى تاريخ الفكر الإسلامى.

كما أهدته السعودية جائزة الملك فيصل سنة ١٩٨٤ عن كتابه «المتنبي». وحول هذا الكتاب وقع الصدام الثانى بين شاكر وطه حسين. كان أول كتاب طبق فيه شاكر منهجه

فى «تذوق الكلام» شعرًا ونثرًا نشرته مجلة «المقتطف» فى عدد يناير سنة ١٩٣٦. وبعد سبعة أشهر جاءته رسالة من كتبى معروف بالعراق تخبره بظهور كتاب آخر بعنوان «ذكرى أبى الطيب المتنبى بعد ألف عام» للأستاذ عبد الوهاب عزام.

كان عبد الوهاب عزام أستاذًا لشاكر بكلية الآداب، وكان يعرف عنه أدبه الجم، لكنه حين أخذ شاكر فى قراءة كتابه وجده يتبجح على غير عادته ويقول إنه «أوسع، وأعمق، وأجدى ما كتب عن الشاعر منذ عاش حتى عامنا هذا».

وارتاب شاكر فى هذا الكلام فمضى يفحص الكتاب، وهاله أن يجد فيه ما يعد سطوًا على كتابه، ازداد غيظه أن عزام لم يذكره بالاسم واكتفى بالإشارة «قال كاتب المقطم» على الرغم من أنه ذكر المستشرق بلاشير باسمه مرات عديدة، لكن شاكر لم ينشر اتهامه فى حينه، بل حدث أنه التقى بالأستاذ عبد الوهاب عزام فى مكتب الأستاذ حسن الزيات بالرسالة، فواجهه - كما يقول - بكل ما رآه فى كتابه من سقطات، واكتفى شاكر بهذا اللوم أو العتاب تقديرًا لهذا الرجل. لكن الأمر اختلف حين ظهر كتاب «مع المتنبي» لطه حسين فى يناير سنة ١٩٣٧. فقد انبرى شاكر لمهاجمة الكتاب فى سلسلة مقالات بعنوان «بينى وبين طه»، وقرر شاكر أن يواجه طه حسين بمنتهى الصراحة والعنف.

وقد تناول الدكتور عبد العزيز الدسوقى هذا الموضوع فى كتابه الممتع «فى عالم المتنبي» ناقش كل ما وجهه شاكر من تهم لعزام وطه حسين على السواء. وقد ابتدأ الدكتور عبد العزيز مناقشته حذرًا حيث يقول: «وأنا لا أريد أن أدخل طرفًا جديدًا فى هذا النزاع القديم، فأنا أكن كل إعزاز وتقدير للأستاذ شاكر، واحتفى به وبكتبه احتفاء كبيرًا، وفى الوقت نفسه اختلف معه فى رأيه حول طه حسين، لأنه أحد معالم حياتنا الثقافية والفكرية، وأعتقد أنه يمثل المجدد الذى كان ينشده الأستاذ شاكر، فلقد أقبل على التجديد وهو يمتلك ثقافة عربية متماسكة.. ولهذا أثر فى الساحة الثقافية تأثيرًا عميقًا. وبقى يؤثر ويثير الجدل والنقاش حتى الآن وبعد أن أصبح فى رحاب الله. قد يكون قد استلهم مرجليوث استلهامًا شديدًا فى كتابه عن الشعر الجاهلى، وقد نختلف حول تذوقه للشعر، وقد لا نتفق معه فى كثير من آرائه، ولكن لا يمكن أن نجرده بأية حال من ريادته الكبرى للفكر والأدب طوال نصف قرن»[٥١].

وكانت قضية «تذوق الشعر» هى محك الاختبار فى هذه المعركة.. ومسألة التذوق فى النقد مسألة جوهرية لا تغنى عنها أية دراسة وهى التى تفرق بين ناقد وناقد..

وقد أقر الدكتور عبد العزيز الدسوقى بأن الأستاذ شاكر «من أخصب الذين يتذوقون الشعر العربى وينفذون إلى أغواره، ويفطنون إلى المستكن فى تجاربه من قيم جمالية مرهفة. وحديثه عن الشعر الجاهلى يشى بهذه القدرة ويؤكدها. وكتابه عن المتنبى دليل على هذا الذوق الغنى المثقف، وعلى هذا الحس الفنى المفطور على الرؤية النافذة»[٥٢].

ثم عقد عبد العزيز الدسوقى مقارنة بين الكتابين فقال: «الأستاذ شاكر مولع بهذا الجدل، مولع بهذا الصراع العقلى، ولقد صرفه هذا الولع فى كتابه، عن التفرغ للتذوق الفنى، وبذلك تحول كتابه إلى مجموعة من الأقيسة المنطقية والقضايا العقلية أخضع الشعر لسطوتها ليثبت أمورًا لا علاقة لها بقضية التذوق الفني».

أما كتاب طه حسين فعلى العكس من كتاب الأستاذ شاكر، اهتم - أولًا - بالدراسة الفنية والتذوق الجمالى، وجاءت القضايا الفكرية على هامش هذا التذوق الفنى وهومنهج مستقيم فى النقد والدراسة الأدبية[٥٣]. انتهى كلام الدكتور عبد العزيز الدسوقى، وأعتقد أنه ليس من شأنى ولا فى مقدرتى الفصل فى هذا الموضوع الشائك الآن، والأهم عندى هووضع هذه المعركة فى سياقها الصحيح من مسيرة الأستاذ محمود محمد شاكر والتعرف على آثارها فى نفسه وفى كتاباته القادمة.

وعلينا أن نتذكر أن كتاب الأستاذ شاكر عن «المتنبي» كان كتابًا طليعيًا غير مسبوق فى ترجمة المتنبى ودراسة شعره. وقد نشرته أشهر وأكثر المجلات توزيعًا فى ذلك الوقت. وكان إنكاره من جانب الأستاذ عبد الوهاب عزام والدكتور طه حسين عيبًا يشين مناهجهما فى دراسة الموضوع. فالباحث يبدأ بجمع المادة من مصادرها ومظانها وكل ما كتب عنها حتى لحظة بداية الكتابة دون أن يتعالى على كتاب أوعلى كاتب.. وله أن يختار ويقبل ما يريد ويرفض ما يريد.. فإن كان عزام قد أشار بقوله «قال كاتب المقطم» فإن طه حسين قد تجاهله تمامًا. وفى الوقت نفسه يتباهى الكاتبان بذكر بلاشير.. فلماذا

التعالى على شاكر وإنكار جهده؟! هذا هولب الموضوع فى رأيى. فقد فتح هذا الإنكار جرحًا غائرًا فى أعماق شاكر منذ أن اختلف مع طه حسين حول الشعر الجاهلى.. ومن هذه الزاوية يصح لنا أن نقيس الفعل ورد الفعل على السواء. يقول الأستاذ شاكر عن أصداء نجاح كتابه فى نفسه:

«كان كتابى خاليًا من كل إبانة عن هذا المنهج أوإشارة إليه. فكان صدوره يومئذ مفاجأة وجهت أنظار الأدباء جميعًا فى كل بلد ينطق اللسان العربى، إلى اسم مجهول وكاتب مغمور، وأصبحتُ فى خفقة كخفقة البرق اسمًا مشهورًا عندهم وكاتبًا مذكورًا»[٥٤].

ما أعظم هذا الانتصار بالنسبة لشاب فى السادسة والعشرين من عمره.

لقد أوصله هذا الكتاب إلى الشهرة فى لمح البصر! وحين يصل شاب إلى هذا المجد فى مثل سنه فإنه يشعر بأنه قد أمسك النجوم بيديه.. فكيف بعد هذه اللحظة يأتى عزام أوطه حسين ليخطف منه النور ويسرق الفرحة؟! وأين كان عزام أوطه حسين قبل ذلك؟ ولماذا اختارا هذا الوقت بالذات ليكتبا عن المتنبى بعد أن بعثه شاكر من أكفان الماضى الصفراء؟

إنها مفارقة غريبة ومحزنة.. أن تضع طه حسين فى طريقه فى كل مرة. ولوعلى غير قصد منه. فطه حسين هوالرجل الذى زلل له دخول قسم اللغة العربية. لكن هكذا تأتى المفارقات.

فى صدام شاكر الأول حول الشعر الجاهلى، كان طه حسين ومرجليوث. فى صدامه الثانى حول المتنبى كان طه حسين وبلاشير، أوعزام وبلاشير.

هكذا كان يبدوالأمر وكأنه تحالف غريب بين هؤلاء المصريين والمستشرقين ضد شاكر، إنهم يسدون عليه طريق الصدارة دائمًا، وهويشعر فى قرارة أعماقه بأنه أقدرهم جميعًا فى هـذا المـيدان، بل إنه يعتقد أنه يستحيل على أى مستشرق - مهما كانت مواهبه - أن يتذوق الشعر العربى مثله، لأنه لم ينشأ فى هذه اللغة ولم يصطبغ بثقافتها أويتشرب قيمها النابعة من الإسلام. فإذا قلت إن طه حسين مثلا نشأ فى هذه اللغة وتشرب هذه الثقافة وقيمها.. رد عليك: ولكنه يتكئ على مناهج المستشرقين ويتعالى

بمعرفتهم ويفاخر بتكرار أسمائهم.. هذه هى المعضلة التى ما كان لشاب مثل شاكر فى حدته وعنفوانه واعتداده بنفسه وبنسبه (الذى يمتد إلى الحسين بن علي) أن يهضمها. وكان لا بد أن تترك فى نفسه مرارة شديدة بل «حزازا من الوجد حامز».

ومن يشك فى صحة هذا التفسير فليقرأ رد فعل شاكر بعد أن قرر أن يواجه طه حسين علنًا بثلاث حقائق هي:

١ - إنه يسطو على أعمال الناس وينسبها إلى نفسه.

٢- إنه لا بصر له بالشعر.

٣- إن منطقه فى كلامه كله مختل.

ثم يقول: «ولم أجد بدًا من هذه المواجهة، لأنى يوم فارقت الجامعة سنة ١٩٢٨ فارقتها، ومعى ذل العجز، يومئذ على مواجهته برأيى فى تفاصيل «سُنَّة السطو» التى سنها لتلاميذه من بعده.. وأن عجزى كلى، عن مواجهته بلسانى، غير متهيب ولا متأدب، كان يهدم نفسى هدمًا، وينسف آدابى نسفًا، ويترك فى ضميرى غصة تأبى أن تزول» [٥٥].

لا عبرة بموقف الآخرين، ولا عبرة إن كان ما حدث منهم جاء مقصودًا أوغير مقصود، فالمهم هووقع الفعل على نفس شاكر. فقد كان «يهدم نفسه هدمًا.. ويترك فى ضميره غصة تأبى أن تزول». وهكذا حدث التحول الخطير فى حياة محمود شاكر.. وربما أدى ذلك إلى تحول فى تاريخنا الثقافى كله كما يرى الدكتور شكرى عياد [٥٦].

ومع ذلك ظلت الغصة تؤرق ضميره، وتوجه فكره وكتاباته، وتحدث أكبر الأثر فى إذكاء نار غضبه. لقد فسر الدكتور محمد كامل حسين - الطبيب الجراح وصاحب «قرية ظالمة» - أشعار المتنبى فى المدح والهجاء فى ضوء نظرية «الأمانى المعوقة»، وهى كما يقول غير الأمانى الخائبة. فالأمانى الخائبة ينتهى أثرها بانقطاع كل أمل فى تحقيقها.. أما «الأمانى المعوقة» فتظل فى أعماق النفس تؤثر فيها» [٥٧].

وأكاد ألمح أثر هذه النظرية عند الأستاذ شاكر. لقد أصبح شاكر اسمًا مرموقًا فى ميدان الدراسات العربية والإسلامية، لكن بعض أمانيه ما زالت معلقة، فقد جنح

إلى السياسة مع فتحى رضوان لإحياء الحزب الوطنى وبعث فكرة الخلافة الإسلامية وتهيئة الظروف «لظهور الرجل الذى ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلم، يحمل فى رجولته السراج الوهاج» لكن هذا لم يتحقق وهويريد منذ خلافه مع طه حسين تحرير العالم العربى من «التعبد للمدنية الغربية».. وإنشاء حضارة جديدة منبثقة من الدين الإسلامى [٥٨] لكن كيف السبيل، وهويرى أنصار هذه الحضارة الغربية يسدون عليه الطريق.. ومن ثم كان غضبه الشديد وقسوته الجارحة فى هجومه على طه حسين وفى سخريته من عبد العزيز فهمى وفى حملته الكاسحة على لويس عوض.

وفى هذه المعركة الأخيرة فإن كتابات الأستاذ شاكر تطرقت إلى عدة موضوعات متباينة ومتباعدة، وتطرقت إلى جوانب شخصية وعقائدية تحرج الصدور ولا تعتمد الشكوك فى أمرها على حجة مقنعة أوبرهان ملموس بقدر ما تقوم على تصورات شخصية كونها الأستاذ شاكر عن لويس و«شيعته» كما يسميهم بناء على خبراته الشخصية وقراءاته لما يكتبون.

وقد امتدت قذائفه إلى كثير من رواد حركة التنوير ورموز نهضتنا الحديثة بدءًا من رفاعة الطهطاوى، وعلى مبارك، ولطفى السيد، وطه حسين، حتى سلامة موسى ولويس عوض. وإذا تذكرنا موقفه من هؤلاء عرفنا أين يقف الأستاذ شاكر من تيار النهضة الحديثة فى الفكر والثقافة عمومًا.

إنـه رافـض لهـذا التيـار: جملـة وتفصيلا بـما يتضمنه مـن تحريـر للعقل مـن عبودية النصوص بدعوة سلفية تدعوإلى العودة إلى الوراء، إلى العصر الذهبى أوالفترة المثال فى التاريخ الإسلامى بافتراض أنه فى الإمكان قيام حضارة جديدة على أسـاس ما كان فى ذلـك الماضى. والخطأ فى هذه النظرة أنه إنـكار للتاريخ ولحركته ونكران للتطور وادعاء أن مـا كان لدينا شـيئًا لم يعرفـه الآخرون. ومن ثم فهويخشـى الدراسـة المقارنة للتراث العربى لأنها تهدم كثيرًا من مسـلماته. ويعمل على إرهاب كل من يخوض فى هذه الأمور على أسـاس تقديس الـتراث وتقديس اللغة وغلق باب الاجتهـاد فى هذه الأمور لتبقى حصونًا مدججة لكى ترهب الآخرين من أصحاب مناهج الشـك العقلانية وأصحاب النزعات المادية سواء بسواء.

وربما رأى شاكر فى شخص لويس عوض تجسيدًا لهذه التيارات الحديثة الوافدة، فشن عليه حملته المعروفة وقد أرادها عاصفة هوجاء لاقتلاعه من قلعته بجريدة «الأهرام»، وبهذا يحقق نصرًا ساحقًا على رموز هذه التيارات جميعا. لكن المفارقة الغريبة حدثت هذه المرة أيضًا.. ووقع ما لم يكن فى الحسبان. فقد تصادف أن جاءت حملة شاكر على لويس عوض فى وقت اشتد فيه التوتر نتيجة تحركات عناصر الثورة المضادة فى مصر. ففى ذلك الوقت ظهر كتاب «معالم فى الطريق» لسيد قطب وذاع صيته، ثم اكتشفت مؤامرة التنظيم الطليعى للإخوان المسلمين لاغتيال عبد الناصر وقلب نظام الحكم بالقوة، فأخذت الخيوط تتشابك والأوراق تختلط، وتلتقى كلها عند نقطة واحدة هي: التكفير.

كان شاكر يكفر المسيحيين واليهود فقط. أما سيد قطب فقد حكم بالكفر على المجتمع كله وعلى رأسه الحاكم، وخطط لتغييره بالقوة والعنف، فحوكم سيد قطب وحكم عليه بالإعدام، ووضع شاكر فى المعتقل ليقضى فيه مدة تزيد على سنتين.

لم يكن شاكر - طبعًا - على علاقة بسيد قطب أوبالتنظيم الطليعى الحركى، كما كان يسمى، لكن هكذا شاءت الأقدار أن تضعه فى هذا المأزق الغريب لتضاعف من إحساسه بالقهر والغضب، لكن رجلا من معدن شاكر لا يزيده القهر إلا قوة وإصرارًا. وهذا ما كان فعلا، فقد راح يستقطر غضبه كله فى صياغة نظرية للثقافة العربية تستبعد من دائرة العلم والتذوق جميع المستشرقين وتلاميذهم فى ضربة واحدة سماها «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا».

وواضح أن هذه النظرية تتفق فى ركنها الأساسى مع نظرية إليوت فى ربط الثقافة بالدين، لكن فى حين يقدم إليوت أفكاره فى حذر شديد على أنها «ملاحظات نحو تعريف الثقافة»، نجد أن شاكر يتحدث بعبارات محددة قاطعة وكأن الأمر قد ثبتت صحته ولم يعد محل نقاش. وغياب النظرة النقدية يمثل نقطة الضعف الكبرى فى منهج محمود شاكر؛ لأنه يحول دون إجراء أى حوار مثمر مع خصومه فى الرأى. وكما لمسنا فى مواقفه مع طه حسين وعبد الوهاب عزام ولويس عوض بصفة خاصة، أنه ينفعل بحدة شديدة ضد خصومه ولا يتفاعل أبدًا مع أحد منهم، ولا يقبل له حجة أويسلم له برأى. فالحوار

معه محكوم بالقطيعة، وغالبًا ما كان يدفعه ذلك إلى عزلة عن الناس قد تطول سنوات يقضيها مع المراجع وأمهات الكتب العربية. وكانت هذه العزلة تباعد بينه وبين الواقع وتدفعه للتمسك بالمثاليات.

هذه النزعة المثالية ليست فقط وليدة انكبابه على الكتب واعتزاله الناس لمدة طويلة فى صدر شبابه بعد هجره الجامعة، وإنما هى وليدة عوامل أخرى موروثة ومكتسبة نتيجة نشأته فى بيت من بيوت العلم والدين. فارتبط عنده حب اللغة بالإيمان الدينى. فهى لغة القرآن وعلى هذا النحواكتسبت اللغة العربية قداسة عنده، وأصبحت هى «اللغة المشرفة» كما يكرر فى كتاباته. وما دامت العربية هى وعاء الدين ووعاء الشعر والثقافة فى آن واحد، فالقداسة هنا باتت شيئًا مشتركًا أوثوبًا جميلًا يزين هذه الأمور جميعًا. هذا المدخل الدينى إلى الفكر والثقافة هوما يحكم نظرة شاكر إلى هذه الأمور، ونحن نرى أدلة ذلك فى مواقف عديدة. ولنأخذ معركته حول الشعر الجاهلى فنكتشف أن خصومته مع مرجليوث بدأت قبل ذلك حين قرأ له كتابه عن النبى محمد، ثم قرأ مقاله عن الشعر الجاهلى فقال وجدت «أعجميًا باردًا لا يستحي». كذلك حين كان يزداد الجدل معه حول هذا الشعر ويبدأ الشك يتسرب إلى عقله نجده يرد ذلك بقوله: «ألم يكن أصحاب هذا الشعر هم الذين نزل عليهم القرآن؟ وهنا يتلاشى الشك فيستعيد موقف الثبات والعناد. ثم تطور الأمر بالنسبة له فأخذ صورة القداسة التى ربطت عن طريق اللغة بين الثقافة والدين وخلعها على أصحاب هذه اللغة.. وبهذا انتقلت مثالية الفكر إلى البشر وانعكست فى صورة مثالية للأمة للعربية الإسلامية لم يعرف التاريخ لها شبيهًا».

وهنا نجد سرًا من أسرار اعتزاز شاكر بأصوله العربية. فهوينتمى إلى أسرة أبى العلياء من أشراف جرجا بصعيد مصر، لكنه لا يكتفى بهذا بل يمد هذا النسب إلى الحسين بن على رضى الله عنهما. وهويفعل نفس الشيء مع شاعره المفضل أبى الطيب المتنبى، فنجده يجاهد ليربط نسبه بالعلويين عن طريق أمه ويرفعه إلى نسب شريف، وكأنه يأنف أن يكون ابن السقاء واحدًا من أكبر شعراء العربية. وهوهنا يذكرنا بفكرة إليوت عن النخبة أوالصفوة الاجتماعية التى تحمل على كاهلها مهمة الإبداع الفنى والفكرى والعلمى وتقوم فى الوقت نفسه بالحفاظ على التقاليد الثقافية الراقية.

ويمتزج الإحساس بدور الصفوة مع الاعتداد بالنفس فى شخصية الوالد، الشيخ محمد شاكر ويشكل سمة حادة من سماته الشخصية: كان الشيخ محمد شاكر عالمًا من كبار علماء الأزهر الشريف. ودعى ذات مرة لأداء صلاة الجمعة مع السلطان حسين كامل وبقية رجال الدولة والعلماء فى مسجد قيسون بالقاهرة. وأراد الشيخ مجدى زيكو خطيب المسجد أن يحيى السلطان حسين كامل ويمتدح حسن استقباله لطه حسين وإعطاءه منحة للدراسة فى فرنسا، فقال الخطيب «ما عبس وما تولى أن جاءه الأعمى» وهم الشيخ محمد شاكر ليسكت الخطيب لولا أن منعه زملاؤه الجالسون حوله مراعاة للموقف، فسكت على مضض حتى استدار السلطان للخروج فأخذ يدعوالناس لإعادة الصلاة لأن صلاتهم وراء ذلك الخطيب المنافق كانت باطلة. وبلغت أخبار هذه الضجة أسماع السلطان حسين كامل فبعث محمد سعيد باشا رئيس الوزراء إلى الشيخ شاكر بدعوة لمقابلته.. فرفض وعاد سعيد باشا ليخبر السلطان بالرفض فقرر السلطان أن يذهب هولزيارة الشيخ شاكر إذا أصر على موقفه. وذهب إليه سعيد باشا للمرة الثانية ليبلغه بقرار السلطان، وأمام هذا الموقف غير الشيخ شاكر موقفه وذهب لزيارة السلطان وأفهمه ما فى موقف الخطيب من تطاول على المقدسات الدينية، فارتاح السلطان لهذا التفسير لكنه أعرب عن استغرابه من بعض الشيوخ الذين حاولوا تسفيه هذا الموقف الأمين.

لا غرابة بعد ذلك، أن يجيء الابن لينصب نفسه مدافعًا عن أمة برمتها هى الأمة العربية. فقد اجتمعت فيه هذه الخصال الفريدة لتزيده شعورًا بالتفوق والتميز والغربة عن واقع الحياة المتدهور وتناقضاته المفزعة وتسلمه إلى العزلة والانطواء فى عالم المثل مع أحبابه المختارين من فحول الشعراء والفقهاء والمتكلمين فى مكتبته الزاخرة. وكانت صحبته الطويلة لهؤلاء الخالدين ذات ثمار باهرة؛ إذ مكنته من استكناه أسرار اللغة وأسرارهم، وهيأت له فرصة نادرة للتأصيل لنظرية خاصة فى التذوق الأدبى. وهذا أمر بالغ الأهمية فى صراعنا الثقافى. لكن ما يثير التساؤل هوتفسيره لتاريخ صراعنا مع الغرب.

لقد قادته نزعته المثالية إلى رؤية غير دقيقة للواقع وللتاريخ فانقسم العالم عنده إلى قسمين أومعسكرين متخاصمين؛ العرب الأبرار، والأوروبيين الأشرار الذين لا هم

لهم إلا أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة على عقولنا، وعلى مجتمعنا، وعلى حياتنا، وعلى ثقافتنا، وبهذه الغلبة يتم انهيار الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة وصححوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الإنسانية والأدبية، والأخلاقية والعملية والعلمية والفكرية، وردوها إلى طريق مستقيم.

وأنت ترى هنا هذه الصورة التى رسمها الأستاذ شاكر للأمة العربية الإسلامية صورة مثالية شديدة النقاء، تذكرنا بأسطورة العصر الذهبى أوالفترة المثال التى تظهر عادة وتنتشر فى عصور الانحطاط كنوع من التعويض عن فقر الواقع وإفلاسه. لكن هذا التصور غير التاريخى يبعدنا عن رؤية الواقع رؤية صحيحة، واكتشاف سلبياته التى تعوق تقدمنا فنكتفى بإلقاء مسئولية تخلفنا على الآخرين. فالفساد ملازم للحياة منذ خلق العالم، والشر ملازم للخير فى كل أمة وفى كل عصر. وعلينا أن نتذكر أن هذه الأمة العربية العظيمة التى أسهمت فى بناء الحضارة الإنسانية بنصيب كبير فى ميادين الفكر والعلم والفن والأخلاق، وأنجبت مئات من الفقهاء والعلماء والزهاد الذين ضربوا أعظم أمثلة الزهد والعدل والاستقامة، هذه الأمة التى أنجبت عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز هى التى أفرزت الحجاج بن يوسف الثقفى وألف حجاج بعده.

لقد شخص الشيخ عبد الرحمن الكواكبى معضلة هذه الأمة فقال:

«إن الاستبداد السياسى هوسر كل داء وأصل كل بلاء فى الشرق الإسلامي». وأنا لا أقصد من هذا الكلام ـ طبعًا ـ تبرئة الغرب مما ارتكبه فى حق بلادنا من جرائم وآثام وإنما أقصد الاهتمام الجاد بكشف عوامل ضعفنا الذاتى والعمل على التخلص منها أولا، فالتاريخ ليس سوى صراع إرادات والبقاء دائمًا للأفضل.

لكن الشيء الذى يدعوللإعجاب فى رسالة الأستاذ محمود شاكر هوأنه رغم انهماكه الشديد بقضايا أمية وبمصير الأمة العربية الإسلامية، فإن هذا الاهتمام لم يخف حسه الوطنى الذى يتجلى هنا فى الإشادة بموقف الكنيسة القبطية فى مواجهة الفرنسيين والمستشرقين، هذه السمة الوطنية التى تذكرنا بنقيضه وشبيهه لويس عوض الذى جعل حبه لمصر عقيدة تعلوعلى كل المعتقدات، رغم انشغاله بفكرة قيام ثقافة عالمية إنسانية تتجاوز الأوطان والقوميات.

هذه محاولة للاقتراب من شخصية الأستاذ محمود محمد شاكر الثرية. وقد سعدت بلقائه مرتين فى افتتاح الندوة العالمية حول أدب نجيب محفوظ بجامعة القاهرة (مارس ١٩٩٠) ثم زرته فى بيته، وبهرتنى شخصيته من الوهلة الأولى بدفء مشاعره وقوة ذاكرته. إذ احتضننى بحب، وأثنى على كتاباتى. فقد كنت أهديته نسختين من كتبى (أمل دنقل، وابن سينا القرن العشرين)، عن طريق السيدة عايدة الشريف، فقرأهما وأعجب بهما. ورغم أننى أعرف أن عايدة الشريف كانت فى أغلب الأحوال تنقل بعض انتقاداتى واعتراضاتى على أفكاره، حتى أننى كنت أتردد فى القيام بزيارته، فإن هذا اللقاء العابر قد شدنى إليه وقربنى منه.

فقد شجعنى على المضى فى طريقى، قلت له إننى أخالفك كثيرًا فقال: بل يجب أن تختلف فلكل جيل مطالبه ورؤاه، هنا أحسست بأصالة هذا الرجل وبرسوخ مكانته. وحين ذهبت لزيارته ببيته العامر بمصر الجديدة، بناء على موعد معه، رآنى من شرفته العالية أجوب الشارع بحثًا عن المنزل، فأخذ ينادينى بصوت مسموع، وصعدت إليه فوجدته واقفًا ينتظرنى على باب الشقة، وهوينادى على ابنه الأستاذ فهر لكى يسعفنى بالأسانسير، فأحسست بأب حنون يفيض شوقا للقاء أبنائه أوأحد أبنائه فكم يساوى هذا المشهد فى مجال النبل والعظمة الإنسانية؟ إنه شخصية ساحرة دون شك، تكشف بتلقائيتها الآسرة عن عمق المحبة والتواضع الحقيقى. قادنى من يدى حتى الشرفة الواسعة الرحبة، وجلسنا وقتًا طويلًا لم أحس به، فى حديث متصل، وبصراحة تامة أجاب عن كل أسئلتى، حتى استحييت أن أسجل هذا الحديث رغم عدم ممانعته لهذا الأمر. كان معنا الأستاذ فهر المعيد بآداب القاهرة وقدم لنا الشاى. وفى نهاية الزيارة قام الأستاذ شاكر بتوديعى، وفى الصالة دعا السيدة الفاضلة أم فهر وقدمنى لها قائلا: نسيم مجلى الذى حدثتنا عنه عايدة الشريف. فرحبت بى ببشاشة ومودة.. وهكذا أشعرنى الأستاذ شاكر بأننى واحد من أفراد هذه الأسرة العريقة الكريمة.

هذا عن شاكر الإنسان، أما شاكر المفكر فلا يجامل ولا يريد من أحد أن يجامله. إنه قاطع كالسيف. يكره التواضع الزائف كما يكره الدوران حول الأفكار، وأسلوبه فى المعارك حاد بدرجة جارحة أحيانا. وفى بعض الأحيان نجد هذا الأسلوب يفيض بروح

الشعر والفكاهة والسخرية إلى حد يذكرنا بكبار رواد الأدب الساخر كالمازنى والبشرى حديثا كما يذكرنا بشعراء الهجاء كجرير والفرزدق والمتنبى.

وحين نمعن النظر، نلمس تأثير المتنبى فى محاولته أحيانًا إشاعة الحمية الدينية ومشاعر الزهوالعربى فى نفس قارئه:. أضف إلى ذلك طريقته فى التبويب والترتيب والإسناد أوإثبات المصادر والمراجع ثم الفهرسة، بدقة متناهية ووضوح كامل إلى درجة تشعر الباحث أنه أمام عقلية بالغة الصرامة فى التخطيط والتنظيم والتنفيذ، كل هذا يجعل تأثيره لا يبارى فى ميدان الدراسات الأكاديمية الأدبية واللغوية. وهذا ما يشهد به أصدقاؤه من دارسى الأدب العربى ومبدعيه.. ويكفى أن نذكر مثالين فى هذا المجال:

(١) قال الشاعر الكبير الراحل محمود حسن إسماعيل لعايدة الشريف:

«لا أستطيع تحديد أبعاد ما حزته من صداقتى لمحمود شاكر منذ عام ٣٦، لقد زج بى إلى الشعر الجاهلى وأمالنى مع الشعر الأموى وطوح بى مع الشعر العباسى فأحاط بى لحم سداه بالشعر كافة، وأستطيع القول إنه كان شعرى كالنبع الهادى فجعله كالبحر المتلاطم».

(٢) والمثال الثانى من شهادة رائد كبير من رواد القصة والنقد هويحيى حقى فى سيرته الذاتية، حيث يقول: وأثناء عملى بوزارة الخارجية، كانت الكتابة بالنسبة لى خاطرًا غير تام الأدوات، لكن عندما توثقت صلتى بالمحقق البحاثة الأستاذ محمود شاكر، وقرأت معه عددًا من أمهات كتب الأدب العربى القديم ودواوين شعره.. انفتح الطريق أمامى.. ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها وبيانها وسحرها.

هكذا تبدوجوانب شخصيته حادة ومتحدية لخصومه ولأصدقائه على السواء، وهذا أمر طبيعى لأن شاكر اختار منذ البداية طريق التحدى، وجاهد حتى كون نفسه علميًا وثقافيًا، واحتل مكانة عالية بين أعلام الثقافة العربية المعاصرين، وبإصرار الواثق العنيد نصب نفسه حارسًا لأصالة الثقافة العربية، بل ومدافعًا عن كيان هذه الأمة الثقافى كله. وكانت وسيلته بيانًا نظريًا هو«رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا».

لقد تناولت كثيرًا من آراء شاكر بالتحليل والدرس فى الفصول السابقة، ثم حاولت فى هذا الفصل الأخير، الاقتراب منه، ورسم صورة واضحة له، لكى تساعدنا على فهم دوافعه وغاياته حين نأخذ فى قراءتنا لهذه الرسالة المهمة.

ـ نشر هذا المقال بمجلة «العربى» فى ديسمبر ١٩٩٦.

٨- حوار مع الدكتور زكى نجيب محمود

نجم الثقافة العربية لهذا العام هوالدكتور زكى نجيب محمود الذى فاز ـ مؤخرًا ـ بأعظم جائزة تقدمها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، هوأحد فرسان العقلانية وحرية الكلمة: تتميز كتاباته بالتركيز على المنهج العلمى الذى يعمد إلى تحليل الألفاظ وتحديد المفاهيم، ويصر على الربط بين الفكر والواقع بحيث يصبح الواقع الملموس معيار لصدق الفكر والقول.

وقد عرفه القراء والمثقفون كأستاذ للفلسفة وداعية لفلسفة بعينها هى الوضعية المنطقية أوالتجريبية العلمية التى تصب كل اهتماماتها فى مجال التفكير العلمي: وقد اهتم فى السنوات الأخيرة على وجه الخصوص، بقضايا الثقافة العربية بحيث أصبحت المحور الرئيسى لاهتماماته وكتاباته: وهذا ما نلحظه عند إلقاء نظرة ولوعابرة على مؤلفاته الآتية:

تجديد الفكر العربى ثقافتنا فى مواجهة العصر ـ مجتمع جديد أوالكارثة ـ فى حياتنا العقلية ـ هذا العصر وثقافته ـ هموم المثقفين ـ وأخيرًا المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى.

كل هذا يهدف إلى الوصول إلى رؤية عصرية للثقافة العربية أوعلى الأصح صياغة جديدة ملائمة تضمن لنا الحفاظ على هويتنا القومية ومسايرة حضارة العصر العلمية

وقد منحته المنظمة العربية للثقافة جائزتها التقديرية: وبهذه المناسبة كان لنا معه هذا الحوار الذى تنشره جريدة «وطنى»:

إذ نهنئكم بالجائزة نرجو الدكتور زكى نجيب محمود إعطاء القراء فكرة موجزة عن هذه الجائزة وكيفية الترشيح لها؟

لأول مرة فى تاريخ الجامعة العربية تفكر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التى هى بمثابة اليونسكو العربى ولذلك يسمونها ـ أليسكو فى أن تقدم جائزة فى الثقافة العربية متجسدة فيمن يظنون أنه قد قدم عطاء يستحق أن يجاز عليه، ولحسن حظى أن وقع اختيارهم على شخصى الضعيف، وهى جائزة رفيعة يكفى إنها بإجماع ممثلى الدول العربية فى تونس الآن .

وأنا أقول وأن تكن مصر فى هذه الظروف الراهنة غير ممثلة فى المنظمة إلا أنها بمثابة من ضم صوته وذلك لأننى ظفرت فى بلدى مصر بجائزتين للدولة، الجائزة التشجيعية فى الفلسفة سنة ١٩٦٠ عن كتابى نحو فلسفة علمية ـ الذى صدر فى ذلك العام ثم جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٧٥.

(نشر هذا الحوار فى وطنى - الأحد ١٣ يناير ١٩٨٥)

ماذا يقول تقرير لجنة الجائزة؟ ـ لم أطلع عليه ولكن الاحتفال العظيم الذى أقيم عند تقديم الجائزة وحضره رئيس وزراء تونس والوزراء كما حضره سفراء الدول العربية وحشد كبير من المهتمين بالثقافة إنما كان برهان على حسن التقدير الذى أرجو أن أكون جديرًا به مغزى الاختيار بالإجماع لكن ما مغزى اختيار الدكتور زكى نجيب بالإجماع؟ هل يدل هذا على أن ضمير الأمة العربية قد أجمع على اختيار المنهج العلمى أو الفلسفة العلمية؟

فى عام ١٩٧٩ ربما فى شهر أكتوبر نشرت مقالات بعنوان ـ العروبة ثقافة لا سياسة ـ شرحت فيه وجهة نظرى بأن العروبة نمط ثقافى. معين يتميز بخصائص ينفرد بها دون سائر الثقافات. فمن كانت حياته تنخرط فى هذا النمط كان عربيًا كائنًا ما كان موقعه فى الوطن العربى وكائنًا ما كانت عقيدته ـ العروبة نمط ثقافى تمثل بجلاء فى هذه الرقعة

من الأرض التى تمتد من الخليج إلى المحيط، ولعدة آلاف من السنين مضت، ويكفى أن نقول إن من تلك الخصائص، إلى جانب اللغة العربية، أن هذه الرقعة شهدت جميع الديانات المنزلة من السماء مما يدل على أن هذه الرقعة من الأرض، تكاد تكون هى التى علمت العالم مبادئ الأخلاق الأساسية كما نزلت بها الديانات، وأن تكريم الثقافة العربية ممثلة فى شخصى الضعيف يدل على حسن تقدير المنظمة بأهمية الدور الثقافى الرائد لهذه المنطقة، والعمل على بعثه ضمن رؤية ملائمة لهذا العصر.

لكن البعض يؤرخون للثقافة العربية بظهور الإسلام؟

الثقافة العربية سبقت الإسلام ونحن نقول الثقافة العربية لا الثقافة الإسلامية

السلطة ليست أم القيم.

أصبح التراث هو الشغل الشاغل لكثير من المفكرين والكتاب، داخل مصر وخارجها وتعددت زوايا النظر إليه وفى كتاب ـ تجديد الفكر العربى يسخر الدكتور ذكى نجيب محمود من دعاة الإحياء قائلًا إن المشكلة هى أن التراث كمجموعة من القيم والعادات والتقاليد والمبادئ مازال ساريًا فى دمائنا، يعرقل نمونا الحضارى ويعوق نهضتنا الإنسانية، فما أكثر الذى ينبغى أن نرفضه من التراث بل ـ نقتله ـ بهذا التعبير، فما هذه القيم أوالعادات التى يجب أن نتخلص منها ؟

فرد الدكتور ذكى نجيب محمود قائلًا:

أذكر أننى ذكرت من هذه القيم ثلاثة: أولها ـ أن يكون للسلطة السياسية كل هذا الوزن الذى تتمتع به فى الكيان الاجتماعى نعم ـ إن الدولة أى دولة، لابد أن يكون لها سلطة مركزية ذات هيبة، إلا أن هيبة هذه السلطة هى إحدى القيم وليست أم القيم. وكانت العصور الماضية معذورة بعض العذر فى أن تجعل للسلطة كل ما كان لها من وزن لأن العصور الماضية لم تعرف حقوق الجماهير كما يعرفها العالم اليوم.

ومن جانب آخر: إن وضع المرأة فى المجتمع، ومهما كانت المزايا التى تمتعت بها فى الماضى، فهى بغير شك لم تكن قد ظفرت بكل ما ظفرت به اليوم من تعليم ومشاركة فى العمل، فإذا كانت العصور الماضية معذورة فى أن تحمل للمرأة احترامها دون أن تفسح

لها مجال المشاركة فى النشاط الاجتماعى بكل جوانبها، فإن ظروف عصرنا قد تغيرت بحيث ينبغى أن نعيد النظر فيما هو من حق المرأة المصرية •

فى كتاب ـ تجديد الفكر العربى أشار الدكتور زكى نجيب إلى المرأة ـ المثقفة ـ كمثال لتمزق الإنسان العربى بين قيم التراث وقيم الحياة، فهى أستاذة وعالمة ووزيرة، لكن التراث بقوانينه وتشريعاته يضعها فى منزلة أدنى من الرجل، بحيث يستطيع الرجال إذلالها بالطلاق والزواج على الرغم مما حققته فى الحياة الدنيا من ـ حرية اقتصادية ـ وحمل المسئولية ـ أما المثال الثانى فهو الرجل ـ المثقف ـ الذى يعيش بين جدران العمل أو فى مدرج الجامعة أو بين آلات المصنع بعقلية الحياة المعاصرة، ولكنه بين أهله ومواطنيه يعيش بعقلية الدراويش والمشعوذين •

أما العامل الثالث، فهو غياب الإيمان بقدرة الإنسان وإرادته، فكل شىء منزل من عل، ولا إرادة لمشيئة صاحب الأمر، وهو السلطان فى جميع الأحوال. وقد نسى الدكتور هذه النقطة الأخيرة، وحين ذكرته بأنها متعلقة برأى الفرد وحريته قال:

إن موقع الفرد من البناء الاجتماعى فى الماضى لم يكن بهذا التميز الذى يريده عصرنا ـ لأنه كان ـ فيما مضى ـ جزءًا لا تميزه حدود الفردية فى الوسط الاجتماعى ولا تزال فى عصرنا مذاهب تقدم المجموع على الفرد كالشيوعية، والنازية والفاشية.

* هل لانشغالنا بالتراث دلالة صحية؟

هى دلالة صحية جدًا لأنه ينبغى أن نفهم بوضوح أن الغرب يواجه حضارة واحدة هى التى طورها من عهد اليونان فى حين أننا مع بعض البلاد الأخرى ذات الحضارات القديمة كالهند والصين نواجه حضارتين وثقافتين الأولى هى الحضارة والثقافة القديمتان والثانية هى حضارة العصر وثقافته ومحال علينا أن نتنازل لا عن الأولى ولا عن الثانية، لأن الأولى تحتوى على الأسس الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية واللغة والتاريخ والدين ونوع البطولات، أما الثانية فتحتوى على العلوم الطبيعية أساسًا وما ينتج عنها من صناعات وتكنولوجيا ونظم سياسية واقتصادية جديدة.

ونحن إذا اكتفينا بما هو معاصر فقط أضعنا على أنفسنا الهوية التى تميزنا، وفى الوقت نفسه نقول إننا لو اقتصرنا على موروثنا فإننا نضيع على أنفسنا القوة الكامنة فى ثقافة هذا العصر وحضارته.

وعلى هذا يصبح الهدف الأساسى للمثقفين عندنا هو أن نلتمس صيغة جديدة لحياتنا تصون لنا هويتنا، ثم تضيف إضافة عضوية مقومات هذا العصر من علوم وصناعات.

ولقد تجسدت هذه الصيغة الجديدة بالفعل فى كثير من أعلامنا فى العصر الحديث بحيث نجد الواحد منهم مزيجًا عضويًا فيه تاريخه وثقافته وقيمه، وفيه أيضًا روح العصر ورؤيته وعلمه.

إذن فكل المطلوب هو أن نجعل هذه الصيغة التى تمثلت فى هؤلاء الأعلام رؤية عامة للشعب بصفة شاملة.

نماذج الصيغة الحضارية

مَنْ هؤلاء الأعلام الذين نعتبرهم نماذج لهذه الصيغة الحضارية؟

هم كثيرون ولكن يكفى أن نذكر منهم طه حسين فلا فرق فى شخصية طه حسين بين الشيخ طه الأزهرى وبين المسيو طه حسين الفرنسى.

(يقصد أن طه حسين جمع فى شخصيته بين ثقافتين وألف بينهما فى وفاق تام).

طبعًا هذا الاهتمام بالتراث، وتقليبه على هذا النحو من مهمته أن يزيد وعينا بأنفسنا وبالعصر؟

ليس هذا فقط بل إنه مصدر الإلهام الأساسى فى حياتنا الثقافية خذ نفسك كفرد وحلل نفسك من الداخل وأنظر إلى العناصر الموجودة فى الموقف وأنت تفكر فى كتابة مقالك للصحيفة، سوف تجد أنه ضرب من المستحيل أن تتنازل عن السنوات التى مضت من تاريخك الشخصى كله، ولا تدرى أنت عند البدء فى الكتابة ما الذى ستأخذه من ماضيك الفردى لهذه المقالة، وما الذى ستدعه، إنما هى خواطر تنساب متداعية

بعضها وراء بعض حتى تكتمل المقالة، تصور صورة كبرى لهذا النموذج الصغير تجد أمة كاملة تفكر وينبض قلبها بوجدانات معينة وتنشط بسلوكيات معينة، فمن المستحيل عليها التخلص من الماضى أوالاستغناء عن بعض مراحله وإذا أردنا أن نفعل ذلك فمن أى المراحل نبدأ وبأى تاريخ من ١٨٠٠ أو١٩٥٠ مثلا ولماذا ؟ سنجد أن تاريخ الأمة ليس له بداية محددة وحتى المولد الأول للإنسان• كل هذا التاريخ يرثه المولود من أبويه وجدوده ويتشربه من بيئته أردنا أولم نرد. هناك تسلسل. وهى عملية حية أن تتصل السلسلة التاريخية.

ما رأى الدكتور زكى فى تدريس تاريخ مصر فى الجامعات المصرية، وهل يجرى فى هذا التسلسل الضرورى ؟ وماذا نقول بالنسبة لإهمال المرحلة القبطية ؟

هذا كلام تقوله أنت، ولكننا لم نهمل تدريس التاريخ• كل ما هنالك تفريعات فى التخصص، فكل الأولاد يشتركون فى تعلم التاريخ إلى مرحلة الثانوى حين يبدأ التخصص. (طبعًا التخصص إلى قسم علمى وقسم أدبي) ـ ربما تكون بحاجة إلى مدرس ملهم وهذا ما ينقصنا؛ لأن المدرس الآن مشغول بشواغل هذه الدنيا من نواح كثيرة لكن لوأوجدنا الظروف التى يستطيع فيها المدرس أن يلقى دروسه بطاقة روحية لكانت دروس التاريخ المصرية كافية.

لقد طرح الأستاذ توفيق حنا القضية للمناقشة على صفحات وطنى وكانت وجهه نظره تنحصر فى أن الجامعات المصرية تدرس فى قسم التاريخ بمرحلة ما قبل الليسانس تاريخ البطالمة والرومان وتتجاهل تاريخ مصر القبطية ؟

أنا لا أعرف هذا، وإذا كان هذا صحيحًا فهونقص لا شك فيه• فالطالب لا بد أن يدرس التاريخ فى تسلسله الطبيعى. فهل فى قسم التاريخ حذف لستة قرون من القرن الأول الميلادى حتى القرن السادس. نقص طبعًا، فكيف ذلك؟

طبعًا نقص خطير لأنه يترك فجوة ويضر بوعى المواطن ـ طبعًا التسلسل لا بد أن يكون حاضرًا فى أذهاننا بدرجات مختلفة من الوضوح تختلف باختلاف درجات التخصص.

الهجوم على الرواد

ما رأى الدكتور فيما تنشره بعض الصحف التى تصدر خارج مصر من هجوم على رواد نهضتنا الفكرية، طه حسين وتوفيق الحكيم وحسين فوزى ولويس عوض والدكتور ذكى نجيب محمود إلى حد اتهامهم فى الدين والعقيدة ؟

رأى أنه مادام الكاتب قد أعطى نفسه الحرية فيما يريد أن يقوله فلا بد أن نعطى القارئ الحرية فى أن يقول ما يراه، والأيام من شأنها أن تغربل هذا وذاك لتنتهى إلى ما يستحق البقاء. وكل واحد يعبر عن أفقه إن كان ضيقًا أو واسعًا، ليس هناك محكمة تحكم بيننا سوى الحركة النقدية على امتداد زمن معين.

لكن خطورة الاتهام أنه يجعل البعض يجفل ويتردد فى التعبير عن أفكاره ؟

إذا تردد المفكرون أوالكتاب فى الكتابة فهم مخطئون وإذا كانوا مؤمنين بعملهم فليمضوا فى قولهم. لكننا لا يجب أن نبالغ فى حجم هذه المعارضة لأنه بينما يقال أن هناك معارضة ضد فلان وفلان فإن كتب فلان هذا تباع ثم أن هؤلاء المعارضين أنفسهم قد أقاموا معارضتهم على قراءة الكاتب، معنى هذا أن الكاتب مقروء.

قرأت ذات مرة أن الإمام الغزالى أشار إلى أن تهمة التكفير كانت أولى البدع فى الإسلام؟

بغض النظر عما قاله الإمام الغزالى وما لم يقله، فإن الإسلام نفسه لا يجيز لأحد أن يكفر أحدًا مادام قد أعلن الشهادة. والإسلام بالذات يجعل العلاقة بين العابد وربه بلا وسيط.

يرفض الدكتور زكى دعوة الغزوالثقافى لكن الدكتور عبد العظيم أنيس يؤكدها على أساس أن العرب حين اخذوا عن الحضارة اليونانية القديمة كانت تلك الحضارة قد سارت تراثًا ولم تكن أوروبا ـ آنذاك ـ قوة حية ودولا قوية تملك الجيوش والأساطيل وأحدث وسائل العصر التكنولوجية، كما تتمثل اليوم فى أوروبا وأمريكا.

هذا الكلام لا أقبله لأننا أمام ناتج ثقافى معين. فإذا كان العرب الأقدمون قد أخذوا باختيارهم ثقافة أخرى ودمجوها فى ثقافتهم، علمت من ذلك إنى لوصنعت الصنيع

نفسه كنت أسير على نهج السابقين، ومعنى ذلك أن أكون حرًا فيما اختاره من ثقافات الآخرين وأدمجها فى ثقافتى، ولا ضرر فى ذلك، أما أن يقال إننى حين اختار أكون فى وهم لأننى فى الحقيقة مرغم بحكم الأجهزة الحديثة من راديو وتليفزيون فكأنهم يقولون لى إنك مسلوب العقل والإرادة ـ وحتى إذا كان ذلك صحيحًا فليقولوا لى ماذا أصنع لأسترد عقلى المسلوب وإرادتى المسلوبة ؟

هل وسيلة ذلك أن أغلق أبوابى ونوافذى حتى لا ينفذ إلى الضوء، وحتى لو أغلقتها فالراديو لا يزال ينقل آلى ما يقوله الآخرون فأين المفر؟ لقد قلتها أكثر من مرة، إن المفر الوحيد هو أن نربى أبناءنا على قوة النقد العقلى لما نتلقاه ثم نترك أنفسنا أحرارًا فى الأخذ والعطاء.

ومن يرى غير ذلك فليبدأ هو ويغلق جميع النوافذ والأبواب على نفسه حتى جهاز الراديو وهناك الأقمار الصناعية قادمة بما تفرضه من تأثير لا تصلح معه أى مقاومة.

العرب وعلوم العصر

يقال إن العرب قد خرجوا من سباق الحضارة العصرية،ولم يعد لهم إضافه تركز فى علوم العصر حتى أصبحوا خارج نطاق الزمان والمكان مع بقية شعوب العالم، فما رأيك فى هذا القول؟

ـ نعم. ليس العرب أو العالم الثالث فقط وإنما المنتجون الحقيقيون لعلوم الحضارة الآن هم عدد قليل جدًا من الدول الغنية ـ لأن الأبحاث العلمية أصبحت عالية التكاليف حتى لتبلغ ألوف الملايين من الدولارات. ولكننا نطالب أنفسنا والعالم الثالث بأن يشارك بالإضافة فى تطبيقات محلية للمناخ العلمى السائد. فإذا كنا لا نستطيع الإبداع العلمى فعلى الأقل أن تكون لنا قدرة التطوير، بمعنى أن أطور ما اخترعه الغرب من طيارة وسيارة أو ثلاجة فى أشكال ملائمة، بحيث لا نشعر بالشلل إذا أمتنع الغرب عن إمدادنا بقطع الغيار.

هل تقر سيادتكم ما يقال إن الثقافة المصرية أو الثقافة العربية فى أزمة؟

ـ فى الحقيقة أنا لا أفهم ما يقصد بكلمة ـ أزمة ـ فى مثل هذا السياق، وعلى كل حال، الثقافة العربية أوالفكر العربى ليست سحابة فى الهواء، الفكر العربى هم المفكرون العرب، والثقافة العربية هم المثقفون العرب، فإذا كان المراد هوأن المفكرين العرب والمثقفين العرب ليسوا على المستوى المطلوب لإبداع رؤية جديدة تتناسب مع ظروفنا فهذا صحيح،وتكون هذه هى الأزمة.

إن مفكرينا لم يوفقوا إلى تكوين رؤية عربية فيها الهوية الأصلية وفيها المشاركة العصرية

على مستوى العالم العربى، مَنْ من المفكرين العرب يشاركك الاهتمام بهذه القضية؟

ـ والله أنا فى الحقيقة لا أعرف أحدًا جعل القضية بهذه الأهمية بل ربما هم لا يعتقدون أنها بهذه الأهمية كما أنا أعتقد.

وانتهى حديثنا بوعد على اللقاء.

ـ نشر بجريدة «وطنى» فى ١٣ يناير ١٩٨٥.

٩- محمد كامل حسين مفكرًا ليبراليًا

هو أحد النماذج الفريدة فى ثقافتنا المعاصرة، إذ جمع بين النبوغ العلمى والنبوغ الأدبى وحاز التقدير الكبير فى الميدانين فحصل على جائزة الدولة عن روايته «قرية ظالمة» عام ١٩٥٧. ثم حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم عام ١٩٦٤. ولد محمد كامل حسين فى العشرين من مارس ١٩٠١. وتلقى تعليمه الثانوى بالمدرسة الإلهامية بالقاهرة ثم التحق بمدرسة الطب بقصر العينى وكان ترتيبه الأول فى كل هذه المراحل، مما أهله للحصول على بعثة لدراسة الدكتوراه بإنجلترا.

وكامل حسين يذكرنا بمفكرى عصر النهضة فى أوروبا الذين كانوا يجمعون بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية. فهو أستاذ فى جراحة العظام وصل فى تخصصه إلى أعلى الدرجات، ومعلم تدرج فى سلك التدريس بالجامعة حتى وصل إلى منصب رئيس قسم جراحة العظام ثم مدير لجامعة عين شمس سنة ١٩٥٢.

ولم تمنعه ممارسته للمهنة كطبيب ومعلم من مواصلة التنقيب والبحث فى الأدب والفلسفة والدين والتاريخ. وظل يسهم فى هذه المجالات بكتاباته حتى اختير عضوًا فى مجمع اللغة العربية عام ١٩٥٢. وله عدد من الكتب المهمة مثل: متنوعات - الجزء الأول.

١. قرية ظالمة ١٩٥٤-.التحليل البيولوجى للتاريخ ١٩٥٧ وحدة المعرفة ١٩٥٨ -متنوعات - الجزء الثانى ١٩٦١ الوادى المقدس ١٩٦٨ الذكر الحكيم ١٩٧١-.

٢. الشعر العربى والذوق المعاصر ١٩٧١.

بالإضافة إلى عدد من الأبحاث الأخرى التى أسهم بها فى دورات المجمع اللغوى مثل:

- أدب النقائض وحقيقة أمر الفرزدق.
- القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية.
- اللغة والعلوم.
- معنى الظلم فى القرآن.
- أصول علوم اللغة.
- أسلوب أبى العلاء المعرى ودلالته.

بالإضافة إلى بعض اقتراحاته المهمة لتيسير اللغة العربية وحل مشاكلها.

وهوكطبيب وأستاذ جامعى نجده مهتمًا فى كل ما يكتب بالعلاج ووضع الحلول. ويبدوأن انشغاله كطبيب بعلاج كسور الجسم وجروحه قد كشفت له عن بعض المناطق المظلمة فى النفس البشرية، ورأى فى لحظات الآلام الرهيب مواطن الداء الحقيقية، فاهتم بأزمة الإنسان ككل وراح يبحث لها عن العلاج فى مجالات المعرفة المختلفة، فدرس الفلسفة والتاريخ وحاول الوصول إلى نظرية لتفسير التاريخ الإنسانى. واهتم بدراسة الأديان السماوية الثلاثة وبالأخلاق اليهودية والمسيحية. كذلك اهتم بالتفسيرات العلمية والأخلاقية للقرآن ومن أهم بحوثه فى هذا الشأن «معنى الظلم فى القرآن» ولفظ الظلم ومشتقاته يتردد فى القرآن أكثر من مائتى مرة.ولعله وجد فى معنى الظلم وآثاره الاجتماعية مصدر الداء بالنسبة للأفراد والجماعات.. وهذا ما يبدو واضحًا فى روايته «قرية ظالمة» وفى قصتيه القصيرتين «الإسخريوطى» و«الراهبة والعجوز».

مصادر ثقافته

والمتتبع لكتابات كامل حسين، يلاحظ عمق معرفته بالأديان وبالكتب السماوية عمومًا وعلى الأخص القرآن، كذلك تمكنه من اللغة العربية وامتلاؤه بها. ولا شك أن نمو هذه الثقافة وتعمقها على هذا النحو يرجع إلى نشأته فى «عائلة علماء مسلمين» كما أشار فتحى رضوان.

ومن المهم أن نشير إلى أن مواهبه الشخصية الفذة من ذكاء وذاكرة قوية،وقدرة فائقة على فهم لغته واللغات الأجنبية بل وطباعه الهادئة الرقيقة، كل ذلك قد هيأ له فرصة اللقاء الخصب مع مجتمع الغرب، كما هيأت له فيما بعد حين عاد إلى وطنه أن يكون صديقًا لأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، ولطه حسين عميد الأدب العربى ولأستاذه الدكتور على باشا إبراهيم. ولكثيرين غيرهم من رجال العلم والأدب.

اشتغاله بالكتابة

كان من الطبيعى لإنسان هذه مواهبه أن ينزع للتعبير عن آرائه العلمية والأدبية، فابتدأ منذ تخرجه فى كلية الطب يكتب فى «السياسة الأسبوعية» باسم مستعار هو «ابن سينا» ويشير الدكتور إبراهيم بيومى مدكور - رئيس المجمع اللغوى - فى مقاله بمجلة (الهلال عدد مارس ١٩٧٣): إلى ذلك قائلًا: «لم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة، بل امتدت إلى (اللغة العربية) و«البحوث العلمية» ولوسمى نفسه (ابن المقفع) أو(عبد الحميد) ما عز عليه ذلك».

ويواصل الدكتور مدكور كلامه قائلًا: «عرفته فى مجالس لطفى السيد.. وكان حديثه يدور غالبًا حول الأدب واللغة والإصلاح والتجديد» وكلمتى الإصلاح والتجديد تعطيان مفتاحًا لفهم شخصيته. فقد تمثلت معانيهما فى كل عمل قام به وكل كتاب ألفه. يتأكد ذلك فيما يقوله صديقه الأستاذ فتحى رضوان عن تجديده فى أساليب علاج كسور العظام وإقامته مركز طب العظام بمستشفى الهلال، وإشارته إلى دوره فى التجديد الروحى بإرساء «تقليد خلاصته عندما يسمع جرس عربة الإسعاف عند

منعطف الطريق حاملة جريحًا إلى المستشفى يجب أن يكون طبيب النوبة قد فرغ من ارتداء معطفه الأبيض وأسرع عدوًا إلى حجرة العمليات ومعه معاونوه - لكيلا يضيع على المصاب أقل قدر من الزمن» وهذا ما أكده الدكتور عبده سلام الذى قال إنه تتلمذ على يديه وتعلم منه معنى المسئولية وحسن العناية بالمريض.

وقد كللت جهوده فى هذا السبيل بإنشاء أول قسم لطب العظام بجامعة عين شمس، وقدرت له الدولة هذا الصنيع العظيم ومنحته جائزة الدولة التقديرية للعلوم ١٩٦٥.

بل إن هذه الصفات هى التى كانت موضع اهتمامه فيمن كتب عنهم.

كتب عن لطفى السيد يقول إنه أرسطى من الطراز الأول، ويعتبر تشابهه مع أرسطوسببًا فى نجاح دعوته الفكرية. «لم يكن عفوًا أن يكون الداعية الأكبر إلى أرسطو فى مصر الحديثة هو أحمد لطفى السيد، بل لم يكن بد من أن يكون الأمر كذلك».. لأن نجاح الدعوة - فى رأيه - مشروط بأن يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعة وتفكيرًا إلى ما يدعو إليه».

وقال عن الدكتور على إبراهيم إنه «كان بناء، فقد شيد كثيرًا، وكأنما عاهد الله على أن لايترك شيئًا مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيهًا فى مصر».

وفى وصفه لهذين الرائدين، يؤكد امتلاكه لموهبة الكتابة الأدبية، وعلى الأخص القدرة على رسم الشخصيات وإبراز الصفات المؤثرة فى سلوكها. وقد تجلت هذه القدرة فى بنائه لشخصيات قصصه وبالذات فى «قرية ظالمة» حيث نلاحظ براعته فى استحضار الشخصيات التاريخية بسماتها النفسية والفكرية المعروفة فى الكتب الدينية والتاريخية.

وكذلك الأمر بالنسبة لدراسته للغة العربية واقتراحه لتيسير كتابة اسم العدد بإبقائه دائما على حاله مع الفصل بينه وبين المعدود بحرف «من» فيقال دون تفرقة خمسة من الرجال وخمسة من السيدات. وذلك لأنه يريد لهذه اللغة أن تكون أداة علم وتحضر تيسر للأجيال الفهم والتفكير والتعبير. وأن الصراع بين العامية والفصحى يجعل عملية التيسير ضرورية وعاجلة حتى تواكب التطور الحديث فى الفكر والأدب.

عالم يؤمن بالعقل وبالتجربة العلمية

فى حفل استقباله عضوًا بمجمع اللغة العربية وصفه الدكتور مدكور بأنه عالم يؤمن بالعلم وبالتجربة العلمية. وقال عنه فى موضع آخر: «وكامل حسين يريد العقل العلمى الذى يحلل ويعلل لا العقل الإقطاعى كما يسميه أحيانًا، أوعقل القرون الوسطى الذى يسلم ويستسلم فلا ينقد ولا يناقش ولا يخترع ولا يبتكر. وهو فى ربطه للعلم بالعقل يدرك فى وضوح مدى الصلة بين الطب والفلسفة، فهو فى نفسه فيلسوف بقدر ما هوعالم».

هذه اللمحة السريعة تلخص دون شك موطن الأصالة فى فكر كامل حسين. ولعل تفرد كامل حسين فى الناحية المنهجية يؤكدها الأستاذ محمود أمين العالم بقوله:

«والدكتور كامل حسين مفكر أكثر منه أديب، يغلب الطابع الفكرى الخلاق على كل ما يكتب، لا تشذ عن هذا روايته «قرية ظالمة» فله منهج محدد فى التفكير يستلهمه من ثقافته العلمية. وله مذهب واضح القسمات.يستوعب جانبًا كبيرًا من أشكال التعبير والنشاط الإنسانى ويعد كتابه الأخير «التحليل البيولوجى للتاريخ تعبيرًا عنه.

وهويشرح هذا المنهج فى كتاب «وحدة المعرفة» قائلا:

«والإصلاح المنهجى الذى ندعوإليه يقوم على أنه حان الوقت الذى نستطيع فيه أن نغير من وضع الهرم المقلوب فنجعل المعرفة هرمًا قائمًا على أساس الطبيعيات، وهى أساس ثابت، قائم على البرهان والتجربة، فيه تكون القضايا عامة غير قابلة للاستثناء، وفيه يكون الواقع معروفًا لا يحتمل الشك ولا يتسع للآراء المتضاربة، وفيه يكون الواقع والمعقول شيئًا واحدًا لا يقبل الخلاف. ثم نقيم على هذا الأساس علوم الحياة على نسقه وأسلوبه، فيتحدد بذلك المذهب الحق من بين المذاهب الحيوية، ثم نقيم على هذا كله علوم الإنسانيات متسقة فى نظامها مع علوم الحياة».

وإدراك كامل حسين لأزمة العقل الإقطاعى فى العصور الوسطى هى التى حمته من الوقوع فى شباك الثنائية الفكرية أوالازدواجية التى صبغت الفكر العربى منذ تلك العصور.

لقد انفرد وحده فى تاريخ الفكر العربى الحديث كله بإقامة فلسفته ومنهجه على أساس تطور العلوم البيولوجية والطبيعية. وحتى نظريته فى التطهر التى شرحها فى الوادى المقدس تشير إلى دين إنسانى يبدأ بالإنسان وينتهى إليه فى علاقته بالله.

ولعل هذا ما يجعلنا، نحس أنه يهتدى بمنهج راسخ لا يشط به هنا ولا هناك.

«فهويرى فصل الدين عن النظم الاجتماعية لأن الدين ثابت والنظم متغيرة. ولأن هذا الارتباط قد أدى إلى محنة كبيرة عند المسيحيين وعند المسلمين. وفى مقال "محنتان متشابهتان» يقرر أن الصراعات الدينية التى قامت حول التجسد عند المسيحيين، والتى ثارت حول خلق القرآن عند المسلمين كانت متشابهة فى تطورها وفى أسبابها ونتائجها. وينتهى من تحليله للحادثتين إلى النتائج الآتية:

«فمن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من المسيحيين والمسلمين كانت تتمثل فى الإيمان الطاهر النقى البسيط الذى لا يشوبه التفكير الدقيق فى مظاهر هذا الإيمان، ثم لم يلبث الناس أن بحثوا فى هذا الإيمان وحكموا المنطق والعقل وتفلسفوا».. وهنا نشأت الطوائف الدينية. وكان هذا بداية الاختلاف الفكرى. لكن الأمر لم يستمر فى حدود الفكر. فقد حاول بعض رجال الدين الاستعانة بالحكام، واستغل الحكام بعض هذه الطوائف لخدمة أغراضهم. ومن هنا تحول الأمر إلى صراعات دموية لا علاقة لها بالدين ولا بصحة الاعتقاد.

هذا التحليل الدقيق النزيه لمحنتى المسيحيين والمسلمين يؤكد نتيجة واحدة أن ربط الدين بالسياسة فيه ظلم للدين وظلم للسياسة وظلم للناس فى كلتا الحالتين. كما أن المؤلف أشار إلى نتائج هذا الارتباط السيئ سواء فى محاكم التفتيش أوفى ظل الخلافة الإسلامية فهويعتبر هذا انحراف عن الصراط المستقيم حيث يقول:

«وقد تهتدى النفوس وهى ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هى الحال عند البدائيين، وقد تضل نفوس قوية ومقدساتها حق كما حدث فى محاكم التفتيش. وليس للهدى والضلال معيار إلا المعيار النفسى البحت». (الوادى المقدس ص٨٨).

والتطهر هوقانون النفس الإنسانية، ويحققه الإيمان والحب والعلم «لكن خير ما فى الإيمان هوالإيمان نفسه مهما يكن ما تؤمن به، وخير ما فى الحب الحب نفسه مهما يكن ما تحب ومن تحب، وخير ما فى المعرفة المعرفة ذاتها مهما يكن موضوع المعرفة».

وهذا الكلام يؤكد أن الوادى المقدس هوحالة نفسية تتناغم فيها النفس الإنسانية مع الحياة وقوانين الكون. وهذه الحالة النفسية تأتى كتعبير عن نزعة فطرية وليست استجابة لدعوة دينية أوفكرية آتية من خارج النفس بل استجابة لعامل داخلى بحت

ومن أجل هذا لم يشترط المؤلف طريقًا بعينها لتحقيق التطهر. بل أشار إلى عدد من السبل المختلفة لعل أمثلها سبيل الدين. لكنه ليس السبيل الوحيد." فمن الناس من لا يطمئن إلى الإيمان بالغيب، وقد يحصل على الهداية عن طريق الحب والجمال. ومن الناس من لايتطهر إلا بما يتفق والعقل فيكون طريقه إلى الخير الحكمة وسداد الرأى والتفكير المستقيم. وهذا طريق أفاضل الوثنيين وبعض المفكرين المعاصرين».

ثم يقول: «ومن الخطأ أن تحدد للناس طريق التطهر وترغمهم عليه وإن خالف طباعهم، ومن الخطأ أن تحدد للناس صورًا بعينها للتطهر، فالناس يتطهرون كل على شاكلته بالإيمان أوبالحب أوبالحكمة».

ولاشك فى أن هذا المفهوم الجديد لنزعة التطهر الإنسانى يقطع الطريق على جماعات التطرف الدينى والإرهابيين من كل لون الذين يتسترون بستار الدين أوالمذاهب السياسية لقهر الآخرين واضطهادهم. فالتطهر قائم على حرية الاختيار وحرية الإرادة. وهويقول إن غياب الحرية يمثل مرضًا من أمراض الحرمان التى تصيب المجتمعات وتشل قدرتها على النمووالتقدم وتؤدى بها إلى الانهيار. وهذا ماحدث للخلافة العثمانية وما حدث للاتحاد السوفيتى أخيرًا، وسوف يحدث لكل نظام شمولى تنعدم فى ظله حرية التفكير وحرية التعبير.

لقد سألت نفسى وسألت غيرى عن موقفه السياسى. وأخبرنى الدكتور حسين فوزى أنه لم ينضم إلى الأحزاب القديمة ولم يكن له موقف ظاهر فى هذا المجال. لكننى مؤمن أشد الإيمان أن أى كاتب له منهج فكرى لا بد أن تكون له رؤية سياسية. وقد اكتشفت صدق ذلك بعد أن فرغت من دراسة كتابيه: «التحليل البيولوجى للتاريخ» و«الوادى المقدس» إذ تأكد لى أنه ليبرالى النزعة يميل إلى الديموقراطية السياسية وإلى الاشتراكية الاقتصادية. وهذا واضح فى تحليله للديموقراطية والشيوعية، إذ يعتبر

إقرارالديموقراطية للطبقية رجعية فكرية بينما يعتبر الدكتاتورية عند الشيوعيين نظامًا رجعيًا. كما يرى أن المساواة السياسية فى النظم الديموقراطية عمل تقدمى، والمساواة الاقتصادية فى الشيوعية عمل تقدمى أيضا. ومن ثم يكون تحقيق الديموقراطية السياسية والمساواة الاقتصادية فى أى نظام اجتماعى عملًا تقدميًا يتفق مع منهجه البيولوجى فى تحليل التاريخ ونظرته لمستقبل البشرية، إذ تنبأ بسقوط كل امتيازات التفوق بين الأفراد بفعل التقدم العلمى الهائل فى مجال إنتاج الأعضاء التعويضية والوسائل السمعية والبصرية والأجهزة الأوتوماتيكية.

١٠ - لويس عوض مفكرًا علمانيًا

عندما أقام المجلس الأعلى للثقافة ندوته العالمية حول «مشروع لويس عوض الثقافى» فى سبتمبر ٢٠٠١، هب بعض الكتاب يهاجم هذا الاحتفال ويعلن أنه سوف يخوض معارك الماضى من جديد، وهى زلة لسان كشفت عما وراءها؛ لأن مشروع لويس عوض الثقافى الذى يدور حول حرية الفرد والديموقراطية وحرية التعبير وحقوق المرأة والعدالة الاجتماعية لاينتمى إلى الماضى وإنما هومشروع الحاضر والمستقبل كما قال الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة وصاحب الفضل الأكبر فى إقامة هذه الندوة وأمثالها مما جعل المجلس الأعلى للثقافة هومركز الحركة الثقافية فى العالم العربى كله، وقد أيده فى قوله الأستاذ محمود أمين العالم رئيس اللجنة المنظمة للندوة.

وهذا حق فنحن مازلنا نواجه المشكلات التى واجهت لويس عوض نفسه. وأن من يريد أن يتصدى لهذه المعارك عليه أن يتسلح بأسلحة العصر. وفى نطاق المعارك الأدبية والفكرية تكون الأسلحة هى المنهج العلمى والمعرفة الموضوعية الشاملة والأمانة فى نقل الأقوال والشواهد. وتعالوا نعيد قراءتنا لحياة الرجل وكتاباته من أجل أن نعرف بعيدا عن هذه المجادلات البيزنطية.

كان لويس عوض إثر عودته من إنجلترا، متأثرًا بمعايشته للمثقفين الأوروبيين، بل ومنحازًا للاشتراكيين منهم بصفة خاصة،وكان مولعًا بشيلى وشعره الثورى يترنم

بقوله الشهير «تلهبنى شهرة لإصلاح العالم» فكيف به وهو يعيش فى مجتمع استشرت فيه عوامل التآكل الاجتماعي» الذى تجلى فى تصدع الفلسفة الديموقراطية الليبرالية التى تبلورت فى دستور ١٩٢٣، مما جعل نظام الحكم المتمثل نظريًا فى الدستور هيكلًا باليا يحتاج إلى تجديد.

وكان لتجميد الحركة الوطنية والدستورية معا بتوقيع معاهدة ١٩٣٦، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية أثره فى تعميق التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع المصرى وكشفها على السطح فعجل بهذا الاستقطاب الشديد بين اليمين واليسار على حساب الوسط الوفدى. كانت أوضح صور اليمين متمثلة فى جماعة الإخوان المسلمين بينما كانت أوضح صور اليسار متمثلة فى الجماعات الشيوعية المتعددة، وكان التنافس بين الفريقين على أشده لتجنيد الشاب.

فى هذا المناخ العصيب وجد لويس عوض نفسه، وكان بحكم نشأته وثقافته يؤمن بعلاقة الأدب بالأوضاع الاجتماعية كما يؤمن بأثر العوامل الطبقية فى إنتاج الأدب وكان يعمد إلى الكشف عن هذه العوامل وأثرها فى النصوص الأدبية، كما يعمد إلى إشاعة هذه المفاهيم فى طلبته فى أثناء شرحه للنصوص الأدبية وقد أشار الدكتور مجدى وهبة الذى أطلق على لويس عوض لقب «الشريك المخالف فى الثقافة المصرية» إلى هذه الطريقة فقال:

«كان (لويس عوض) يلجأ إلى أطر دلالة خارج النص الأدبى الذى كان يدرسه فإذا كان يقوم بتدريس مسرحية مثلا، تجده يبحث فيها عن الأساطير التى يمكن أن يتكلم عنها من وجهة نظر أنثروبولوجية أوثقافية، وإذا كانت قصة نثرية فإنه كان يفسرها تفسيرًا نفسيًا، واستطاع فى فترة قصيرة من تدريسه لغة أجنبية لطلاب قادمين إلى الجامعة وهم على درجة من البراءة الثقافية، غير متعمقين فى أى من الثقافتين، أن يجد لغة عامة خارج النص، واستطاع بذلك أن يثير خيالهم وأن يلهمهم فى الأدب والنقد».

ومن هذا يتضح أن اهتمامه كان بتكوين العقلية الشابة الماثلة أمامه على التفكير الحر. فهو يحاول أن يخرجها من عالم الأدب أو على الأصح من قيود النص الأدبى إلى علم الأنثروبولوجيا أو علم النفس أو الأدب المقارن كنوع من الصدمات الكهربائية.

كذلك جاءت كتاباته على شكل صدمات مفاجئة أقلقت الرجعيين والتقليدين فأخذوا يناصبونه العداء. لكن هذه الصدمات قد أثمرت ثمارًا عظيمة وحركت مناخ الحياة الثقافية الراكدة. فدعوته لتحطيم عمود الشعر والكتابة بالعامية فى الأربعينيات كانت ثورة أطلقت مواهب كثيرة، فكانت مدرسة الشعر الحديث. وكانت الدعوة لأدب الحياة أو«الأدب فى سبيل الحياة» ثورة تجديدية أخرى، فجرت كل قضايا الحرية السياسية والحرية الاجتماعية فى بداية ثورة يوليوعام ٥٣/ ١٩٥٤. وقد احتضنت هذه الثورة كل سلالات الأدب الجديد فى القصة والشعر والمسرح التى ازدهرت فى أوائل الستينيات.

وكانت أبحاثه عن المعرى «ورسالة الغفران» فى عام ١٩٦٤م سببًا فى تفجير معركة عنيفة من جانب الأستاذ محمود محمد شاكر... وهى من أشرس المعارك أوالهجمات التى شنت على لويس عوض فعلا. وكانت أصلا لعدة معارك جانبية أعادت كل كتابات لويس عوض السابقة إلى دائرة الضوء من جديد بدءا من ديوان «بلوتولاند» الذى دعا فيه إلى الكتابة باللغة العامية سنة ١٩٤٧. المهم أن آراءه حول المعرى وأثر الثقافة الإغريقية فى «رسالة الغفران»، فسرت على أنها تشكيك فى أصالة المعرى وفى دينه، وتشكيك فى أصالة الثقافة العربية ككل.

وفى عام ١٩٨٧ دعا توفيق الحكيم إلى حياد مصر وطالب بأن تنفض يدها من مشكلات الأمة العربية وتعيش على الحياد كسويسرا وأيده فى هذه الدعوة الدكتور/ حسين فوزى واختلف معهم الدكتور/ لويس عوض، داعيًا إلى مناقشة الأمر من خلال نظرة واقعية تضع فى حسابها أمن المنطقة كلها كوحدة جيوبوليتكية لا ينفصل أمن دولة فيها عن الأخرى، ونشر مقالا بعنوان «الأساطير السياسية» يقول فيه إن أسطورة الدعوة الانعزالية لا تقل شططًا عن الدعوة إلى الوحدة الاندماجية القائمة على العروبة أوالعنصرية الملتهمة لكافة ما فى المنطقة من قوميات. وأغضب هذا الرأى بعض المتعصبين فكتبوا إليه يتهمونه بأنه يتكلم كالمبشرين الذين يسعون لنسف كياننا القومى والدينى. وكان رد لويس عوض «إن التفتيش فى ضمائر الناس عن دوافع خفية تدفعهم إلى اعتناق المبادئ والتعبير عنها بدلا من التركيز على الحوار العلمى لموضوعى

يضعف الحجة ولا يقويها، وهو خليق بمحاكم التفتيش التى انطوت فيها انطوى من تاريخ الإنسانية الحزين ثم سجل على هؤلاء أنهم تركوا الفاعل الأصلى فى دعوة العزلة المصرية عن العرب وهو ثنائى توفيق الحكيم وحسين فوزى وامسكوا بتلابيب المتوسط المعتدل الذى يرفض الاعتزال والاندماج جميعًا».(معاتبات قومية - الأهرام - ٢٠/٤/١٩٧٨).

يدخل فى صلب الموضوع أيضا كتاب «مقدمة فى فقه اللغة العربية» وفيه ويحاول لويس عوض إثبات أن الأمة العربية حديثة الظهور نسبيًا وأن اللغة العربية هى أحد فروع شجرة للغات الهند - أوروبية. والكتاب يعد محاولة أصيلة وجريئة لوضع أساس علمى لدراسة فقه اللغة العربية، إلا أن الكتاب لم يتعرض لمناقشات علمية جادة. فقد تدخلت النيابة العامة بناء على مذكرة من لجنة البحوث بالأزهر وصادرت الكتاب.

المهم أن هذه لمعارك قد أصبحت جزءًا من تراث حياتنا الفكرية والثقافية كما أنها ارتبطت بهذا المفكر ومواقفه الفكرية والسياسية، وأصبح من المستحيل إجراء أى دراسة موضوعية لإنتاج الرجل سواء فى مجال الفكر والنقد أوفى مجال الإبداع بالنسبة لمسرحية «الراهب» ١٩٦١ وقصة «العنقاء» سنة ١٩٦٦ أوديوان شعره السالف الذكر... دون دراسة هذه المعارك وتحليل الانتقادات التى وجهت إليه... والتى تطرق الأمر فيها إلى اتهامه بالعمالة لمراكز التبشير والاستعمار العالمية... وبالعمل ضد العروبة والإسلام على اعتباره أنه مسيحى لا يؤمن إلا بالقومية الفرعونية لمصر... أوعلى اعتبار أنه مستغرب يؤمن بالفكر الليبرالى العلمانى الغربى... ويحتقر كل ما هوعربى وشرقى مثل أستاذه سلامة موسى.

والواقع أن لويس عوض مفكر من طراز فريد يستعصى على التصنيف وأى محاولة تضعه فى خانة غلاة اليسار أوغلاة اليمين لن تجد لها سندًا مؤكدًا وسوف تعبر عن قراءة ناقصة. ومبتورة لإنتاج لويس عوض الغزير والمتنوع، وعن الجهل التام ببواعثه الثقافية والاجتماعية.

لقد بدأت يقظة لويس عوض مع يقظة الشعب الكبرى على نداءات الثورة عام ١٩١٩، كانت يقظته مبكرة إذ تنبه عقلة وهوطفل فى الرابعة من عمره على هتافات

الثورة «تحيا مصر» «يحيا سعد»، «الاستقلال التام أو الموت الزؤام». فأخذ يسمع ما يقوله أبوه وأقاربه عن أحداث الثورة وتطوراتها. ولم تكن مداركه تسمح له أن يفهم معناها بوضوح ولم يتهيأ له ذلك إلا فى مرحلة النضوج حين عاد لدراسة هذه الأمور التى بقيت عالقة بذهنه، ومن هذه الذكريات أن طالبًا قبطيًا بكلية الطب اسمه عريان يوسف سعد حاول اغتيال رئيس الوزراء القبطى يوسف وهبه باشا فى ١٥ ديسمبر ١٩١٩.

وكان يسمع عمه حبشى وابن عمه يحمدان الله أن هذا الطالب كان قبطيًا. فلو كان مسلمًا لتكررت مأساة رصاصات الوردانى التى قتلت بطرس باشا غالى فى ١٩١٠ فقسمت البلاد إلى قسمين وكادت أن تؤدى إلى فتنة طائفية. وكانا يشيدان بالوحدة الوطنية التى بناها سعد والوفد المصرى - كما كان يسمع أن بعض المتعصبين من المسلمين كانوا يضعون الصلبان على بيوت المسيحيين فى بعض الأحياء المدنية تمهيدًا للقيام بمذبحة طائفية يفتكون فيها بالأقباط.

وكان والده يرجع ذلك كله إلى مؤامرات الإنجليز، ويقول إن لهم ماضى عريق فى إثارة الفتن الطائفية بين الهندوس والمسلمين فى الهند، وأنهم يجربون سياسة «فرق تسد» التى نجحوا فيها فى الهند. لكن رقى المصريين جعل مؤامراتهم تفشل. فوعى عريان سعد هو الذى جعله يتطوع للتصدى لرئيس الوزراء القبطى. (أوراق العمر ص١٢١).

سأل لويس عوض أباه حين نفى سعد زغلول فى المرة الثانية إلى سيشل سنة ١٩٢٢، بعد خطبته ضد عدلى التى قال فيها إن «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس»: مادامت الناس تحب سعد باشا، فلماذا لا يعين الملك فؤاد سعد باشا رئيسًا للوزراء فيتكلم سعد باشا مع الإنجليز بدلا من عدلى باشا.

وأجابه أبوه: «الملك تركى وعدلى باشا تركى وعبدالخالق ثروت باشا تركى وتوفيق نسيم باشا تركى وأحمد زيور باشا تركى وحسين رشدى باشا تركى، ومحمود سعيد باشا تركى وأحمد مظلوم باشا تركى، الباشوات الأتراك وحدهم الذين يحكمون مصر، أما سعد باشا وزعماء الوفد فهم فلاحون، وأبناء الأتراك لن يسمحوا لأبناء الفلاحين بحكم بلادهم. وبعض هؤلاء البشاوات الأتراك وطنيون لأنهم لا يعرفون لأنفسهم

وطنًا غير مصر، لكن بعضهم يكرهون المصريين ويحتقروهم ويعتبرونهم من جنس آخر خلقوا ليكونوا عبيدًا عند الأتراك»(ص١٤٩).

وهكذا انفتحت عينا الصبى على البعد الطبقى فى قضية النضال الوطنى، وعرف أن الفرق بين ما يسمونه «التطرف الوطني» «والاعتدال الوطني»فى ثورة ١٩١٩ هوالفرق بين من كانوا يملكون ثلاثمائة فدان مثل سعد باشا ومن يملكون ثلاثة آلاف فدان مثل عدلى يكن: تماما كما كان الأمر أيام عرابى (٥٠٠ فدان) وسلطان باشا(٥٠٠٠ فدان).

وعندما نضج وعى لويس عوض عرف أن ثورة ١٩١٩ كانت فى حقيقتها استكمالا لثورة عرابى فى ١٨٨٢ ولم يكن مصادفة أن زعيمها العظيم سعد زغلول كان آخر العرابيين، وأن يوسف وهبه باشا الذى اختير رئيسًا للوزراء ليقضى على ثورة١٩١٩ كان قبل ذلك بستة وثلاثين سنة قد عين سكرتيرا للجنة التحقيق مع العرابيين فى ١٨٨٢ أى أن أعداء الثورة العرابية كانوا لايزالون يطاردون ثورة ١٩١٩.

هذا هوالاكتشاف المهم الذى توصل إليه لويس عوض من قراءته للتاريخ، وكان له أكبر الأثر فى انتماءاته الفكرية والسياسية فيما بعد؛ إذ ثبت له من هذه القراءة أن الانتماء الطبقى والمصالح المشتركة هى التى تجمع يوسف وهبه باشا وعدلى يكن باشا وبقية البشاوات الأتراك والملك فى معسكر واحد ضد مصالح الشعب المصرى أوأبناء الفلاحين، حتى لودفعهم ذلك إلى تبعية الاستعمار الأجنبى ممثلا فى الإنجليز. وأمام هذه المصلحة الطبقية تنمحى فروق كثيرة، وتتوارى خلفها خلافات أخرى ومنها الاختلاف الدينى أوالطائفى. فالخط الطبقى يمثل خط القتال الأول وعنده تتم المواجهة الحقيقية. هذا هوالاكتشاف المهم وعلينا أن نتابع لويس عوض فى استقصائه حتى يربط بينه وبين الصراع الحقيقى من أجل استقلال مصر عن الإنجليز والأتراك.

يقول لويس عوض:

«وعندما قرأت كتاب «مصر الحديثة» (١٩٠٨) للورد كرومر بعد عشرات السنين أدركت أن حكاية الترك والفلاحين حكاية قديمة وأن كرومر نفسه وكثير من الإنجليز كانوا يعتقدون صراحة أن البشاوات المصريين غير صالحين لحكم بلادهم بسبب

جهلهم وادعائهم وتعصبهم وفساد ذممهم واعتمادهم على المحسوبية فى كل الأمور كما قال فى كتابه.

وحين قرأ لويس عوض كتاب كلوت بك «لمحة من تاريخ مصر» ١٩٤٠ وجده يردد رأى محمد على فى المصريين من أنهم جنود ممتازون ولكنهم قادة أردياء. فقد كان محمد على يرى أن الضابط المصرى حين يبلغ رتبة البيكباشى (المقدم) يسوء سلوكه فيجنح إلى الشعب من جهة ويتصرف تصرفات لا تليق بهيبة مركزه من جهة أخرى. ولهذا فقد قرر محمد على عدم ترقية الضباط المصريين إلى رتبة البيكباشى إلا فى أضيق الحدود. ويعلق لويس عوض على هذا قائلا:

«والأغلب أن الميل إلى الشعب الذى يتحدث عنه محمد على كان الجنوح إلى الثورة على الأوضاع ورفض وصاية الضباط الأتراك على الضباط المصريين. وقد حققت الأيام ظن محمد على حين قامت ثورة الأميرالايات بقيادة أحمد عرابى فى ١٨٨٢ ثم ثورة البكباشية بقيادة عبد الناصر فى ١٩٥٢» (أوراق العمر ص ١٥٠).

هكذا كشف لويس عوض عن اتفاق الرأى بين اللورد كرومر وبين محمد على فيما يخص المصريين جميعًا. ولا بد أن تلتفت إلى أن هذا الاتفاق ليس نابعًا عن تقييم موضوعى للمواطن المصرى وإنما نابع من رؤية معادية تعمد إلى التقليل من شأن المواطن المصرى وتبرير احتقاره واستغلاله من حاكم أجنبى هو محمد على أو اللورد كرومر ممثل الاستعمار الإنجليزى فى مصر. لقد جمعت بينهم غاية واحدة هى قهر هذا الشعب واستغلاله كما وحدت إرادة الحرية بين أحمد عرابى وسعد زغلول وجمال عبد الناصر على طريق الثورة الوطنية لتخليص مصر من سطوة الأتراك والإنجليز على السواء.

ومن خلال هذا الصراع المحتدم على مدى أجيال، بدأت تتكشف له حقائق التاريخ والواقع فراح يمعن النظر فى خريطة القوى ويتعرف على مواقع الأصدقاء والأعداء: إن أعداءه هم أعداء وطنه من الأتراك والإنجليز وأعوانهم من أسرة محمد على والمرتبطين بهم من الأتراك والمتمصرين.

ولويس عوض ذو عقلية تحليلية تبحث عن السبب وعن العلة وراء كل ظاهرة. وقد استنتج من هذه الأحداث أن الأتراك هم علة العلل فى كل مآسى مصر مع التخلف

والانحطاط الثقافى والاجتماعى. وجريمة الاحتلال التركى العثمانى باستنزافه لثروة مصر وقواها الطبيعية والإنتاجية هى سبب الانهيار الذى شجع الغرب على مهاجمة مصر والدول العربية واحتلالها.

وفى هذا يكمن السر فى تعاطف لويس عوض مع الجنرال يعقوب قائد الفيلق القبطى أيام الحملة الفرنسية على مصر ١٨٠١.

ومن الخطأ أن نفسر هذا التعطف على أنه انحياز طائفى من لويس خليل حنا عوض ليعقوب حنا لأنه قبطى مثله. هذا قياس خاطئ، لأنه قائم على رؤية مشوشة لتاريخ ولموقف لويس عوض أيضا. فلوكان الأمر عند لويس عوض هوأمر ارتباط دينى أوطائفى لسوى فى تعاطعه بين يعقوب حنا وبين يوسف وهبة باشا القبطى أيضا. لكنه أدان يوسف وهبه باشا وكشف مواقفه فى معاداة الثورة العرابية وثورة سعد زغلول واعتباره خروجًا حقيقيًا على اجماع الأمة التى سارت خلف سعد زغلول بعكس ما كان عليه الحال فى زمن المعلم يعقوب، إذ كان الشعب جماعات ممزقة مسحوقة تحت إمرة المماليك والأتراك الذين يستنفدون طاقته فسعى يعقوب لتخليص مصر من شرورهم واستعان بالفرنسيين لبناء قوة عسكرية تؤمن استقلال مصر. والحقيقة أن لويس عوض لم يكن هوصاحب هذا الرأى وإنما هوالدكتور محمد شفيق غربال الذى قاله فى كتابه (الجنرال يعقوب والفارس لا سكارس ومشروع استقلال مصر سنة١٨٠١م).

«وكان وجود الفرقة القبطية ـ إذن ـ أول شرط يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادًا. أراد يعقوب أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية فكان سباقًا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أوقل إلى ما أدركه محمد على بعد قليل من أن انتصار الغربيين فى جودة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان».

هذا هوالرأى الذى ردده لويس عوض عن المعلم يعقوب، والذى جر عليه الكوارث لأنه كما يقول: «فتح دمل التعصب الدينى فى بعض المثقفين فطفح كل ما فيه من قبح

على السطح، وسوف يحاسب التاريخ الرجعية العربية حسابًا عسيرًا، لأنها سجدت أمام التمثال الذى أقامه شفيق غبريال للجنرال يعقوب ثم مزقتنى إربًا لمجرد أنى رددت آراءه وترجمت وثائقه».

ثم يضيف:

«ونقادى لا يستطيعون ادعاء الجهل لأنى أصلت لهم كل شىء عن الجنرال يعقوب فى شفيق غربال فإذا كانوا قد رجعوا إليه ومع ذلك تعمدوا تمزيقى لطرحى قضية «يعقوب اللعين» بهذه الحيدة أو بشىء من التعاطف فإن هذا يثبت سوء نيتهم وإذا كانوا لم يهتموا بالرجوع فهذا يثبت انحطاطهم لإصرارهم على الإدانة رغم وجود شهود النفى» (أوراق العمر ص ٥٩٧).

إن هجوم الرجعية العربية كان وما زال موجهًا ضد رموز النهضة المصرية ورموز التنوير والعقلانية لكن التركيز على لويس عوض كان مقصودًا به تنشيط وتسخين الفتنة الطائفية.

ومن هنا جاء التأكيد على هوية لويس عوض الطائفية باعتباره قبطيًا يعادى الإسلام والعروبة على السواء.

والواقع أن لويس عوض مفكر إنسانى النزعة، صاحب منهج عقلانى فى النظر إلى أمور الفكر ومشكلات الواقع والحياة. فلا أثر عنده للتعصب الدينى أوالتحيز الطائفى. فهويعترف فى أكثر من مكان بدور الإسلام فى تحرير العقل البشرى من الكهانة وسلطة رجال الدين، وإسقاط أى وساطة بين الإنسان وربه، كما يشهد للفكر الإسلامى بأثره فى حركة الإصلاح الدينى وظهور البروتستنتية فى أوروبا، كما يشهد للفكر الإسلامى بانفتاحه على الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية ومساواته لجميع البشر دون تفرقة بسبب الجنس أواللون أوالدين مما أتاح للعرب المسلمين التفتح على الثقافات الأخرى؛ وبناء صرح الحضارة العربية الإسلامية. وفى تحليل لويس للخلفية التاريخية والثقافية لعصر المعرى، يقرر سبق العرب والمسلمين لأوروبا.

فلا مجال للقول إن لويس عوض يعادى الإسلام أوالمسلمين كما يروج عادة الفتنة الطائفية فى مصر. والأصح أن يقال إن لويس عوض يعادى الدولة الدينية سواء أكانت

باسم البابوية أم باسم الخلافة الإسلامية. فالدولة الدينية تقوم على نظام شمولى يجلس على قمته حاكم مطلق يجمع بين يديه سلطة الدين وسلطة الدنيا أوقل يتحكم فى رقاب الخلق وأمور الدنيا بما يطفى على نفسه من سلطة دينية، أوكما يصف السلطان الظاهر نفسه فى رسالته إلى سلطان تونس بأنه «ظل الله فى أرضه القائم على سنته وفرضه». (ابن خلدون) وهذا معناه أنه يحكم بالحق الإلهى، وليس من حق المحكومين محاسبته.

هذا هوسر كراهية لويس عوض لكل نظم الحكم المطلق والشمولية سواء أكانت فاشية أم نازية أم شيوعية أم دينية. ومن هذا المنطلق نفسه يرفض لويس عوض القومية العربية؛ لأنها تتضمن إقامة كيان سياسى موحد أو إمبراطورية عربية على حساب القوميات الأخرى. ووفقا لفكر لويس عوض فإن هذه فكرة خيالية مستحيلة التحقيق على أرض الواقع إلا بقوة قاهرة لأن «المنطقة من الخليج إلى المحيط لم تتوحد إلا فى ظل الاستعمار الإمبراطورى من داخلها أومن خارجها أوفى ظل الدولة الدينية الجامعة وإذا كان التوحيد بالخلافة غير مطروح فى زماننا، وإذا كان الاستعمار فى الخارج مرفوضًا رفضًا باتًا، لم يبق أمامنا إلا الاستعمار الإمبراطورى من داخل العالم العربى. وأنا أسمى الأشياء بأسمائها: قوة عظمى من داخل العالم العربى لها قدرة الاحتياج والتوحيد تحقق «وحدة الإقليم» هذه التى يسمونها «الوطن العربي» بعبارة أخرى «تجربة محمد على وعبد الناصر» (دراسات فى الحضارة ص ٢٣).

وأعتقد أنه بعد مغامرة صدام حسين واجتياح الكويت وما ترتب على ذلك من حروب ودمار حتى الآن لم تبق هناك حجة لمن يريد أن يشكك فى تحليل لويس عوض لهذه «الأسطورة التى ترتكز على خرافة «البعث العربي» وإحياء مجد الإمبراطورية العربية أيام الفتوحات العربية العظمى.

إن إيمان لويس بمصر أوبالوطنية المصرية لم يدفع به إلى العزلة كما يزعم البعض. فحين دعا توفيق الحكيم إلى حياد مصر على الطريقة السويسرية وأيده فى ذلك الدكتور حسين فوزى نجد أن لويس عوض يرفض هذه الدعوة الانعزالية الوهمية ويقول:

«فهذه الأسطورة الانعزالية لا تقل شططًا عن أسطورة أخرى هى أسطورة الاندماجية الممثلة فى دعوة القومية العربية التى تفرض أن شعوب المنطقة أوأقوامها

من الخليج إلى المحيط «أمة واحدة» ليس فقط ثقافيًا وحضاريًا ولكن عرقيًا وعنصريًا كذلك».

فأوهام الحياد السويسرى مرفوضة عند لويس عوض لأن «توفيق الحكيم ومن ذهب مذهبه يتجاوزون عن حقيقة من أهم حقائق الحياة والتاريخ ألا وهى الحقيقة الجيوبوليتيكية (الجغرافيا السياسية) التى تربط مصر راضية أوكارهة بالمنطقة العربية وبالمنطقة الإفريقية وهى حقيقة الأمن القومى المصرى البحت. وبناء على هذا يدعو الجميع إلى الواقعية السياسية فى الداخل والخارج حتى يدرك الجميع «أن هناك قضية واحدة تجمعهم غاية ما تكون من الخطورة والخطر، ألا وهى قضية أمنهم القومى فرادى ومجتمعين» ثم يزيد الأمر وضوحًا فيقول:

«ولكى نحس بضرورة التضامن من أجل الأمن المشترك وأمن كل دولة عربية على حدة، ليس من اللازم أن يكون بيننا وبين بقية العرب بعضهم أوكلهم «جيش واحد وميزانية واحدة» بلغة توفيق الحكيم، أووحدة اندماجية كوحدتنا التى قامت ثم فشلت مع سوريا، وليس من اللازم أن يعطينا السعوديون أوالليبيون بترولهم وأن يأخذوا نيلنا ورجالنا، وليس من اللازم أن نحكمهم من القاهرة كما فعل عبد الناصر مع سوريا أوأن يحكمونا من الرياض أوطرابلس، وإنما يكفى أن نتعامل بشرف وطنى وقومى وشخصى على إدراك تام بأن كل ما نبذله من أجل الأمن هوفى حقيقته من أجل أمن كل منا على حدة. (دراسات فى الحضارة ص١٤).

هذه رؤية مفكر واقعى صادق البصيرة استخلصها من تحليله لأحداث الماضى والحاضر وأعلنها بصراحة عارية دون لف أودوران، وليت العرب قد قرأوه بروية واستخدموا عقولهم بدلا من حناجرهم وأدركوا أن قضية الأمن لا تتجزأ، ولكنها لا تتحقق بالغزووالاجتياح وإنما تتحقق حين يصبح لرجل الشارع دور فى تحمل المسئولية والمشاركة الفعالة فيها.

فكرة الديموقراطية إذن فكرة محورية عند لويس عوض تأصلت فى عقله ووجدانه منذ نعومة أظافره، بفعل النشأة فى جوأسرة علمانية الفكر ليبرالية السلوك، تؤمن إيمانًا راسخًا بمقولة سعد زغلول «الدين لله والوطن للجميع».

وكان جو التعليم ـ عمومًا ـ مهيئًا لترسيخ أسس الاستنارة والعقلانية، هذا مايكشفه من خلال مقارناته بين تجربتين فى التعليم حيث الحقوه بين الخامسة والسابعة من عمره بمدرسة الفرير ورأى كيف يعاقب التلاميذ إذ يقول:

مرحلة التكوين العقلى

«وقد تركت فى هذه القسوة فى التربية الدينية عند الفرير ذكريات غير سعيدة، ولا سيما حين كنت أقيسها بالتربية المتمدنة فى مدرسة المنيا الابتدائية الأميرية ومدرسة المنيا الثانوية الأميريه • أما فى مدرسة المنيا الثانوية – فقد توقفت دراسة الدين وحلت محلها دراسة «التربية الوطنية». و«علم الأخلاق» منذ السنة الأولى وفقًا لنظم التعليم فى فرنسا والولايات المتحدة وغيرها من البلاد التى تحظر دساتيرها تعليم مادة الدين فى المدارس لأنها تعتبر أن التربية الدينية هى من اختصاص المؤسسة الدينية التى ينتمى إليها الفرد، وليست من اختصاص الدولة التى يتساوى أمامها جميع أبنائها أيا كانت أديانهم أومذاهبهم الدينية أواللادينية • إن التعليم الدينى فى المدارس، إن لم يعزز التعصب الدينى بين الصغار، فهوعلى الأقل يعمق الإحسا س بالفوارق بين المواطنين»(ص٢٥٦ – ٢٥٧).

والباحث فى نشأة لويس عوض وتكوينه الثقافى ليعجب أشد العجب، إذ يجد أن أفكاره الأساسية تستمد أصولها من جذور ممتدة فى أغوار التاريخ الثقافى لمصر، كما تستمد جذوتها المتقدة ـ دومًا ـ من نبض حركة التنوير العقلانية التى بدأها الشيخ رفاعة الطهطاوى وتلاميذه فى حياة مصر عن طريق التعليم والترجمة والنشر، وكان أكثر الكتاب تأثيرًا فى تكوينه العقلى ثلاثة هم: العقاد وسلامة موسى وطه حسين.

واللافت للنظر هنا، أن مدخل لويس عوض إلى هؤلاء الكتاب الثلاثة كان القضية الوطنية ومدى مشاركة كل منهم فى الكفاح من أجل الاستقلال والديموقراطية. كان عقاديًا بسبب ارتباطه بالوفد فقرأ العقاد السياسى قبل أن يقرأ العقاد الأديب. «فلما أقام محمد محمود دكتاتورية «اليد الحديدية» عام ١٩٣٨ وعطل دستور ١٩٢٣ إلى أجل غير مسمى بلغ الشعور الوطنى مداه، تجلى أمامى العقاد كهرقل الجبار الذى يسحق بهراوته

الشهيرة الأفاعى والتنا نين وكل عناصر الشر»، أما علاقته بطه حسين فقد تأخرت بعض الوقت لنفس السبب، وبعبارة أخرى لأن طه حسين كان منتميًا إلى الأحرار الدستوريين وهم خصوم سعد زغلول والوفد، وكان هذا مظهرًا بل سببًا للأزمة التى واجهها جيل الشباب فى تلك الفترة».

أزمة المثقفين

كانت مشكلة لويس عوض بل مشكلة جيله من الشباب فى أواخر العشرينيات أن قيادة المثقفين، لطفى السيد وطه حسين وحسين هيكل والمازنى ومنصور فهمى ومحمود عزمى وعبد العزيز فهمى، بل وأحمد شوقى وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق، كانت معادية للطبقات الشعبية فى ثورة ١٩١٩ بتعبير أدق، معادية لقيادتها الوفدية صراحة، وأن قيادة المثقفين بوجه عام ربطت مصيرها بأحزاب الأقلية من الأرستقراطيين «العقلاء» لا سيما الأحرار الدستوريين الذين ربطوا مصيرهم بالملكية المستبدة وبمهادنةالإنجليز واقترنت أسماؤهم فى تاريخ كفاحنا الوطنى والديموقراطى بتعطيل الدستور وإقرار حكم الصفوة بالحديد والنار. «وبهذا اقترنت الثقافة والعقل والعلم فى أذهاننا بالإنعزالية عن المد الثورى التحررى سواء فى وجهه الوطنى، أوفى وجهه الديموقراطى، وكان هذا هوالمأزق الذى دخلنا فيه ولم يخرجنا منه إلا عباس العقاد».

جمع العقاد بين إمامة المثقفين وإمامة الثوريين وعلم لويس وجيله أنه «لا تعارض بين الثقافة والثورة وعلمنا كيف يكون المثقفون هم طليعة الثورة. ومن هنا قد تجسم العقاد وحده فى وجداننا كعقل بطولى جسور ومعقل شامخ يلوذ به الأحرار. فلما انشق طه حسين عن الأحرار الدستوريين وانضم إلى صفوف الشعب فى أوائل الثلاثينيات وشارك العقاد فى تقويض دكتاتورية إسماعيل صدقى، أصبح للكفاح قطبان شامخان وخرج المثقفون نهائيًا من ذلك المأزق الذى أدخلهم فيه منطق الأحداث فى العشرينيات وتبلور فى مصر لأول مرة فى تاريخنا ذلك المعنى الرائع وهوأن مكان المثقفين ينبغى أن يكون دائما فى طليعة الكفاح الثوري» (مقالات فى النقد والأدب ص٢٥، ٢٦).

وهكذا بانضمام طه حسين لقيادة الكفاح الثورى، سقط الحجاب الذى يفصله عن لويس عوض وأصبح العقاد وسلامة موسى ثم طه حسين هم أساتذته الكبار فى الفكر والأدب.

فإذا كان العقاد قد علم لويس عوض وجيله «أن المثقفين هم الثورة وأنه لا تعارض بين الثقافة والثورة»، فإن سلامة موسى هوالذى وضع أمام ذلك الجيل أهم القضايا العلمية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التى «كانت مدار البحث الإنسانى فى بلدان العالم المتحضرة وربطنا بتيارات الفكر العالمى الحى فجعلنا نحس بأننا أحياء» (نفس المرجع ص١٠٦).

لم تقف علاقة لويس عوض بهؤلاء عند القراءة، بل امتدت عن طريق اللقاءات المباشرة حتى وصلت إلى مستوى العلاقة الحميمة والتلقى المباشر على أيديهم والتردد المنتظم على صالوناتهم منذ حضوره للقاهرة بكلية الآداب سنة١٩٣١.

الانتماء إلى نادى الثقافة الرفيعة

خرج لويس عوض من لقائه لأول مرة بطه حسين والعقاد تملؤه مشاعر قوية هى مزيج من الزهووالثقة بالنفس. إذ اكتشف فجأة أنه ينتمى إلى هؤلاء العمالقة العظام حيث يقول: «لقد أدركت رغم لجلجتى ولهجتى نصف الصعيدية أنى أنتمى إلى هذا النادى الأدبى الرفيع، فدخلته فى سلام».

«وفى يناير ١٩٣٣ التقى فى شارع إبراهيم باشا بأحد أقاربه من أبناء شارونة ويدعى يعقوب فام، كان يعمل سكرتيرًا لجمعية الشبان المسيحية؛ فأخذ لويس عوض معه إلى مقر الجمعية وعرفه بسلامة موسى وهكذا شاء له حظه الحسن أن يلتقى بثالث العمالقة دون سابق موعد. وهويصف انطباعاته قائلا:

«بقدر ما وجدت طه حسين مهيبًا والعقاد شامخًا وجدت سلامة موسى متواضعًا، كان غزير العلم فى غير تكلف...، ولم تكن هيئته تدل على شىء؛ يمكن أن يكون مدرسًا بالمدارس الثانوية أوطبيبًا أورئيس مصلحة حكومية. ولكن ما أن يبدأ فى الكلام

حتى يتدفق علمه الموسوعى ويتجلى ذكاؤه الحاد كالنصل القاطع» (أوراق العمر ص ٤٦٢).

كان سلامة موسى قد نذر نفسه لتربية الشباب وتنويره فتلقى لويس عوض بصورة أرحب وأعطاه من وقته وجهده الشيء الكثير. فلم يكتف بتوجيه تلميذه إلى قراءة مسرحيات برنارد شو، بل أخذ يناقشها معه كل أسبوع، ويشرح له العلاقة بين الأدب والمجتمع ومعنى الواقعية الاشتراكية ومعنى الفابية.

وكان هذا غالبًا هوأسلوب سلامة موسى مع تلاميذه وحوارييه الذين لا يزالون يذكرونه ويشيدون بفضله، وهوأسلوب أوتقليد مصرى عريق فى التربية والتعليم بدأه حكماء مصر القديمة فى العصر الفرعونى، وسار عليه آباء الكنيسة القبطية والمعلمون فيها، وسايرهم فى ذلك النهج علماء الأزهر الشريف وكانت العلاقة بين التلميذ ومعلمه أوشيخه علاقة مباشرة وقوية، ترقى بالأستاذ إلى مراتب الأبوة المسئولة. وبهذا صار سلامة موسى هومرشده الفكرى الذى يوجه خطاه إلى طريق واضح المعالم.

وعلى هذا كان دور سلامة موسى له أبلغ الأثر ليس فقط فى تنظيم حياته وتوجيهه إلى الاشتراكية، ولكن أيضا فى دفعه للتفوق فى اللغة الإنجليزية وآدابها التى تخصص فيها بالجامعة. وهودور يتضاءل أمامه تأثير الأساتذه الإنجليز والأجانب عمومًا بقسم اللغة الإنجليزية الذين وجدوا أمامهم شابًا مصريًا نبغ فى لغتهم فأولوه اهتمامهم كل فى تخصصه فكانوا يزودونه بالتوجيه والنصح وبالمراجع المطلوبة، ولويس عوض يذكر ثلاث منهم بالفضل ويقول إنهم كانوا أشد أساتذته الإنجليز تأثيرًا فى تفكيره ومعتقداته وثقافاته وذوقه واهتماماته وهم: كريستوف سكيف وبرين ديفيز وأوين هولواى، وكان سكيف أكبرهم أثرًا.

كان برين ديفيزBRYN DAVIES يعلم لويس عوض وزملاءه تاريخ إنجلترا وتاريخ الفكر الإنجليزى وكان اشتراكيًا لا شبهة فى اشتراكيته، وكان من أبناء المدرسة التى تربط تطور الأفكار والمؤسسات بتطور اقتصاديات المجتمع ووسائل الإنتاج وأدواته. وكان ديفيز شديد الاهتمام فى محاضراته بأن يشرح لتلاميذه البطانة الدينية التى كانت تصاحب ظهور الطبقات وصراعاتها داخل المجتمع الإنجليزى.

أما المؤثر الكبير الآخر فى حياة لويس عوض العملية والفكرية أيام الجامعة فكان الأستاذ أوين هولواى، وكان متواضعًا ودودًا لكنه متحفظ فى مخالطة الطلاب. وكان علمه غزيرًا فياضًا إذا بدأ بالكلام لا يتوقف.

وأعتقد أن هولواى كان له دور مؤثر فى إسقاط تلك «التخوم بين الثقافات والحضارات وكل الحواجز بين الأزمنة والأمكنة» التى يتكلم عنها لويس عوض. وربما تم ذلك عن طريق تدريسه مبادئ النقد الأدبى وتحطيم نظرية القيم المطلقة وإحلال نظرية نسبية القيم محلها فى حديثه الطويل عن السيمانطيقا الجديدة. وكان الطريق الآخر هو تدريسه لمادة «المؤثرات الأجنبية فى الأدب الإنجليزي» فى قسم الامتياز. وهو الذى دل لويس وزملاءه على تأثير الأدب الفرنسى الساحق على الأدب الإنجليزى فى كافة التحولات من مدرسة البلياد إلى تريستان كوربيهTRISTAN CORBIERE ولافورج ومارسيل بروست ومدرسة «المونولوج الداخلي» وتأثير الأدب الروسى على القصة الإنجليزية الجديدة.

ولا شك أن هذه الدراسة هى التى جذبت لويس عوض إلى الأدب المقارن فحاول تطبيق أسسه فى دراسة الأدب العربى والأدب المصرى على السواء وتحديدًا فى أبحاثه عن «المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث» وكتابه «على هامش الغفران» وكتابه «أسطورة أوريست والملاحم العربية» ثم كتابه «مقدمة فى فقه اللغة العربية» الذى قام الأزهر بمصادرته.

وهذه الدراسات والأبحاث هى التى أثارت على لويس عوض حملات شرسة وظالمة لم تتوقف حتى بعد رحيله من هذا العالم. وإذا كان ديفيز وهولواى قد أثرا فى شخصية الباحث والناقد عند لويس عوض، فإن سكيف كان له تأثير أكبر فى لويس عوض الفنان إذ يقول:

«وأعتقد أن سكيف كان أكبر مؤثر فى نموى الفنى خلال سنوات الطلب فى الجامعة»

كان سكيف ـ كما يقول لويس عوض ـ أقرب إلى الفنان منه إلى الأستاذ، وكان رخيم الصوت محبًا لإلقاء الشعر وتمثيل المسرح، وكان مغنيًا هاويًا من طبقة الباريتون،

وهوالذى علمه تذوق الشعر والنثر والمسرح. هذا بوضوح سر إعجاب لويس عوض وتقديره لأستاذه سكيف، والذى جعله يهدى ديوانه الأول والشهير «بلوتولاند وقصائد من شعر الخاصة» إلى سكيف، وليس هناك أى شىء آخر مما ذهب إليه الأستاذ محمود محمد شاكر وغيره عن علاقة سكيف بالمخابرات. وقد تعرض لويس عوض بصراحة لبقية الأساتذة الإنجليز، وكان شديد الوطأة فى نقده لمسالبهم العلمية، وتناقضاتهم الأخلاقية ومنها العمل بالمخابرات. وليس أدل على ذلك من نقده اللاذع لمواقف أستاذه روبرت فيرنز رئيس قسم اللغة الإنجليزية الذى اختار له موضوع «لغة الشعر فى النظرية والتطبيق فى الأدبين الإنجليزى والفرنسي».

وكان فيرنز صاحب نفوذ كبير فى (كلية الملك) KING'S COLLEGE فى كامبريدج، فحجز له مكانًا فى هذه الكلية التى كان يحجز فيها اللوردات أماكن لأولادهم عندما يولدون. ومع ذلك لم يسلم من نقده أوسخريته؛ لأنه انتقل من رئاسة قسم اللغة الإنجليزية إلى مكتب الرقيب العام فى وزارة الداخلية.

لكن هذا كله لا يقلل من شأن الدور الذى لعبه هؤلاء الأساتذة الإنجليز فى توسيع آفاقه وتعميق ثقافته وتربية حاسته التاريخية وإثراء أحاسيسه الفنية، وباختصار فى إعداده كباحث وناقد وأستاذ فى الأدب. فقد التهم لويس عوض على أيديهم كما يقرر حضارة أوروبا وتاريخها وآدابها من الإغريق والرومان والعصور الوسطى حتى العصر الحديث، إلا أن الاطار الفكرى لرؤيته الثقافية والاجتماعية والسياسية فقد تشكل أساسًا من ارتباطه بثورة ١٩١٩ وكتابها ومفكريها كالعقاد وسلامة موسى وطه حسين.

وقد قرأنا أن أستاذه العلامة برين ديفيز كان اشتراكيًا وهوالذى أعار لويس عوض كتاب «رأس المال» لكارل ماركس وقرأه، وأن أستاذه أوين هولواى الشيوعى الغارق فى أدبيات المادية الجدلية هوالذى أعار ثلاثة كتب لانجلز هى «ديالكتيك الطبيعية» و«الرد على دورنج ANTI DUHRING» وكتاب «رسائل عن فيور باخ» وعرفه ببوكانين وبولخين وأعطاه كذلك كتاب جون ريد «عشرة أيام هزت العالم» لكن ميله إلى الاشتراكية كان سابقًا على دخوله الجامعة بتأثير سلامة موسى الذى نما فى لويس عوض - عقلية المفكر الاجتماعى بمؤلفاته وبـ «المجلة الجديدة».

وسلامة موسى هوالذى عرفه بتاريخ مصر القديمة - فقد كان على حد قوله من دراويش مصر الفرعونية، فأيقظ عنده الاعتزاز بهذه الحضارة العظيمة. ولويس عوض يقول إن قريته «شارونة» كانت عاصمة لمصر القديمة، بل لعلها كانت مركز تجمع الثوار أيضا فى تلك الفترة البعيدة. وكان أهل شارونة يحسون بهذا الشعور الوطنى إحساسًا قويا حتى أن بعض العوضية (أسرة لويس عوض) يتصورون أحيانًا أنهم أحفاد الفراعين العظام، ويربط هذا بالتاريخ الحديث حين يقول إن محمد عبد الصمد عمدة شارونة، كان من أبطال ثورة عرابى المطاردين.

فكل شىء فى حياته الفكرية يجرى على رقعة التاريخ الوطنى لمصر. فالفرعونية لم تكن ميتة، وأحياها سلامة موسى. كانت فقط مطمورة بفعل حكم أجنبى جائر لمئات السنين، لكنها كانت حية ضمن تقاليدنا الثقافية والاجتماعية، وجاء فك رموز حجر رشيد ومعرفةحروف اللغة الهيروغليفية بمثابة البداية لقراءة الآثار المكتشفة والتوثيق الصحيح لمنجزات هذه الحضارة التى ما زالت تبهر العالم كل يوم.

وقد تأثرت معركة الفن القومى فى الثلاثينيات بمناسبة بناء ضريح سعد زغلول فطالب البعض بأن يكون طرازه إسلاميًا؛ ولكن الرأى الذى انتصر كان بناؤه على الطراز الفرعونى، وهذه هى الفترة التى ينبت فيها محطة الجيزة وفيلا عثمان محرم فى شارع الهرم.

وفتح باب الجدل حول شخصية مصر بين العروبة والفرعونية وحضارة البحر المتوسط. وقد شارك فى هذا الجدل أكبر أعلام العصر. شارك فيه طه حسين وسلامة موسى وهيكل والعقاد وقد كانت دعوة ساطع الحصرى للقومية العربية أحد مفجرات الجدل فى هذه القضية - والمعركة لا تزال مفتوحة إلى اليوم بعد عشرات السنين وبصورة أشد.

ما يهمنا فى ذلك كله هوهذا المناخ الثقافى والسياسى الذى تشكلت فى ظله الخطوط الأساسية لفكر لويس عوض، فى فتر دراسته الجامعية بين ١٩٣٣و١٩٣٧ قبل سفره لإنجلترا للحصول على الماجستير.

لم تكن الفرعونية - إذن - أفكار خيالية يروج لها سلامة موسى، بل كانت واقعًا ثقافيًا وشعوريًا حيًا يترجم نفسه فى حياة الشعب وقواه الحية ويعبر من خلال الجماهير والقيادات الثقافية، ويفرض نفسه فى جوالحرية الليبرالية السائدة آنذاك.

وبالنسبة للأدب العربى فلم يكن لدى سلامة موسى ما يعطيه لدارس مثل لويس عوض؛ لأن سلامة موسى كان يرى أن الأدب العربى القديم فى معظمه نتاج عصور الانحطاط، فهوأدب ملوكى كتب لتسلية الحكام والسلاطين وليس فيه اعتبار للإنسان الفرد ولا للشعب وهوأدب يعادى الثورة والتقدم. لذلك ابتكر لويس عوض طريقة للتثقيف الذاتى اعتمد فيها على النقد الذى كان ينشره العقاد وطه حسين.

ومن الملاحظ أن علاقته بهذين العملاقين لم تستمر على مستوى واحد، ففى الوقت التى بدأت فيه هذه العلاقة تقوى وتتوثق بطه حسين، نجدها قد أخذت فى الذبول أوالضعف مع العقاد، وكان ذلك بسبب تعاظم دور طه حسين فى قيادة المثقفين ودفاعه القوى عن استقلال الجامعة.

فنحن نعرف أن لويس عوض تعلق بالعقاد فى شبابه لأنه كان أكبر مدافع عن مبادئ الحرية والاستقلال والديموقراطية كما كان رائدًا من رواد التجديد فى الشعر الحديث. فقد أنشأ هووالمازنى وشكرى مدرسة الديوان التى دعت إلى هجر القصيدة التقليدية وشعر المناسبات الذى كان يمثله شوقى إلى شكل حديث للقصيدة يتيح للشاعر أن يعبر عن مشاعره وأفكاره بصدق. لكن الأمور تدهورت بين العقاد والوفد فطرد منه وانضم إلى خصومه تحت وطأة أزمة خطيرة جعلته يتنكر لكل شىء. فتحول إلى كتابة «العبقريات الدينية وأجر قلمه للسعيديين بل وأكبر من ذلك نظم القصائد فى مدح الملك فاروق. وأصبح لا شاغل له إلا هجاء الشيوعية والشيوعيين واشتغل فى «أخبار اليوم» وأعلن الحرب على حركات التجديد فى الشعر» (أوراق العمر ص ٤٧٧).

هكذا انفصمت العلاقة العاطفية والفكرية التى ربطت لويس عوض بالعقاد حين تنكر هذا الرائد لمبادئه، وإن كان لويس عوض يشهد للعقاد أنه ظل لآخر لحظة فى حياته ضد جميع النظم الشمولية كالشيوعية والنازية والفاشية الدينية على وجه الخصوص.

ومهما كان الأمر، فإننا نلاحظ من خلال ما كتبه لويس عوض، أنه فى مقابل التراجع الذى انحدر إليه موقف العقاد، نجد التصاعد السريع الفعال فى موقف طه حسين فى قيادة المثقفين. كان لإقصاء طه حسين عن الجامعة دوى عظيم فأضربت الجامعة شهرًا أويزيد؛ وتحول طه حسين إلى رمز لاستقلال الجامعة وصمودها أمام السلطة التنفيذية، ليس فقط بين المثقفين ولكن أيضا على المستوى الجماهيري» (الحرية ونقد الحرية ص ١٠).

وكانت نقطة التحول المهمة فى حياة طه حسين وفى تحوله الروحى هى انتقاله من الأحرار الدستوريين معسكر الصفوة، حيث كانت الحرية تعنى «العقل» المثقف لا حرية المجتمع بأشمل معانيه، كانت حرية الأستاذ فى أن يبحث وأن يفكر وأن يتحدى كل قيد فرضته التقاليد المتحجرة أوعواطف الدهماء وجهلها. ولا شك أن طه حسين فى العشرينيات وما قبل العشرينيات، وجد فى مثقفى الأحرار الدستوريين من أمثال: لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل، وهم مثقفو الأقلية المعزولة عن تيار الجماهير وربما فى بعض زعمائهم مثل عدلى يكن وعبد الخالق ثروت، وهم زعماء الأقلية المعزوله عن الجماهير، هذا الوفاء الذى يمكن أن يحمى العقلانية «المصرية المتحررة»، بل وهذا العنصر الذى يمكن أن يتبنى مدرسة «التنوير» وقد أثبتت تجربة «الشعر الجاهلي» صدق اختياره كما أثبتت تلمذته، ثم زمالته وصداقته للطفى السيد أن العقلانيين الأحرار فى مصر كانوا قادرين،بالفعل على إرساء التقاليد الجامعية الراقية وحماية البحث العلمى وتحرير المرأة بالعلم والتعليم.(الحرية ونقد الحرية – ص ١٢).

وكان لويس عوض ـ كعادته ـ لا يترك شيئًا دون دراسة أوتمحيص وهويحاول أن يستقصى الأسباب الحقيقية لتحول طه حسين عن معسكر الصفوة فى حزب الأحرار الدستوريين إلى ما كانوا يسمونه بديموقراطية الرعاع فى حزب الوفد، ويقول إن أحدًا لم يحاول أن يسبرأغوار هذه الفترة الغامضة فى نموطه حسين الروحى، الذى جعلت منه أكبر طاقة ثورية فى كفاح مصر الثقافى الديموقراطى الليبرالى منذ دكتاتورية صدقى الأولى عام ١٩٣٠.ويرفض أن يفسر تعاطف طه حسين مع الوفد فى تلك المرحلة الدقيقة بأسباب شخصية، ويرى أن سبب هذا التحول فى موقع طه حسين السياسى

والاجتماعي هو إحساسه منذ آلت زعامة الأحرار الدستوريين إلى محمد محمود باشا ونظرائه بعد وفاة عدلى يكن وعبد الخالق ثروت أن هذا الحزب لم يبق منه إلا هيكله الخارجي، إما مضمونه فقد مضى وانقضى بذهاب جيل المستنيرين.

ثم يصل لويس عوض إلى لب الموضوع حين يقول:

«هكذا يموت عدلى يكن وعبد الخالق ثروت طار حلم الديموقراطية الإثنينية.... ذلك الحلم الذى طالما داعب خيال لطفى السيد وطه حسين وأرستقراطية مصر الفكرية، ولم يكن هناك بد من الاختيار المرير بين الملكية المطلقة المتعالية على حكم العقل والقانون وبين حكم الشعب. أما لطفى السيد وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق، فقد اعتزلوا السياسية بكل معنى حقيقى وعكفوا على العلم والتعليم. وأما طه حسين فقد اختار جانب الشعب و«الدهماء» كما كان صدقى باشا يسمى رجل الشارع فى مصر». «الحرية ونقد الحرية ص ١٤).

وباختصار أقول إن غرضي من الحديث ببغض التفاصيل عن علاقة لويس عوض بالعمالقة الثلاثة العقاد وسلامة موسى وطه حسين هوالبحث عن مراكز الاستقطاب أوبتعبير أبسط، جوانب الجاذبية الشخصية التى كانت تستهويه وتشده بقوة إلى هؤلاء الأقطاب، وما دلالة ذلك بالنسبة لشخصية لويس عوض.

فنحن نلاحظ مثلا أن هذه العلاقات قامت أساسًا على أرضية الكفاح الوطنى بما اكتشفه من مد وجذر فى الفترة ما بين ثورة١٩١٩ وثورة ١٩٥٢. فنجد لويس عوض فى وقت ما مهمومًا بمهمة التوفيق بين هؤلاء الثلاثة على المستوى الفكرى ثم فى وقت آخر، وما يمكن أن نسميه مرحلة الفرز والاختيار، نجده يفرق بينهم على المستويين الاجتماعى والفكري:

«كانت مشكلتى أن أوفق بين مثالية العقاد الجوانية المتعالية وأقانيمه المطلقة الشامخة، وبين مادية سلامة موسى العلمية الباردة، وبين عقلانية طه حسين المتأججة المركبة تركيبًا غريبًا من قوانين التوازن الكلاسيكى والاستقرار الكلاسيكى وقوانين الثورة على التوازن والاستقرار وكأنها جدلية عظمى متسقة ومضطربة مما ابتكرها فيلسوف مجهول تحول ظله فى منطقة ما بين ديكارت وهيجل». (الحرية ونقد الحرية ص ٢٤).

لكنه وحد بينهم فى الموقف من الدين. فهويذكر أن سلامة موسى كان دائم الدعوة للاهتمام بدراسة حضارة مصر الفرعونية وكان عنده شموخ القبطى التمسك بأصالة الفراعنة حضارة وأمجادًا. إلا أنه لا يعتقد «أن سلامة موسى كان مسيحيًا إلا بالميلاد. فقد كان يضع جميع أديان التوحيد فى سلة واحدة، وكان يتكلم عن الثالثون الأوزيرى كما يتكلم عن الثالوث المسيحى، وكان عاجزًا عجزًا تامًا عن الميتافزيقا بسبب تكوينه العلمى فكان ينظر إلى كافة الأديان من وثنية وتوحيدية نظره إلى ظواهر أنثروبولوجية».

ويكاد يقول الشيء نفسه عن العقاد وطه حسين:

«وجدت سلامة موسى صريحًا فى اشتراكيته صريحًا فى زندقته، ووجدت العقاد زنديقًا يغطى زندقته بمقولاته الفلسفية، فيؤله الشعراء ويسوى بين وحيهم ووحى الأنبياء ويجاهر بعدائه للاشتراكية وبدعوته للفردية، كان العمالقة الثلاثة زنادقة، كل على طريقته الخاصة. كانت زندقة العقاد من منطلق مثالى، وزندقة سلامة موسى من منطلق مادى، أما طه حسين فقد كانت آية زندقته كتابه «فى الشعر الجاهلي» الذى قال فيه - بصراحة - إن قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة ليست لها حقيقة تاريخية بل هى مناقضة للتاريخ. وكان رفضه وليدًا للعقلانية والمنهج العلمي».

ونلاحظ هنا أن لويس عوض يستعمل كلمة «زنديق» كنوع من المعارضة الساخرة بقاموس الرجعية الدينيةوالمتطرفين منهم الذين ارتدوا مسوح كرادلة محاكم التفتيش وراحوا يفتشون فى ضمائر الناس ويوزعون تهم الزندقة والكفر على كل من يخالفهم فى الفكر. لكن لويس عوض وهوعلى النقيض تمامًا لا يدين أحدًا من هؤلاء الأساتذة الأجلاء وإنما قصد إلى تصوير خروجهم على الفكر المعتاد أوالتقليدى بالمصطلحات الشائعة ولذلك عاد إلى توضيح هذه النقطة فقال:

«فإذا كانت كلمة الزندقة جارحة فلتقل إن هؤلاء الثلاثة كان لهم فهم خاص للدين يختلف تمامًا عن المفهوم العام، فهوكإيمان الفلاسفة والعلماء بعد هتك الأقنعة الاجتماعية والفكرية» (أوراق العمر ص ٤٦٤).

ولا نغالى إن قلنا إن هذا التصوير يصدق على لويس عوض نفسه فيما يتعلق بالأديان، ولكن المهم فى هذا السياق أن نادى المثقفين الكبار لم يعرف للخلافات الدينية أوالتعصب

أى أثر، بل كان يسوده جوالحرية الفكرية والتحرر العقلى والاستبسال فى سبيل ترسيخ المناهج العلمية والتجريبية فى التربة المصرية. وكان لجوالانفتاح العقلى تأثيره القوى على تكوين لويس عوض الفكري؛ فرسخ فى وعيه هذه الليبرالية التى تشربها فى وسطه العائلى فى طفولته وصباه، وغرز فيه روح المحبة والتسامح لكل الشعوب والأجناس؛ وحماه من التطرف القومى والتعصب الدينى. وكما يقول صديقه الدكتور شكرى محمد عياد:

لكن بكل تأكيد لويس عوض لم يكن إطلاقًا متعصبًا. وهوفى رغبته الحميمة فى التواصل تمنى أن تترك مسألة الدين جانبًا وليكن لكل إنسان اعتقاده الخاص وأظن أن هذا فهم راقٍ جدًا، وكان ينبغى أن يوافقه الجميع عليه حتى خصومه. لأن هذا شىء بين الإنسان وربه، فالذى يصلى متظاهرًا بالصلاة اسمه منافق عند المسلمين، فما قاله لويس عوض ليس فيه شىء يؤذى أحدًا».

هذه ـ إذن ـ ساحة التوافق بين العمالقة الثلاثة كما صورها عوض وكما انعكست على فكره ووجدانه.

كانت محاولة التوفيق - كما يقول - هى معاناة حياته فى المرحلة الأولى لكن التطورات السياسية والاجتماعية على أرض الواقع وتبدل المواقع خصوصًا بالنسبة للعقاد وطه حسين خفف من وطأة الحيرة عنده، ومكن له من الفصل بينهما على أساس سليم. باختصار انتقل العقاد إلى الرجعية فكريًا وسياسيًا، وبهذا خرج من دائرة اهتمام لويس عوض فى الوقت نفسه تقدم طه حسين من بين الصفوة الفكرية إلى خضم العمل بين الجماهير، ووضع نفسه فى جانب المقهورين والمعذبين فى الأرض يعرض قضاياها ويشير إلى الحلول وحين واتته الفرصة اتخذ أصعب القرارات وواجه قوى الانتهازية السياسية والرجعية الثقافية لكى يحقق مقولته ويجعل التعليم حقًا لكل المواطنين شأن الماء والهواء.

فى ظل هذا المناخ العام مال لويس عوض إلى رؤية تجمع بين العدل والحرية وتعطى الجانب الاجتماعى اهتمامًا خاصًا وقد سماها بفلسفة الاشتراكية الديموقراطية. وهى رؤية تقوم على الالتزام بالإنسانية وحدها حيث يقول:

«نحن فى حاجة إلى عقيدة جديدة هى عقيدة إنسانية أولا وقبل كل شىء، يكون فيها المفكر الإنسانى والفنان الإنسانى والسياسى الإنسانى إلخ، ملتزمًا بالإنسانية وحدها التزامًا حرًا لا إكراه فيه التزام المحب بالشىء المحبوب». (لمصر وللحرية ص ٥٥).

فإذا عرفنا أن محبوبة لويس عوض «السمراء» هى مصر... فمصر كانت وستظل هى قلب العالم وضميره (مسرحية الراهب) أدركنا هذه الرؤيا التى تجمع بين الرومانسية والواقعية أى بين العالمية والقومية ومن ثم كان دأبه الدءوب تأكيد صحة هذه الرؤية عن طريق الأدب المقارن، فراح يبحث عناصر التأثر والتأثير بين الثقافات المختلفة ويكشف عن مظاهر هذا التأثر فى الأعمال الأدبية مثل: «رسالة الغفران» و«الكوميدية الإلهية» ليبرهن على وحدة الثقافة العالمية. فوحدة الثقافة العالمية عنده هى القاعدة الأصلية للمساواة بين البشر وهى المصدر الأول لدعوة الاشتراكية العالمية.

إنها رؤية تعتمد على الحب والتضحية والفداء، وترفض نزعات التفوق والاستعلاء أوالتعصب القومى والدينى. وهناك من يصف هذه الرؤية بالتوسط والاعتدال مثل الدكتور شكرى محمد عياد (الهلال - أكتوبر سنة ١٩٩٠) حيث يقول:

«أما إذا أردنا أن نضع أداء لويس عوض فى سياق الفكر العربى فأول ما يخطر ببالنا هوقربها الواضح من «تعادلية» توفيق الحكيم، بل من تلك «الوسطية» أوالتوفيقية التى يراها الكثيرون سمة مميزة، إن لم تكن السمة الأساسية، للفكر العربى الإسلامى. ولسنا نتوقع من هؤلاء أن يعدوا لويس عوض بين المفكرين الإسلاميين (ولوأنه فى نظرنا قضية معقولة جدًا) ولكننا نطلب منهم فقط أن ينصفوا الرجل، وأن يقروا بأن أعماله النقدية تقع فى منطقة القلب من ثقافتنا العربية الواحدة ولهم أن يصفوا هذه الثقافة بما يشاءون من الصفات».

- نشر هذا المقال بمجلة «وجهات نظر» يوليو ٢٠٠١.

أما الموضوعات الأساسية التى تعرض المؤلف لها فى هذا السفر الجليل، فيمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات نلخصها فيما يأتى:

أولًا - ما يتعلـق من بينـها بجغرافية القطر المصرى فى العهد الأيوبى، حيث تكلم ابن مماتى بصفة عامة عن مصر ونهر النيل فى الباب الثانى، ثم انتقل بعدئذ فى الباب الثالث - على حد قوله - إلى ذكر أعمالها، وتفاصيل نواحيها، وتحقيق أسماء ضياعها وكفورها، وجزائرها، وموانئها، وكل ما يقع عليه اسم الديوان منها. ونكتفى الآن بالإشارة إلى أن القوائم الضافية التى تمثل فى هذا الباب هى أقدم ما عرف من نوعها فى تاريخ مصر الإسلامية، وننشرها اليوم لأول مرة ولنا إليها عود، يضاف إلى ذلك ما ورد فى «الباب الخامس» من الكتاب «فى ذكر خلجانها وترعها وجسورها».

ثانيًا - تصدى المؤلف إلى الكثير من المسائل الخاصة بأنظمة الحكم فى عصر بنى أيوب، مثال ذلك «الباب الثامن» الذى استعرض فيه وظائف الدولة المهمة وشرح اختصاص كل منها كما أنه أتى فى الأجزاء الأخيرة من الكتاب على شذرات كثيرة طريفة عن بعض الدواوين ودور الحكومة وموارد الدولة المالية.

ثالثًا - أفاض الكاتب فى شئون البلاد الزراعية فذكر أنواع الأراضى المختلفة والفصول الزراعية وأنظمة الرى وأنواع المزروعات وأوقات غرزها وحصادها والبساتين وأوقات تقليم الأشجار، وغير ذلك من المعلومات فى أبواب شتى تدلنا محتوياتها على حالة الزراعة وأنظمها وقتئذ بدقة تدعو إلى الإعجاب بعلم المؤلف الغزير كما أنها تدلنا على تقدم الفلاحة فى ذلك العهد إلى حد أبعد مما يتصوره الكثيرون. وقد عرضنا بعض أجزاء المتن على عدد من كبار الإخصائيين فى فن الزراعة ففهمنا من ملاحظتهم أن كثيرًا من أسس الزراعة فى ذلك العصر يتفق وما وصل إليه البحث الحديث فى هذه الناحية التى تعوزنا فيها المادة التاريخية.

غير أن ما ذكرناه ليس كل شيء فى هذا المؤلف النفيس. فالكتاب - على صغر حجمه نسبيًا - زاخر بمختلف الأبحاث والموضوعات. ولما كان مصنفه من أصل قبطى، فقد استطاع أن يجمع إلى جانب فقه المسلمين علم الأقباط فى شتى المسائل التى اختصوا بها

«أبلغنا حضرة صاحب العزة محمد رمزى بك أن حضرة الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية - أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فاروق الأول - عنى بهذا الكتاب منذ أن كان موجودًا بأوروبا، ووفق فى الحصول على الكثير من نسخه (المخطوطة) الموزعة بين مختلف دور الكتب الأوروبية والمصرية، فرأينا إسناد هذا العمل إليه لما عرف عنه من مقدرة وأمانة، فقام على ذلك بهمة نرى آثارها بين دفتى الكتاب، وبذل فى العناية بتحرى الأصول والتدقيق الكامل فى إثبات نصوص النسخ المتعددة، جهودًا مضنية يلمس أثرها القارئ بنفسه، مما يستحق عليه أجزل الشكر».

أما ابن مماتى مؤلف الكتاب فهو كاتب وشاعر ورجل دولة عاش فى عهد الأيوبيين. ألف أكثر من عشرين كتابًا، ولكن القراء لا يعرفون له سوى كتابين «الفاشوش فى أحكام قراقوش» و«قوانين الدواوين» و«الفاشوش فى أحكام قراقوش» ينتمى إلى أدب الفكاهة والسخرية والهجاء ويمثل ـ بحق ـ أسلوبًا فنيًا بارعًا فى تصوير الغرابة والشذوذ وإحداث المفارقة وهذا الكتاب الذى أضحك أجيالًا وما زال يضحكنا، كتبه صاحبه باللغة العامية المصرية، ووصل به إلى أعرض الجماهير حتى صار قراقوش فى المخيلة الجماعية للشعب المصرى مثالًا لكل حاكم أخرق ينحرف عن طريق العقل والمنطق فى سلوكه وتصرفاته.

أما الكتاب الآخر «قوانين الدواوين»، فهو كتاب علمى صرف يمكن اعتباره ـ بحق ـ من الكتب الفريدة فى بابها، العظيمة فى قيمتها، فهو يصف لنا حالة البلاد المصرية خلال القرن السادس الهجرى أو الثانى عشر الميلادى على وجه التقريب.

وإذا نظرنا فى محتويات هذا الكتاب الثمين، ظهرت لنا الثروة العلمية التى جمعها المؤلف، والتراث التاريخى والجغرافى والزراعى الذى انطوى عليه، هذا إلى جانب المسائل الأخرى الكثيرة التى تعرض لها الكتاب، والتى تجلولنا الكثير مما غمض فى صدر عصر من العصور الزاهية فى تاريخ الدولة الإسلامية وحضارتها. وهذا ما يوضحه دكتور سوريال فى المقدمة حيث يقول:

ولما كان هذا الكتاب يعالج موضوعات عدة، متباينة فى طبيعتها، كان لزامًا علينا فى هذه المقدمة أن نشيد بذكر الأهم منها، وأن نضعه فى المرتبة ونوجه نظر القارئ إليه، حتى يهتدى بذلك إلى تقدير ما جاء بين دفتيه.

فإذا انتقلنا إلى مجال تحقيق الوثائق والمخطوطات وهوموضوع احتفالنا اليوم فلابد أن نشيد بدوره فى تصوير مخطوطات دير سانت كاترين العربية وهوعمل جليل ومهم للباحثين فى تاريخ مصر والشرق الأدنى وعمومًا وفى تاريخ الأديان بصفة خاصة.

وأود قبل الحديث تفصيلا عن كتاب «قوانين الدواوين» أن أعطى لمحة عابرة عن تحقيقه لكتاب «الإلمام» للإمام النويرى الإسكندرانى (المتوفى بعد سنة ٧٧٥/ ١٣٧٢م) الذى نشر لأول مرة فى سلسلة «مطبوعات دائرة المعارف العثمانية «بحيدر أباد الدكن بالهند، وعنوانه «كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية، فى وقعة الإسكندرية وعودها إلى حالتها المرضية» وذلك على أثر الكارثة التى نزلت بالمدينة فى حملة القبارصة وحلفائهم من أوروبا أثناء عام ٧٦٧/ ١٣٦٥ م) فدمروا منها ما استطاعوا تدميره ونهبوا ما أمكنهم حمله من كنوزها.وعن ذلك يقول د. سوريال فى تقديمه للكتاب:

«وكان غرض المؤلف الأول من تحرير الكتاب هوتسجيل مذكراته ومشاهداته وما أمكنه جمع شتاته من المعلومات عن تلك الحملة الصليبية الجامحة الكاسحة، ولكنه أخذ فى الاسترسال فى الحديث عن شتى الفنون بمستطردات واسعة فى الأدب والتاريخ والفقه وعلوم الكلام والحديث القصصى وغير ذلك من الموضوعات التى لا تمت للغرض الأصيل مما زخر به الكتاب حتى أصبح أشبه بموسوعة أدبية عامة منه بسجل تاريخى خاص».

ثم يضيف قائلا: ورغم ذلك فإن كتاب النويرى يعتبر - بلا نزاع - الحجة الأولى عن تاريخ تلك الحملة من الناحية الشرقية المصرية بقدر ما أصبح كتاب غليوم أوجيوم ما شوه، المكتوب بالفرنسية القديمة هوالمرجع الأكبر لتلك الحركة الصليبية من الجانب الغربى باعتبارأن الكاتبين شاهدى عيان لتلك الأحداث من زاويتين مختلفتين.

ومن هذا نعرف أهمية هذا الكتاب الذى جمع مخطوطاته وحققه الراحل عزيز سوريال. إن بحثه عن هذه الوثائق وإخراجها يمثل عملية اكتشاف خطيرة وأساسية من أجل الوصول إلى مصادر المعرفة التاريخية الموثقة وهذا ما يتضح من رحلته فى البحث عن كتاب «قوانين الدواوين» لابن مماتى الذى نشرته الجمعية الزراعية برئاسة الأمير طوسون سنة ١٩٤٣ الذى يقول فى مقدمة الكتاب:

تكوين العقيدة وفى استمراريتهم، عبر القرون مما لا يترك مجالا للشك فى أهمية هذا الفصل فى الحوليات المسيحية.

وعن هذا يقول الدكتور عزيز عطية:

لقد حاولت أن أرى وأحكم على الحقائق المجردة للمسيحية الأولى فى الشرق بصرف النظر عن التراكمات المتأخرة، والحواجز المتولدة عن مجادلات العصور الوسطى والعصر الحديث. والواقع، أن هناك لاهوتيين حسنى النية ومفسرين لامعين من المنتمين إلى الطوائف والكنائس المسيحية، قد تسببوا بفعل مجادلاتهم فى صرف العقل الغربى عن الكثير من نقاء المسيحية وبساطتها كما تجلت فى أصولها الأولى بالشرق.

وفى هذا المجال يأتى دوره فى تحرير الموسوعة القبطية التى نشرتها شركة ماكميلان Coptic Encyclopedia ولابد أن نعترف أنه استطاع بحكم موقعه فى جامعة يوتا أن يقنع رئيس الجامعة وهيئة البحوث الأمريكية، وهى أعلى هيئة للبحوث العلمية فى العالم لتعضيد مشروع هذه الموسوعة وتمويله حتى صدرت هذه الموسوعة سنة ١٩٨٩ وفى رأيه أن هذه الموسوعة هى عمل إعلامى عن طريق العلم.

«لأن تعريف العالم بالكثير عن الأقباط، هو خط الدفاع عن حضارتنا وعن كياننا. أن تنفيذ الإعلام عن طريق العلم، لا يأتى إلا بدائرة المعارف القبطية، لأن حضارتنا القبطية حضارة كاملة شاملة، تشمل كل شىء عن تاريخنا، وعن كنيستنا وعن كل نواحى الحياة عندنا من فن ومعمار وعلم ولاهوت وكل شىء يختص بالأقباط» (من حديث خاص لمجلة (مدارس الأحد) عدد٨٠٧).

وكذلك كان إنشاؤه لمعهد الدراسات القبطية فى سنة ١٩٥٤ لسد الفراغ الواضح فى هذه الناحية الحضارية. وبعد سنوات علق عزيز سوريال على هذا الأمر بكثير من الأسف: «عندما أسست معهد الدراسات القبطية، كان كل أملى أن يقوم المعهد والأقباط بهذا المشروع لعمق جهل العالم بالقبط، وجهل القبط بالقبط أيضًا، ولكن للأسف لا معهد الدرسات قام بشىء فى هذا الصدد ولا الأقباط اهتموا بهذا المشروع، وفى هذا رأيت بنعمة الله أن أتولى هذا المشروع وأقوم به».

كرمته الجامعة وأساتذتها فأطلقوا اسمه على المكتبة ووضعوا صورته فى مدخلها. استكثر عزيزسوريال هذا التكريم وقال فى تواضع جم «إننى عبد أشتغل عندكم، فقالوا:

«نحن نتوج العبيد متى استحقوا التتويج» هذا هوسر تقدم الغرب.إن التقدير لابد أن يكون للعبقرية وللإبداع والإنجاز وليس للمحاسيب.

لقد كانت الانطلاقة الحقيقية فى حياة عزيز سوريال هى سفره إلى ليفربول حيث وجد التشجيع العلمى والتقدير.فقد تتلمذ على بروفسور كوبلاند، أشهر أساتذة تاريخ العصور الوسطى فى ذلك الوقت، وحصل على الماجستيرعن بحثه «حملة نيقوبوليس الصليبية» ١٣٩٦ وهى دراسة علمية لفتت إليه أنظارالباحثين عند نشرها لأنه أثبت كما يقول الدكتور سعيد عاشور إن ذيول الحروب الصليبية استمرت حتى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد، كما أثبت أن الصراع بين العثمانيين والقوى الأوروبية وبخاصة فى البلقان كانت له مسحته الدينية. وأنه يعبر عن حلقة أخيرة من حلقات الصدام بين القوى الإسلامية والقوى المسيحية فى العصور الوسطى.

أما كتابه الثانى «الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى» فهوعبارة عن رسالة حصل بها على درجة الد كتوراه من جامعة ليفربول ١٩٣٨ بين فيها مظاهر التغير الذى طرأ على العالم غربًا وشرقًا فى أعقاب الحروب الصليبية. وكشف عن ردود الفعل التى تمثلت فى حركة مضادة قام بها سلاطين المماليك انتهت بغزوأرمينيا الصغرى وقبرص ورود س، ثم ما قام به العثمانيون من توسع فى بلاد البلقان.

وإذا نظرنا إلى كتابه «المسيحية الشرقية» الذى نشره فى لندن ١٩٦٨ نجد كتابًا فريدًا فى بابه إذ خصصه لدراسة تاريخ الكنائس الشرقية غير الإغريقية.وهذه الكنائس هى الكنيسة القبطية والإثيوبية، واليعقوبية والنسطورية، والأرمينية والهندية والمارونية وكنائس النوبة وشرق إفريقيا التى اندثرت. والكنائس الرئيسية فى الشرق قامت فى الأصل على بشارة رسولية، وظهرت جميعها إلى الوجود فى وقت كانت فيه ذكرى صعود المسيح مازالت حية فى الأذهان.ومن ثم كانت أهمية هذه الكنائس فى سنوات

١١- د. عزيز سوريال عطية ودوره فى تحقيق المخطوطات

نحتفل اليوم بذكرى علم من أعلام الدراسات التاريخية هوالأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية العالم الكبير والمؤرخ المحقق صاحب الاكتشافات المهمة فى تاريخ الحروب الصليبية والدراسات الإسلامية.

ولد عزيز سوريال عطية بقرية العايشة مركز زفتى مدرية الغربية فى يوليو١٨٨٨ وتوفى فى ٢٤ سبتمبر ١٩٨٨ إثر أزمة قلبية فى سولت ليك سيتى بالولايات المتحدة.

وبين البداية والنهاية رحلة طويلة حافلة بالجهد والإصرار انتقلت به عبر البحار والمحيطات وربطت فى فكره بين تراث الشرق ومناهج الغرب، وكانت نتائجها باهرة على مستوى البحث والتأليف وأيضا فى مجال تحقيق الوثائق والمخطوطات. وكذلك كان دوره فى مجال الإنشاء والعمران فأسس معهد الدراسات القبطية بالقاهرة وأسس مركز الدراسات العربية والإسلامية بجامعة يوتا. وينسب بروفسور راى أوبلين رئيس جامعة يوتا فضل الارتقاء بهذا المركز وكذا المكتبة إلى الد كتور عزيز سوريال، ومن ثم

دون غيرهم من طوائف الأمة المصرية وطبقاتها، ومثال ذلك ما جاء فى «الباب السابع» عن أصول مساحة الأرض وبعض القضايا الهندسية التى يمكننا اليوم إثباتها بأحدث الطرق العلمية. وبالكتاب أيضًا ملاحظات جمة عن السنة القبطية وعلاقتها بالزراعة المصرية وما هذا إلا قليل من كثير مما يمكن القارئ استيعابه فى المتن.

وقيمة الكتاب ليست مقصورة على سعة اطلاع المؤلف وغزارة علمه وحدة ذهنه، وإنما ترجع كذلك إلى مكانته الخاصة فى المجتمع المصرى ومركزه السامى فى حكومة البلاد، فابن مماتى - كما سيظهر من تاريخ حياته فيما بعد - تقلب فى كثير من دواوين الحكومة، وانتهى به الأمر إلى تقليد الوزارة نفسها، وبذلك أصبح كل ما يكتبه ذا صبغة خاصة تجعله وثيقة رسمية صدرت عن قلم أحد وزراء الدولة المسئولين.

«كتاب قوانين الدواوين» إذن من وثائق الطراز الأول. وهو ـ على اختصاره وعدم إمعانه فى استعراض المسائل المفصلة كل التفصيل ـ يحمل كثيرًا من الصفات التى امتاز بها ذلك النوع المعروف من الموسوعات العظيمة التى ظهرت فى العصور الوسطى الإسلامية.

بيد أن جنوح المؤلف إلى المبالغة فى الاختصار والإقلال من العبارة جعل بعض أجزاء الكتاب غير واضحة تمام الوضوح، كما أصبح ذلك مصدر صعوبات جسيمة للناشر. وإننا لا نبالغ ألبتة إذا قلنا إن «كتاب قوانين الدواوين» من أعقد الكتب العربية فى القرون الوسطى، وأن مخطوطاته من النوع الذى يلتزم فيه الباحث مقارنة كل عبارة وكل كلمة، بل كل حرف من جميع المتون التى يعمل على أساسها فى نشر الكتاب. فمتى قر رأيه على قراءة معينة، أخذ بها فى النص، ثم قيد ما عداها من الاختلافات فى الحواشى. وهذه القاعدة وأن كانت قانون العلم الحديث ذاته، ومن المفروض على كل باحث جاد فى عمله ألا يتهاون فيها مثقال ذرة، إلا أن لها قيمتها الخاصة فى صدد «كتاب قوانين الدواوين» نظرًا لاحتمال وقوع الاختلاف فى الرأى بين القارئ والناشر على الأخذ بقراءة كلمة أوعبارة، فإما أن يأخذ القارئ بما أقره الناشر فى صلب المتن، إما يرجع إلى الاختلافات والمقارنات الكثيرة التى أثبتناها برمتها من بقية من بقية المخطوطات فى الهوامش، فينتخب من بينها ما يستسيغه هو، إما ما يقوده إليه بحثه الشخصى. وتسهيلًا

للوصول إلى هذه الغاية أرجعنا كل اختلاف إلى أصله الخطى بإثبات مكانه من الورقة والصفحة والسطر حتى يستطيع المنقب أن يراجع أى كلمة فى أى أصل شاء دون كبير مشقة.

ومهما يكن من شىء فإن رائدنا فى العمل هومحاولة إظهار هذا الكتاب كما دونه مؤلفه، لا كما يريد بعضهم من إدخال أى إصلاح أوتنميق حديث مصطنع على نصه، فاحتفظنا بكل ما فيه من ألفاظ واصطلاحات وعبارات قد تبدوغريبة، وتركنا أخطاءه اللغوية والنحوية والإملائية - عدا ما لا يمكن التهاون فيه- وأسلوبه الأثرى دون تغيير، وهذا قد يعده البعض تقصيرًا من الناشر، إلا أننا رأينا العمل على تلك القاعدة واجبًا لا مفر منه تقضى به الأمانة الأدبية.

١٢- أنور لوقا وحوار الثقافات

سؤل الدكتور أنور لوقا: كيف تقدم نفسك ؟ فأجاب:

يطيب لى أن أقدم نفسى كوسيط ثقافى. ولكن هذه الوظيفة قد تبدوغريبة أوشاذة إذا ما سجلناها على البطاقة الشخصية أوبطاقة الهوية. فى الواقع إن بطاقتى تحمل تحديدًا إداريًا يجارى التقاليد المتبعة. وبإمكانك أن تقرأ عليها التعريف التالى: أستاذ متميز فى جامعة النور ـ ليون الثانية (مدينة ليون). وهذا التعريف يسجن الإنسان فى مهنة محددة وفى مكان وعمر محددين. ولكنى فى الواقع لا أعيش فى ليون وإنما فى چنيف، وعلاوة على ذلك فأنا قادم من مكان أبعد بكثير. وإذا كان فضائى المألوف يخترق الحدود، فإن عملى يتجاوز التدريس إلى حد بعيد. فأنا كنت دائمًا الكاتب المؤلف، والناقد الأدبى، والرحالة، والمختص بالدراسات المقارنة والمترجم، والصحفى، وأمين المكتبة، والمؤرخ، والمولع بالموسيقى ؟، والمختص بعلوم العلامات والدلالات.......وفى جميع الأحوال كنت باحثًا. هكذا ترى أن مثل هذه البطاقة يستطيع أن يبرزها من سلكوا طريقًا مختلفًا! سوف أعود لاحقًا إلى مسألة التفاوت الكائن بين اللغة والتجربة المعيشة، وذلك عندما أتحدث عن علم العلامات والدلالات الذى أتوخى تطبيقه فى قراءة النصوص التقليدية وتفسيرها.

هذا هوالدكتور أنور لوقا الذى رحل عن عالمنا فى الرابع من أغسطس هذا العام بعد خمسين عامًا من الجهاد فى التدريس والكتابة والترجمة وخسرنا بوفاته باحثًا نادرًا فى التاريخ والأدب المقارن قلما يجود الزمان بمثله • وهويصف نفسه بأنه وسيط ثقافى بين الشرق والغرب، والحق أنه كان نعم الوسيط فى حوار الثقافات؛ لأنه كان يلتزم الصدق والموضوعية فى دراساته وكان مثالًا رائعًا فى الهدوء والتواضع وفى شجاعةالرأى مهما كان مخالفًا للسلفيين والمتطرفين. وبهذا استحق أن يكون رائدًا نزيهًا فى حوار الحضارات •

نقطة البداية هى مصر التى غادرها فى عام ١٩٥٠ وعمره ثلاثة وعشرون عامًا إلى باريس؛ حيث أمضى منها سبع سنوات انتهت بحصوله على دكتوراه الدولة فى الأدب المقارن. وكان موضوعها «الرحالة والكتاب المصريون فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر»، ورسالة تكميلية عنوانها «دراسة تأصيلية للنص الطهطاوى، تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» ثم قام بترجمته إلى الفرنسية.

ألف الدكتورأنور لوقا وترجم عددًا كبيرًا من الكتب والدراسات بالفرنسية والعربية منها كتاب «عودة الطهطاوى» الذى نشر فى تونس عام ٢٠٠٠ وكتاب «بلزاك» و«هذا هوالمعلم يعقوب» الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٢ بمناسبة الندوة التى أقيمت حول مشروع لويس عوض الثقافى، بالإضافة إلى كتابه عن «جون نينى» صديق عرابى، وكتابه عن «إدريس أفندى» ودراسته «النهضة المصرية وحدود أعمال بونابرت» التى وصفها جاك بيرك بأنها تحطيم للأصنام. كذلك وضع كتالوجًا للمخطوطات العربية لمكتبة جامعة چنيف. فضلا عن ترجماته لمسرحيات كلوديل وبيكيت ويونيسكووغيرهم.

ولد أنور لوقا سنة ١٩٢٧ بمدينة ملوى فى صعيد مصر وكان أبوه تاجرًا يمتلك حانوتًا فى المدينة القديمة يبيع فيه كل السلع التى تستوردها الأقاليم. كان جده هوشيخ الصاغة فى المدينة.... وكان والده رجلًا طموحًا ومتحررًا فخرج عن تقاليد العائلة إذ رفض نصيحة أبيه بأن يعمل مع أخيه الأكبر فى حانوته وأسس لنفسه عملًا تجاريًا مستقلا وحقق نجاحًا كبيرًا بفضل حبه للعمل وأمانته وثقة الناس فيه. كذلك تزوج بفتاة من خارج العائلة، خريجة «كلية أسيوط للبنات» التى أسستها البعثة الأمريكية.

فى الثلاثينيات لم يكن فى ملوى ما يسمى بروضة أطفال فأرسله أبوه إلى مدرسة «يوسف غيطاس» وهى مدرسة قرآنية تابعة لمؤسسة الوقف الإسلامية. وفيها تعلم المبادئ الأولية للغة العربية، وبعدها انتقل إلى المدرسة القبطية الملاصقة للكنيسة ذات الجرسين وهناك ابتدأ فى تعلم الإنجليزية. وكان تعليمًا جديًا يتجاوز المبادئ وكانت برامج تحضير الشهادة الابتدائية الحكومية برامج غزيرة فى المواد. وكانت أمه تساعده فى البيت وبخاصة فى دراسة النصوص الإنجليزية.

وكما يقول أنور لوقا: «لم تكن هذه المدرسة الطليعية طائفية أبدًا. وكان طلابها يحصلون فى نهاية كل سنة ومن خلال الامتحانات التى تجريها الدولة على أفضل النتائج قياسًا إلى كل المدارس الأخرى فى المنطقة».

وعن أثر هذه المدارس فى نفسه يقول أنور لوقا «ولكن ازدواجية «مدرسة قرآنية» و«مدرسة قبطية» فى صدر أوراقى الدراسية كانت علامة تنبئ بمستقبل مسارى الفكرى. فالنصوص العربية التى تتحدث عن الفتح الإسلامى لمصر القبطية بعد قرنين من حصول الأحداث فعليًا سوف تستوقفنى كثيرًا.. وسأحظى من خلال ظواهرها المتكررة إلى الأسس الأولى لمنهجيتى فى تحليل الخطاب، هذه المنهجية المتمركزة حول كيفية تشكل المعنى».

أما أختاه فقد التحقتا بمدرسة «الراعى الصالح» وهى مدرسة الطائفة القبطية ـ الكاثوليكية الصغيرة. وكان هناك بعض الراهبات الفرنسيسكان يقمن بالتدريس فيها وقد أصبحت أختاه فيما بعد قادرتين على إعطائه دروسًا فى اللغة الفرنسية والبيانو. ولكنه كان يفضل الألحان الشرقية ويعزفها انطلاقًا من استلهامه الخاص.

وهكذا نرى أن البيئة العائلية قد وفرت له ظروفًا مواتية للتفوق فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وكذلك العربية التى أخذ مبادئها فى المدرسة القرآنية،بالإضافة إلى الموسيقى، وهوما سوف يؤهله لتذوق االشعر والمسرح والتميز فى الدراسات النقدية فيما بعد.

وعلى الرغم من أنه تابع المحطات الطبيعية والكاملة للدراسة حتى الجامعة، فإن يعتبر نفسه عصاميًا كون نفسه بنفسه، وكان يمتلك الحرية والإمكانيات الكفيلة بذلك،لأنه

انساق - كما يقول - بدافع الفطرة للاستفادة من المكتبات الثقافية للعائلة دون أن يعوقه شيء مثل هموم الأخ الأكبر أوغفلة الأخ الأصغر الناتجة عن زيادة الاهتمام به.

وما أن وصل إلى سن القراءة حتى اكتشف فى خزانة بيتهم مجموعة المجلة السنوية التى كانت تصدر فى بدايات القرن بعنوان (الجنس اللطيف) «لاشك أن أمى هى التى وضعتها هناك. وكانت المجلة مكتوبة بأسلوب شاعرى، بديع شدنى إليه شدًا. كان السجع أى النثر المقفى، يطربنى ويحلق بى عاليًا، إنه سحر اللغة ! فكنت أنسى الزمن وأنا منخرط فى القراءة».

وفى تقدمه نحوسن النضج ازداد انغماسه فى متعة القراءة فى مجلات طليعية يذكر منها «المقتطف» ليعقوب وفؤاد صروف، وبالأخص «المجلة الجديدة» لسلامة موسى، أو «مجلتى» لأحمد الصاوى محمد. هذه المجلات التى كان يوفرها أخوه الأكبر الطالب فى مدرسة الفنون والصنايع بالقاهرة.

وكانت هذه المجلات ساحة للفكر والكتابات العلمية والأدبية، فتكشفت له من خلالها بعض المناهج الأدبية والعلمية، مثل نظرية التطور ونظريات الفكر الاشتراكى وغيرها من وجوه الثقافة الراقية. وفى هذه المجلات تعرف أيضاعلى أسماء وأساليب أساطين الكتاب المصريين آنذاك من أمثال: طه حسين، محمود تيمور،وتوفيق الحكيم.... إلخ.

ولعل النقطة الفاصلة فى توجيهه الثقافى كانت تعلمه اللغة الفرنسية التى فتحت أمامه أبواب الاطلاع الواسع على الأدب والثقافة الفرنسية وجاء هذا الأمرُ كضربة حظ بالنسبة إليه. فقد قررت وزاة المعارف فى عام ١٩٣٩ (عام حصوله على الابتدائية) افتتاح فصل تجريبى جعلت فيه اللغة الفرنسية هى اللغة الأساسية بدلا من الإنجليزية وذلك فى مدرسة العباسية الثانوية بالقاهرة. وجاءت المبادرة من أخيه الذى أخبرهم بهذا الخبر ودعاه لمغادرة ملوى والدخول فى هذه المدرسة. يشيد أنورلوقا بفضل هذا الأخ الذى كان يعمل فى الطيران المدنى كمهندس ويسكن فى هليوبوليس المجاورة لحى العباسية. وقد أقام معه فى شقته الصغيرة ولم يعد يرجع إلى ملوى إلا لقضاء عطلة الصيف.

كان هذا الصف الخاص الذى يعلم اللغة الفرنسية مقصورًا على عشرين طالبًا. ولكن لم يتابع دراساته الأدبية فى الجامعة أحد غيره. وفى هذه المدرسة تفتحت مداركه الأدبية وأخذ يترجم ويكتب بعض المقالات وينشرها فى مجلة المدرسة التى كان يحررها الأساتذة والطلاب. وهويذكر من الأساتذة بعض الأسماء المشهورة مثل الشاعر محمود غنيم الذى كان يدرسه الأدب العربى الإسلامى والجاهلى. وعالم النحوعباس حسن الذى أصبح ـ فيما بعد ـ عضوًا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكذلك الفيلسوف زكى نجيب محمود.

وفى هذه المرحلة ارتبط أنور لوقا بصداقة وثيقة مع أحد زملائه فى الصفوف العامة وهوأحمد عبدالحميد يوسف الذى كان يشاطره المطامح والميول. فكانا يتذوقان الشعر وينظمانه ويتابعان الكتاب المحدثين الذين يكشفون عن كنوز التراث من جهة، ويصلونهما بالأدب الغربى من جهة أخرى ومن هؤلاء يذكر أحمد حسن الزيات وطه حسين اللذين كانا يميلان إليه أكثر من العقاد.

والتحق الاثنان بكلية الآداب، اتجه أحمد عبد الحميد إلى قسم التاريخ واتجه أنور لوقا إلى القسم الفرنسى وهويرى أنه «كان اختيار مدروس، يستهدف الهوية فى نهاية المطاف: أى هويتنا. وقد بدا لنا أن هذين القسمين متكاملان. كان ينبغى على، أنا القادم من بوتقة التاريخ« ملوى» أن أختار بالأحرى قسم التاريخ. ولكنى كنت أمتلك مفتاحًا يعتبر ثمينًا آنذاك لكى أتغلغل فى قلب الأدب الحديث هواللغة الفرنسية لذا انضممت إلى المتفرنسين. لقد صدرنا عن استراتيجية متكاملة وهكذا بقينا متلازمين».

وفى مرحلة (الدراسات العليا) اختص أحمد عبد الحميد بعلم الآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم، واختص أنور لوقا بالأدب المقارن. «وفيما بين المسافة الجغرافية التى تفصل بيننا، تلاقينا على أرض مشتركة فقد اكتشفت مثلًا عندما تفحصت أوراق المهاجرين المصريين إلى فرنسا اسم عالم درس عليه شمبليون ولكنه غير معروف، هذا العالم هوالكاهن القبطى حنا شفتشى. وهذا ما أتاح لى أن أفسر شمبليون أوأفهمه بشكل آخر».

«وحتى فى أعمالى الحالية، فإن معظم النصوص التقليدية التى أحللها عن طريق علم العلامات والدلالات الحديث، كان أحمد قد اهتم بها ودرسها فى كتاب يستلهم التاريخ المصرى القديم، عنوانه: «مصر فى القرآن والسنة».

ويرجع شغف كاتبنا بالأدب إلى مرحلة البكالوريا ورغم تعثره فى الرياضيات فإنه كان مهتماً بالشعر مما ضمن له التفوق إذ جاء ترتيبه الثانى على كل طلاب مصر. وتسلم جائزة من وزير التعليم آنذاك محمد حسين هيكل، الكاتب المعروف. وقد تعلق خياله فى هذه المرحلة بالكاتب الفرنسى «لايروير»؛ لأن أسلوبه الكثيف والمنقح ينسجم بشكل رائع مع الصيغ اللغوية لأدبنا المرصوف بالحكم والأمثال وقد وجد متعة فى ترجمته،ويقول إن أسلوبه يشبه أسلوب الجاحظ فى التهكم والاستهزاء، وعنده ذوق حديث جدًا لكتابة الأمثال، ويمكن أن تقارن بين أسلوبه وأسلوب نجيب محفوظ فى كتابه الأخير «أصداء السيرة الذاتية».

وقد دفعه هذا الإعجاب بلابروير إلى أن يضع عنه كتابًا بعنوان «صوت لابروير» وكان أول كتاب ينشر له فى عام ١٩٤٨ وهولايزال طالبًا بالجامعة. عنوان الكتاب يذكرنا بكتاب طه حسين «صوت أبى العلاء» وهودراسة جميلة للشاعر العربى أبى العلاء المعرى، كان طه حسين يجد نفسه فى هذا الشاعر القديم الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى، وقد أطلق طه حسين العنوان التالى «صوت باريس» على مجموعة مقالات كتبها عن مسرحيات شهدها فى ذلك الوقت فى فرنسا. إن روح طه حسين قد استمرت فى الهبوب على كلية الآداب على الرغم من اختفائه عن الأنظار إذ كان مغضوبًا عليه فى ذلك الوقت وبتأثير من هذا العميد اللامرئى رحنا ننغمس أنا وزملائى فى التراث العربى والأدب الفرنسى. فالمعرى والمسرح الباريسى كانا كنايتين ترمزان إلى القديم والجديد، على الشرق والغرب».

أول اتصال بطه حسين

يعود أول اتصال له بطه حسين إلى عام ١٩٤٩ حين قرأ ترجمته لمسرحية «أندروماك» لراسين التى نشرها عام ١٩٢٤. وأخذ أنور لوقا يقرأ الترجمة والنص الأصلى ويقارن

بينهما ويرى كيف تحولت أشعار راسين إلى نثر عربى رائع. ثم قرر أن يترجم مسرحية «بيرينيس» بنفس الطريقة ووضع لها مقدمة طويلة مستفيدًا فيها من المراجع التى تناولت المسرحية، ثم أهدى الكتاب إلى طه حسين وسلم الكتاب إلى صديقه ريمون فرنسيس المعيد بالكلية لكى يوصله إلى العميد، وكان ريمون فرنسيس أحد الذين يعرفون طه حسين عن قرب ويترددون على بيته، ثم عاد ليقول لأنور لوقا إن الأستاذ يريد أن يراجع الترجمة وإنه حدد لهذا الامتحان أمسية خاصة فى منزله وكما يقول لوقا كان لقاء تاريخيًا لا ينسى: «لا أستطيع أن أروى لك فى بضع دقائق ذلك الانبهار الذى أحسست به عندما رأيته وتلك الصرامة والدقة والإحساس» بالنهضة «والافتخار الذى ملأ على أقطار نفسى. وقد شرحت له كيف حاولت ترجمة المشاهد الأولى فى المسرحية بلغة شعرية منظومة. وقد أصغى إلى بكل انتباه وسجل على الملاحظة التالية: «وهى إنى أخضع لإكراهات القصيدة العربية التقليدية، أحادية القافية والبحر. ونصحنى بأن أخفف من الالتزام باستخدام حل أكثر مرونة. كأن ألجأ إلى القافية المزدوجة التى درج عليها العرب فى الشعر التعليمى والإرشادى».

وفى نهاية الجلسة تحدث أنور لوقا مع العميد عن رغبته فى كتابة بحث للماجستير فى الأدب الفرنسى عن رحلة الطهطاوى إلى باريس باعتبارها تحقيقًا عربيًا عن الحضارة الفرنسية، فوافق على هذا الاختيار ونصحه بأن يضيف دراسة مقارنة بين رحلة الطهطاوى إلى باريس ورحلة جيرار دونرفال إلى مصر فى نفس الفترة، وفرح أنور لوقا لأن طه حسين وافق على أن يقوم بالإشراف على بحثه.

وبعد بضعة شهور عين طه حسين وزيرًا للتربيةالوطنية وفى هذه الفترة صدرله كتاب «الوعد الحق» وفيه يتحدث عن المجتمع الإسلامى الأول ويصور حياة المستضعفين الفقراء من أصحاب النبى. فقدم أنور لوقا عرضًا للكتاب بالفرنسية فى مجلة (La Revue du Caire)

وقرأ طه حسين الموضوع وأعجب به فسأل عن أنور لوقا وأنه يريد أن يراه، فلما علم بذلك صدفة من زميل قابله فى الطريق ذهب دون موعد لمقابلته فى مكتبه بالوزارة فاستقبله العميد وأثنى على تقديمه لكتابه فى مجلة القاهرة ثم قال له «من كان له أسلوبك ينبغى أن يذهب إلى فرنسا».

ويعلق أنور لوقا على هذا بقوله: «كانت هذه هى رغبتى المكبوتة لدى قبطى يتوقع دائما أن يحال بينه وبين بعثات الدولة»، ثم يقول عن طه حسين: «هذا هوالوزير غير العادى الذى ظل معلما وأديبًا فى منصبه الرفيع وعرف كيف يضع المؤسسة فى خدمة التنوير. والنور الذى فقده فى مطلع القرن ما أنفك الرجل يبحث عنه فى كل مكان ويجسده فى كل أعماله».

ولم يطلب من أنور لوقا سوى أن يقدم طلبًا وبعدها سافر لزيارة أهله فى ملوى لكى يودعهم ثم سافر إلى الغرب كما فعل بطل قصة «أوديب». لقد ذلل طه حسين العقبات الإدارية وفتح لأنور لوقا الطريق إلى باريس كما فعل الشيخ حسن العطار مع الطهطاوى من قبل. لقد تعلق أنور لوقا بالطهطاوى وبرحلته سنوات طويلة وكتب عنه كثيرًا من الأبحاث والدراسات المهمة بالفرنسية وبالعربية.

وكتابه «عودة رفاعة الطهطاوى» الصادر عن دار المعارف للطباعة والنشر بتونس عام(١٩٩٧) هوطبعة جديدة منقحة لكتاب «ربع قرن مع رفاعة الطهطاوى» الصادر فى سلسلة «أقرأ» سنة ١٩٨٥ عن دار المعارف بمصر، وقد أضاف المؤلف إلى هذه الطبعة فصلين مهمين هما: المقدمة والخاتمة ـ نهاية المطاف، بالإضافة لمقدمة الناشر التونسى

الأستاذ منجى الشملى وهوأستاذ متميز للأدب المقارن بجامعة تونس الأولى.

ونظرة عابرة على عناوين الكتاب تكشف لنا بوضوح أهمية الموضوعات التى يتطرق إليها الكاتب فى هذا السفر المهم. وعنوان الكتاب ذاته يحمل عدة دلالات عميقة..... فما معنى هذه العودة ؟ إنها عودة جديدة من خلال الأدب المقارن تكشف لنا أن رحلة الطهطاوى.... لم تكن مجرد رحلة فى المكان.. من باريس إلى القاهرة.... وإنما هى أيضًا رحلة فى الزمان من الحداثة إلى التراث... يقول د. لوقا:

«يعود إلينا رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) لا من رحلة المكان فحسب ـ بعثته الشهيرة إلى باريس ـ بل من رحلة الزمان أيضًا، بعد أن اجتاز فى استكشاف الحداثة خضم القرن الماضى، وأصبح رائدنا اليوم فى حركة العبور المزدوج من التراث إلى المعاصرة ومن المعاصرة إلى التراث ونحن نتجمع ـ ولوتشرذمنا ـ على ساحل القرن الحادى والعشرين».

هذا هو المعنى الحقيقى لحركة التنوير من الطهطاوى حتى الآن، فلم تكن الاستنارة التى عاد بها الطهطاوى إلى مصر هى مجرد استجلاب أفكار التحرر ومناهج العلوم الحديثة من فرنسا إلى مصر... بل الاستفادة بهذه الأفكار فى فهم تراثنا وغربلته واكتشاف ما فيه من القيم الأصيلة.

«فقد أحيل الطهطاوى وأعضاء البعثة ـ قبل السماح لهم بدخول فرنسا ـ إلى «الحجر الصحى» بميناء مرسيليا، مما أثار ارتيابه وتساؤله، أليس فى فرض مثل هذه الوقاية من المرض افتئات على قضاء الله وقدره ؟ لم يكن علماء الأزهر بالقاهرة قد فطنوا إطلاقًا إلى هذه المسألة التى يطرحها الطب الحديث، ولكن علماء تونس تنبهوا إلى ذلك وأصدروا جوابهم فيها بوضوح. فقد أفتى الشيخ المناعى المالكى بتحريم ذلك الحجر الصحى وأفتى الشيخ محمد بيرم الحنفى بإباحته بل بوجوبه. والغريب أن كل منهما احتج لإثبات فتواه بالكتاب والسنة».

لقد ذكر الطهطاوى هذا الجدل الذى دار بين فقيهين من المسلمين انحاز أحدهما للعقل ولقواعد الطب الحديث وانحاز الطهطاوى أيضا لهذا الموقف العصرى لكنه أورد الرأيين، ودلل بذلك على إلمام واسع بفتاوى المجتهدين من فقهاء مصر وتونس الشقيقة، فإيراده لهذين الرأيين النقيضين إعجاب ضمنى لا بالسبق وحده عند المجتهدين فى تونس، بل بحرية «المحاورة» بينهما وكما يقول: «حيث يعلو الرأى ويعلو الرأى الآخر».

المثقف والسلطة

ويوضح الدكتور لوقا أن محمد على لم يكن يثق بالمصريين وكان يتخذ أعوانه من الأجانب يشتريهم صغارًا كما كانت تشترى المماليك، ويسلمهم فى القلعة إلى شخص موصلى يدعى «حسن أفندى الدرويش» ومن بعده إلى شخص آخر تركى يدعى «روح الدين أفندى». ليتعلموا الخط والحساب واللغة التركية إلى جانب التمرينات العسكرية، لتكوين طبقة أرستقراطية مشتراة بالمال، تدين له وحده بالولاء، ويحكم بواسطتها البلاد. لم يدخل مدرسة اللغة ـ إذن ـ إلا عدد محدود من الصبية الأتراك والشراكسة

والجيورجيين والأكراد والأرمن. ومن هذا الخليط العثمانى انتخب محمد على معظم أعضاء بعثته. ولم يكن بينهم من المصريين إلا خمسة، وحينما أوشكت البعثة على السفر، أشار حسن العطار على الوالى بأن يضيف إلى الطلبة إمامًا يسهر على شئون دينهم فى تلك البلاد البعيدة. ولم يستطيع محمد على أن يرفض هذا الاقتراح. وهكذا عين حسن العطار تلميذه رفاعة إمامًا للبعثة.

وفى باريس اهتم جومار، مدير البعثة، بالشيخ الإمام، وجعله موضوع عنايته الخاصة، كان «جومار» مهندسًا جغرافيًا من علماء الحملة الفرنسية الذين اصطحبهم «بونابرت» إلى ضفاف النيل، وهوالذى أشرف فيها بعد على نشر الكتاب الضخم الذى ضم دراسات أولئك العلماء بعنوان «وصف مصر». وقد أصبح «جومار» رئيسًا للجمعية الجغرافية، وعضوًا فى «المعهد الفرنسى» ومحركًا لكثير من الهيئات الثقافية والتربوية. ولم ينقطع اهتمامه بمصر، بل اتصل مرارًا بواليها الجديد «محمد على» وأفلح فى اجتذاب بعثاته إلى باريس وكانت قد اتجهت فى أول الأمر إلى إيطاليا.

كذلك يقرر المؤلف أن الحملة الفرنسية كانت «لقاءً عنيفًا بين أبناء الشرق وأبناء الغرب، ولم يتح لها قصر الأجل ولا روح المقاومة الشعبية من الاستقرار ما يؤدى إلى اتصال جليل النفع. وللرد على مبالغات بعض المؤرخين فى تقدير النتائج المباشرة لتلك الحملة على مصر يكفينا أن نذكر الجبرتى، فإن الرجل الذى يعتبر من أكبر علماء عصره لم يستطيع أن يدرك شيئًا من علوم الفرنسيين، بل إنه لم يحاول أن يتفهم ما يشهد من تجاربهم الكيميائية والطبيعية البسيطة، وقنع آخر الأمر بإبداء دهشته وعجزه، إذ يقول: «ولهم فيه أمور وأحوال تراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا».

لقد خطت مصر خطواتها التالية حين تفتحعت عينا رفاعة على بلاد الإفرنج ووضعه «جومار» فى مركز المعارف الجديدة، فأقبل عليها بشغف ونهم، فأفاد أكبر فائدة من التوفيق الذى حظى به، فأصبحت رحلته هى أول صورة كاملة للقاء الشرق والغرب أمامنا وأتحفتنا تجربته بجميع نتائج الإخصاب، لأنها تمت فى ظروف مواتية. هكذا تحول المصنف العربى القديم فى شخص الطهطاوى إلى شخصية المثقف الملتزم الحديث الذى نعرفه اليوم.

فقد عاد الطهطاوى إلى القاهرة فى عام ١٨٣١ وتولى تحرير الصحيفة الوحيدة فى مصر وهى الجريدة الرسمية ثم أسس مدرسة لتعليم اللغات الأجنبية. وهى المقابل المصرى لمدرسة اللغات الشرقية بباريس وضع مطبعة بولاق الشهيرة فى خدمة مكتب الترجمة الذى أسسه. هكذا فتح الطهطاوى عدة جبهات فكرية دفعة واحدة. وقد أدى نشاط الطهطاوى إلى ظهور الكثير من القراء، والمعلمين والمهندسين، بالتعاون الوثيق مع جماعة سان سيمون. وكان عمله هذا تقدميًا أثار مخاوف الوالى عباس باشا فنفاه إلى السودان عام ١٨٥٠.

ولكن الطهطاوى واصل مهمته حتى موته عام ١٨٧٣، ناقلا الحداثة إلى العالم الإسلامى، أستاذًا مربيًا ومترجمًا يبسط الأفكار والنظريات العلمية التى تتحدث عن التنظيم الاجتماعى والأشغال العامة والديموقراطية وتعليم البنات، والتاريخ الوطنى. وهكذا طبق على أرض الواقع الموضوعات والأفكار الأساسية التى كان قد تحدث عنها فى كتاب الرحالة فى ذاكرة قرن النهضة العربية. فهو الذى فتح الطريق للشدياق (السورى) ولخير الدين (التونسى)، ولعلى مبارك، ومحمد عبده، وطه حسين (المصريين). برحلته الشهيرة «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» (١٨٣٤). إن الطهطاوى رائد فكتابه «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» كان هو النموذج الأعلى الذى يحتذونه. فإنه قائمة بالإصلاحات فى صورة رحلة. لقد أشعل الطهطاوى أنوار ثورة ثقافية أفزعت السلطة وأعوانها فأخذا فى التآمر عليها.

ضرب مشروع الطهطاوى الثقافى

فى تحليله لأسباب الانقلاب على الطهطاوى يقول أنورلوقا:

كان محمد على يعتمد على الأرستقراطية العثمانية،فبعثة ١٨٤٤ - ١٨٤٩ التى سميت فى باريس بـ«المدرسة العسكرية المصرية» كانت تجهر دون وجه حرج بالتميز الاجتماعى. يظهر ذلك بوضوح من خلال تركيبتها. كانت مؤلفة من ثلاث مجموعات منفصلة: مجموعة الأمراء، ومجموعة الباشوات، ومجموعة الأفندية. وقد أعطتنا لاحقًا على مبارك الذى كان فى البداية مجرد أفندى. لا ريب فى أن أعماله أثرت على النهضة فى مصر بعد

الطهطاوى ولكنه كان انتهازيًا كبيرًا. فقد عداه إسماعيل باشا برذائله، وكان زميله فى فرنسا، قبل أن يصبح الخديو. وعندما عاد على مبارك إلى القاهرة ابتدأ بتدمير مدرسة المهندسخانة ومكتب الترجمة على الرغم من أنه كان خريج الأولى كمهندس. وقد فعل ذلك لنيل رضا الوالى عباس باشا. ومعلوم أن هاتين المؤسستين كانتا مسئولتين عن الغليان الثقافى الذى يقلق الباشا. ثم نفى الطهطاوى إلى السودان مع صديقه بيومى، منشط المهندسخانة التى أقيل مديرها «لامبير» من منصبه، وكان أشد أتباع سان سيمون إخلاصًا للمصريين.

وهكذا تم سحق ثورة ثقافية حقيقية نشبت قبل ثورة عرابى عام ١٨٨٢، هذه الثورة التى تذرع بها الإنجليز لاحتلال البلاد. وقد أرسل الخديوى توفيق (ابن إسماعيل) خادميه المطيعين على باشا مبارك الذى كان وزيرًا آنذاك، ثم سلطان باشا رئيس البرلمان وبطل الرواية التاريخية الوحيدة التى كتبتها: «سلطان أفندى» لكى يدلا القوات الإنجليزية إلى الطريق الصحيح بعد إنزالها من البحر. وكانت مهمة سرية وخيانة عظمى.

المعلم يعقوب ومشروع الاستقلال الأول

وفى كتابه «هذا هو المعلم يعقوب» الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة سنة (٢٠٠١ يواصل أنور لوقا بحثه عن المهاجرين المصريين إلى فرنسا ويقول إن يعقوب رجل ينتمى إلى التاريخ الاقتصادى ـ الذى تحول تحولًا جذريًا فى عصره ـ ولا ينتمى مطلقًا إلى الطائفية (فكلمة «قبطى» لم ترد أبدًا فى مشروعه) من جذوره العريضة بالصعيد، ودرايته العملية بالقيم الاقتصادية وانخراطه فى تيارات التواصل التجارى الدولية المتلاقية فى مصر ـ رغم القيود المحلية ـ نبع مشروع استقلاق مصر، وأصبح عبر الأحداث غاية كفاحه المتواصل ضد الرجعية.

والدكتور أنور لوقا من أقدر الباحثين على كشف خبايا هذا الموضوع الذى يؤرخ لفجر النهضة المصرية، لأنه يقع فى بؤرة اهتماماته البحثية فقد حصل على دكتوراه الدولة من السربون سنة ١٩٥٧ فى الأدب المقارن برسالة رئيسية عنوانها «الرحالة والكتاب المصريون فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر» ورسالة تكميلية عنوانها «دراسة تأصيلية

للنص الطهطاوى - تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» ثم ترجمة فرنسية له. وبعدها استمر فى أبحاثه على مدى أربعين عامًا ليتتبع آثار «المهاجرين المصريين» فى فرنسا معتمدًا على وثائق قصر فانسين (جيش الشرق) ووثائق وزارة الخارجية ثم وزارة الداخلية وخرج من ذلك كله بحصيلة معرفية بالغة الأهمية.

من ذلك مثلًا، الأثر الذى أحدثه وصول المهاجرين المصريين إلى فرنسا فى الأزياء وفى الفنون الجميلة وفى الأدب والفكر مما أصبح من قيم الحياة الرومانتيكية فى عهد الإمبراطور نابليون. كذلك اكتشف من بين الجنود المجهولين الذين ذهبوا مع يعقوب روادًا كبارًا فى الفكر واللغة والأدب. فهويقول «وممن صنعوا نهضة الاستشراق اللغوى فى أوروبا فتى مغمور من أبناء أسيوط عمل كاتبًا عند يعقوب ويحمل اسمه ـ اليوس بقطر ـ قاموس فرنسى عربى وضعه فأصبح عمدة الدارسين،وبداية نقل ألفاظ الحضارة العصرية» بالإضافة إلى العلامة القس يوحنا الشفتشى الذى جمع بين تعمق اللغات القديمة فكان العضوالشرقى الوحيد فى لجنة تأليف موسوعة «وصف مصر» ورغم أهمية دوره فى المسئولية العسكرية ضابطًا فى الفيلق القبطى فإن التاريخ قد نسى وجوده مع أن شامبليون كان يسعى إليه عقب صلاة يوم الأحد فى كنيسة Saint Roch بجوار اللوفرلينطق له بوضوح ألفاظ اللغة القبطية التى فتحت له السبيل نحوأصوات الهيروغليفية، فكأن باعث الحضارة الفرعونية تسلم منه المفتاح لفك رموز الهيروغليفية.

وبعيدًا عن هذه الجوانب الطريفة، فإنه يطرح القضية بصراحة:هل كان يعقوب معاونًا للاحتلال الفرنسى لمصر،أم كان رائدًا للاستقلال الوطنى؟ ثم يقول: «إن اختفاء شخصيته البطولية فجاة ـ كما فى أفلام الرعب –من شأنه أن يدفع الجميع إلى التساؤل».

ويجيبنا معاصره الجبرتى بتصوير المعلم يعقوب فى موقف الموتور الحانق والمدافع عن أقليته القبطية المضطهدة، وهى نفس الصورة التى نجدها بعد أكثر من قرن ونصف فى كتابات المتطرفين الذين هبوا لمعارضة لويس عوض حين نسب إلى يعقوب مذهبا سياسيًا

حديثًا. ولماذا ننسى أن الشيخ الجبرتى نفسه قد تعاون مع الفرنسيين إذ كان عضوًا عاملًا «بالديوان» فى عهد «مينو» - القائد الفرنسى صاحب نظرية احتلال مصر احتلالًا دائمًا؟ وتكفيرًا عن ذنبه هذا، سارع الجبرتى إلى الترحيب الصاخب بعودة الاحتلال التركى، وأهدى للصدر الأعظم يوسف باشا كتابه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» وهذه أول سطوره:

«حمدًا لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا، وجعل الدولة العثمانية، والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا».

وهكذا يكشف أنور لوقا انتهازية الجبرتي ونفاقه وتعصبه ضد يعقوب.

وكان الدكتور شفيق غربال أول من تكلم عن يعقوب ونشر وثائقه فى كتابه «الجنرال يعقوب والفارس لاسكارس» فقال:

«أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى هوتخليص وطنه من حكم لا هوعثمانى ولا هومملوكى، وإنما هومزيج من مساوئ الفوضى والعنف والإسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة. فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت. وثانى ما فى تأييده للاحتلال إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية. ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال وإلا لما سمح الفرنسيون بإنشائها غير أنه يلزمنا أن نذكر أن القائد كليبر نفسه الذى أذن بإنشاء القوة القبطية كان لا يرى البقاء فى مصر. ثم يشير الدكتور شفيق غربال إلى «أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها وأنهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس يجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها».

ثم يمضى شفيق غربال فى توضيح رأيه قائلًا:

«كان وجود الفرقة القبطية - إذن - أول شرط أساسى يمكن رجلًا من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة

إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادًا. وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيث كانوا بالأمس: الصبر على مضض أوالالتجاء لوساطة المشايخ أوالهياج الشعبى الذى لا يؤدى إلى تغيير جوهرى والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم.. وهنا الفرق الكبير بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر مكرم يعتمد على الهياج الشعبى الذى لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر».

ثم يضيف غربال: «وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر مكرم لما وجد أمامه محمد على ليس خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك الأداة التى اختارها السيد عمر مكرم ليس فى الواقع إلا مظهرا لفروق أعمق. إذًا ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان». بعكس يعقوب الذى.. «لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تعزيز مصير البلاد بدلا من أن يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصورًا على التفرج أوالاشتراك فى نهب المهزومين.. أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك وعوّل على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية فكان سباقًا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أوقل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظامهم وبخاصة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان».

يشرح الدكتور أنور لوقا الأسباب الحقيقية التى حتمت تكوين الفيلق القبطى تحت عنوان (حتميــة المقاومــة) فيقـــول:

تولى يعقوب بعد عودته من الصعيد، فى سبتمبر ١٧٩٩، إدارة النظام المالى فى مصر، إلا أنه لم يستطيع تحقيق أى إصلاح تحت ضغط الأحداث التى تلاحقت وأجبرته على تكوين قوة مسلحة.

كان كليبر قد عقد مع ممثلى الدولة العثمانية فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ معــاهدة العريش التى نصت على جلاء الفرنسيين وجدولته. وطوت الدولتان صحيفة القتال.

ولكن الحكومة الإنجليزية رفضت إقرار الاتفاقية فانتهز العثمانيون الفرصة ونقضوا عهدهم. وزحف يوسف باشا - الصدر الأعظم حتى بلبيس، وتقدمه طليعة جيشه بقيادة ناصف باشا نحو المطرية. وهب الفرنسيون غاضبين فهجموا على الأتراك هجومًا حاسمًا فى موقعة عين شمس (٢٠ مارس ١٨٠٠) وهرب ناصف باشا وبعض رجاله فتسللوا إلى القاهرة ومعهم من المماليك إبراهيم بك والألفى وحسن الجداوى. ويسجل عبد الرحمن الرافعى «ومع أن ناصف باشا كان فى الواقع فارًا من ميدان القتال، وعلى الرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثمانى، فإن الإشاعات كانت قد طارت من المدينة بأن الجيش الفرنسى انهزم». وأشعل الهاربون ـ ليقلبوا الأوضاع ـ فتنة طائفية احتدمت ضد الأقباط ـ ويلقى الجبرتى المسئولية على نصوح باشا الذى نادى «اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم» ويبرز دور الحجازية والمغاربة فى ارتكاب المنكرات من نهب وقتل، ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعًا فيما على رأسها وشعرها من الذهب» وارتاع بعض أغنياء الأقباط فغادروا الحى ولجأوا إلى دور بعض أصدقائهم المسلمين فى مصر القديمة. ولم يتزعزع يعقوب بل تحصن فى الحى ونظم الدفاع عنه والعيش فيه بشجاعة وحكمة، طول حصار دام عشرين يومًا ويقول الجبرتى: «أما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى، واستعد استعدادًا كبيرًا بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت)، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه».

وأسفرت المحنة عن تكوين جيش من الأقباط، نظمه يعقوب على نفقته الخاصة، وجمع فى صفوفه شبابًا من القاهرة ومن الصعيد. وتلك ظاهرة فذة فى تاريخ مصر: جيش وطنى لاحظ شفيق غربال أنه «أول جيش كون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة». وارتدى هؤلاء الجنود زيًا خاصًا، ودربهم ضباط فرنسيون على أساليب الدفاع والقتال الحديثة، تحت إشراف المعلم يعقوب، الذى قلده كليبر قيادة الفيلق ملقبًا إياه أغا.

وقد ذهب بعض الكتاب إلى إدراج هذا الفيلق القبطى فى قائمة التشكيلات التى استحدثها بونابرت فى مصر وضمها إلى وحدات جيشه للاستعاضة بها عما كان يفقده من الرجال واختصاصهم منذ انقطعت صلته بفرنسا بعد شهر واحد من نزوله مصر إذ

حطم الإنجليز أسطوله فى موقعة أبى قير البحرية (أغسطس ١٧٩٨). كانت تلك الفرق كما تدل عليها أسماؤها ـ «الانكشارية»، و«المماليك»، و«اليونان»، «السوريون» تتشكل من أغراب نزحوا إلى مصر وافدين من مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية، فهم أشبه بالجنود المرتزقة فى العصور السابقة. ويكفى لتمييز الفيلق القبطى أنه لم يظهر إلا مؤخرًا ـ فى إبريل ١٨٠٠ ـ أى بعد انقضاء ثلاثة أشهر على تقرير جلاء الفرنسيين فى معاهدة العريش، وأنه تعبير عن مقاومة حتمية ضد المماليك والترك فى سياق علاقة سياسية ترجع إلى ما قبل الحملة الفرنسية، وأنه تنظيم صدر عن تمويل مالى ذاتى، وستتجلى هذه الأصالة فى مشروع استقلال مصر الذى أصبح هدف المعلم يعقوب.

المستشرقون والمستعربون الأوروبيون

اهتم الدكتور لوقا بهذه الطائفة من الرحالة الأوروبيين أيضا وهوموقف يدل على قوة الوعى وصفاء البصيرة فإذا كان اهتمامه الأول بالبحث عن الرحالة المصريين هوبحث عن الهوية، فإن تتبعه لسير هؤلاء المستشرقين ممن أحبوا مصر والثقافة العربية هوسعى للتعرف على الآخر وفتح الحوار معه، وكان سباقًا فى هذا السبيل فعرفنا على العديد منهم أمثال: فان برشيم وجون نينيولفنت وغيرهم.

. لقد كرس الشاب «فان بيرشيم» ثروته ووقته للحضارة العربية، وينبغى أن نعلم ذلك. كانت أطروحته لشهادة الدكتوراة تمثل بمنهجها مزيجًا من الديكارتية الفرنسية والتبحر العلمى الألمانى. وقد ناقشها فى لايبزيغ عام ١٨٨٦ تحت عنوان: «ملكية الأرض والضريبة العقارية فى ظل الخلفاء الأوائل». فكان رائدًا مبكرًا للبحث التاريخى الحديث الذى يركز اهتمامه على دراسة الاقتصاد والمؤسسا ت (انظر مدرسة الحوليات الفرنسية التى ظهرت فيما بعد). وقبل ذلك فى عام واحد انعقد مؤتمر برلين؛ حيث التقت الأمم الأوروبية الكبرى لاقتسام الأرض المعمورة كلها إلى مناطق نفوذ، ومن بينها العالم العربى بالطبع. وعندئذ انخرط المستشرقون فى خدمة حكوماتهم الاستعمارية. نضرب عليهم مثلًا مارسيه وابوار فى فرنسا، ثم سنوك فى هولندا، ثم «بالمير» و«ت. بى. لورنس» فى إنجلترا إلخ... وحده ماكس فان بيرشيم لم يضع علمه فى خدمة أى

قوة استعمارية. ولذا رسخت أعماله العلمية واكتسبت قيمة المرجعية الدولية. وعندما نشأت المدرسة الجديدة للاستشراق انتسبت إليه أستاذًا وإلى منهجه الموضوعى علمًا.، إلخ).

ومن باحثى چنيف من استكشفوا التراث العربى لا لاختزاله إلى مجرد مادة ميتة وإنما لاستلهامه. «وأجمل مثال على هؤلاء، المدعو هنرى دونان، مؤسس الصليب الأحمر (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) وجدت بخطه سطورًا بالعربية التى تعلمها،حيث يقول أنور لوقا، وقد اكتشفتها داخل مخطوطة عربية قديمة من المخطوطات التى يمتلكها. وقمت عندئذ بتصنيفها. وهذا السر لا يمكن فهمه إلا إذ تذكرنا أن» دونان «قد أقام فى شبابه مطولا كـ «مستوطن فى الجزائر» وقد شهد هناك الفظائع التى ارتكبها العسكريون الفرنسيون ضد قبائل البربر التى قاومتهم. ثم زار «دونان» تونس فاستطاره الإعجاب بسكانها من حيث حسن الضيافة، واستقبالهم للأجنبى، وحمايتهم للضعفاء. وقد قارنت بين المثل الأعلى للصليب الأحمر فى غوث الآخرين، وبين هذه التجربة الشرقية لدونان، وهى تجربة سابقة على سولفيرنيووريها كانت هى السبب فى تأسيسه للصليب الأحمر. واعتمدت فى هذه المقارنة على كتاب لهنرى دونان وهوكتاب طواه النسيان عنوانه: «لمحة عن عهد الوصايا فى تونس» (١٨٥٧)

ومن أبنـاء چنيف يذكرالدكتور أنور لوقا جون نينه (J. Ninet) (١٨١٥ ـ ١٨٩٥). وهوصديق مخلص للقائد المصرى أحمد عرابى، عاش فى شمال مصر نصف قرن تقريبًا، منذ أن استقدمه محمد على لزرع القطن طويل التيلة حتى انخرط فى الحركة الوطنية. «لقد لفتت نظرى كتاباته أثناء تحضيرى لأطروحتى لمعرفته الاستثنائية بمصر. ولكننا لا نجد أى شىء عنه فى المحفوظات المصرية. فكتب التاريخ التى أنفق على نشرها أحفاد الخديو إسماعيل استبعدته كليًا ولم تهتم به. وقد نقبت فى محفوظات مدينة چنيف ووجدت وصيته التى أذهلتنى. لماذا ؟ لأنه يتحدث فيها عن عائلته الشخصية. ثم كشف لى أحد المختصين بالحركة الاشتراكية السويسرية عن نصوص هذا المجاهد العريق من أجل مصر. وهى نصوص موجودة فى تلك المنشورات العابرة والمؤقته التى كانت تصدر فى نهايات القرن الماضى. وهذا الرجل يعرف نفسه بأنه «فلاح سويسرى» مستخدمًا كلمة

«فلاح» المصرية كما هى. إن إعادة تركيب الملامح المفقودة لهذه الشخصية أجبرتنى على اختراق أقسام عديدة من العلوم الإنسانية. نحن بحاجة ماسة، بل ومطلقة، لاستخدام المسار المائل أوالقطرى الذى يربط بين عدة علوم إنسانية ويوحد المعارف المبعثرة عن الإنسان».

الهوية والعولمة

لنأت الآن إلى علاقة الحداثة بموضوع العولمة الذى يثير ردود فعل قلقة فى البلدان العربية. ويرى الدكتورأنورلوقا أن تعدد الثقافات هوالضمان الأصلب للهوية الوطنية. ليست العولمة ـ كما توحى هذه اللفظة ـ انفتاحًا على الدنيا بما وسعت. فالحدود التى توهمنا هذه «العولمة» أننا نتخطاها جغرافيًا، إنما تحجب وراءها حدودًا أخرى رسمها مخطط رأس المال الذى أدت تراكماته ـ حسب دورة الصناعة فالإنتاج فالاستهلاك ـ إلى تكتلات للثورة أقوى من ميزانيات الحكومات المحلية على انفراد كل منها. هذا يعنى أننا نواجه تكتلات اقتصادية أضخم من حجم الدول التى نقرأ أسماءها وحدودها على الخرائط الجغرافية.

فالحدود التى ما زالت كتب الجغرافيا المدرسية تصورها لتلاميذنا ليست سوى خطوة أولى فقط فى مسيرة الانمحاء الحدودى الذى يلوح به مفهوم العولمة. فهويفترض انتماءنا الاقتصادى إلى عالم شامل نندمج فيه، ينسق ويوظف جميع مقدراتنا. ثم يشير إلى وضع مصر فيقول:

إن لمصر عبر الإمبراطوريات المتعاقبة التى تتالت عليها تجربة عميقة مع الوجود التاريخى. وعلينا أن نستضىء بمغزاها إزاء ظاهرة العولمة، حجر من أحجار مصر حفظ ذلك المغزى. إن حجر رشيد وثيقة دامغة خرقت هيمنة الدول واللغات التى سيطرت تباعًا على أرض النيل، والتى فى ثقافتنا فعلت عوامل التعرية فى الطبيعة، من يونانية البطالمة والبيزنطيين، إلى عربية الولاة، إلى تركية المماليك والعثمانيين. لقد أدت تلك الطبقات اللغوية العازلة ـ وكل منها عولمة فى عصر ما ـ إلى طمس قسماتنا الأصلية.

هكذا بدا أن هوية مصر الثقافية ضاعت حينما ملك اليونان ثم الرومان ناصية العالم المعروف فى عهدهم. كانت حضارتنا منارة ساطعة للإنسانية فيما سبق، فحجبتها عولمة القرون الأخيرة قبل الميلاد والأولى بعده. ولكن هل اختفت نهائيًا رسالة مصر باختفاء لغتها القديمة تحت قناع يونانى تبعته أقنعة أخرى ؟ لقد استمر تغرب الهيروغليفية فى وطنها خمسة عشر قرنًا حتى تصدى علماء العصر الحديث لهذا الحاجب الحاجز. ولم تكن المعجزة إلا نتيجة الحوار بين الثقافات.

لقد أصاخ الفتى شامبليون الفرنسى إلى همس تحت الركام، وهذا الهمس استرجع لاحقا على هيئة علامات محفورة فى الحجر الأصم. واستوضح ذلك الهمس بتحقيق صوتيات اللغة القبطية ـ أخر طور مقروء من أطوار اللغة المصرية القديمة ـ وحالف التوفيق شمبليون إذ استطاع أن يلتقط التلفظ الصحيح بالقبطية من أفواه المصريين ـ نكرات ـ حرص على مجاورتهم ومحاورتهم فى باريس حيث حطوا بعد جلاء حملة بونابرت. كما استعان بكتبهم العربية التى ألفها لهم نحاة اللغة القبطية منذ العصور الوسطى بطريقة مباشرة خالصة من الشوائب اليونانية.

وبالحوار الذى بلغ حد الإرهاف فى تتلمذ شامبليون على يد الراهب المصرى يوحنا الشفتشيسنة ١٨٠٩، وهوفى مهمة تنقيبه، استطاع أن يستشف من ألغاز الهيروغليفية أطرافًا متينة ـ ضمن أسماء قبطية ـ تجاذبها إلى أن استقامت له معالم الرقعة الكاملة المفقودة سنة ١٨٢٢ . بالحوار المعمق إذن عادت الروح إلى حضارة أولى.

خلاصة القول إن ظاهرة العولمة قد تؤدى إلى تقنيع وجه حضارة قائمة أوتدجينها. ولكن الهوية الثقافية الحقيقية من شأنها أن تقاوم الفناء بفضل حيوية الحوار الذى ينطوى عليه مفهوم الثقافة نفسه كما عرفه الجاحظ بأنه «عقل غيرك تضيفه إلى عقلك».

والمصرى الأول الذى تلقف عودة الروح هورفاعة الطهطاوى. كان فى باريس يطلب العلم عندما افتتح شامبليون القسم المصرى بمتحف اللوفر سنة ١٨٢٧ .

المراجع:

١ - «مجلة العالم العربى فى البحث العلمى» عدد مارس١٩٩٩ .

وقد خصص بكامله للحديث عن الدكتور أنور لوقا، وبه ببليوجرافيا كاملة باللغة الفرنسية.

٢- كتاب «عودة الطهطاوى» دار الطباعة والنشر بتونس (١٩٩٧).

٣-هذا هو المعلم يعقوب «المجلس الأعلى للثقافة القاهرة (٢٠٠١).

- نشر هذا المقال فى مجلة «فصول» عدد٦٢ شتاء وربيع ٢٠٠٤.

١٣ - الدكتور رشدى سعيد ورحلة عمره الحافلة بالأعمال

الدكتور رشدى سعيد عالم مرموق احتل مكانة رفيعة بين أنـداده من علماء الجيولوجيا فى أوروبا وأمريكا أستاذًا جامعيًا وخبيرًا ومستشارًا لكبرى المؤسسات الدولية علاوة على ذلك فهو مفكر عميق الثقافة، ثاقب النظرة مهموم بهموم مصر حاضرها ومستقبلها. ومن أجل هذه الغاية كرس وقته وعلمه فى مجال العمل العام وفى مجال الكتابة على مدى عشرات السنين أملًا فى حدوث تنمية حقيقية، وتقدم اجتماعى وسياسى فى مصر. لكن فساد الحكم فى مصر وفى عصر السادات بصفة خاصة دمر أسس التنمية وفتح المجال واسعًا للانتهازيين والنهابين وقضى على كثير من الآمال والطموحات.وقد سجل رشدى سعيد سيرة حياته وكفاحه فى كتاب بعنوان «رحلة عمر... ثروات مصر بين عبدالناصر والسادات..» يحتوى على مقدمة وستة فصول هى: الجذور، سنوات التكوين، بين الجامعة ومؤسسة التعدين، ذكريات سياسية، سنوات الأمل والإحباط،ثم سنوات الغربة.

ولد الدكتور رشدى سعيد سنة ١٩٢٠، وتفتحت عيناه على النهضة الكبرى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ التى قادها الزعيم الفذ سعد زغلول. وكان من أهم مآثر هذه الثورة العظيمة أنها أعادت للمصريين الثقة بالنفس والاعتزاز بهويتهم القومية بعد

أن كاد الاستعمار العثمانى البغيض الذى جثم على الصدور أكثر من أربعة قرون أن يطمسها ويئد ظهورها حتى لواستدعاه الأمر إلى الاستعانة بالإنجليز لاحتلال بلادنا.

كان عقد العشرينيات عقد نهضة شاملة ففيه تأصل الفكر السياسى الليبرالى الذى عبرت عنه النخبة المصرية فى دستور ١٩٢٣وتضمن كثيرًا من المبادئ المتقدمة التى أقرت حقوق الإنسان وساوت بين المواطنين أمام القانون بغض النظر عن أصولهم أودياناتهم، وكفلت لهم حرية العقيدة والتعبير،وضمنت لهم المشاركة فى الحكم وأقرت مبدأ الانتخاب ومبدأ أن الأمة هى مصدر السلطات.

وفى هذا العقد، تسارع إحلال التعليم المدنى الحديث محل الكتاتيب العتيقة التى كانت تعتمد على الحفظ والتلقين. وتم تطوير التعليم العالى وأصبحت لمصر جامعة حديثة أضيفت إلى مدارسها العليا القائمة والتى كانت تخرج المهندسين والزراعيين والأطباء، ككليتى العلوم والآداب اللتين افتتحتا سنة ١٩٢٥.

ولحقت هذه النهضة الشاملة عائلته بطريق مباشرعندما قررت أول حكومة وطنية تشكلت بإرادة الشعب وعن طريق الانتخابات الحرة المباشرة فى سنة ١٩٥١ إيفاد بعثة من فتيات مصر لتحصيل العلوم والفنون الحديثة لكى ينقلنها إلى وطنهن عند عودتهن. وكانت شقيقته الكبرى إنعام واحدة ممن وقع عليهن الاختيار للسفر إلى إنجلترا، حيث التحقت بأحد معاهد الفن التشكيلى لتعلم فن الرسم.

«كانت شقيقتى إنعام فى سن السادسة عشرة من عمرها عندما ذهبت فى هذه البعثة التى وافق عليها والداها دون تردد، مما يعكس مدى التقبل الذى كانت تحظى به حركة تحريرالمرأة التى نشطت فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩، بل ومدى الثقة بين الحكومة والناس. فلم يخامر الآباءأى شك فى أن الحكومة ستقوم بواجب رعايةبناتهم فى الغربة على أحسن ما تكون الرعاية. ولا بد أن أذكر القارئ هنا أن مثل هذه الموافقة ما كان يمكن الحصول عليها فى أوروبا وأمريكا: فقد سبقت مصر هذه البلاد فى إيفاد بناتها فى هذه السن المبكرة للدراسة فى الخارج».

بشيرة التحضر والتنوير العائلى:

يحكى رشدى سعيد أن عودة إنعام بعد سبع سنين كاملة فى الغربة، قد أحدثت تغييرًا هائلًا فى نظام حياتهم. فقد قامت بتنظيم غرف البيت وأضافت عليها لمسة جمالية واضحة وملأتها بالرسوم واللوحات التى كانت قد رسمتها بنفسها أواقتنتها. كما قامت بتغيير الطريقة التى يتناولون بها طعامهم فجعلت له ساعات محددة كذلك علمتهم طريقة ترتيب المائدة واستعمال الشوكة والسكينةثم حددت للصغار ميعادًا مبكرًا للنوم وجعلت للكبار ميعادًا للقاء الأصدقاء فى فترة مابعد الظهر، والذى كان بمثابة صالون أدبى خصوصًا وأن أكثر الزوار كانوا من زميلات إنعام فى البعثة.

وبعد سنة من عودة إنعام إلى مصر، ألحقت شقيقيها رشدى وكمال بقسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية بالقاهرة، تحت رعاية المربى الكبير الأستاذ يعقوب فام الذى كان قد عاد لتوه من بعثة بجامعة ييل بالولايات المتحدة بعد حصوله على الماجستير فى التربية. وكان يعقوب فام مربيا ممتازا وصاحب نظريات رائدة فى علمه• ضمنها فى كتبه وطبقها فى قسم الصبيان الذى كلف برعايته فأضاف إلى النشاط الرياضى الذى كان الغرض الأساسى من مثل هذه الأندية بعدًا تربويًا جديدًا، حيث كان الصبيان بين العاشرة والسادسة عشرة من العمرينتظمون فى فرق يدير كل منها أموره بنفسه، ينتخب من بين أعضائه رئيسًا وأمينًا عامًا ويقرر برامجه الرياضية والثقافية والترفيهية بالإضافة إلى الرياضة،وكانت البرامج تشتمل على مسابقات للقراءة والمناظرات العامة والرحلات والتمثيل والهوايات والاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية. وهكذا اتسعت الآفاق أمام رشدى سعيد وهولم يتعد الثانية عشرة من عمره.

ينتمى رشدى سعيد إلى عائلة قاهرية خالصة. ولد أبوه فى سنة ١٨٨٢، وسمى سعيدًا تيمننا باسم الخديو سعيد الذى حفظ له المصريون الجميل نتيجة للإصلاحات الكبيرة التى أدخلها فى مصر، مما سمح للمصريين ولأول مرة بتملك الأراضى الزراعية والترقى فى صفوف الجيش إلى الرتب العليا التى كانت مقصورة على الشراكسة والأتراك. كما أنه سوى بين المصريين بغض النظر عن ديانتهم وألغى الجزية التى كانت مفروضة على الأقباط وسمح لهم بدخول الجيش.

لقد ولد أبوه وأمه فى القاهرة لكن جذوره الحقيقية تمتد فى صعيد مصر فى قرية السراقندة بمحافظة أسيوط. وقد اضطر جده لترك هذه القرية فى سبعينيات القرن

التاسع عشر، أيام الخديو إسماعيل وهاجر إلى القاهرة، حيث عمل مع بعض أقاربه فى تجارة الأقمشة حتى وفاته فى سنة ١٩٣٠.

وقبل هجرته من القرية كان جده بالإضافة إلى عمله بالفلاحة، يعمل كاتبًا وقياسًا للأراضى، وهذه المهنة كانت تتحدد على أساسها الضرائب المستحقة على الأراضى والتى كان كثير من الأقباط يتوارثها عن آبائهم، الذين استطاعوا أن يحفظوها لأنفسهم ولأبنائهم من بعدهم بالمحافظة على سرية الطريقة التى كانوا يسجلون بها قياساتهم للأطيان واستحقاقاتهم من الضرائب.وقد أسهمت المحافظة على هذه المهنة فى أيادى الأقباط على بقائهم وعلى الحفاظ على ديانتهم من الاندثار كما حدث فى كل بلاد الشمال الإفريقى وفى سهول الشام. فقد أصبح لهم بفضلها مكان لا يستطيع أى حاكم أن يهمله.

وقد وجد كثير من الحكام فى هذا النظام طريقا سهلًا مأمونًا لجمع الضرائب دون الإخلال بحال الزراعة أوالدخول فى مجابهات مع فلاحى الأراضى، كما وجد فيه الفلاحون حائلا يقف بينهم وبين بطش الحكام.فقد كان كاتب القرية وقياسها واحدًا بينهم يحس بمتاعبهم ويعمل على حمايتهم من تجاوز الحكومات الظالمة، والتخفيف من ضرائبهم بإخفاء المعلومات الخاصة بزراعتهم أوتعديلها لصالحهم، وقد كان لهذا الدور أكبر الأثر فى بناء جذور المودة والفهم المتبادل بين فلاحى مصر من الأقباط والمسلمين.

أما عن قصة خروج جده من القرية وهجرته إلى القاهرة، حسب رواية عمدة القرية للدكتور رشدى سعيد سنة ١٩٥٣عند زيارته للقرية، فقد كان سببها خلاف مع ملتزم القرية جعل إقامته فيها أمرًا صعبًا، والملتزم هومندوب الحكومة بالقرية وكان يقوم بجمع الحصة المقررة عليها من الضرائب. وكانت له سلطات واسعة وله الحق فى أية عقوبة بما فيها القتل لمن يرى أنه يستحق ذلك ولا راد لحكمه. وكان العثمانيون هم الذين أدخلوا هذا النظام إلى مصر، ثم طوره محمد على عندما زادت الضرائب على الأراضى الزراعية، وعندما أصبحت القرية تعطى للملتزم على أنها عهدة يجمع منها الضرائب بطريقته الخاصة.

أما الخلاف الذى دب مع جده فقد كان بسبب اتهام الملتزم له بأنه بدد الأموال. فلما احتد عليه جده وسبه، غضب عليه الملتزم وقرر قطع لسانه أمام سكان القرية، إلا أنه تراجع عن قراره بعد أن قبل رجاء أعيان القرية بتخفيض العقوبة من قطع اللسان إلى سف التراب أمام جميع الأعيان، وسف جده التراب وهكذا أصبح استمرار إقامته فى القرية مستحيلًا. ونظرًا لأن القانون فى ذلك الوقت، كان يمنع الفلاحين من ترك أراضيهم فقد خرج جده متخفيًا فى طريقه إلى القاهرة حوالى سنة ١٩٧٤، حاملًا معه بعض من مدخراته من الجنيهات الذهبية وسافر وحيدًا فى مركب شراعى عبر النيل وسرعان ما لحقت به زوجته وولديه وابنته.

لم تكن عائلة والده كبيرة أوذات عصبية فقد كان والده (جد رشدى) وحيد أبويه. كما كان أخاه الأوحد والذى كفله فى صباه لم ينجب إلا بنتًا واحدة خلفت ولدين من زوجها الذى فقدته. وهى فى سن مبكرة، أما أبوه فقد أنجب ستة: ثلاثًا من الإناث وثلاثة من الذكور وكان الدكتور رشدى هوالرابع فى الترتيب. ولد سنة ١٩٢٠ عندما كان أبوه فى الثامنة والثلاثين من عمره وقد سبقه فى الميلاد شقيقان فى سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١١ وشقيق ولد فى ١٩١٣، وكان ميلاد بنتين فى مبدأ حياة أمه الزوجية سببًا فى أن تتلقى التأنيب والتحقير من حماتها التى كانت قد انتقلت للعيش معها تحت سقف واحد بعد زواج أبيه من أمه فى سنة ١٩٠٤، ولم تكف عن تنغيص حياتها حتى انتقلت إلى العالم الآخر.

أما عن نشأة أبيه فقد كان أول من عرف القراءة والكتابة فى عائلته وأول من ذهب إلى مدرسة نظامية، فقد كان أخوه الذى رباه أميًا، يدير متجره ويقوم بالشراء والبيع دون أوراق مكتوبة رغم اتساع أعماله وكثرة اتصالاته· ورغم ذلك فقد كان يعرف قيمة التعليم ومن ثم حرص على أن يتيحه لأخيه الأصغر فدفعه للالتحاق بمدرسة الفرير بالقاهرة حيث حصل على البكالوريا والتحق بعدها بالسكة الحديد. وكما يقول رشدى سعيد:

«أتقن أبى اللغة الفرنسية وتعلم على كبر اللغة الإنجليزية التى كان يرطن بها بلكنة فرنسية، وقد حمل أبى التقليد نفسه لأولاده الذين أرسلهم جميعًا للتعليم، وحتى آخر

مراحله الجامعية على الرغم من المشقة البالغة التى حملها هو وأمى من أجل تيسير التعليم للذكور والإناث» (ص٢٢).

وهكذا أحدث أبوه قفزة كبرى فى حياة العائلة. فعن طريق التعليم الذى ناله حدث الانتقال من جد لا يعرف القراءة أوالكتابة إلى حفيد يحمل درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد فى غضون جيلين اثنين.

أنهى دراسته الثانوية بمدرسة التوفيقية، والتحق بكلية العلوم واختار قسم الجيولوجيا بناءً على نصيحة من الكاتب الكبير سلامة موسى الذى كان مفتونًا بنظرية التطور وكان يريد منه أن يتخصص فى علم الأحياء القديمة التى كان سجل حفرياتها عبر العصور أحد أهم دلائل صحة نظرية التطور. وقد توطدت العلاقة بينه وبين سلامة موسى وما زال يذكر تشجيعه له ونشره لأولى مقالاته فى الأربعينيات فى مجلته الجديدة، وذهابه لتوديعه بمحطة القطار الذى حمله إلى بور سعيد ليستقل الباخرة إلى أوروبا.

تخرج رشدى فى كلية العلوم ١٩٤١ بمرتبة الشرف الأولى التى تؤهله للتعيين معيدًا بالكلية إلا أن الانكماش المالى حال دون ذلك، فأشتغل بشركة القصير للفوسفات ثم عين بالكلية فى ١٩٤٣ وقد تم إيفاد بعثته إلى سويسرا سنة ١٩٤٥ بعد ستة أسابيع من انتهاء الحرب العالمية الثانية فى أوروبا.

وبدأ يتلقى دروس اللغة الألمانية مع زملائه اللذين رافقوه فى البعثة، إلا أنه لم يجد بجامعة زيورخ أستاذًا يمكن أن يعينه فى دراسته لعلم جيولوجيا البترول الذى وقع عليه اختياره. فقد كان هذا العلم جديدًا على أوروبا التى لم يدخل استخدام البترول فيها إلا بعد سنوات من انتهاء الحرب، فتقدم بطلب إلى كلية العلوم لنقل بعثته إلى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة والتى أبدت استعدادها لقبوله، إلا أن موافقة كلية العلوم أخذت أكثر منه عامين أوشك خلالها على الانتهاء من رسالته التى بدأها بجامعة زيورخ فى علم الحفريات الفقارية.

حصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد وقضى سنة فى التدريس بالجامعة الأمريكية بالولايات المتحدة كانت من أخصب سنين حياته العلمية، ثم عاد إلى كلية

العلـوم بالقاهرة سـنة ١٩٥١ فوجد أن الخريطة الاجتماعية قـد تغيرت، وظهرت طبقة جديدة من أغنياء الحرب الذين جمعوا ثرواتهم من التهريب والاتجار فى السوق السوداء والبضائع المسروقة من مخازن الجيش أوبتقديم الخدمات إلى الآلاف من عساكر الحلفاء فى مصر.

وفى السنوات التى تلت الحرب، استمر بقاء قوات الاحتلال الإنجليزى فى مصر، وتأسست دولة إسرائيل وهزمت الجيوش العربية فى حرب ١٩٤٨ مما أثار أكبر موجات الغضب فى الشارع العربى المصرى والصبغة الخاصة.

وعندما بدأ التدريس بالجامعة وجد الطلاب غاضبين وفى شبه إضراب مستمر، وهكذا انكمش العام الدراسى إلى بضعة أسابيع وقام حريق القاهرة الكبير فى ٢٦ يوليوسنة ١٩٥٢، والذى أحرقت فيه كثير من الممتلكات والمحلات الأجنبية، وفندق شبرد ذى الشهرة التاريخية وفى أعقابه سقطت وزارة الوفد برياسة مصطفى النحاس وأعلنت الأحكام العرفية وبعد أقل من ستة شهور من حريق القاهرة قامت ثورة يوليوفى ١٩٥٢.

وقوبلت الثورة فى بداية الأمر بارتياح كبير وقام مجلس قيادة الثورة بإيقاف دستور ١٩٢٣ وحل جميع الأحزاب السياسية ماعدا جماعة الإخوان المسلمين، ثم قام بحركة تطهير فى الجامعة للتخلص من الشيوعيين وأنصار النظام الملكى المخلوع.

صعود التيار الدينى فى مصر

قبل سفره لم يكن لهذا التيار أى دور يذكر فى حياة المصريين السياسية أوفى تشكيل الرأى العام فيها. ولم يكن له مكان وسط تيار القومية العربية والوطنية الصاعد الكاسح بقيادة حزب الوفد الذى تبنى قضايا الاستقلال والدستور والحريات المدنية والوحدة الوطنية. وجد التيار الدينى أنصارًا له بين فقراء المدن الذين زادت أعدادهم زيادة كبيرة نتيجة الهجرة الضخمة التى حدثت خلال الحرب العالمية الثانية موجة البطالة التى أعقبت الحرب. وقد كان فقراء المدن وعلى طول التاريخ وقود حركات التطرف فى مصر.

ولهـذه الحـركات تـاريخ طـويل يـمتد إلى العصر الوسيط عندما برز من منظريها ابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨) صاحب الفتاوى الشهير التي ما زال صداها يتردد حتى اليوم. وتشترك كل هذه الحركات في أنها لجلب لباس الدين، وتأخذ شكل التنظيمات السرية ذات الطقوس الصارمة ومعظم هذه الحركات كان يبدؤها الحاكم نفسه، والذى كان يتبناها ليستخدمها في دفع الأذى وتحويل الغضب بعيدًا عنه.

وقد حدثت أول حركة عنف قادها «الإخوان» في سنة ١٣٢١ وقت حكم السلطان المملوكي قلاوون وهى التي أسماها المقريزى «واقعة الكنائس» وفيها فوجئ السلطان قلاوون بقيام جماعات «الإخوان» بعد صلاة الجمعة بتحطيم وحرق كنائس الأقباط بر مصر من الإسكندرية إلى أسوان في وقت واحد. وقد تسبب هذا العمل المبيت والمحكم التخطيط في عصر لم تكن فيه الاتصالات سهلة في انزعاج الحاكم نفسه. وتكررت حوادث الغضب هذه فيما بعد وفي أوقات متباعدة وقت الحكومات الرديئة.

وقد أحكمت جماعة الإخوان، ومنذ أربعينيات القرن العشرين التخطيط للاستيلاء على ولاء الشباب عامة وشباب الجامعة خاصة، ونجحت في هذا المجال نجاحًا باهرًا وأصبح لها وجود ظاهر في الجامعة أهل أعضاءها للنجاح في انتخابات اتحادات الطلاب وتوجيه أموال هذه الاتحادات لتدعيم أهدافها والإنفاق على معسكرات تنظيماتها السرية التي كان يتم فيها تدريب كوادرها وشحنها بالأفكار. وتسارع تغلغل أفكار اليمين الديني بين مختلف الطبقات في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية ووقوع نكبة فلسطين. وكان معظم ضباط الثورة متأثرين بفكر جماعة الإخوان ومنهم من كان عضوًا منظمًا فيها وقد ثبتوا كثيرًا من أفكار هذه الجماعة وأحلوها محل الأفكار الليبرالية والزمنية التي سادت مصر حتى ١٩٥٢.

أما الأقباط، فقد كانت معرفة رجال الثورة بهم قليلة جدًا. فقد تخرجوا في مدارس ومارسوا أعمالا لم يكن بها وجود قبطي يذكر وكانوا في الأغلب ينظرون إليهم بحذر وريبة صحيح أن الأقباط شغلوا المناصب الحكومية فقد كان ذلك نتيجة لسبقهم في إنشاء المدارس التي تهتم بتعليم اللغات في عهد البابا كيرلس الرابع (١٨٥٤ - ١٨٦١) وكان معظم حاملي الشهادتين الابتدائية والثانوية بين أوائل القرن العشرين من خريجيها.

أما العلاقة بين الأقباط والإنجليز فقد اتسمت بالعداء الشديد. وليس أدل على ذلك من موقفهم فى ثورة ١٩١٩ والدور الكبير الذى لعبوه فيها إلى جوار الزعيم العظيم سعد زغلول.

وقد تأثرت حياة رشدى سعيد بهذا المناخ الجديد فى مصر فمنذ ١٩٥٢ أصبح إبعاد الأقباط عن بعض المراكز الحساسة فى الدولة سياسة.

وبالنسبة لتعلمه أصول الكتابة العلمية الصحيحة، فيرجع الفضل فيه إلى أستاذه بجامعة هارفارد، هنرى ستسون، الذى أعاد معه قراءة رسالة الدكتوراه وعلمه طريقة الكتابة العلمية وكيف يفرق بين الملاحظة والتفسير وأن يزن كل كلمة يكتبها.

وقد أدرك الفائدة الكبيرة لتعرفه على قواعد ومنطق الكتابة بالإنجليزية عندما اضطر لوضع كتاب علمى باللغة العربية ففى صيف ١٩٥٥ بعد صدور قرار من مجلس الجامعة تحت الحاح كمال الدين حسين وزير التعليم آنذاك بتعريب التدريس بكلية العلوم فقضى الصيف فى إعداد محاضراته باللغة العربية وجاء هذا الكتاب مطبقًا لأسلوب العلم.

وبعد سنوات من هذه التجربة فى ميدان التعليم باللغة العربية، أتيحت له الفرصة للمشاركة فى ترجمة قاموس علمى إصدرته دائرة المعارف البريطانية بالإنجليزية مع كبار الأساتذة مثل: رياض ترك، ومحمود حافظ ومحمد عبد الفتاح القصاص ومحمد النادى، حيث كانوا يجتمعون لمدة ساعتين لأسبوعيا ليقرأ كل واحد منهم ترجمة مصطلحاته كما كتبها لتصفها اللجنة مجتمعة فى محاولة لتوحيد ترجمة الكلمات. وكان نجم هذه اللجنة المرحوم الدكتور أحمد عمار طبيب أمراض النساء المشهور. وكان عاشقًا للشعر العربى وحافظًا لبحوره ومحبًا للغة العربية. يقول الدكتور رشدى:

«وقد فتح الحديث معه والاستماع إليه أفاقى على ثراء هذه اللغة ومكانتها الكبيرة للتطويع للاستخدام الحديث ونحت مصطلحات العلم».

إذ وجد أن قسم الجيولوجيا قد تأثر بخروج الأساتذة الأجانب من مصر خلال سنوات الحرب. وزاد الطينة بله إنشاء جامعتى الإسكندرية وعين شمس فتضاعفت الحاجة إلى مدرسين وأستاذه فانتهز الكثير من الخرجين هذه الأزمة وتركوا وظائفهم

والتحقوا بالجامعات الجديدة ورغم أنهم أقل منه خبرة وعلمًا، فقد أصبحوا بحكم الأقدمية الوظيفية فى مركز يحكمون فيه على أعماله ويقررون ترقياته.

إن أحد أساتذة القسم ممن لم تتح له فرصة التعليم الجيد كان من جماعة الإخوان المسلمين وكان فى غضب شديد وشكوى مستمرة من تخلفه فى الترقيات التى كان يعزوها إلى المؤامرات التى يديرها له الأقباط وأنصارهم.

وكانت الدعوة إلى الكراهية والتميز أهم ما شغل هذا الأستاذ بالإضافة إلى انشغاله بالتخطيط لشغل وظائف المعيدين وهيئة التدريس بالقسم من بين مجنديه من أعضاء تنظيمات التيارات المتشددة وقد نجح فى تحقيق ما سعى إليه بفضل التعضيد الضخم الذى ناله هذا التيار المتشدد من جانب الحكومة، وعلى الأخص من حكومة إسماعيل صدقى التى جاء بها الحكم فى سنة ١٩٤٦ لاقتلاع موجة اليسار المتصاعدة.

لقد قضى رشدى سعيد بعد عودته عامين يحاول أن يجد له طريقًا وسط هذا المناخ الردىء ووسط أساتذة لم يكن لهم هم سوى عرقلة قيامه بالبحث العلمى، وصرف طلاب البحث عن العمل معه، وحجب الأموال والأجهزة عن معمله بل وتنحيته عن التدريس حتى لا يقوم بالتأثير على الطلاب. مما دفعه للابتعاد عن هذا الجوبأن أقام لنفسه وحدة خاصة للبحث العلمى ودبر لها مكانًا صغيرًا فى القسم ودبر لها التمويل والإمكانات من خارج الجامعة.

مدرسة جديدة للبحث العلمى

قنع الدكتور رشدى سعيد بالانكفاء على مكانه الصغير محاولًا أن يبنى مدرسة من الشباب الجديدَ يأمل أن يكون أوسع أفقًا وأكثر دراية بالعالم الواسع خارج محيطه، والذى أراد أن يفتحه أمامهم وينقله لهم. كذلك سعى جاهدًا لمد الجسور مع الهيئات العلمية والعالمية وشركات البترول وهيئة الأبحاث الجيولوجية لتسهيل رحلاتهم بالصحراء ولتزويد الطلاب بالعينات والبيانات.

المهم أنه نجح فى بناء وحدة نشيطه للبحث العلمى استطاع - كما يقول - أن يجعلها على مستوى مثيلاتها فى أعظم الجامعات الأجنبية. وفى الوقت نفسه ظل محافظًا على

استقلال معمله ومستوى طلابه بفضل تصميمه على الابتعاد عن الدخول فى تربيطات الأساتذة التى أفسدت مستوى الدرجات العلمية وجعلت الترقيات لغير من يستحق.

ومن الأعمال الكبيرة التى خرجت من هذا المعمل كتاب «جيولوجية مصر» الذى صدر عن واحدة من أعرق مؤسسات النشر العلمى فى أوروبا وأمريكا فى وقت واحد عام ١٩٦٢ وسرعان ما أصبح مرجعًا ذائع الصيت وترجم إلى عدة لغات.ويضيف رشدى سعيد هنا أن برامج الأبحاث العلمية المشتركة التى قام بها مع بعض أساتذة الجامعات الأجنبية كانت من أهم العوامل التى أسهمت فى استقلال معمله،وكان من أوائل هذه البرامج وأنجحها. لأنها قامت على أساس الندية، فعندما يتساوى قادة البحث من كلا الطرفين فى القامة العلمية ينشأ الحوار ويصبح إمكان توجيه البحث إلى مافيه فائدة مشتركة.

وهذا ما حققه الدكتور رشدى سعيد فى العمل المشترك الذى قام به مع زميله فى هارفارد فريد وندورف الذى وصل إلى مصر سنة ١٩٦٢ بدعوة من الحكومة المصرية وهيئة اليونسكوللمساهمة فى إنقاذ آثار النوبة • وطلب منه مشاركته فى دراسة العصر الأخير من تاريخ الأرض؛ حيث يقوم هوبدراسة الإنسان وما تركه من أدوات ويقوم رشدى سعيد بدراسة جيولوجية المنطقة وبيئتها. واستطاع أن يقنع الدكتور جلال الدين حافظ وكيل وزارة الصناعة والمسئول عن شئون الثروة المعدنية أن تسمح له هيئة الأبحاث الجيولوجية باستخدام سيارتين لزيارة النوبة، ثم انتدب معه أحد الباحثين وهوالبهى العيسوى.

كذلك حصل وندورف على تصريح من هيئة الآثار بالبحث عن آثار ما قبل التاريخ للمنطقة الصحراوية التى تحيط بمنطقة النوبة. وكان موسم العمل الحقلى يمتد مابين عشرة واثنى عشر أسبوعًا فى الصحراء فى معسكرات إسبرطية لم تكن بها ثلاجات أومياه كافية للاستحمام المتكرر. لكنه كان يشعر بأن الذهاب إليها متعة.

أما الترقية فى الجامعة فلم يهتم بالتقدم لها سنوات طويلة تجنبًا للصراعات مع من هم أقل منه علمًا وكفاءة. لكنه تقدم لمنصب الأستاذية بناء على طلب من الدكتور

عبد العزيز السيد الذى دهش عندما عرف أنه لم يزل أستاذًا مساعدًا فدبرله كرسيًا للأستاذية فى جامعة الإسكندرية. وبعد أعوام من ترقيته أصبح عضوًا فى اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة وحاول لعدد من الأعوام أن يعيد لها بعضًا من الاحترام والسمعة الطيبة وأن ينقل مناقشاتها إلى الموضوعية،إلا أن ذلك كان يكلفه كثيرًا من الجهد والمناهدة مما دفعه للاستقالة منها بعد عامين. كانت الجامعة بالنسبة له قد انتهت كمكان يمكن أن تتم فيه أية أبحاث علمية على المستوى الذى يمكن أن يعتد به.

المهم أنه لم يتم ندبه إلى جامعة القاهرة كما وعده الوزيرالذى أشفق عليه من العودة بعد أن عرف أن رئيس القسم يرفض ذلك ويصر على حرمان الطلاب من متابعة محاضراته. واقترح عليه أن يقبل الندب إلى جامعة عين شمس فقبل ذلك على مضض. وظل بها ضيفًا بلا مكتب لمدة عامين. وفى هذا الوقت الذى اغترب فيه عن الجامعات المصرية تلقى دعوة من الجمعية الجيولوجية الأمريكية لإلقاء سلسلة محاضرات بالجامعات الأمريكية، وهى دعوة اعتادت الجمعية أن توجهها كل عام لاثنين من علماء العالم خارج الولايات المتحدة ويعتبر توجيهها تشريفًا رفيعًا. فقبل الدعوة وحجز له مكانًا بالطائرة، إلا أنه تلقى مكالمة هاتفية من الدكتور عزيزصدقى الذى رشح لوزارة الصناعة سنة ١٩٦٨ ،يطلب منه أن يقبل رئاسة مؤسسة التعدين والأبحاث الجيولوجية، فألغى سفره وبقى فى مصر.

كانت المؤسسة عندما وصل إليها فى مايو١٩٦٨ تديرهيئة للأبحاث الجيولوجيةوتشرف على تسع شركات للتعدين لكل منها مجلس لإدارتها. وكانت شركات التعدين من مخلفات القطاع الخاص الذى تم تأميمه قبل وصول الدكتور رشدى سعيد بسنوات، وكانت المؤسسة فى حالة يرثى لها فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لسيناء، مما أدى إلى أن تفقد الجزء الأكبرمن مناجمها وتجبرأكثر من ثلاثين ألف عامل ممن كانوا يعملون فى مناجم المنجنيز والكاولين والجبس على العودة إلى مصربعد أن فروا أمام القوات الإسرائيلية .إضافة إلى أرامل المفقودين فى الحرب واللواتى قطعت عنهن المرتبات ولم تحل مشكلة معاشاتهن.

ابتدأ عمله بتقييم شركات التعدين القائمة ووجد أن أحدًا لم يتنبه الى أن خسائر شركات التعدين عامة والفوسفات خاصة، هونتيجة لاستمرارها فى العمل بالطرق

القديمة وعدم تبنيها للطرق الحديثة فى الاستخراج، وحتى حين أصبح الكلام عن ضرورة الميكنة واردًا فإن هؤلاء المسئولين قاموا بطبيق طرقها على خامات لاتقبلها.

وبعد بحث ودراسة لاحتياطيات الخامات بساحل البحر الأحمر ووادى النيل وجد أنها لاتبرر إدراج مشروعات جديدة فى هذه المناطق. وفى ضوء هذه الدراسات قام مجلس الإدارة باعادة تخطيط أهداف المشروعات المدرجة بالخطة إلى أرقام أكثر واقعية وأوضح لمجلس الإدارة أن هذه المشروعات ليست إلا حلًا مؤقتًا، وأن الحل الطويل الآجل هوفى نقل نشاط هذه الشركات إلى مواقع جديدة ذات احتياطيات كبيرة وقابلة للاستخراج بطرق الميكنة. ولحين إيجاد هذه المواقع فليس أمامها إلا العمل على تحسين إنتاجية العامل وزيادة كفاءة الإدارة. ولم تكن شركات التعدين بأحسن حالا. وبعد دراسة لأوضاع شركة استخراج الرمال السوداء عند مصب النيل فى دمياط قرر إغلاق هذه الشركة وتصفية مشروعاتها نتيجة لتكرار خسائرها، وقد وافق الدكتور عزيز صدقى على هذا القرارمباشرة؛ لأنه عاصر المشروع لسنوات طويلة وتأكد من عدم جدواه.

وبعد سنتين من العمل المتصل لإصلاح حال شركات التعدين القائمة، تأكد له أنها لاتملك الأسس أوالعناصر اللازمة التى تجعلها قادرة على المنافسة أوتجعل لها مستقبلا، فقرر بناء هيئة عالية المستوى للبحث العلمى لدراسة أرض مصر والكشف عن ثرواتها المعدنية واختيار الصالح منها للاستخراج الاقتصادى ليكون أساسًا لهذه الشركات الجديدة.

«وفى ضوء هذا القرار، قمت بإعداد مشروع قانون يعيد تشكيل مؤسسة التعدين التى كنت أرأسها، نقلت فيه تبعية شركات التعدين القائمة والتى كانت تتبع المؤسسة إلى مختلف المؤسسات الصناعية الأخرى التى كانت تستخدم خاماتها، وحددت من بين أهداف هذه الهيئة الجديدة الدراسة العلمية للأرض المصرية وتقييم رواسبها المعدنية وجدوى استخراجها وتصميم مناجمها ومشروعات استغلالها وأسميت الهيئة الجديدة بهيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات المعدنية. وحملت مشروع القانون إلى الدكتور عزيز صدقى وزير الصناعة الذى رحب به. وأبلغته أن لدى بعض المشروعات التعدينية الجاهزة بالفعل، والتى كان فى مقدمتها مشروع فوسفات أبو طرطور الذى كنت قد بدأت

دراسة إمكان استغلال احتياطاته الهائلة والذى أملت أن يحل محل شركات الفوسفات القائمة، وصدر القرار الجمهورى بإنشاء هذه الهيئة الجديدة فى سنة ١٩٧١».

يقول رشدى سعيد إنه منذ خروجه فى الجامعة والأمل يحدوه فى أن يحول هيئة الأبحاث الجيولوجية الملحقة بمؤسسة التعدين إلى مركز مميز للبحث العلمى ٠وقد شجعه على المضى فى هذه المحاولة تاريخها العريق فى هذا الميدان منذ تأسيسها فى سنة١٨٩٦ كهيئة للمساحة الجيولوجية. «وكانت أعمال هذه الهيئة قد توسعت قبل مقدمى لمجابهة متطلبات برنامج التصنيع الكبير من الخامات،إلا أن هذا التوسع لم يواكبه تحسين فى إدارتها أوفى تدريب كوادرها ولذا فقد كانت فى غاية السوء عندما تسلمتها».

تنظيم المبنى

ابتدأ الدكتور رشدى بتنظيم المبنى الذى كان يخلو من أى نظام. وما إن بدأ هذا العمل حتى أخذ المبنى يتشقق ثم يميد، لأنه كان قائما على كوم من القمامة التى وصل سمكها إلى أكثر من ثمانية عشر مترًا حسب ما عرفوه من جسات البئر التى دقت لاختبار أرضية المبنى والتى كشفت أنه مقام فوق مقلب من القمامة منذ العصر الفاطمى وحتى أصبح مقرًا لأحد معسكرات الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية ٠ وبعد سند المبنى وإصلاحه،كان عليهم إعادة تنظيم حجراته وإصلاح مداخله حتى تفصل مكاتب الفنيين عن مخازن الهيئة.

قام بتنظيم الهيئة التى كانت حتى وصوله بلا هيكل تنظيمى أوتوصيف لوظائفها. وبعد أن أصبح للهيئة شكل وانتظمت حركة السيارات فيها، قام الدكتور رشدى بزيارة مواقع العمل بالصحراء والذى كان يتم فى معسكرات مؤقتة من الخيام. وتركزت شكوى العاملين فيها على تخلف الترقيات وتوقفها منذ سنوات، وكذلك من عدم انتظام البريد وعدم تنظيم الإجازات وغير ذلك من الأمور التى اتخذ فيها قرارات فورية وأصدر حركة ترقيات شملت جميع العاملين،وأتبعها فى السنتين التاليتين بحركتين مماثلتين عوض بهما الكثيرين عما فاتهم من ترقيات مما أراحهم وشجعهم على البقاء فى الهيئة.

تدريب العاملين

وهى الجزء الأهم فى عملية بناء مراكزالأبحاث العلمية، والتى تحتاج لكادرات فنية مدربة قادرة على القيام بمهام البحث. ولم يكن لدى الهيئة سوى القليل منها،ومن جهة أخرى، لم يكن لدى الهيئة قيادات علمية تستطيع تسيير العمل العلمى المنظم، وكانت القلة القليلة من حملة الماجستير والدكتوراه تتطلع للخروج من الهيئة والالتحاق بالجامعة ذات الكادر المتميز والمرتبات الأفضل وقد حاول الدكتور رشدى سعيد إغراءهم بالبقاء معه لإنجاز عملية تطوير الهيئة. لكن لم يبق منهم إلا قلة من الذين اقتنعوا بكلامه أو الذين لم يجدوا مكانًا فى الجامعات.

الخبرة السوفيتية

بالإضافة إلى هذا، كان لدى الهيئة طاقم كبير من الخبراء الروس الذين كانوا يعملون طبقًا لأحد العقود القائمة وقت قدومه فى تقييم الخامات اللازمة للصناعات المقترح إقامتها لاستخدام كهرباء السد العالى. وقد أتاح العقد مع الجانب الروسى والذى مد لخمس سنوات فى سنة ١٩٧١،حصول الهيئة وبأسعار زهيدة على عدد كبير من السيارات والمعدات وماكينات الحفرمما جعل إمكان الاستفادة منها صعبًا. وعلى الرغم من أن الاستفادة من البعثات الروسية لم تكن كاملة بسبب سوء النظام وقلة القيادات الفاعلة التى كان يمكن أن تعظم الاستفادة منها، فإن هذه البعثات فتحت أمامنا طريقًا لم نكن نعرفه وهوطريق تقييم الخامات ومعرفة طريقة تقديركميتها وأخذ العينات.

وقد اتجه فكر الدكتور رشدى سعيد إلى الاستعانة ببعض كبار الأساتذة من الجامعات الغربية أومراكز البحوث المميزة للعمل فى مصر والقيام ببحوث مشتركة يمكن أن يتم عن طريقها تدريب أبنائنا وإكمال معاملنا التى لم تكن الخبرة الروسية قادرة على استيفائها إلا أن هذا الأمر كان صعب التحقيق بسبب توتر العلاقات السياسية مع العالم الغربى. ونتيجة لذلك لم يستطع أن يضم إلى الهيئة إلا المشروع البحثى الذى كان

يقوم به البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة فى جنوب الصحراء الشرقية كجزء من التنمية الإقليمية لمحافظة أسوان.

وظل الحال على ماهوعليه حتى ذهب رشدى سعيد ضمن وفد برلمانى ١٩٧٥، لتعزيز العلاقة مع الكونجرس الأمريكى، وأعدت لهم مقابلة مع الرئيس الأمريكى جيرارد فورد وعدد من كبار المسئولين، وفى أثناء ذلك فاتح هنرى كيسنجر فى موضوع التعاون العلمى، فأومأ برأسه دون أى تعليق. لكن بمجرد عودته إلى الفندق وجد رسالة من مكتب رئيس هيئة المساحة الجيولوجية يطلب فيها لقاءه. وتم اللقاء ووافق على تنفيذ الاقتراح المقدم منه قبل ذلك بعام فى إقامة وحدة متكاملة لإعداد وعرض الرسوم والخرائط بل وطبعها وتدريب ما يلزمها من الموظفين.

وبعد ذلك قام رشدى سعيد بزيارة لمدينة دالاس لكى يحث أساتذة جامعتها على الإسراع فى استكمال ما يلزم من خطوات للموافقة على المشروع الذى كان قد تقدم به للقيام بعمل مشترك فى علم الجيوفيزيقا وهوالعلم الذى كان يتقدم بسرعة مذهلة ولِمْ للروس فيه باع طويل. وما انقضت ساعات حتى جاءت الموافقة على تمويل المشروع. وتم ترتيب تفاصيل برنامج المشروع الذى تركزعلى موضوع الدراسات السيزمية ودرجات حرارة الأرض وكان التقدم فى كلا الميدانين كبيرًا بدرجة لم تعرفها مصر

وجاءت بعثة الجامعة فى خريف ذلك العام حاملة بعضًا من أكثر الأجهزة تقدمًا فى هذه الميادين، وقامت بتدريب فنيينا وبإجراء بحوث مشتركة على مستوى عالٍ.

بعد هذا العمل التنظيمى أصبح لهيئة المساحة الجيولوجية القدرة على البدء فى تنفيذ برنامج طموح للبحث عن المعادن فى مصر. وأصبحت الصحراء تعج بالعمل الذى يقوم به ما يزيد على مائتى من الجيولوجيين والمهندسين يخدمهم ضعف هذا العدد من العمال والفنيين والإداريين، وكانوا ينتظمون فى بعثات توزعت فى أنحاء الصحارى وفى أعماقها، وأعطيت للبعثات فرصة عرض نتائج أعمالها فى محاضرات فى قاعة أعدت بالهيئة خصيصًا لهذا الغرض. وكانت أحسن التقارير تشجع بالمكافآت المالية.

فوسفات أبوطرطور

شجعه نجاح بناء منجم كاولين كلابشة على أسس علمية سليمة،وبواسطة الخبرة المصرية الخالصة على المضى قدمًا فى مشروعه لإقامة صناعة تعدين جديدة فى مصر يخدمها بيت الخبرة المصرية. وفكر فى دراسة راسب الفوسفات الكبير الذى تم تسجيله خلال بعثة جيولوجية أوفدت إلى المنطة الواقعة بين الواحتين الخارجة والداخلة. وهكذا تم اختيار منطقة «أبوطرطور» لبناء منجم هائل ينقل صناعة التعدين إلى مستوى العصر، وينقل العمران إلى قلب الصحراء.وفى سنة ١٩٧١أعلن عن المشروع فى مقال علمى نشره فى واحدة من أمهات المجلات العلمية العاملة فى حقل التعدين، ثم فى كتيب صغير بالعربية بعنوان «فوسفات أبوطرطور- أحد الكشوف الكبرى لهيئة المصرية للمساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية» سجل فى تقديمه قصة هذا الاكتشاف وأثره المنتظر على الاقتصاد المصرى عند تنفيذه.

فكرة البحث عن الجذور

لقد اختمرت فى ذهنه فكرة البحث عن الجذور نتيجة ملاحظة أبدتها سيدة إنجليزية فى المتحف البريطانى، إذ رأت أن سحنة رشدى سعيد ما زالت تحافظ على ملامح ذلك المصرى القديم الذى رأت تمثاله معروضًا فى المتحف، فأثارت فضوله للبحث عن هذا السر الذى أبقى على هذا التشابه بعد ما يزيد على مائة وخمسين جيلًا وهى رحلة مهمة تكشفت خلالها أشياء وأشياء كانت غائبة عن أذهان عامة المثقفين؛ لأن الدكتور رشدى لا يسرد تاريخ حياته كوقائع أوأحداث متعاقبة صماء إنما يفحصها بحيث العالم ويكشف ما ينطوى عليه معانى ودلالات فى حياة المصريين ومأساتهم مع العثمانيين وخلفائهم حتى الآن.

فقد قاده البحث إلى الحقائق الأتية.

١- لم يكن للمصريين سجل مدنى يمكن الرجوع إليه وحتى بداية القرن العشرين لم تكن شهادات الميلاد شيئًا شائع بل لعلها لم تكن معروفة أصلًا للعدد الأكبر من المصريين وظلت كذلك حتى منتصف القرن العشرين.

٢- وكذلك كانت شهادات الوفاة التى لم يبدأ حفظها إلا فى وقت متأخر. بالإضافة إلى ذلك فالعائلات فى مصر، وباستثناءات قليلة جدًا، بلا تاريخ فعلى الرغم من العصبيات العائلية أوالبلدية التى تحكم الكثير من العلاقات الاجتماعية فى مصر فإن هذه العصبية لا تظهر إلا بين أبناء الجيل الواحد الذين قلما يربطون أنفسهم بمن سبقهم من أجيال. وهذا واضح فى عدم الاهتمام بحفظ الأوراق القديمة أوحتى باسم العائلة وقد دفعه اليأس من إمكان البحث عن الجذورفى السجلات والوثائق إلى البحث فى إمكان استخدام المادة الوراثية فى رفات الأجداد لمعرفة قدر الأثر الذى تركه الأقدمون فيهم ثم يقول:

«لقد حاولت أن أقنع أحد زملائى المشتغلين بعلوم الوراثة وممن يحاولون تطبيق أبحاثهم فى علم الآثارأن يتقدم بمشروع بحثى لدراسة المادة الوراثية المحفوظة فى رفات الموتى من المصريين المحدثين لمقارنتها بالمادة الوراثية التى استخرجت من رفات الفراعنة لمعرفة تطابق المادتين. وقد تحمس الزميل للاقتراح، وطلب منى استكمالا لأركان البحث أن أجد له جبانة بمصر تحفظ فى جنباتها رفات سلسلة من الأشخاص المعروفين الأنساب لرابع أولخامس جيل على الأقل ليجرى عليها أبحاثه فلم أجد. وتبين لى من زيارتى للجبانات حالتها المزرية».

وفى رأى أن البحث عن الجذور هومن أهم مواضيع هذا الكتاب وأكثرها طرافة. فهذا الحنين الدافق لمعرفة الذات بين ركام الأطلال البالية والأحداث المتلاحقة على مدى أجيال قد أضفى على هذا الكتاب مسحة عاطفية قوية جعلت منه عملًا أدبيًا رفيع المستوى، وكشف عن امتلاك المؤلف لموهبة الحكى والسخرية إن بحث رشدى سعيد اللاهث عن جذوره هنا له غاية نبيلة هى الإمساك بما هومشترك فى حياة المصريين، هذا الخيط الرفيع الذى كان يربط أفراد المجتمع جميعا فى كيان واحد ويجعل منهم أسرة واحدة قوية تجاهد فى الحياة من أجل أهداف مشتركة وغايات واحدة عظيمة تتمثل فى العدل والأمن والتقدم.

إن بحث رشدى سعيد يندفع بقوة الحنين نحوجذوره العائلية العريقة فيسعى إلى مسقط رأس أجداده فى قريته،وعبر تلك الرحلة المثيرة تتفجر المواقف الغريبة والعجيبة الحافلة بالمفارقات الساخرة والحزينة كما نرى فى الحكاية التالية:

«وكان عمدة السراقنة فى ذلك الوقت هوجد صديقى الدكتور حلمى غالى عبد المسيح طبيب الأمراض النفسية المشهور، والذى رتب لى مقابلة معه فى خطاب أرسله إليه. وكنت قد عرفت بطريق المصادفة، وأثناء حديث عابر مع الدكتور حلمى، أنه من ذات البلدة التى جاء منها جدى وأن جده يشغل منصب العمدة، ولما عرف برغبتى فى زيارتها أبلغ جده بذلك وطلب منه استضافتى وتسهيل زيارتى. وقد وجدت العمدة بالفعل فى انتظارى عند أطراف البلدة ووراءه أربعة من الغفر، وكان متجهم الوجه وحاملا للسلاح وغير مبد أى ترحيب بمقدمى!

وبادرنى بالحديث سائلا عن سبب مجيئى ولما أخبرته أن غرضى هوزيارة البلدة التى عاش فيها أجدادى زاد وجهه تجهمًا ورد قائلًا بأن هذا التاريخ قديم فلم يعد للجد أولمن أخلفه شىء يمكن أن يزوره. أما إذا كان مقصدى هوالأخذ بالثأر فهوعلى أتم استعداد، وشد على سلاحه. وقد فاجأنى كلامه الذى لم أعرف له سببًا أوأصلًا، فلم يحك لى أحد من قبل عن أن جدى قد ترك القرية ووراءه شىء أوحاملًا ثأرًا لأحد، فلما طمأنته أنى جئت لرؤية القرية التى جاء منها وأنى لم أت للمطالبة بشىء أوللثأر من أحد وأنى لا أحمل سلاحًا، قبل أن يستضيفنى وأن يحكى لى أن أباه قد حل محل جدى عندما ترك وظيفته مما أهله لأن يحتل منصب العمدية عندما أدخل نظامها فى ريف مصر فى السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر. واعترف لى بأنه ومنذ أن وصله خطاب حفيده من مصر يبلغه فيه عن زيارتى وهوفى توجس من أنى قادم للمطالبة بأملاك أوللأخذ بالثأر.

ومن اللافت للنظر هنا أن القصة التى أثارت هذا الغضب والتوجس حدثت منذ أكثر من ثمانين عامًا، ولكنها بقيت مع الابن طوال هذا الوقت بعد أن نقلها إليه الأب ولابد أن العداء لعائلة جدى كان كبيرًا مما تسبب فى نزوحها من البلدة بكاملها حتى أننى لم أجد فيها عند زيارتى فردًا واحدًا منها، كما أنى لم أجد واحدًا فيها عرف شيئًا عن جدى أو عائلة الأعمش بأكملها، وكان العمدة والذى كان فى ذلك الوقت فى منتصف السبعينيات من العمر آخر من سمع شيئًا عنها».

ولعله من المفيد أن نعرف أن هذه القرية تقع فى حضن الدير المحرق وحماه، وهوالدير الوحيد الذى يقع داخل وادى النيل وقد بنى هذا الدير فى المكان الذى استقرت فيه

العائلة المقسة لثلاث سنوات ونصف عند هروبها إلى مصر. وقد جاء ذكره فى كتابات صالح الأرمنى.

سنوات الانحسار

ظل العمل جاريًا بهمة فى الهيئة حتى بداية السبعينيات، عندما بدأ يتراجع قليلًا بعد أن تولى أمور مصر الرئيس السادات الذى تغيرت تحت قيادته أولويات العمل الوطنى.

تقارير الأجهزة

وتزامن بدء السبعينيات مع بدء صراع سياسى بين أجنحة الحكم أدخلت فيه، وعندما ترك الدكتور عزيز الوزارة، أحال التقارير التى كانت تصله عنى إلى المهندس «على والى» الذى تولى وزارة البترول التى أضيفت إلى أعمالها شئون الثروة المعدنية وطلب الدكتور عزيز من المهندس على والى أن يبحث عن هذه التقارير ويسترشد بها فلما قرأها تولد لديه انطباع بأننى أحد المتعصبين الدينيين والفاشلين، وناله منى ارتياب كبير. وقرر المهندس على والى أن يواجهنى بالاتهامات، التى قرأها فى التقارير أخذها على أنها صحيحة، فى اجتماع عام دعا إليه موظفى المؤسسة التى كنت أرأسها، ورتب له من وراء ظهرى مع المدير العام، ودعانى إليه فى اللحظة الأخيرة، وذهبت بالفعل وبعد تردد إلى الاجتماع، ووقف الوزير ليلخص التقارير التى وصلته والتى كان يتكلم عنها وكأنها صحيحة.

وبعد أن عددت للوزير الاكتشافات والإنجازات التى قامت بها المؤسسة، والتى كنت أذكر أسماء منفذيها أوالمشرفين عليها أشير إليهم من بين الجالسين فى القاعة، وطلبت من الوزير أن يزور المؤسسة قبل أن يلقى أحكامه عليها.

وقام الوزير بالفعل بزيارة المؤسسة بعد أيام، ومررت معه على مختلف أقسامها، وأعجب الوزير بشكل خاص بالطريقة التى نظمنا بها الوثائق والتقارير العلمية.

وبعد أن انتهت جولتنا، عدنا إلى مكتبى وسرعان ما أغرقت عيناه بالدموع واحتضنى وشكرنى على الجولة، واعترف لى أنه خدع بالتقارير التى وصلته وما كان

يحق له أن يفعل ذلك وهو الذى اكتوى منها من قبل، ووعدنى بأن يرسل لى ملفًا كاملًا بهذه التقارير فى الغد لكى أطلع عليها.

وقد أفلحت بالفعل فى مسعاى، واستطعت أن أعيد تبعية المؤسسة إلى وزارة الصناعة فى أول تعديل وزارى جرى فى يناير سنة ١٩٧٢ بتولى الدكتور عزيز صدقى رئاسة الوزارة والدكتور يحيى الملا وزارة الصناعة.

مأزق فوسفات «أبوطرطور»

وتوافد على وزارة الصناعة فى هذه الفترة وزراء كانوا يتخذون القرارات الخاصة بشئون الثروة المعدنية دون الرجوع إلينا أوإلى أى شخص من المختصين بشئونها. ومن الوزراء من كان لا يعرف شيئًا من شىء فى شئونها، ألا أنهم كانوا يعملون وفقًا لجدول أعمال خاص أملى عليهم من الأجهزة ومن أصحاب المصالح الخاصة لمجمع الحديد والصلب الذى لم يكن فيه واحد يعرف شيئًا عن التعدين.

وتسبب نقل المشروع من إشرافنا إلى مجموعة الهواة التى أدارته منذ ذلك الوقت، إلى خسائر كبرى تحملتها البلاد على مدى أكثر من اثنتين وعشرين سنة، عندما أثير الموضوع وفتح ملفه فى سنة ١٩٩٦ وأصبح حديث الصحافة وموضوع لجان تقضى الحقائق فى المجالس القومية المتخصصة وفى مجلس الشعب. وفى خلال هذه السنوات الاثنتين والعشرين، أنفق ما يزيد على سبعة مليارات من الجنيهات بعثرت على المقاولين وبيوت الخبرة الأجنبية التى جىء بها من كل أركان الأرض. وانتهت بإغلاقه وإخراج المدير من عمله لحين البحث عن مخرج من البلاء الذى سببه قرار وزير خائب فى سبعينيات القرن العشرين!

١٤- عاطف العراقى وتراث ابن رشد

حصل الدكتور عاطف العراقى على الجائزة التقديرية لجامعة القاهرة لعام ٢٠٠٦، وهوأمر يدعوللارتياح حتى لوجاء متأخرًا. فالدكتور عاطف العراقى انحاز منذ وقت مبكر لفكر الاستنارة وربط نفسه بتراث ابن رشد، ودخل فى معارك شرسة من أجل الدفاع عن العقلانية وحرية التفكير وكرس حياته وعمله الأكاديمى والبحثى لهذه الرسالةالعظيمة وأصبح جديرًا بما هوأعظم من هذه الجائزة.

بدأت علاقةالدكتور عاطف العراقى بالفيلسوف ابن رشد عقب تخرجه فى قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، فى أوائل الستينيات من القرن العشرين، وامتدت على مدى أربعين عامًا وأثمرت عددًا من المؤلفات المرجعية المهمة فى ميدان الدراسات الفلسفية والنقـدية، مثـل: «النـزعة العـقلية فى فلسفة ابن رشد»، ثم «المنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد» و«مذاهب فلاسفة المشرق» وأيضا كتاب «ثورة العقل فى الفلسفة العربية» إلى غير ذلك من الكتب المفيدة والمهمة.

لقد تتلمذ عاطف العراقى على اثنين من كبار المفكرين والباحثين فى الدراسات الفلسفية هما الدكتور زكى نجيب محمود، والأب جورج قنواتى مدير معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينيكان بالعباسية الذى أتاح له فرصة الاطلاع بصورة متصلة

وميسرة على ذخائر مكتبة المعهد، الحافلة بأهم مراجع الفكر الإنسانى. كما كان لتلمذته وصحبته الطويلة لهذين العملاقين أثرها العظيم فى إذكاء روح البحث والاطلاع عنده، فضلًا عن اكتسابه بعض الصفات التى أعجبته فى كل منهما.فقد أخذ عن ذكى نجيب محمود إيمانه بقدرة العقل وبالمناهج العلمية، وأخذ عن الأب قنواتى الإيمان بوحدة المعرفة والانفتاح على الفكر الآخر بروح الفهم والتعاطف، وبدافع الرغبة فى ترسيخ أسلوب الحوار وتغليبه على دعوات التعصب والاستعلاء. ومن أجل هذا شارك عاطف العراقى فى مؤتمرات حوار الأديان التى عقدت داخل مصر وخارجها على مدى السنوات الثلاثين الماضية بدأب وإخلاص شديدين.

كان الأب قنواتى يجمع بين المعرفة العلمية والمعارف الإنسانية كالفلسفة والتاريخ واللغات، إذ بدأ حياته بدراسة علوم الصيدلة واشتغل بها بضع سنوات. وكان لذلك أثره فى تعرفه على الأمراض وعلاجها مما جعله يهتم بربط النتائج دائما بأسبابها. وهذه إحدى الصفات التى تربط بين هذا العالم والمفكر المعاصر وبين فيلسوف القرن الثانى عشر الطبيب أبى الوليد ابن رشد. وهى التى ربطت بينهما أيضا وبين الدكتور عاطف العراقى فى المنهج والاتجاه.

إلى جانب ذلك، فإن عاطف العراقى يملك حسًا نقديًا يقظًا يجعله يرفض القبول بالمسلمات، ولايأخذ بفكرة من الأفكار حتى يفحصها فحصًا دقيقًا ويردها إلى أصولها الأصلية، ومن أجل هذا شغلته فكرة الأصالة فانشغل بنقد الأفكار وهويدعوللتركيز على نقد الفكر للفكر وذلك على النحوالذى يجده عند الفلاسفة وعند المتأثرين بالروح الفلسفية، لأن هناك صلة بين النقد الأدبى والنقد الفلسفى، كالصلة بين الفلسفة والأدب.وهذا الاتجاه النقدى، كما يرى عاطف العراقى تتعدد صوره ومجالاته وميادينه، ويرتبط ارتباطًا ضروريًا بالنقد المقارن الذى يكشف عن الوشائج الخفية بين الأعمال الأدبية والفلسفية الكبرى فى الثقافة العربية والثقافات الكلاسكية كاليونانية والهندية والفارسية، ويمثل أداة فعالة فى الكشف عن الأفكار الأصيلة والأفكار المنحولة فى أدبنا وفى ثقافتنا أى أنه أداة تفرقة بين التقليد والتجديد، ويتضح هذا من قوله:

«فالمقلد لا أثر له فى المجتمع، بل قد يحاول من جانبه الدفاع عن فكر الظلاميين وتبرير العادات والتقاليد الخاطئه، أما المجدد فإنه نظرًا لالتزامه بالاتجاه النقدى، فإننا نراه ساعيًا باستمرار لتقديم رؤية مستقبلية تتبلور حول النظرة إلى الأمام وليس إلى الخلف، فالتجديد إعادة بناء وليس مجرد ترسيخ للبناء الآيل للسقوط».

وهذا فى رأى هوملخص رؤية الدكتور عاطف العراقى التنويرية المستقبلية التى يجاهد من أجلها عن طريق النقد والكتابة والتدريس.وهويلح على توصيلها بشتى الطرق وكأنه فى سباق مع الزمن. وهذه سمة المجاهدين المخلصين وأصحاب الرسالات العظيمة مهما كانت المخاطر التى تنتظرهم أويتعرضون لها. وقد تعرض الدكتور عاطف العراقى لكثير من المضايقات والملاحقات والاتهامات من جانب أعداء التقدم وأعداء حرية الإنسان، (وقف الدكتور عاطف العراقى أمام محكمة الجنايات بالمنصورة فى يوم١٥/ ٥/ ١٩٩٥ ليدفع عن نفسه تهمة الكفر؛ لأنه دعا إلى تأويل النصوص الدينية لفهم معناها الباطن وليس الوقوف عند المعنى الظاهر للكلام).

وإذا كان الدكتور عاطف العراقى قد جعل النقد الفكرى والأدبى شغله الشاغل، فذلك لأنه يقصد إلى التنوير العقلى والوجدانى. وهى رؤية تقودنا إلى جذور عربية إسلامية كامنة فى فلسفة ابن رشد ومنهجه النقـدى.

لقد كشف الدكتور عاطف العراقى عن مصادر التنوير فى تراثنا العربى الإسلامى وفى فلسفة ابن رشد بصفة خاصة وهذه إضافة مهمة للفكر الفلسفى العربى لم يسبقه إليها أحد. وهذا ما يقرره أستاذ الفلسفه الكبير الراحل الدكتور فؤاد الأهوانى فى تقديمه لكتاب «النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد» ١٩٦٨م إذ يقول:

«المذهب العقلى عند ابن رشد موضوع جديد مبتكر لم يكتب فيه القدماء ولم يتعرضوا له؛ لأن الحديث عن المذاهب كالمثالية والواقعية والعقلية والطبيعية وغير ذلك من هذه الألوان الجديدة التى درجت على أقلام الفلاسفة منذ الفلسفة الحديثة، فى القرن السابع عشر، كل ذلك لم يكن معهودًا من قبل» ثم يضيف الأهواني:

«وهذه محاولة، ولعلها أول محاولة، لتطبيق فلسفة المذاهب على تاريخ الفلسفة الإسلامية اختارها صاحب البحث ولا نـقول الكتاب؛ لأنه كان بحثًا تقدم به لنيل درجة الماجستير فى كلية الآداب جامعة القاهرة، وعكف على كتابة هذا البحث عدة سنوات حتى نضج واستوى واستخلص منه أن مذهب الفيلسوف الإسلامى ابن رشد شارح أرسطو، يمكن أن يقال عنه إنه مذهب عقلي».

وهذا يؤكد أن الدكتور عاطف العراقى كان أول باحث يلتفت إلى عقلانية ابن رشد ويكشف عنها النقاب فى كتاب «النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد» وفى بحوثه الأخرى وهويجاهد منذ أربعين عامًا من أجل تأصيل النزعة العقلية وفكرة التنوير فى ثقافتنا العربية، يتجلى هذا فى شروحه الكثيرة وتوضيحه لأفكار هذا الفيلسوف العربى المسلم الذى انتفع به الأوروبيون وأنكره العرب المسلمون، وسوف نعرف من شرحه لأفكار ابن رشد أن هذا الفيلسوف العربى كان المصدر الأول للتنوير العقلى فى عصر النهضة فى أوروبا. وكما يقول الدكتور عاطف العراقى: «فقد أضاف ابن رشد إلى مذهبه العقلانى اتجاهًا نقديًا لا نجد له نظيرًا طوال تاريخ الفكر الفلسفى العربى، وهواتجاه أصيل فرض الاعتراف به على فلاسفة الغرب».

ثم يقول أن أكثر آراء ابن رشد جرأة وعمقًا نجدها فى شروحه أكثر مما نجدها فى مؤلفاته مثل «فصل المقال» و«مناهج الأدلة» و«تهافت التهافت»؛ لأن هذه الكتب كان لها أسبابها التاريخيه ومن بينها محاولة ابن رشد التوفيق بين الدين والفلسفة تارة والرد على الغزالى تـارة أخرى، وأما الشروح فهى تتخطى حدود الزمان والمكان.

النقد وتحرير العقـل

وقد أدرك الدكتور عاطف العراقى منذ البداية أن النقد هوبداية التحرر العقلى من أسر العادات والتقاليد الفكرية والثقافية البالية، ومن ثم نراه يركز على إبراز هذا الجانب فى فلسفة ابن رشد وإعلاء قيمته فهو يقول:

«يتجلى موقف ابن رشد النقدى فى نقده للمتكلمين والصوفية وأصحاب الطريق الظاهر الذين يقفون عند ظاهر النص دون تأويله على أساس العقل، فانتقد العديد من

آراء ابن سينا؛ لأنها ابتعدت إلى حد ما عن طريق العقل ورفض اتجاه الغزالى وكشف عن مغالطاته،كما كشف أنه يستند إلى النزعة الأشعرية وإلى الاتجاه الصوفى وأصبح عدوًا للعقل وأحكامه. ثم هاجم الغزالى بسبب تكفيره الفلاسفة فى بعض آرائهم».

وبالنسبه للأسس الفكرية فى منهج ابن رشد فيحددها الدكتور عاطف العراقى علـى النحو التالي:

-وجوب استعمال القياس العقلى، أوالعقلى والشرعى معًا، إذ من الواجب - فيما يقول ابن رشد - أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى، وهذا نوع من النظر هوالذى دعا إليه الشرع وحث عليه وهو أتم أنواع النظر بأنواع القياس المسمى برهانًا

«وإذا كنا نجد عند ابن رشد دعوة للتأويل وإطلاق العنان للعقل، فإننا نجد دعوة من جانبه إلى الالتزام بالعلم وقوانينه، وقد ظهر ذلك فى نقده للغزالى الذى نسب إليه القول بعدم وجود علاقات ضرورية بين الأسباب ومسبباتها، وموقف الغزالى يعد معبرًا عن اللامعقول، «ثم يقول» تقدمت أوروبا لأنها اختارت فلسفة ابن رشد، وتعاليم ابن رشد «أما تخلف العرب فيرده إلى تفضيلهم الغزالى وابن تيمية من «أصحاب الطريق المسدود».

لقد وضع الدكتور عاطف العراقى أصبعه على سر تقدم الغرب وهوالاعتماد على العقل والمنهج العقلى،كما كشف عن سر تخلف العرب وهوتنكرهم للعقل ولمناهج العلم فى كل نواحى الحياة. لقد أعلى ابن رشد من دور العقل وجعله معيارًا للمعرفة الصحيحة وقد أدى هذا الفكر إلى ثورة التنوير والنهضة الأوروبية. فإذا كان التنوير الأوروبى يزعج بعض الجهلاء والمتشنجين ويعتبرونه غزوًا ثقافيًا فها هومصدر التنوير الحقيقى فى ثقافتنا العربية. فلماذا لا يقبلون عليه،كما أقبل على ذلك المصلح الكبيرالشيخ محمد عبده والدكتور طه حسين وزكى نجيب محمود؟ وقد وجد هؤلاء جميعًا ـ كمايقول عاطف العراقى ـ أن الخير يتمثل فى جعل العقل هوالدليل والمرشد والذى يجعلنا نتخطى ظلمات الجهل والتقليد بحيث يخرجنا إلى نور

المعرفة والتقدم، ونحن نجد عندهم دعوة إلى فتح النوافذ لكى نستفيد من تقدم العلوم والتكنولوجيا الذى يجرى بسرعة مذهلة.

فى كتابه (ابن رشد مفكرًا عربيًا ورائدًا للاتجاه العقلى) يعبر عاطف العراقى عن حرصه الشديد على تراث ابن رشد والذود عنه فيقول:

«من المؤسف أن ينسب إليه (أى إلى ابن رشد) نفر من الدارسين القول بحدوث العالم، رغم أنه يقول صراحة بقدم العالم وسواء اتفقنا مع ابن رشد أم اختلفنا معه فإنه من الضرورى تقدير آرائه بموضوعية وصدق، أما أن تنسب إليه آراء لم يقل بها ولا يسمح بها نص من النصوص التى قال بها فى كتبه المؤلفة أوالشارحة، فإن هذا يعد - فيما نرى - نوعًا من التزوير وأخطر أنواع التزوير هوالتزوير الفكري».

لقد ألم عاطف العراقى بفلسفة ابن رشد واستوعب مبادئه وأدواته فى النقد ثم انتقل لتطبيق هذه الرؤية الشاملة فى كتبه ومؤلفاته العديدة، ولنأخذ مثلًا كتابه «العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر» الذى يتناول فيه جملة من القضايا هى مثار الجدل فى حياتنا الفكرية المعاصرة لعل أهمها فى نظرى موقفنا من التقدم العلمى، وأسطورة الغزوالثقافى ودور المستشرقين فى حركة التنوير فى عالمنا العربى بالإضافة إلى قضية العلمانية التى تحدث حولها التشنجات الكثيرة فى عقول المتزمتين والمتعصبين وهو يتناول هذه الأمور بمعيار العقل والمصلحة الإنسانية والوطنية فهويرفض فكرة الغزو الثقافى ويدعوللأخذ بعلوم العصر حتى نخرج من بوتقة الفقر والتخلف الذى وضعنا فيها الاحتلال العثمانى عدة قرون، ومازالت آثارها باقية فى عقولنا وفى سلوكياتنا الفكرية والاجتماعية.

وبناءً عليه فإنه يرحب بترجمة كتب الفكر والثقافة العامة، ويرفض ترجمة كتب الطب والعلوم الأخرى، لأنها سوف تعزل الدارسين عندنا عن علوم العالم وتطورها فى هذه المجالات، وهى نظرة جديرة بالاحترام وصادقة تمامًا فى عصر يقفز فيه التقدم العلمى بخطوات فلكية من يوم إلى آخر.

وإذا انتقلنا إلى الباب الثانى من الكتاب الذى يتعرض فيه للحديث عن كوكبة كبيرة من المفكرين والكتاب فى ثقافتنا الحديثة نجد أنه يعيد النظر فى تراث الكثير

منهم ويقف موقفًا نقديًا مما قالوه ودعوا إليه، ورغم شهرة الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فإنه لا يغفل عن سلبيات يراها فى بعض كتاباتهم. وهويشير إلى ردود محمد عبده على هانوتووزير خارجية فرنسا ـ آنذاك ـ الذى كان يركز فى مقاله بالأهرام (يوليه سنة ١٩٠٠) على ضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية، ويؤكد على أن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن تم الفصل بين السلطتين.

لكن الدكتور عاطف العراقى لم يناقش هذه النقطة بما تستحق رغم أنها عقدة العقد فى حياتنا.وهى سبب التخلف العلمى والاقتصادى والاجتماعى، واكتفى بالقول بأن محمد عبده دعا إلى أهمية الحرية والابتعاد عن القول بالجبر وأن الإسلام أطلق العنان للعقل فلا يقيد العقل بكتاب، ثم عاب عليه كثرة التغنى بأمجاد الماضى.

وعن جمال الدين الأفغانى يقول الدكتور عاطف العراقى إنه بقدرما كان نشيطًا فى المجال السياسى، فإنه كان خاملًا وغاية فى الضعف فى المجال الفكرى. إن كتاباته حين تتعرض للجوانب الفكرية، تعد أضعف من خيط العنكبوت، بل تكشف عن جهله وسطحيته.

هذه نماذج من النقد التنويرى الذى يمارسه عاطف العراقى وهويبحث عن ملامح التنوير فى كل كتاب يقرؤه أوقصة أوحتى فيلم مثل فيلم «المصير» ليوسف شاهين ليستوقف الناس عند ما هوحق وما هوباطل على أساس منطق العقل، الذى يقول بضرورة رفض السلبيات بقوة ووضوح حتى نتحرر عقليًا ونفسيًا من المعوقات التى تربطنا بالتخلف والعجز عن اللحاق بقطار التقدم.

ورغم الضجة التى صاحبت عرض هذا الفيلم، فقد وقف الدكتور عاطف العراقى موقفًا مشرفًا فى الدفاع عن صورة هذا الفيلسوف العظيم وسيرته وفكره، وذلك من خلال الكتابة والإدلاء بالأحاديث الصحفية.. فهويقول إن فيلم «المصير» ليس عن

ابن رشد، بل هوعن أحد الفقهاء الذين تخيلهم يوسف شاهين فى ذهنه الخاص ثم سجل على الفيلم عددًا كبيرًا من الأخطاء التاريخية والفكرية.

من هذه الأخطاء ما جاء بالحوار أن الخليفة المنصور كان حريصًا على الاهتمام بكتب الفلسفة، بينما الثابت تاريخيًا أن الخليفة المهتم بجمع كتب الفلسفة وقراءتها هوالخليفة أبويعقوب والد الخليفة (أبى يوسف المسمى بالمنصور) أما الخليفة المنصور هذا فهوالذى أمر بنفى ابن رشد وحرق كتبه، بل وكل كتب الفلسفة تملقًا للعامة وللفقهاء الرجعيين من أعداء حرية التفكير والاجتهاد.أما المهزلة التاريخية فهى تركيز الفيلم على مجموعة من الغجر وكيف أنهم قاموا بحماية ابن رشد وكتبه.

كذلك لم يوضح الفيلم كيف كان ابن رشد يفكر ولا متى، ولا أين ؟ فى حين جاء الفيلسوف فى الفيلم مهتمًا بالكعك الذى تصنعه زوجته.لقد قال ابن رشد نفسه:

«إن أعظم ما طرأ على بعد النكبة أننى حاولت أن أدخل أنا وابنى عبد الله مسجدًا للصلاة، فثار علينا سفلة العامة وأخرجونا منه» إن الفيلم صور فى سوريا ولبنان ولم يصور فى الأندلس؛ حيث عاش ابن رشد فى قرطبة وإشبيلية، ولهذا لم ينجح الفيلم فى تصوير بيئة ابن رشد ولم يتحدث عن حياته فى المنفى، فى بلدة «أليسانة» القريبة من قرطبة. وأهمية ظهور هذه البلدة فى الفيلم يرجع إلى أن غالبية أهلها كانوا من اليهود، وهناك من المستشرقين من ذهب إلى القول بأن ابن رشد ينتمى إلى أصول يهودية»، وهوماسبقٌ للدكتور عاطف العراقى مناقشته فى العديد من كتبه لكنه يرى أن إظهار هذه البلدة فى الفيلم يمثل على المستوى الدرامى عاملًا مهمًا فى إلقاء الضوء على الصراع العربى الإسرائيلى من وجهة نظر معاصرة.

إن التفات الدكتور عاطف العراقى لهذا الفيلم يدل على وعيه الحاد بقدرة السينما والتليفزيون والمسرح على التأثير فى الجماهير العريضة وتشكيل وعيها، ومن ثم تأتى خطورة هذه الأخطاء التى تضمنها هذا الفيلم. وكان يتمنى أن يهتم الفنان الكبير يوسف شاهين بالتدقيق فى تصوير حياة ابن رشد وبيئته وصراعات عصره مستندًا إلى ما هوثابت من حقائق تاريخية وعلمية، ليقدم ابن رشد فى صورة أقرب ما تكون إلى

الواقع، وبهذا يسهم فى الارتقاء بوعى الناس وتعليمهم كما تفعل السينما العالمية فيما يخص كبار العلماء والفلاسفة والفنانين.وفى هذه الفترة التى تتراجع فيها قيم التنوير وينتشر فيها فكر الظلاميين فإن الحاجة تتزايد إلى فيلم أومسلسل مدروس فنيًا وفكريًا لرد اعتبار ابن رشد الذى يمثل قمة الفلسفة العربية.

إن ارتباط ابن رشد بالفلسفة العربية هوارتباط عضوى، لأن الفلسفة هى النظر العقلى إلى الموجودات، ولأن ابن رشد شدد على أهمية التفكير العقلانى بصورة لم يسبقه إليها أحد ولم يلحق به أحد من مفكرى هذه الأمة، فهوالذى أعطاها رسمها وحدد منهجها وفرق بينها وبين ضروب التفكير الأخرى. وقد اقترن الأمران - ابن رشد والفلسفة العربية - فى فكر عاطف العراقى وتفاعلا تفاعلًا خصبًا أثمر عددًا كبيرًا من الكتب والأبحاث المهمة اختص منها الفلسفة العربية بثلاثة كتب هى «الفلسفة العربية والمستقبل» وكتاب للمصطلحات عنوانه «نحومعجم للفلسفة العربية» وأخيرًا «أساسيات الفلسفة العربية» وفى هذا الكتاب الأخير، يقرر عاطف العراقى أنه لايسعى لإثارة قضية قديمة، اشتد حولها الخلاف منذ نصف قرن، ولكنه ينبه إلى مخاطر استخدام مصطلح «الفلسفة الإسلامية» فى هذا الظرف التاريخى الذى انتشرت فيه الأفكار الظلامية وسيطرت فيه أفكار ابن تيمية الذى يعد - حسب قوله - عدوًا للعقل ولكل فكر ناضج متفتح، على عقول بعض المشتغلين بالفلسفة ثم يفرق بين هؤلاء وبين من سبقهم من أساتذة الفلسفة فى الأجيال الماضية بقوله: «إن الرواد سواء فى مصر أوغيرها من بلدان العالم قد نظروا إلى الفلسفة الإسلامية نظرة دقيقة إلى حد كبير، وكانت عقلياتهم متفتحة، بحيث نبهوا إلى أضرار كل فكر لاعقلانى أما الآن - وللآسف الشديد - فإننا نجد عند أكثر من يفضلون مصطلح الفلسفة الإسلامية تشجيعًا للخرافة وللفكر المنافى للعقل، وخروجًا على المنهج الصحيح» وقد أدى ذلك كله إلى الخلط بين خصائص الفكر الدينى وخصائص الفكر الفلسفى، كما أدى إلى النظر إلى أفكار الفيلسوف من خلال منظور الدين، وهذا من أخطر الأمور لأنه يؤدى إلى تفسير الفيلسوف تفسيرًا خاطئًا.

«فإذا قلنا مثلا: إن الفارابى يعد من فلاسفة الإسلام، وأن فلسفته تعد فلسفة إسلامية، وحين نجد الفارابى يقول ـ صراحة ـ بقدم العالم، فإن البعض من أشباه

الباحثين فى الفلسفة،يقوم، بتأويل آراء الفارابى تأويلًا فاسدًا لماذا ؟ لأنه ينظر إليه من خلال كونه فيلسوفًا إسلاميًا، وأن فلسفته تعد فلسفة إسلامية، وأن الفيلسوف الإسلامى لايصح فى نظرهم أن يقول بقدم العالم ومن هنا فلابد من إنطاق الفارابى بآراء لم يقل بها الفارابى إطلاقًا، وحتى يتفق ذلك مع كونه فيلسوفًا إسلاميًا».

بعد ذلك يتساءل عاطف العراقى «ومن الذى قال إن فلاسفتنا الأوائل كانوا منطلقين من نقطة بداية إسلامية ؟ أننا لو قلنا بهذا القول الخاطئ، فكيف نبرر هجوم الغزالى على الفلسفة وعلى الفلاسفة، وذهابه إلى تكفير الفلاسفة فى مجموعة من الآراء التى قالوا بها «والمعروف أن التفلسف لم يظهر فى الثقافة العربية إلا فى أواخر عصر الترجمة الكبير بعد أن اطلع مفكرو العرب والمسلمين على علوم الإغريق وفلسفتهم. ولا يعنى هذا طبعا أن مفكرى العرب كانوا مجرد ناقلين للفلسفة اليونانية، إذ إنهم أضافوا إلى التراث الفلسفى إضافات جديدة ومهمة. وهنا ينتقل الدكتور عاطف العراقى إلى الدفاع عن الفلسفة العربية ويقول إن الفلسفة العربية تحتل مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر الفلسفى العالمى. إنها حلقة اتصال بين الفلسفة اليونانية من جهة وبين الفلسفة الحديثة من جهة أخرى. وإذا كنا نهتم بدراسة آراء مفكرين وفلاسفة يونانيين كسقراط وأفلاطون وأرسطو، ومذاهب فلاسفة محدثين ومعاصرين كديكارت وكانط وهيجل وبرتراند راسل، فإنه يجب علينا أن نهتم بدراسة فكر فلاسفتنا العرب.

ثم يشير إلى بعض المستشرقين الذين أنكروا قدرة العقل العربى على التفلسف وإبداع المذاهب الفلسفية «ومنهم من يرى أن فلاسفة العرب وقد اعتنقوا الدين الإسلامى، فإن كتابهم المقدس – أى القرآن – يعوق العقل عن التفكير الحر، ومنهم أيضا من يرى أن فلاسفة العرب قد تأثروا بفلاسفة اليونان تأثرًا كبيرًا بحيث إن فلسفتهم ماهى إلا فلسفة اليونان مكتوبة بحروف عربية «وهويرى أن رينان يمثل هذا الاتجاه أوضح تمثيل فإذا رجعنا إلى كتابه عن تاريخ اللغات السامية، وجدناه يفرق تفرقة تامة بين جنس سامى وجنس آرى، والدكتور عاطف العراقى يرفض هذه التفرقة بين الأجناس ويرى أن العلم الحديث قد أثبت خطأها، ثم يكشف عن تناقض رينان فى شهادته، إذ اعترف فى موضع آخر باستقلالية ابن رشد، وقال إنه لم يكن مجرد شارح لأرسطو.

والواقع أن المستشرقين ليسوا وحدهم الذين ينكرون قدرة العقل العربى على الإبداع العلمى، بل إن هناك مفكرين مسلمين - محسوبين على الثقافة العربية - كابن خلدون وصاعد والشهرستانى قد ذهبوا إلى القول بأن أكثر من أسهموا فى العلوم العقلية، إنما هم من العجم وليسوا من العرب ولا يجد الدكتور عاطف العراقى ردًا على هذا سوى القول إن العبرة فى التسمية لاتقوم على التفرقة بين الجنس العربى وبين غيره من الأجناس وإنما تقوم على اللغة التى كتبت بها هذه العلوم والحضارة التى ازدهرت فى ظلها ولو كان المعيار هو الأصل لكان الفارابى كتب باللغة الفارسية، وما يقال عن الفارابى يقال عن ابن سينا أيضا. وهكذا إلى آخر الفلاسفة والذين يعد أصلهم غير عربى، لكن أفكارهم جاءت تعبيرًا عن الحضارة العربية وكانت أكثر كتاباتهم باللغة العربية.

قد انطلق الدكتور عاطف العراقى فى دراسته لموضوع الفلسفة العربية من نقطة بداية صحيحة، وهى إثباته لوجود الاتجاه النقدى والنزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد، وكان هذا دليله فى دراسة الفكر الفلسفى العربى واكتشاف جوانب الأصالة فيه، واستطاع بهذا المنهج الموضوعى الرصين أن يقدم خير دفاع عن العقل العربى والحضارة العربية. لقد منح الدكتور عاطف العراقى جائزة الدولة للتفوق لعام(٢٠٠٠) وفى هذا العام منح جائزة جامعة القاهرة وهو جدير بالتقديرية أيضا.

ـ نشر بمجلة «المصور» عدد ٤٥٦٢ فى ١٤ مارس ٢٠١٢.

١٥- فوزى إسطفانوس

أقامت هيئة أطباء مستشفى كليفلاند كلينيك احتفالًا كبيرًا تكريمًا للدكتور فوزى إسطفانوس بمناسبة بلوغه سن التقاعد عام ٢٠٠٤، تحدث فيه كبار الأساتذة والمسئولين فى إدارة المستشفى الشهير؛ حيث أشادوا بالدور الرائد الذى لعبه هذا الطبيب النابغة سواء على المستوى العلمى أوالمستوى القيادى. كذلك قرروا إطلاق اسمه على أحد المراكز التعليمية وأصدروا كتابًا تذكاريًا حافلًا بعدد من المقالات التى تتحدث بالأرقام والتواريخ عن قلعة كليفلاند الطبية وأساتذتها ومشروعاتها الكبرى لخدمة المرضى وتعليم شباب الأطباء عنوانه

The Path Taken – The Evolution of Modern Anesthesiology at The Cleveland Clinic Foundation.

والمثير فى هذا الأمر أن كتَّاب هذه المقالات وهم من كبار الجراحين والأطباء ينسبون إليه أهم الأدوار فى قيادة مشروعات التطوير والتوسع. يقول الدكتور فلويد لوب الجراح الشهير ورئيس مجلس الإدارة: «بعد مسيرة رائعة استمرت أربعين عامًا، اشتملت على تأسيس أول قسم فى العالم يختص بتخدير مرضى القلب، قرر الدكتور فوزى إسطفانوس أن يتقاعد، وتقديرا لإسهاماته المهمة قررت كليفلاند كلينيك أن تعيد تسمية أعظم الأقسام معزة لديه،وهوالمركز التعليمى للتخدير وتسميه باسمه

أي: مركز فوزى. ج. إسطفانوس التعليمى للتخدير.. «وأضاف د.لوب: لقد استطاع فوزى إسطفانوس كممارس إكلينيكى ومعلم وقائد إن يسعف أعدادًا لا تحصى من الأرواح،وأن يطور علم التخدير وأسلوب ممارسته وتعليمه إلى الدرجة التى وصل اليها الآن فى كليفلاند كلينيك».

هذا الاعتراف وهذا التقدير يدلان على أن فوزى إسطفانوس كان طبيب تخدير مجتهد تمكن بقدراته الذاتية أن يرتقى بعلمه وأن يسهم بأبحاثه وممارساته فى تطوير هذا التخصص وإخراجه من منطقة الظل والكمون ليكسبه كيانًا واضحًا ويدفعه إلى المقدمة حتى صار يمثل القاعدة والأساس فى تخفيف الآلام وفى نجاح الجراحات الدقيقة وأهمها جراحات القلب والأوعية.

فقد سافر الدكتور فوزى إسطفانوس منذ سبعة وثلاثين عامًا إلى إنجلترا ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث استقر فيها لكنه احتفظ بروابط قوية وحميمة مع الوطن وأبنائه، فهودائم الحضور إلى مصر للمشاركة فى المؤتمرات الطبية وإلقاء المحاضرات فى الجامعات رغبة منه فى المساهمة بأى جهد فى رفع مستوى التعليم الطبى فى مصر. وقد حرص منذ سنوات على إتاحة الفرصة لشباب وطنه من الأطباء المتفوقين كى يقضى كل منهم عدة سنوات للتدريب والتعليم فى كليفلاند كلينيك ليتشربوا المنهج العلمى أو الممارسة العلاجية الراقية.

وتحقيقًا لهذه الغاية عقد منذ عام ١٩٧٥ اتفاقية للتبادل العلمى بين كليفلاند كلينك وجامعة عين شمس امتدت بعد ذلك إلى جامعة القاهرة والمنصورة وغيرهما، وتم بمقتضاها قبول مائتى وعشرين طبيبًا على مستوى الماجستير والدكتوراه للتدريب فى كليفلاند كلينيك فى أقسام التخدير، وأمراض القلب، وقسم جراحة القلب، والمسالك، على أن تتكفل مستشفى كليفلاند بإقامتهم الكاملة والتدريب.

ورغم هذا فإن المسئولين عن هذه الجامعات لم يذكرونه أبدًا ضمن ترشيحاتهم لأى جائزة من جوائزالدولة للعلوم حتى ولومن باب الاعتراف بالجميل أوتشجيعًا للآخرين من المغتربين أن يحذو حذوه فى توثيق علاقتهم بالوطن وأبنائه وتزويدهم بالخبرات المتقدمة فى مجال العلوم والتكنولوجيا.

عمومًا فإن الرجل قد حظى بالتقدير المادى والأدبى ممن يعرفون قيمة العلم والعلماء هنا،لا يشغله سوى عمله وهموم وطنه. ولاينتظر جزاء من أحد، بل إنه يخجل من كلمات المديح حين توجه إليه. ولا يحب الحديث عن نفسه أوأعماله. لكنه لايتوانى فى الحديث عن الآخرين والإشادة بأفضالهم، مثال ذلك ما نجده فى الكتاب التذكارى الذى صدر تكريمًا له، إذ يتخذ موقف المؤرخ الأمين ليسجل أسماء كل من أسهموا فى إنشاء هذه القلعة الطبية الرائدة ويفيض فى ذكر المكانة العلمية لكل واحد منهم وإبراز دوره فى تطوير مستشفى كليفلاند كلينك وتقدمه.

هكذا رسم لوحة رائعة تنعكس عليها مشاعر الوفاء للزملاء جميعًا من الراحلين والأحياء، ومن خلال هذه اللوحة قدم تاريخًا لثورة علم التخدير الحديث فى مستشفى كليفلاند فى مراحله المختلفة، ووضع أمام الأجيال الصاعدة خلاصة تجربة المعلم وحكمته ومفادها أن التطور العلمى إنما يقوم على تراكم الخبرات، والاكتشافات ولاسبيل إلى تحقيق ذلك إلا بالجد والتفانى فى البحث والتجريب فلا مجال لضربات الحظ أوأعمال الفهلوة.

الخلفية الاجتماعية والثقافية

ولد الدكتور فوزى جورج إسطفانوس فى إحدى قرى مركز طهطا بصعيد مصر سنة ١٩٣٧ . ونشأ فى أسرة متوسطة من عشرة أفراد، الأب والأم وثمانية أطفال: ثلاثة ذكور وخمس إناث، وتلقى تعليمه الأولى فى المدارس الحكومية وحصل على شهادة الثانوية العامة من مدرسة فؤاد الأول الثانوية بسوهاج، ثم التحق بجامعة عين شمس وتخرج فى كلية الطب سنة ١٩٦٠ . وفى مرحلة الدراسة الجامعية أخذ يهتم بمشكلات الطلاب فى الجامعة والسعى للمشاركة فى حلها فتم انتخابه عضوا باتحاد طلبة كلية الطب كمقرر للجنة الاجتماعية. وعمل فور تخرجه فى وظيفة أخصائى تخدير بمصر حتى سنة ١٩٦٧، ثم سافر إلى إنجلترا حيث حصل على وظيفة مماثلة فى مستشفيات نيوكاسل. وفى سنة ١٩٧٠ حصل على درجة الزمالة فى هذا التخصص من كلية التخدير التابعة للكلية الملكية للجراحين، وسافر فى نفس العام إلى الولايات المتحدة حيث انضم إلى هيئة أطباء كليفلاند كلينيك.

وبعد تسلمه العمل شرع فى تأسيس واحد من أعظم أقسام تخدير جراحة القلب على مستوى الولايات لمتحدة، وفى سنة ١٩٧٦ اعتمد مجلس أمناء المؤسسة إنشاء هذا القسم وعين الدكتور فوزى إسطفانوس رئيسًا له؛ حيث أبدى براعة فائقة فى تنظيم هذا القسم بادئًا باثنين فقط من أطباء التخدير وثلاث ممرضات، ثم عدد قليل من الأطباء المقيمين وظل القسم ينموويتطور حتى صار فى مقدمة الأقسام الأكاديمية الأخرى على مستوى العالم من حيث الخبرة، لإكلينيكية والقيادة..(د.لوب)

كان هذا القسم واسطة العقد بين التخصصات المختلفة،إذ مهد الطريق للمشاركة الخلاقة بين أطباء التخدير والجراحين فى فروع عديدة كان أبرزها تلك العلاقة التى ربطت بين الدكتور فوزى إسطفانوس وبين الجراح الكبير لوب ومعهما أخصائى أمراض القلب شيلدون فى شكل فريق متكامل. وعن سر هذا النجاح يتحدث د.لوب فيقول:

منذ ثلاثين عامًا أسس فوزى إسطفانوس أول قسم فى العالم لتخدير جراحات القلب فى كليفلاند كلينيك. وفى ذلك الوقت كتب يشرح لى أفكاره حول فريقنا من جراحى القلب، وأطباء القلب والتخدير. كان يعتقد بأننا نملك ميزات فريدة وهى التى قادتنا إلى نجاحنا الجماعى. كان لدينا على الدوام رؤية للمستقبل، فتحدينا أنفسنا، وتحدينا أولئك الآخرين الخارجين عنا. كنا ننتقد أنفسنا نقدًا بنَّاءً، لكننا كنا نساند بعضنا بعضًا، ونتجاوب تجاوبًا سريعًا مع أى تغيرات علمية أوتقنية. كان لدينا إحساس ملح بأن نكون الأفضل. والتزمنا بخدمة مرضانا وخدمة المؤسسة التى نعمل فيها».

العمل بروح الفريق مسألة حيوية، وهوسر هذا النجاح الذى تجسد فى تأسيس قسم تخدير جراحة القلب وفى إدارته، وقد ترأس الدكتور فوزى هذا القسم من سنة ١٩٧٦ حتى سنة١٩٨٨ حين اختير رئيسًا لجميع أقسام التخدير خلفًا للدكتور عزمى بطرس الذى تفرغ للعمل كأستاذ ممتاز فى نفس القسم.وبهذا أصبح الدكتور فوزى مسئولا عن جميع تخصصات التخدير الفرعية وعددها ستة وعشرين تخصصًا مثل: العناية المركزة وجراحة القلب، وقسم التخدير العام الذى يضم بعض التخصصات مثل: تخدير الأعصاب وتخدير العظام، وتخدير الأوعية الدموية والعظام والعيون ومعهد السرطان وأحدث الأقسام حاليًا وهوقسم المناظير، إضافة إلى تخدير مرضى العيادات الخارجية.

ويذكر زملاء الدكتور فوزى إسطفانوس فى كليفلاند أنه «بناء لايكل عن العمل والتفكير فى التطوير والتجديد». وقد ضم معه فريقًا من أفضل أطباء التخدير فى أمريكا. إن التزامه بالتميز كان إلهامًا لكثيرين. لقد أدرك مبكرًا حاجة أطباء التخدير للتعرف بدرجة متميزة على مناطق معينة فى جسم الإنسان وعلى كل منهم أن يختار منطقة يتخصص فيها. وبهذا أصبحت وحدات التخدير متعددة بتعدد أنواع الجراحات المختلفة، وشدد فى الوقت نفسه على أهمية علاقة المشاركة والتعاون الوثيق بين هذه التخصصات الفرعية.

الكفاءة العلمية والقيادة

وقد عرف الدكتور فوزى إسطفانوس بالمهارة القيادية وحسن استثمار الموارد وتفعيلها لأقصى درجة ممكنة. وقد تجلى هذا فى تنظيمه استخدام غرفة العمليات وزيادة كفاءة الأداء إذ ارتفع به من نسبة ٥٥٪ إلى٧٥٪ فى غضون السنتين الأوليتين فقط من فترة توليه رئاسة القسم. وكانت الفرضية التى طرحها هى أن غرف العمليات يجب أن تعمل حسب جدول غاية فى الدقة والكفاءة شأنها شأن المطارات. وأطلق على إدارة غرف العمليات مصطلح «سلطة المطار»؛ حيث تم التأكيد على دقة التوقيت والفواتير مثل الفنادق، وتقوم كليفلاند كلينك والمستشفيات التى تشرف عليها حاليًا بإجراء أكثر من مائة ألف عملية فى العام منها ستة آلاف جراحة فى القلب والأوعية،بنسبة وفيات لاتزيد على واحد فى المائة.

وكما يقول د.لوب إن الدكتور فوزى إسطفانوس باعتباره أحد الآباء المؤسسين لتخدير القلب قد ترك بصمة على المستوى القومى بالولايات المتحدة وباعتباره أحد المؤسسين للجمعية الدولية لتخدير القلب وأحد الرؤساء الأوائل، فقد أسهم فى تطوير هذه الجمعية وتقدمها، وهذا ما يؤكده آخرون من رؤساء الجمعية مثل: الدكتور جون إيرل وينانذز الذى يقول:استقال د.فوزى من المجلس بعد أن خدم الجمعية عشرة أعوام، كانت شخصيته قوية فى قيادته للجمعية وإليه يعزى الكثير من النجاح الذى حققناه، أما دكتور جويل كابلان فيؤكد على حسن قيادته للمجلس مما دفع الجمعية

فى طريق النمووالتطور حتى زاد عدد الأعضاء على ألف عضووعلاوة على ذلك فإنه خصص ميزانية للمنح وقام بتطوير نشرة أخبار الجمعية ووضع الأساس المطلوب لبناء مشروع مهنى.

ومن ثم فإنه يحق لنا أن نقول إن الدكتور فوزى إسطفانوس قد تجاوز ببحوثه ومساهماته العلمية آفاق الحدود الوطنية والقومية واحتل موقعًا متقدمًا بين علماء العالم البارزين، وهذا ما يشهد به أقرانه من أساتذة الطب وما تؤكده مؤلفاته الرائدة فى علوم التخدير، فقد نشر الدكتور فوزى جورج إسطفانوس خمسة كتب تعد من المصادر العلمية المرجعية بالإضافة إلى مائة وعشرين بحثًا فى المجلات العلمية العالمية.

ومن أقوال الدكتور فوزى إسطفانوس إن التخدير لايعنى فقط تنويم المريض، بل كيف تقلل المضاعفات أوتمنع حدوثها. فإحدى المضاعفات الكبرى التى تعقب إجراء الجراحة هى إصابة الرئة بالعدوى أوانهيارها، وفى سبيل تفادى هذا الخطر يقوم أطباء التخدير المعالجون بتعليم المريض كيفية التنفس العميق والكح.

بمناسبة إجراء عملية استبدال الشرايين لرئيس البرازيل، جوواوبابتيستا فيجوريدو، وكان الدكتور فوزى هورئيس فريق التخدير الذى قام بتخديره،أجرت ألما كوفمان محررة صحيفة The Plain Dealer اليومية التى تصدر فى ولاية أوهايوحديثا مع الدكتور فوزى إسطفانوس(أغسطس ١٩٨٣).

قال فيه: إن أحد الأسباب التى مكنت كليفلاند كلينيك من إجراء عشرين ألف عملية تغيير شرايين بنسبة وفيات لاتزيد على ١٪ هوالتحسن الذى طرأ على عمليات التخدير، لقد تقدم علم التخدير اليوم بدرجة كبيرة فالمخدرات والأدوية التى تعطى للمريض مرات كثيرة تجعله فى حالة مريحة لإجراء الجراحة. فطبيب التخدير يستطيع أن يضبط درجة الضغط وتدفق الدم وأن يقلل كمية الأكسيجين التى يحتاجها القلب معتمدًا على حسابات وتعديلات دقيقة جدًا .وأضاف الدكتور فوزى قائلا:

فقد تناقصت مخاطر الوفاة كثيرًا عما كانت عليه منذ سنوات قليلة وليس هذا فقط بل قلّت جميع المضاعفات أيضًا، فنحن نقوم بعلاج كثير من الحالات المرضية الحرجة

جدا ونتبع فى ذلك إجراءات شديدة التعقيد.ثم أضاف: إن عمله كطبيب تخدير يبدأ مع المريض قبل العملية بيوم على الأقل، ويستمر حتى تعود وظائف الجسم الحيوية إلى عملها، وهذا يحدث بعد يوم من إجراء العملية، إن تنويم المريض وإيقاظه هو جزء بسيط من مسئولية طبيب التخدير، فهو الذى يفحص المريض قبل الجراحة،ليتعرف بنفسه على حالة القلب والحالات العضوية الأخرى مثل الحساسية. وبناء على هذه المعرفة وعلى المعلومات المتوفرة عن حجم الجراحة ومداها يقوم هو بوضع خطة التخدير.

وبمجرد أن يستسلم المريض للنوم وتبدأ الجراحة، يقوم طبيب التخدير بمراقبة الحالة، ويهيئ نفسه لأى تغيير يطرأ على الأعضاء الحيوية تاركًا الجراح لكى يركز على مهمته، وفى عمليات القلب يكون أخصائى أمراض القلب شريكًا ثالثًا مع الجراح، ومع طبيب التخدير فيما يتعلق بمسألة العناية بالمريض بعد الجراحة.

وقد شملت جراحات القلب كثيرًا من قادة ورؤساء الدول وكبار الكتاب والفنانين وكان الدكتور فوزى يرأس فريق التخدير فى هذه العمليات.

ومن أبرز الشخصيات التى قام الدكتور فوزى بتخديرها نجد حاخام إسرائيل الأكبر، شالوم جورين، وحسب ماورد فى النشرة الأسبوعية ليهود كليفلاند فإن الدكتور فوزى إسطفانوس قد التقى بالحاخام قبل إجراء العملية وأخبره بأنه مصرى مسيحى وأنه متدين، ويشرفه أن يقوم برعاية شخصية دينية كبيرة مثل الحاخام جورين. ورد الحاخام قائلا:إنه ازداد طمأنينة عندما أخبروه أن طبيب التخدير مصرى.

ثم شرح للدكتور فوزى أنه طبقًا للتقاليد اليهودية لا بد من قراءة أوترتيل بعض المزامير قبل إجراء العملية، وصرح الدكتور فوزى بأن الحاخام علمه الصلاة بالإنجليزية حتى يتمكن هو والدكتور لوب رئيس فريق الجراحة من ترديدها أثناء العملية. يقول مستر رابنسكى وهو من أهل كليفلاند وصديق الحاخام المقرب: «إن الصلاة التى علمها الحاخام للأطباء هى طهر قلوبنا أيها الأب حتى نخدمك بالحق».

ومن بين هذه الشخصيات نعرف الرئيس الباكستانى الراحل أيوب خان،والملك خالد بن عبد العزيز عاهل المملكة السعودية، والدكتور عاطف صدقى رئيس وزراء

مصر الأسبق، والفنانة الكبيرة فاتن حمامة،التى قالت للصحفية آمال بكير بالأهرام (٢١يناير ١٩٩٤) «الجراحة أجراها دكتور لوب لكن المسئول عن حالتى هوالدكتور لوزاتى وهوأمريكى من أصل إيرانى لكن من أشعر فعلا بأننى مدينة له هوالدكتور فوزى إسطفانوس وهومصرى يعمل هناك رئيسًا لقسم التخدير فى المستشفى ويعد من أهم الأطباء به».

ومن بين الصحفيين الذين ترددوا على كليفلاند كلينك، الكاتب الكبيرالراحل فوميل لبيب ومفيد فوزى وجمال الغيطانى مثلا. وقد أشادوا جميعًا بمستوى العناية الطبية التى تمتعوا بها فى كليفلاند كلينيك، وأعربوا عن تقديرهم الخاص للدكتور فوزى إسطفانوس لما أظهره من حفاوة واهتمام طيلة وجودهم فى كليفلاند، وقد عرفت هذه الأسماء من الصحف؛ لأن أغلبهم كتاب انتهزوا فرصة حضورهم للعلاج للتعرف على أساليب الجراحة المتقدمة فى كليفلاند كلينك وخصوصًا عمليات نقل القلب والأعضاء وجراحات الأوعية الدموية والشرايين، ونشروا مقالات ولقاءات عديدة أجروها مع الأطباء والجراحين.

فقد كتب فوميل لبيب عدة مقالات للمصور (إبريل ١٩٨٣، يونيه ١٩٨٦) واعتبر وجود الدكتور فوزى إسطفانوس ومن معه من الأطباء المصريين السبعة عشر فى هذا المستشفى هوفخر لمصر، واهتم مفيد فوزى فى حواره مع الدكتور فوزى عن الفرق بين الطب فى مصر والطب فى أمريكا، ثم سأل عن الجديد فى أخبار الفياجرا.أما جمال الغيطانى فقد كتب سلسلة من المقالات فى الأخبار (فبراير ١٩٩٧)، ومما قاله إنه تعرف على الدكتور فوزى فى كليفلاند وعرف أنه من بلدياته.

«رغم انقضاء ما يقارب أربعة عقود على إقامته فى (أمريكا) فإن ارتباطه الوجدانى العميق بمصر بدا عميقًا، متجددًا، لكنته الصعيدية كما هى، وعندما دخلت مكتبه رأيت لوحتين، أيقونة قبطية، ولوحة لمسجد الغورى. وهذا هوبالضبط التكوين الفكرى والروحى لفوزى إسطفانوس. مصرى، وطنى، أصيل. تحدثنا طويلا عن تاريخ مصر، عن اتصاله، واستمراره، وشحوب بعض المراحل فيه وعدم وضوحها بالنسبة للمصريين أنفسهم، خاصة مرحلة تحول مصر من الفرعونية إلى المسيحية، وما جرى خلال القرون الستة السابقة على دخول العرب مصر».

إن سمات الأصالة التى تحدث عنها الغيطانى هى التى جذبتنى للدكتور فوزى إسطفانوس. فقد عرفته عن طريق اهتمامه بتاريخ مصر وبالتاريخ القبطى أساسا. فقد قام بمبادرة عظيمة لنشر هذا التراث تجسدت فى إنشاء «مؤسسة القديس مرقس لنشر التراث القبطى»، وقد توثقت معرفتى به عن طريق لقاءاتنا فى الاجتماعات. وما كنت أتصور أننى سوف آت يومًا للعلاج فى كليفلاند وأحظى برعاية الدكتور الذى كان يزورنى يوميا فى حجرتى للاطمئنان علىّ. لكن هكذا شاءت المقادير.

فقد جئت أنا وزوجتى لزيارة نجلنا أيمن الذى يعمل طبيبا بكليفلاند، وتعرضت لأزمة مرضية حادة دخلت بسببها كليفلاند كلينيك؛ حيث أجريت لى جراحة ناجحة لاستئصال الكلى اليمنى قام بها طبيب مصرى نابغة هو الدكتور عمرو فرجانى أخصائى المسالك البولية الذى ضرب مثلا عظيما فى النبل والأصالة.

المراجع

- فاتن حمامة فى حديث لآمال بكير» فنون «(الأهرم ٢١ يناير ١٩٩٤).
- فوميل لبيب (المصور إبريل ١٩٨٣، ويونيه ١٩٨٦).
- جمال الغيطانى (الأخبار فبراير ١٩٩٧).

١٦- وول شوينكا أول شاعر إفريقى يحصل على جائزة نوبل

كان فوز وول شوينكا بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٦ لحظة كاشفة فى تاريخ القارة السوداء، ألقت بأضوائها القوية على ثقافة هذه القارة وعلى كثير من المبدعين من أبنائها. فلم ينقض عامان حتى حصل عليها كاتبنا الكبير نجيب محفوظ، ثم اكتملت الثلاثية بفوز نادين جورديمر كاتبة جنوب إفريقيا بهذه الجائزة عام ١٩٩١.

كانت الجائزة اعترافًا بنضج الأدب الإفريقى ووصوله إلى المستويات العالمية فنيًّا وفكريًّا، بعد مسيرة نصف قرن من الكفاح ضد الاستعمار والعنصرية، لعب الأدب فيها دورًا مهمًا فى تنمية الوعى الوطنى وتعبئة المواطنين ضد الاحتلال الأجنبى والتخلف الاجتماعى والسياسى.

وخلال هذه المسيرة تعرف المثقفون فى العالم على أعمال متميزة من الشعر والمسرح والرواية مكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسية والألمانية أومترجمة من لغاتها المحلية، كما تعرفوا على أسماء مبدعين بارزين مثل: الشاعر ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنغال السابق، وايمى سيزار شاعر جزر المرتنيك ممن يكتبون بالفرنسية، وعرف فى مجال القصة والرواية أموس تيوتولا وتشيبى أشيبى (نيجيريا) وجيمس نجوجى (كينيا) وبيتر ابراهام (جنوب إفريقيا) بالإضافة إلى الكاتب المسرحى المبدع والمثير للاهتمام أتول فيوجارد (جنوب إفريقيا) وهؤلاء جميعا يكتبون بالإنجليزية.

وفى قلب هذه البانوراما الإفريقية الزاخرة يبدو شوينكا علمًا من أعلام الفكر والأدب فى العالم كله. فإن كان كل واحد من هؤلاء يتفوق فى جانب واحد من جوانب النشاط الإبداعى كالشعر أوالرواية أوالمسرحية فإن شوينكا يتفوق فى هذه المجالات جميعًا.

وقد وصفه أحد النقاد بأنه أحد عباقرة المسرح المعاصرين، فهوشاعر مسرح له خيال تصويرى رائع وروائى بارز وأستاذ للأدب المقارن ومترجم وناقد أثار العديد من المعارك النقدية ولعل أهمها مهاجمته الدعوة للزنوجة التى تبناها ايمى سيزار وليوبولد سنجور باعتبارها نقيضًا ضد محاولات الذوبان فى الثقافة الفرنسية.

حياة شوينكا وأعماله

ولد شوينكا فى ١٣ يوليو ١٩٣٤ فى «ايبوكاتا» بالإقليم الغربى لنيجريا لأبوين من قبائل (اليوروبا)؛ حيث ينتسب الأب إلى «الايجبو» وتنتسب الأم إلى «الإيجبا». تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة «سان بيتر» بين عامى ١٩٣٨ - ١٩٤٣ وتلقى تعليمه الثانوى بأحد المعاهد التابعة للحكومة فى «إبادان» وأثناء الدراسة كتب عددًا من القصص القصيرة قدمتها إذاعة نيجيريا. وفى عام ١٩٥٢ التحق بجامعة «إبادان»، واستمر بها حتى عام ١٩٥٤ حين رحل إلى بريطانيا حيث التحق بجامعة ليدز التى تخرج فيها ١٩٥٨ بمرتبة الشرف فى الأدب الإنجليزى.

وفى إنجلترا اضطر شوينكا لأن يعمل جرسونًا فى حانة، ثم مدرسًا بعقد مؤقت وفى النهاية عين قارئ نصوص بالمسرح الملكى بلندن، وخلال هذه الفترة كتب مسرحية «سكان المستنقع» و«الأسد والجوهرة» وقدمت هاتان المسرحيتان فى عرض واحد فى «إبادان» عام ١٩٥٩.

عاد شوينكا بعد تخرجه إلى نيجيريا حيث عمل باحثًا بجامعة «إبادان»، ثم محررًا بمجلة «أورفيوس الأسود»، وهى أشهر المجلات الأدبية فى نيجيريا، وفى أثناء ذلك توثقت علاقته بالمسرح كاتبًا ومخرجًا وممثلًا، إذ شرع فى إنشاء المسرحيات وإنشاء المسارح.

كتب شوينكا روايتين ومجلدين من الشعر وقرابة خمس عشرة مسرحية، بالإضافة إلى ترجمته لرواية «غابة الألف شيطان» لفجنوا Fagunwa من لغة اليوروبا إلى الإنجليزية.

ولقد لقيت روايته «المفسرون» The Interpreters تقديرًا عالميًا. فهى رواية واقعية تتناول أزمة المثقفين فى نيجيريا، وقد شبه أحد النقاد الإنجليز (د.أ.ب جونز) «المفسرون» برواية «يوليسيس» لجيمس جويس.

وهو شاعر كبير، وقصائده رغم ما تحويه من فكاهة وسخرية فإنها تنقل لنا انعكاسًا حزينًا وجادًا بالحياة. وهذا واضح جدًا فى قصائد هاتين المجموعتين:

. ايدانر وقصائد أخرى ١٩٦٧ «Idanre and other Poems»

.قصائد من السجن ١٩٦٩ «Poems from Prison»

(قد سجن شوينكا من ١٩٦٧ حتى ١٩٦٩ بسبب معارضته للحرب ضد بيافرا ولنه كان رافضًا للحرب والانفصال على السواء. وفى ديسمبر ١٩٦٨، فاز - وهو فى السجن - بجائزة «جوك كامبل» للآداب فى الكومنولث التى تنظمها جريدة «نيوستيتسمان»)

شوينكا والمسرح

وشوينكا هو رجل مسرح فى الدرجة الأولى، إنه أحد العباقرة الكبار فى المسرح المعاصر وإنتاجه غزير ومتنوع، يضم الفارس والتراجيديا والحكايات الرومانسية جنبًا إلى جنب مع المسرحيات الواقعية، وهذه الأعمال موضوعة فى نطاق خلفية اجتماعية وسياسية موصوفة وصفًا حيًا: هذه الخلفية هى نيجيريا حديثة الاستقلال حيث الفساد السياسى والأخلاقى فى المدينة، وفى الريف حياة متخلفة فقيرة مليئة بالخرافات.

ككاتب مسرحى تأثر شوينكا تأثرًا عميقًا بتقاليد مسرح اليوروبا الشعبى ومسرحياته الفلكلورية كما فى مسرحية «الطريق» The Road و«حصاد كونجى» «Kongi's Harvest» وكذلك «الموت وفارس الملك» Death and the King's Horseman إذ يظهر التأثير واضحًا تمامًا فى استخدامه للغة الشعرية المليئة بالصور والإشارات الطقسية والعادات.

وهـذا التأثير يعكس عقائد وطقوسًـا وتجـارب ويثير في المتفـرج تخيلات وعواطف قويـة ويفتـح أمامـه جو الفنتازيـا، كذلـك يظهـر هـذا التأثـير في اسـتخدام الموسـيقى والرقصات الشهيرة جدا في أوبرات اليوروبا الشعبية في مسرحياته وخاصة في مسرحية «رقصـة الغابـات» التـى مثلت لأول مـرة في أكتوبر ١٩٦٠ في احتفـالات نيجيريا بعيد الاستقلال.

لقد وجد شوينكا نفسه منذ اللحظة الأولى في مواجهة قوى الدكتاتورية العسكرية وأعوان الاستعمار والتخلف، لكنه لم يتراجع أويتوان، فقد هب في وجه الأصوات الداعية لحرب بيافرا وحاول منع هذه الحرب، فقبض عليه ووضع في السجن لمدة عامين محرومًا من الكتب، ومن جميع وسائل الكتابة ومحرومًا من الأصدقاء، بل ووضعوه في حبس انفرادى لمدة عام، أى جربوا معه كما يقول كل الوسائل من أجل تدميره عقليًا.

فقد ترك نيجيريا سنة ١٩٩٤ في أعقاب الانتخابات التى جرت في ١٩٩٣ لوضع نهاية للحكم العسكرى ونجح فيها زعيم المعارضة مسعود أبيولا إلا أن الدكتاتور سانى أباتشا رفض تسليم السلطة للمدنيين وقبض على مسعود ابيولا ووضعه في السجن - رغم مرضه -حتى مات، وفي الوقت نفسه صادر جواز سفر شوينكا وأخذ ينكل بالمعارضين من كل الفئات ونجا شوينكا بمعجزة من مصير زميله الشاعر والمناضل كين سيراويوا الذى أعدمه النظام العسكرى مع ثمانية من رفاقه.

عاد شوينكا قبيل الانتخابات بأيام في أكتوبر ١٩٩٨ بعد أربع سنوات في المنفى. وتذكر الصحف[٢] أنه استقبل استقبالًا حافلًا، ورأى الشعب في عودته أملًا في إعادة الحكم المدنى. وقد علق رئيس اتحاد كتاب نيجيريا على عودة شوينكا بقوله: «نحن في حاجة ماسة إلى وضوح فكره. إنه أحد الرجال القلائل الذين يستطيعون حفز هذا المجتمع على اليسير في الطريق الصحيح».

وتمت الانتخابات

وذكرت الصحف أن كثيرين من أنصار الديموقراطية قد غضوا الطرف عما حدث في الانتخابات من غش وفساد خوفًا من حدوث أى اضطرابات تحول دون عودة

الحكم المدنى إلا أن شوينكا رفض هذا الهراء وتحدث فى أبوجا عاصمة نيجيريا فوصف الانتخابات بأنها كانت بمثابة مزاد «نجح فيه من يملكون سيولة مالية قوية، والمسنودون من العسكر، ومن لديهم ميول طبيعية لممارسة الدعارة السياسية، وأن الخاسر الوحيد هو الديمقراطية».[B.B. News ١٦ / ١٠/١٩٩٨]

إنه شخصية عجيبة لا تعرف المهادنة ولا تلوين الأقوال حتى فى أحرج اللحظات، فما سر هذه القوة والصلابة ؟ هل هو مجرد عناد ورغبة فى المخالفة من أجل الظهور ؟ أم هى نزعة انتحارية تغريه بالاندفاع فى وجه الزوابع والأعاصير ؟ وإذا لم يكن كذلك، فما المنابع الروحية والعقلية التى تجعله يقف إلى جانب الحق بثبات لا يتزعزع ؟

ربما نعثر على إجابة بعض هذه الأسئلة لو رجعنا إلى حديثه فى جامعة بيركلى، إذ سئل شوينكا عن العلاقة بين الحقيقة والسلطة.

فأجاب بأن «الحقيقة والسلطة ـ فى رأيه ـ نقيضان أو خصمان يصعب حل التناقض بينهما». وفى تعريفه لتاريخ المجتمع البشرى قال: «إن تطور المجتمع البشرى أشبه بمباراة بين السلطة وبين الحرية. وسواء سارت هذه المباراة فى مسارات أيديولوجية أودينية، فما نجده فى الواقع هو أن الحقيقة فى تناقض مع السلطة. Truth Versus Power. الحقيقة بالنسبة إلى هى الحرية، هى وجهة ذاتية Self –destination. أما السلطة فهى هيمنة، وتحكم، ومن ثم فهى صورة انتقائية من صور الحقيقة أى أكذوبة. وأن الجمع بين هاتين الصورتين بالنسبة لى هو محور الكفاح الإنسانى من أجل خلق مجتمع أخلاقى، أى مشاركة أخلاقية».

هذا عن الجانب الفلسفى فى رؤيته السياسية، أما ارتباطه بالناس ونشاطه فى مجال الدفاع عن حقوق الإنسان فربما نجد أسبابه فى هذه الواقعة التى حكاها فى كتابه «الرجل مات – مذكرات سجين» وذكر فيها أن البوليس قد وضع فى زنزانته سيدة شابة بطريق الخطأ وتركوها معه، وحين سئل عن هذه الواقعة قال:

«نعم، حدث هذا قبل وضعى فى السجن رسميًا. كنت ما أزال رهن التحقيق لذلك وضعونى فى زنزانة ثم ألقوا بها فى هذه الزنزانة. فى البداية كانت متوجسة جدًا،

ربما ظنت أننى وضعت لأتجسس عليها، فلم تكن تتوقع أن تجد أحدًا فى الحجرة. لم تكن تعلم أننى ما زلت رهن التحقيق. وفجأة نظرت إلى أسفل، فرأت أننى مقيد فى الأصفاد. لذلك تحركت لأول مرة ببطء لتنظر إلى أعلى إلى وجهى وتتعرف علىّ. كانت لحظة غامرة ومؤثرة، لأنها ارتمت عند قدمى وأخذت تبكى وتصرخ. ذكرتنى بإحدى الوقائع التى حدثت مع المسيح، المرأة التى غسلت قدميه بدموعها. كان الوضع مخيفًا فى أحد نواحيه. ثم صار مصدر قوة، لأننى مضطر الآن لمواساتها وتهدئة خواطرها وإعادة الثقة لها. وتقويت أنا بدورى وأصبحت قويًا جدًا من أجلها هى ومن أجل كل شخص يوضع فى مثل موقفها. ثم صرت أشد صلابة بقوتى الذاتية. إنها بذلك قد فعلت بى خيرًا، إلى درجة لا يمكن أن تكون قد خطرت لها فى ذلك اليوم».

ثم سئل شوينكا عن استئناف دوره كمحرض سياسى بعد فترة السجن، وعن تصاعد هذا الدور وهوما يتضح فى كتابه الذى نشر مؤخرًا بعنوان «قرح القارة الملتهب The Open Sore of a Continent» الذى يدور حول الطغيان السياسى فى نيجيريا، وعن الأسباب التى تبرر سيطرة الجنرال أباتشا على الحكم، وما تأثير هذه السيطرة على فكرة نيجيريا المتحدة؟

وأجاب شوينكا بأن هذا ليس صحيحًا. فهولم ينشط كثيرًا بعد السجن، «وإنما الأصح أن الوضع فى نيجيريا قد تدهور بدرجة فرضت على أن أصعد نشاطى بدرجة موازية. لم يكن هناك أحب إلى نفسى بعد خروجى من السجن من أن أقول لنفسى، وأعتقد أننى قلت هذا، إذا كان هذا ما يريده الشعب ...، تذكر أنه كانت هناك دكتاتورية عسكرية وقت خروجى من السجن كانت نيجيريا تحت حكم الجنرال جوون. وهذه هى المرة الأولى التى أذهب فيها إلى المنفى باختيارى لكى أبتعد بنفسى عن محيط البشر الذين عجزوا عن فهم واستيعاب مغزى الحرب الأهلية، ديمومتها وعواقبها فى المستقبل. بتعبير آخر، كل شخص كان لديه إحساس بالسعادة، فقد انتهت الحرب، وبقيت الدولة متحدة، صارت الوحدة فضيلة.أما المساوئ والتصرفات الشاذة والتناقضات التى أدت إلى الحرب، الحرب الأهلية بالدرجة الأولى، فلم يعد لها وجود. فى الوقت نفسه كان هناك رواج بترولى. لقد توقع الناس أن تصاب نيجيريا بالفقر نتيجة الحرب،

ولكن حدث العكس، فالمال موجود. لقد رأيت المجتمع كله المحيط بى وشعرت أن المشكلة ليست فى أن أكون صوتًا صارخًا فى البرية، بل إنه فقط إحساس بالعزلة. لم أهتم حتى بالصراخ فى البرية. فقد عرفت فورًا أن هناك شيئًا ما خطأ ينخر فى الأعماق، وأن القاعدة التى تقف عليها الأمة قد تآكلت وأوشكت على الانهيار. ولذلك ذهبت إلى منفى اختيارى، لأننى رأيت أننى لو قلت شيئًا أوكتبت شيئًا فى ذلك الحين، لكان قد بدا شيئًا غريبًا، أوه، هذا الشخص الحاقد الخارج من السجن لا يريد أن يرى شيئًا جميلًا، لا يريد أن يرى الرخاء، يريد فقط أن يسىء إلى النظام. كان مستحيلًا على أن أتكلم. وأحسست بنوع من الراحة.

«هذا كل ما فى الأمر. فهذا هو الحال الذى يريد المجتمع أن يكون عليه، أما أنا فذاهب لكى أكتب شيئًا ولكى استرد عقلى».

لكننى لم أترك وحيدًا، فقد وجدت، عندما ذهبت، أن هناك آخرين أحسوا نفس الإحساس، وسوف نلتقى. سوف يأتون إلى ويبحثون عنى. وسوف نتكلم عن المستقبل. إنهم يعانون الإحباط واليأس بدرجة حادة مثلى. وبالطبع عندما انكشف الواقع، اتضح لنا أن هذا الدكتاتور (جوون) لا يريد أن يرحل وأنه مشغول حقيقة بتحويل نفسه إلى رئيس مدى الحياة وهويقوم فعلا بتبديد موارد الدولة، عندئذ بدأت العودة تدريجيًا، إلى أن عدت من المنفى وانشغلت بشئون الوطن. لم يستمر الطلاق أكثر من ستة شهور. ثم سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ حقيقة فى نيجيريا. وهكذا أصبحت بطبيعة الأمور مشاركًا».

وانتقل الحديث إلى موقف الدول الأجنبية وبالأخص أمريكا والسوق الأوروبية المشتركة من النظم الدكتاتورية فى إفريقيا.

وكان رده أن الدول الصناعية تفضل التعامل مع «الرجل القوى»، أى أنهم يريدون فردًا واحدًا يمكنه تنفيذ إرادة الاستعمارية فى كل أنحاء القارة. إن مكالمة مع موبوتوسيسى كانت كافية للحصول على عقد ببليونى دولار دون الرجوع إلى لجان فحص أوموافقة. حدث هذا مع الغرب وكذلك مع الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية.

ورغم أنهم بدأوا يتفهمون أن أضمن سبيل هو التعامل مع حكومات مسئولة قائمة على المشاركة الديمقراطية، فإن هذا لا يزال على المستوى النظرى ولم يتحول إلى أسلوب عمل بعد، وهم يفضلون جدا التعامل مع «الرجل القوى» محتجين بأن هذا أمر مؤقت ويقولون: «إننا نتحرك نحو الديمقراطية ولكن لا تدعنا نتحرك بسرعة أكبر.»

وفى الوقت نفسه يستمر التعذيب الوحشى، وتجرى تصفية المئات فلا يبالون بذلك رغم وجود تقارير السفارات وجماعات حقوق الإنسان ووكالات الأمم المتحدة ولذلك فإنهم يلعبون على الوجهين.(٣)

وهذا الكلام يأخذنا إلى أحدث كتبه «عبء الذاكرة،إلهة الغفران» الذى يناقش فيه مسئولية الدول الاستعمارية عما تعانيه إفريقيا من مشكلات، فيطرح سؤالًا مهمًا: هل الغرب مدين لأصحاب الأصول الإفريقية بتعويضات عن سوء المعاملة لعدة قرون ؟

فى المقالة الأولى: «التعويضات، الحقيقة والمصالحة» يعرض القضية بجسارة. وبينما هو يتابع مرافعات لجنة الحقيقة والمصالحة بجنوب إفريقيا لاحظ وجود مشكلة فى طريقة التحقيق تتيح للمدافعين أن يواجهوا الاستجواب وكأنهم غير مجرمين، ويعفون من أى مسئولية عن الجرائم الوحشية التى ارتكبوها بحق الإفريقيين السود.

ويعارض شوينكا بعناد قائلًا: «إنه لا يمكن خدمة العدالة بإطلاق سراح المذنب دون دليل لتخفيف الذنب... أو التعبير عن الندم».

إن غضبه من غياب العنصر الأخلاقى فى هذه العملية دفعه لأن يتكهن بغياب ملازم للعنصر المادى. ويبنى شوينكا قضيته فى طلب التعويضات على حجة أنه بدون دفع تعويض مادى عن الجرائم التى ارتكبت ضد الشعب الإفريقى، فإن مشاعر الاستياء والكراهية التى غرستها الأفعال الأصلية سوف تستمر فى الاشتعال. فالظلم الذى يتمثل فى الأعمال الوحشية التى تمس كرامة الإنسان لابد من التكفير عنه، حتى يتخلص الضحايا من أشباح الماضى.

فالتعويضات سوف تقدم نقدًا مقنعًا للتاريخ، كما تقدم قيدًا فعالًا يمنع تكرار هذه المظالم فى المستقبل. وشوينكا يصرح بأن هناك مشكلات تحيط بهذه المسألة عن قيمة

المبالغ المطلوبة، ولمن يتم الدفع. وقد خاطب المسئولين فى البنك الدولى واقترح عليهم أن تقوم الدول التى استعبدت الإفريقيين بتمويل ديون الدول الإفريقية، وبهذا يمكن للشعب الإفريقى أن يطهر جروحه وينسى مظالم الماضى. لكن المسئولين لم يتحركوا وسرعان ما أدرك شوينكا الطبيعة غير العملية لاقتراحه. وهنا يقدم أدلة وشواهد حديثة لمسألة دفع التعويضات ويتساءل مندهشًا:

«لماذا يترك الإفريقيون فى «حمى هذا التكفير «دون تعويض ؟»

من هذه الشواهد عملية إعادة تأهيل ضحايا اصطياد السحرة بمدينة ساليم ١٦٩٢، واعتذار اليابان وتخصيصها ميزانية تعويضات للنساء الكوريات اللاتى أرغمن على ممارسة الدعارة أثناء الحرب العالمية الثانية، واعتراف الحكومة الإسبانية بخطأ قرار طرد اليهود سنة ١٤٩٢ . لكن هذا يبدو غير مقنع بالمقارنة بالمشكلة الضخمة والمعقدة الخاصة بكيفية تعويض قارة وأبنائها المشتتين فى الخارج. وفى النهاية يتضح لنا أن مهمة صياغة استراتيجية للتعويضات تقع خارج نطاق هذه المقالة المفردة.

«ليوبولد سيدار سنجور والزنوجة «و«الزنوجة وآلهة العدل» مقالان يشغلان بقية الكتاب. حيث نجد شوينكا يستكشف الدافع الفلسفى الذى يدفع هؤلاء الإفريقيين إلى البحث عن نهاية سابقة لأوانها عن طريق الغفران المجانى لمن اضطهدوهم واستغلوهم. ويجد شوينكا المعادل الموضوعى للجنة الحقيقة والمصالحة فى حياة وأعمال شاعر الزنوج العظيم ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنغال السابق.

ومصطلح الزنوجة صاغه لأول مرة ايمى سيزار شاعر جزر المرتينيك كاستجابة فرانكفونية لهؤلاء الشعراء الأمريكيين السود مثل لانجستون هوجز وكونتى كولين وجيمس ويلدين جونسون، وقد ادعت هذه الحركة أن الثقافة تتحدد بصفتها العنصرية، وأن ثقافة الشعوب الإفريقية ليست شيئًا يدعو للخجل، بل هى ثقافة يحق الاحتفاء بها. وهذا لم يكن يعنى رفضًا للثقافة الفرنسية. أبعد من ذلك أن سنجور الذى أصبح أول إفريقى فى الأكاديمية الفرنسية، قد استبدل أخيرًا حبه كله للزنوجة بتبعية عبر عنها بقوة لما يسميه هو metissage أى التهجين أو التخصيب الثقافى وفيها أن الثقافة الفرنسية تمثل إلهة الحضارة الإنسانية.

هؤلاء الكتاب الذين استوعبتهم الفرانكفونية يدهشون شونيكا؛ لأنه يرى فيهم أسلافا لهذه الرغبة التى تسعى لإسقاط عبء الذكرة واحتضان إلهة الغفران. والتى تشوه وجه إفريقيا والإفريقيين، فى نظره.

ويقول كارليل فيليب فى عرضه لهذا الكتاب: (٤)

«حين يحمل شوينكا ما هوأدبى إلى السياسة ويستكشف الأسباب التى لم تسمح للزنوجة بأن تصمد فى عالم المتكلمين بالإنجليزية، نجده موحيًا وأصيلًا. فهويتأمل الأسلوب الذى من خلاله كانت إفريقيا تتراءى لمن يعيشون فى الشتات إما أنها «ماضى مستمر past continuous» أو «حنين جارف للماضى Nostalgic past» من حيث أن ذلك يعتمد على المكان الذى ينظر منه الإنسان إلى القارة أكان فى أمريكا أومن الكاريبى.

ويعلق على الكتاب بقوله:

إن تحليل شوينكا لمشكلة القرن العشرين المتعلقة بالذاكرة والغفران فى عالم الإفريقيين هوتحليل على درجة كبيرة من الأهمية. وقد جاء فى وقته. فإفريقيا لا تستطيع أن تتحمل تموين الغرب وإمداده بالمواد لقرن آخر من الزمان وهى عاجزة فى الوقت نفسه عن تنظيم ما يسمى بقياداتها.ولا يمكنها أن تستغنى عن قرن آخر تنزلق فيه من «حقيقة» معترف بها إلى «مصالحة» مريحة ودون أن تتبنى أسلوبًا صارمًا لاختبار الذات وموقفًا أشد قوة فى مواجهة سادتها من المستعمرين السابقين.

ثم يختم الكاتب كلامه بأن تحليل شوينكا لهذه المشكلة هومبادرة بإطلاق القذائف وسوف يكون هذا بالتأكيد هوإحدى مناظرات القرن الحادى والعشرين.

هذه ليست المرة الأولى التى ينتقد فيها شوينكا دعوة الزنوجة، فقد هاجم الزنوجة فى مؤتمر كمبالا ١٩٦٢ للفنون الإفريقية وقال: «إن النمر لا يقف فى الغابة لكى يقول أنا نمر»، وقد أوضح ذلك فيما بعد بقوله:

«التمييز الذى كنت أقصده فى هذا المؤتمر كان تمييزًا أدبيًا خالصًا. كنت أحاول التمييز بين الدعاية والإبداع الشعرى الحقيقى. بتعبير آخر، كنت أقول، إن ما يتوقعه الإنسان من الشعر هوقيمة شعرية جوهرية، وليس مجرد تسمية».

ثم عاد ينتقدها فى كتاب آخر. فما حقيقة الزنوجة ؟ وما سر صدامه معها ؟ وكيف تتعادل الزنوجة مع لجنة الحقيقة والغفران فى جنوب إفريقيا التى تحاول تبرئة البيض من جرائم الحكم العنصرى ؟

إن مصطلح الزنوجة تمت صياغته لأول مرة فى أوائل الثلاثينيات عن طريق إيمى سيزار شاعر المارتنيك الذى يعتبر مصدر الإلهام الأكبر لهذه الحركة الشعرية بين الإفريقيين الناطقين بالفرنسية. ثم انضم إليه ليون داماس من غينيا الفرنسية وليوبولد سنجور من السنغال.

وقد اقتنع دعاة هذه المدرسة بأن هناك فروقًا فعلية بين البيض وبين السود فى القدرة على الإدراك، أى الفهم الأساسى للواقع، وأن الأدب الجديد الذى سوف يعبر عنهم سوف يجدون أصوله فيما يظنون أنه الحساسية الزنجية «الخاصة» أى الإحساس بالإيقاع، بالأسطورة، بالطبيعة، بالحياة الجنسية والعاطفية وتضامن الجماعة. فأخذوا يمجدون ماضى إفريقيا ويحنون إلى صور الجمال والانسجام فى المجتمع الإفريقى التقليدى والتى تقوم فى رأيهم على العواطف السوداء وعلى المعرفة الفطرية intuition كنقيض للعقل والمنطق الهلينى. وقد تعرض بعض السود لانتقاد هذه الدعوة على أساس أنها قائمة على اعتقاد غير أكيد بالنسبة لجوهر الثقافة السوداء ولأن دعاة هذه المدرسة أغفلوا أمر الواقع السياسى المعاصر. وكان أهم هؤلاء النقاد هو المفكر السياسى فرانز فانون. وظنى أن نقطة الصدام بين شوينكا وبين أصحاب هذه المدرسة تكمن فى إيمانهم بأن ثمة فروقًا طبيعية بين البيض والسود فى الفهم والإدراك، مثل قولهم بأن الثقافة الإفريقية تقوم على العواطف السوداء وعلى المعرفة الفطرية أوعلى الحدس كنقيض للعقل والمنطق الهلينى. هذه المقولة تتطابق تقريبًا مع ما كان يردده العنصريون من أن البيض يملكون العقل التحليلى والمنطق الفلسفى ولهم القدرة على التفوق فى العلوم وفى الفنون. وبهذا يبررون تسلطهم واستغلالهم للإفريقيين. وهذه المقولة هى التى حاول شوينكا أن يدحضها فى محاضرته التى ألقاها بمناسبة حصوله على جائزة نوبل [٦]، إذ خصص المحاضرة كلها للحديث عن السياسة العنصرية الوحشية وقال: إن البيض لم ينظروا أبدًا للسود على أنهم بشر وعاملوهم على أساس أنهم حيوانات. ورفض مقولة أن الإفريقيين عاجزون

عن التفكير والبناء.وقال إن نظام جنوب إفريقيا التعليمى لو تخلى عن العنصرية وسمح بتعليم الإفريقيين لبرز منهم مئات العلماء والمفكرين الذين يستحقون جائزة نوبل. أى أنه اتخذ من حصوله على الجائزة دليلا على قدرة الإفريقيين على التفوق فى كل مناحى الحياة وطالب بإنهاء كل مظاهر هذه السياسة والعمل من أجل إقامة مجتمع ديموقراطى لاتفرقة فيه بين البشر بسبب اللون أوالجنس أوالدين. وهذه مسألة ضرورية لخدمة التنمية والسلام العالمى.كانت محاضرته مليئة بأدلة الإدانة للأوروبيين، من حوادث أوشهادات واعترافات لبعض المفكرين وزعماء الأحزاب حتى الاشتراكيين منهم وذلك عن احتقارهم للسود.وكأنه كان يصر على طلب الاعتذار ورد الاعتبار للإفريقيين. هذا هومضمون محاضرته. مما يؤكد وعيه بمشكلات القارة وإصراره على المطالبة بحقوق هؤلاء المظلومين ... ومن ثم كان موقفه المخاصم للزنوجة.

ـ نشر هذا المقال بمجلة «وجهات نظر» نوفمبر ١٩٩٩.

١٧ - أول رئيس
أمريكى أسود فى البيت الأبيض

فاز باراك أوباما فى انتخابات الرئاسة الأمريكية التى جرت فى ٤ نوفمبر ٢٠٠٨ على منافسه جون ماكين مرشح الحزب الجمهورى، وأصبح أوباما هوالرئيس الرابع والأربعون، وفى ٢٠ يناير ٢٠٠٩ تم تنصيبه بعد حلف اليمين الدستورية فى احتفال مهيب لم يسبق له مثيل فى تاريخ الرئاسة الأمريكية، شهده عشرات الآلاف من أفراد الشعب الأمريكى الذين احتشدوا فى الساحات والميادين التى تحيط بالبيت الأبيض، وكانوا يعبرون عن فرحتهم بالأغانى والأناشيد ممايدل على تفاؤلهم بوصول أوباما إلى قمة السلطة فى أكبر وأقوى دولة فى العالم، والفضل يرجع أساسًا إلى عظمة الديموقراطية الأمريكية التى لاتعرف التفرقة على أساس الجنس أواللون أوالدين. ولأن باراك أوباما ينتمى إلى أب إفريقى مسلم، أى إلى أصول عرقية ودينية مختلفة، فقد بدأ الاهتمام والتنقيب فى حياة أوباما من كل النواحى، وكتبت آلاف المقالات وعشرات الكتب. لكن أوباما نفسه سبق الجميع فى الاهتمام بجذوره العرقية والثقافية وقدم عددًا من الكتب المهمة، لعل أوDreams from My father أهمها هوكتاب A story of Race and Inheritance «أحلام من أبى- قصة العرق والميراث».

وفى هذا الكتاب يتناول باراك أوباما تاريخ عائلته الإفريقية منذ وصول أبيه إلى أمريكا وعودته إلى إفريقيا بعد انتهاء تعليمه،حيث ترك أمه ورحل إلى كينيا، وكان الابن طفلا فى الثانية من عمره لكنه كبر ووصل إلى مكانة مرموقة علميًا ووظيفيًا. تخرج أوباما فى جامعة كلومبيا فى نيويورك ١٩٨٣، وبدأ يعمل فى بعض المؤسسات التجارية وبعد أربع سنوات قضاها نيويورك انتقل إلى شيكاغوفى ١٩٨٥؛ حيث عين كمدير لمشروع للتنمية الاجتماعية التابع لمؤسسة كنسية تضم ثمانى ابرشيات فى أقصى جنوب شيكاغو. وبعد حصوله على الدكتوراه فى القانون من جامعة هارفارد ١٩٩١ عاد إلى شيكاغوليقوم بوظيفة مدعى عام للحقوق المدنية إلى جانب تدريس القانون الدستورى بجامعة شيكاغوقبل أن يفوز بعضوية مجلس الشيوح المحلى بولاية إلينوى لمدة ثلاث دورات من ١٩٩٧ حتى ٢٠٠٤ حين انتخب فى مجلس الشيوخ الأمريكى وألقى الخطاب الرئيسى فى المؤتمرالعام للحزب الديموقراطى فى يوليو٢٠٠٤ وأخيرًا رشحه الحزب فى انتخابات الرئاسة الأخيرة وهكذا أصبح باراك أوبانا أول رئيس أسود فى البيت الأبيض.

عقيدته الدينية

من المسائل التى أثارت الاهتمام فى أمريكا وخارجها: هل هومسلم مثل أبيه أم أنه مسيحى مثل أمه؟. والمؤكد الآن أنه مسيحى تبلورت أفكاره الدينية فى سنوات البلوغ والرشد ففى كتابه «جسارة الأمل» يقول أوباما إنه «لم ينشأ فى بيت متدين» وأن أمه تربت فى بيت غير متدين ويقول إن والداها لم يكونا يمارسان طقوس العبادة الخاصة بالكنيسة المعمدانية أوالميثودية «أما أبوه حسين أوباما فيقول إنه نشأ نشأة إسلامية، ولكنه «ملحد بشكل مؤكد» أما زوج أمه الأندونيسى «فكان يرى أن الدين شىء لا فائدة منه». لكن باراك أوباما أوضح هذا الأمر بأنه فى سن العشرين وخلال عمله مع كنائس السود كمنظم للعمل الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية اكتشف «قوة التقاليد الدينية للأمريكيين الأفارقة ودورها فى تنشيط التطور الاجتماعى» وقد تم تعميده فى كنيسة المسيح المتحدة فى عام ١٩٨٨، وظل منذ ذلك التاريخ عضوًا ناشطًا بها.

وعن دخوله إلى عالم الكتابة يقول باراك أوباما إن فكرة الكتابة قد خطرت له، بعد أن تم انتخابه كأول رئيس تحرير من أصل إفريقى لمجلة الدراسات القانونية بجامعة هارفارد.

فكرت أن أكتب قصة حياة عائلتى.إن جهودى فى محاولة فهم هذه القصة ربما تخاطب التمزق العرقى الذى طبع التجربة الأمريكية، وأنتج حالة الهوية السائلة -القفز عبر الزمن وتصادم الثقافات -التى تميز حياتنا الحديثة. وأنا مثل معظم المؤلفين بالنسبة للكتاب الأول، امتلأت بمشاعر من الأمل واليأس إزاء نشر الكتاب - الأمل فى أن ينجح الكتاب بدرجة تفوق أحلام الشباب، واليأس لإحساسى بأننى أخفقت فى أن أقول مايستحق القول. وجاءت الحقيقة بين بين. كانت التعليقات مشجعة بدرجة معتدلة. فقد حضر الناس جلسات القراءة التى رتبها الناشر.أما المبيعات فكانت مذهلة. وبعد شهور قليلة عدت لمواصلة حياتى العملية، وأنا واثق أن حياتى كمؤلف سوف تكون قصيرة، إلا أننى سعيد لأننى عبرت هذه التجربة بثبات دون أن يحدث شىء يمس كرامتى.

لم يكن لدى إلا قليل من الوقت للتفكير فى العشر سنوات التالية من حياتى.إذ دخلت فى مشروع تسجيل اسمى كناخب فى الدائرة الانتخابية،وكذلك بدأت فى تدريس القانون الدستورى فى جامعة شيكاغو.وحينئذ اشترينا أنا وزوجتى بيتًا، ومنحنا الله ابنتين جميلتين تفيضان صحة وشقاوة.وكافحنا لسداد الفواتير.وعندما خلا أحد المقاعد فى اللجنة التشريعية بالولاية سنة ١٩٩٦، أقنعنى بعض الأصدقاء بأن أرشح نفسى لهذا المنصب، وفعلًا تقدمت وفزت بعضوية اللجنة. وقد أخبرونى قبل تسلمى المنصب أن العمل بالسياسة داخل الولاية ليس له بريق العمل السياسى فى واشنطن؛ لأنه عمل يتم معظمه فى جو من التعتيم، وينصب معظمه على موضوعات قد تعنى الكثير بالنسبة للبعض ولكن عامة الناس قد لايهتمون بها.

غير أننى وجدت هذا العمل مرضيًا إلى حد كبير؛ لأن التدرج فى السلم السياسى بالولاية يتيح الفرصة لتحقيق نتائج واقعية ملموسة فى زمن محدود كتخفيض الضرائب على المعدات الزراعية والتوسع فى التأمين الصحى أو إصلاح القوانين الخاصة بتنظيم المرافق التى تتسبب فى موت الأبرياء. كذلك فإن العمل داخل عاصمة ولاية صناعية كبيرة يتيح للإنسان أن يرى وجه أمه فى حديث متواصل: مع نساء المدينة وزراع القمح والفول، وعمال اليومية من المهاجرين جنبًا إلى جنب مع أهل الحضر من رجال البنوك

والمستثمرين، فالكل يتدافع لكى يجعل صوته مسموعًا، فكل فرد منهم مستعد لرواية قصته.

منذ شهور قليلة، فزت بتسمية الحزب الديموقراطى للترشيح لعضوية مجلس الشيوخ عن ولاية اللينوى.كان السباق صعبًا فى حقل مزدحم بالعديد من المرشحين البارزين المهرة والممولين جيدًا ،وأنا بينهم بغير سند من ثروة شخصية، أومؤسسة كبيرة، مجرد رجل أسود له اسم يثير الضحك. ومن ثم رأونى بعيدًا جدًا عن المرمى.وهكذا عندما فزت بغالبية الأصوات فى جولة الانتخابات الأولى، وفى مناطق البيض ومناطق السود على السواء، وفى الضواحى مثل العاصمة شيكاغو، قيل إن السبب فى نجاحى إنما يرجع إلى مجلة القانون.وكان التيار الرئيسى للمعلقين يعبرعن المفاجأة كما يعبرعن الأمل الحقيقى فى أن يكون فوزى بالمنصب دليل تغير كبير فى السياسة العنصرية.

وفى مجتمع السود، كان هناك إحساس بالفخر لما حققته، فخر ممزوج بالإحباط. فبعد خمسين سنة من مجلس براون الخاص بالتعليم وبعد أربعين سنة من صدور قانون حق الانتخاب، أصبح علينا أن نحتفل بإمكانية (مجرد إمكانية) أن أكون أول أمريكى من أصول إفريقية- والثالث فقط منذ أعيد تأسيس المجلس الذى يتم انتخابه- كعضوفى هذا المجلس. وقد شعرنا أنا وعائلتى، وأصدقائى بالحيرة قليلا بسبب هذا الاهتمام.فقد كنا دائمًا على وعى بحجم الفجوة الكبيرة التى تفصل بين التقدير الشديد الذى تنشره الميديا وبين واقع الحياة الدنيوية كما يعيشها الناس فى الحقيقة.

فى ذلك الوقت،كان أبى بالنسبة لى مازال أسطورة تقريبًا. لقد تركنى أنا وأمى، وكنت فى الثانية من العمر، عرفته كطفل فقط من خلال القصص التى سمعتها من أمى وجدى. تقول أمه: إن أباه كان إنسانًا أمينًا. وقال جده: «هذه حقيقة يا باراك» كان أبوك قادرًا على التعامل مع أى موقف، وهذا جعل كل شخص يحبه. لقد وافق على أن يغنى فى مهرجان الموسيقى الدولى بعض الأغانى الإفريقية ورغم أن صوته لم يكن جميلًا فإنه كان واثقًا من نفسه بدرجة نالت له الإعجاب والتصفيق الشديد». ثم أضاف «هناك شيء ما يمكن أن تتعلمه من أبيك الآن هوالثقة بالنفس. إنها السر فى نجاح أى رجل».

«لقد بدأت مذكراتى من النقطة التى تمت عندها خطبة أمى لزوجها الثانى. وأدركت عندها دون استفسار أوتوضيح السبب الذى جعل أمى تحتفظ بصور أبى بعيدًا عنى».
ففى ذات مرة وقعت عين باراك على ألبوم الصور ورأى وجوه التشابه القوية بينه وبين أبيه- الوجه الأسود الضاحك والجبهة البارزة والنظارة التى جعلته يبدوأكبر من سنه. وعرف أنه كان إفريقيًا من قبيلة ليوفى كينيا.ولد على شواطئ بحيرة فكتوريا فى قرية فقيرة تسمى أليجو.،لكن جده-، حسين أونيانجوأوباما-كان مزارعًا مرموقًا، فهوشيخ القبيلة، وطبيب القرية المعرَوف بقدراته على شفاء المرضى، أما أبوه أوباما فقد كان يرعى الماعز ويذهب لمدرسة القرية، التى أنشأتها الإدارة الاستعمارية البريطانية،حيث ظهرت مواهبه الواعدة.وفى النهاية حصل على منحة للدراسة فى نيروبى، وفى عشية استقلال كينيا تم اختياره عن طريق القيادات الكينية والممولين الأمريكان للدراسة الجامعية بالولايات المتحدة، منضما إلى الموجة الأولى من الإفريقيين الذين تم إرسالهم لاستيعاب التكنولوجيا الغربية والعودة بها من أجل تشكيل مستقبل إفريقيا الحديثة.

وفى سنة ١٩٥٩، وصل أبوه إلى جامعة هاواى باعتباره أول طالب إفريقى بهذا المعهد. كان فى الثالثة والعشرين من عمره. وهناك تخصص فى دراسة الإيكونومتريك. كان طالبًا مجدًا يعمل بتركيز غير مسبوق حتى تخرج بعد ثلاث سنوات، وكان ترتيبه الأول على دفعته. لقد جمع حوله كتيبة من الأصدقاء مكنته من تكوين اتحاد الشباب الدولى وأصبح هوأول رئيس له. وفى أحد فصول دراسة اللغة الروسية التقى أوباما بفتاة أمريكية خجولة، لم تتعد الثامنة عشرة، وتبادلا الحب، أما والدا الفتاة فكانا حذرين فى البداية ولكنه أسرهما بسحره وذكائه، وتزوج الاثنان، وأنجبت له ولدًا ورث اسمه (باراك أوباما). وحصل أوباما الأب على منحة ثانية -لكى يدرس الدكتوراه فى جامعة هارفارد.-لكن مرتب المنحة لم يمكنه من اصطحاب عائلته الجديدة معه إلى مدينة بوسطن فحدث الانفصال،١٩٦٣وبعد حصوله على الدكتوراه عاد إلى إفريقيا لكى يوفى بوعوده للقارة السوداء، أما الأم والطفل فقد تركهما خلفه، لكن رابطة الحب كما يقول باراك، ظلت باقية رغم بعد المسافات.

يقول باراك حتى فى القصص المختصرة التى سمعتها من أمى وجدى وجدت أشياء كثيرة لم أفهمها، ولكننى قلما سألت عن التفاصيل التى يمكن أن توضح لى معنى

«الدكتوراه» أو» الكولينياليزم «أوتساعدنى على تحديد موقع قرية أليجوعلى الخريطة. وفى سن السادسة اقتنع باراك بأن يترك هذه الأسرار الغامضة البعيدة لتذهب فى سلام مع أحلام طفولته لكن استقر فى ذهنه شىء ما هوأن أباه لم يكن مثل كل الناس حوله - «كان أبى أسود فى لون القار، وكانت أمى بيضاء فى لون اللبن».

«حقيقة أننى لا أستطيع أن أتذكر إلا قصة واحدة تتناول بوضوح الفروق العرقية. وعندما كبرت،كررتها كثيرًا، ولأنها احتوت مضمون القصة الأخلاقية التى صارت إليها حياة أبى. وطبقًا للقصة فإن أبى بعد ساعات طويلة من القراءة والدرس، ذهب وانضم إلى جدى وعدد آخر من الأصدقاء فى أحد البارات المحلية. كان كل شخص فى حالة مزاجية صافية وسعيدة بالحفل،يأكل ويشرب على صوت موسيقى الجيتار. وفجأة وقف رجل أبيض وأخذ يعلن للجرسون بصوت عالٍ حتى يسمعه الجميع أنه لا يجب عليه أن يشرب مشروب الليكر «بعد أن شرب منه أحد الزنوج». ساد الهدوء فى القاعة وتلفت الناس نحوأبى متوقعين حدوث معركة.لكن أبى نهض من مكانه ووسار نحوالرجل وابتسم له، وأخذ يلقى عليه محاضرة حول غباء التعصب، ووعود الحلم الأمريكى،والحقوق الطبيعية للإنسان.وعندما انتهى أبى من حديثه شعر الرجل بالخزى واعتذر ومد يده إلى جيبه ودفع لأبى مائة دولار غطت تكاليف المشروبات كلها وإيجار سكنه بقية الشهر.

وحين بلغت سن المراهقة، ازداد شكى فى مصداقية هذه القصة حتى تلقيت ذات يوم، مكالمة تليفونية من أمريكى يابانى أخبرنى إنه قرأ الحوار الذى دار معى فى المقابلة الصحفية، ورأى صورتى فى إحدى صحف هاواى، وقال إنه كان زميلًا لأبى فى الدراسة، وهويعمل الآن بالتدريس فى إحدى جامعات الميد ويست. وأثناء الحديث أكد لى قصة الرجل الأبيض الذى حاول أن يشترى الغفران من أبى.

الزواج المختلط

لم تحل مشكلة التمييز العنصرى حتى سنة ١٩٦٧ -عندما بلغ السادسة، وبعد ثلاث سنوات من حصول دكتور لوثر كنج على جائزة نوبل، إذ بدات أمريكا تشعر بالإعياء

من مطالب السود فى المساواة،- فقد أحاطت المحكمة العليا بالموضوع وأخطرت ولاية فرجينيا «إن تحريمها للزواج المختلط هوخرق للدستور.» وفى سنة ١٩٦٠ التى تزوج فيها والداى كان الزواج المختلط يعتبر جريمة فى نصف الولايات التى يضمها الاتحاد. وفى أجزاء كثيرة من الجنوب كان يمكن لأبى أن يربط فى شجرة ويعلق عليها لمجرد أنه نظر بطريقة خاطئة لأمى. وفى أكثر مدن الشمال المتطورة كانت نظرات العداء،والهمسات كفيلة بأن تدفع أمى إلى حارة خلفية لإجراء عملية إجهاض. كانت صورتهما معًا هى وأبى تعتبر غريبة وشاذة. فهل تسمح لابنتك أن تتزوج رجلًا أسود ؟ حقيقة أن جدى وجدتى قد أجاب عمليًا على هذا السؤال ولكن موقفهما مازال لغزًا يحيرنى. لقد كانت جدتى لأمى تنتمى إلى أصول اسكوتلندية وإنجليزية. وكان جدى لأمى أيضا ينتمى إلى أصول عريقة فى خدمة الاتحاد كجنود يحملون الأوسمة والنياشين وينتمون بصلة قرابة إلى الرئيس جيفرسون، بل إن جد باراك وجدته شاركا فى الحرب العالمية الثانية بأدوار مختلفة وقد ولدت أمه فى إحدى القواعد الحربية.ولهذا فإن باراك يصفهما بالناس المحترمين.

فبعد أن عاد جده من ميدان القتال، ذهب للدراسة فى بركلى، ولكنه وجد أن التعليم لايلبى طموحاته فعاد إلى ولاية كانساس ثم تنقل فى بعض مدن تكساس حتى استقر به المقام أخيرًا فى مدينة سياتل ليعمل فى محل بيع الأثاث. وفى هذه المدينة أنهت أمه دراستها بالمدرسة العليا. وكانا الجد والجدة سعداء بتفوق أمه فى دراستها رغم أن والدها رفض أن يسمح لها بالدراسة فى جامعة شيكاغوعلى أساس أنها مازالت صغيرة ولا يمكن لها أن تعتمد على نفسها.

كان جده طموحًا وقلقًا، وكان يتطلع إلى التغيير باستمرارحتى تصوره باراك وهويقف على شاطئ المحيط الهادى ناظرًا إلى الأفق البعيد. وحدث ماكان، فلم يكد مدير الشركة يعلن عزمه على افتتاح فرع جديد للشركة فى هونولولوبجزيرة هاواى حتى قام جده ببيع المنزل وجمع عائلته وأبحر فى المحيط نحوالشمس الغاربة.كان جده يظن فى نفسه أنه مفكر حر- بوهيمى ربما. وكان يكتب الشعرفى بعض المناسبات ويستمع إلى موسيقى الجاز.وقد تعرف أثناء عمله ببيع الأثاث على عدد من اليهود

اعتبرهم من أخلص أصدقائه. ولما حاول أن يربط الأسرة بطائفة أخرى غيرطائفته الدينية عارضته جدتى قائلة: «بحق المسيح لابد أن تعرف أن اختيار العقيدة الدينية ليس أمرًا بسيطًا كشراء حبوب السيريال التى تتناولها فى طعام الإفطار» ولكن كما يقول باراك، إذا كانت جدته شديدة الشكوك بطبيعتها ولا توافق جدها على أفكاره الغريبة، فإن استقلاليتها العنيدة، وإصرارها على التفكير الخاص بها أدى بحياتهما إلى نوع من التحالف الخشن..، وطبعهما هذا كله بطابع الليبراليين، رغم أن أفكارهما لم تتبلور فى أى شكل أيديولوجى.

وهكذا فعندما عادت أمى ذات يوم لتقول إنها تعرفت على شاب إفريقى فى جامعة هاواى يسمى باراك، كان أول رد فعل هوالتفكير فى دعوته للغداء.وعندما وقعت عين جد ى عليه أخذته الدهشة من قوة الشبه بينه وبين مطربه المفضل (نات كينج كول) وفى نهاية السهرة عبركل من جدى وجدتى عن إعجابهما بذكاء الشاب باراك وقوة شخصيته. لكن هل يوافقا على تزويج ابنتهما له ؟.

لم تكن مشكلة التمييز العنصرى قد طرأت بعد على حياتهما، ولم يحدث هذا حتى انتقلت الأسرة إلى كانساس حيث كانت المشاعر نحوالسود عدائية،فتلقى جده وجدته تحذيرا بعدم التعامل باحترام مع السود. وطلبوا من جدته بألاتخاطب أى رجل أسود بلقب مستركما كانت تفعل.وقد أثر هذا الجو السيئ على أمه وكانت لاتزال فى الثانية عشرة من عمرها. ودفعها هذا إلى نوع من العزلة جعلها تدفن رأسها فى كتاب أوتتجول وحيدة فى المشايات المنعزلة.كانت التفرقة العنصرية جزءًا من ذلك الماضى، ولم يجرؤ باراك على بحث مسألة زواج أمه وأبيه.فلم يجد سجلا لهذا الزواج أودبلة الخطوبة أوتورتة أوأسماء مدعوين. ربما أراد جده وجدته أن يتم الأمر على هذا النحوتفاديًا للمشكلات.

كانت هاواى بوتقة تنصهر فيها الفروق العرقية بدرجة جعلتها تجربة ناجحة للانسجام بين الأعراق والأجناس.وفى هذه البيئة لم يتسبب لونى إلا فى قليل من المشكلات البسيطة لجدى. مشكلة واحدة فقط بقيت عالقة بذهنى ألا وهى غياب أبى. لقد ترك أبى هذا الفردوس ورحل إلى كينيا.ولا يمكن لأى شىء قالته أمى أوجدى أن يغير من هذه الحقيقة التى لم يتعرض لها أحد بالبحث. فحكاياتهم لم تخبرنى بشىء عن

سبب رحيله. «وأنا لا ألوم جدى أوجدتى على هذا، فربما استحسن أبى الصورة التى رسماها له ولعله شارك هوأيضا فى رسمها».

ففى مقال نشره فى مجلة «هونولولوستار» بمناسبة تخرجه. بدا الطالب الوديع حذرًا ومسئولًا، يكتب وكأنه سفير لقارته السوداء، فهوينتقدالجامعة ويوجه إليها لومًا خفيفًا لأنها تجمع الطلبة الزائرين فى عنابر نوم وتجبرهم على حضور برامج مخصصة لزيادة التفاهم بين الثقافات، وبهذا تصرفهم عن الاهتمام بالتدريبات العملية التى جاءوا بحثًا عنها، ورغم أنه لم يتعرض لأى مشكلات فإنه كشف عن عزلته الذاتية كما كشف عن التمييز الحادث بين الجماعات العرقية المختلفة. وعبر عن هذه الحقيقة بسخرية فقال إن «القوقازيين» هم آخرالأسماء فى قائمة التمييز العرقى بهاواى. لكن حتى لوكان تقييمه هذا صادرًا عن صفاء النظرة فقد حرص على أن ينهى مقاله بنغمة سعيدة: هناك شىء واحد يمكن للأمم الأخرى أن تتعلمه من هاواى ألا وهورغبة الناس من مختلف الأجناس فى العمل معًا من أجل التقدم المشترك، وهوالشىء الذى لم يحاول البيض أن يفعلوه فى أى مكان آخر».

لقد وجد باراك هذه المقالة القصيرة التى نشرها أبوه بين أوراقه مع شهادة ميلاده واستمارات التطعيم الصحى عنما كان طالبًا بمرحلة الدراسة الثانوية. ولفت انتباهه أن أباه لم يذكره أويذكر أمه أبدًا فى مقاله، ويتساءل باراك: هل كان هذا التجاهل مقصودًا من جانب أبى توقعًا لرحيله الطويل ؟، لم أستطع أن أعرف لأننى كنت صغيرًا بدرجة لا تمكننى من فهم هذا الأمر.

قضى باراك بضع سنوات فى أندونيسيا نتيجة لزواج أمه من شاب أندونيسى اسمه لولو، وهوطالب آخر عرفته أمه فى جامعة هاواى أيضا. وفجأة غادر لولوهاواى وقضى باراك وأمه شهورًا يستعدان للسفر. وأخيرًا ركبا طائرة بان أمريكان. وبعد ثلاثة أيام وصلا إلى جاكرتا.واستقبلهم لولوفى المطاروأخذهم فى سيارة إلى منزله. وفى الطريق ذكرت أمه بضع كلمات عن سوكارنووحكمه.فسأل باراك عمن يكون سوكارنوهذا. لكن لولوتظاهر بعدم السماع، وأشار إلى تمثال بالغ الضخامة على جانب الطريق وقال «هذا هانامان.. إنه القرد الإله «ثم أضاف» إنه يحارب الشياطين ولم ينهزم أبدًا».

١

أحسن لولومعاملة زوجته واهتم بباراك كابنه.وذات مرة قال له لولوبأن أمه رقيقة القلب تريد أن تعطى كل ما معها للشحاتين، وأوصاه بأن يكون أكثر حرصًا باعتباره رجلًا عليه أن يأخذ الحياة بشروطها وأن يكون قويًا: إذا لم تستطع أن تكون قويًا، كن ماهرًا، واصنع سلامًا مع أحد الأقوياء. ولكن الأفضل أن تكون أنت الأقوى. »وكانت أمه تعبر عن امتنانها لزوجها لولوعلى اهتمامه بباراك واعتبرت نفسها محظوظة لأنه رجل عطوف.

فى يوم وصولها إلى جاكارتا حاولت أمه أن ترسم لنفسها صورة فرأت نفسها ؛ أم فى الرابعة والعشرين ولديها طفل فى السادسة. تزوجت برجل لاتعرف عنه إلا القليل. أما أندونيسيا فقد احتلها الهولندون ثلاثة قرون وبعد الاستقلال ظهر أحد المحاربين من أجل الحرية هوسوكارنوالذى أطاح به الجنرال سوهارتوفى انقلاب دموى بمساعدة المخابرات الأمريكية ١٩٦٧، تصفه التقارير بأنه انقلاب سلمى. وقد تأكد لأمه بعد ذلك أن الانقلابيين قاموا بأبشع مذبحة بشرية فى التاريخ راح ضحيتها أكثر من نصف مليون من أنصار سوكارنوومن الشيوعيين.

كانت أم باراك تتمتع بشخصية قوية قادرة على احتمال المتاعب ومستعدة أيضا لمواجهة الأمراض مثل: الدوسنتاريا والحميات. وهذا الجانب من شخصيتها هوالذى جذبها نحوأوباما الإفريقى أولا ثم نحولولوالأندونيسى ؛ إنه التطلع إلى القيام بعمل شيء جديد ومهم: كأن تساعد زوجها فى بناء وطن فى مكان ملىء بالتحديات بعيدًا عن موطن والديها. لكنها لم تكن مستعدة لحياة الوحدة. فقد أحبها لولووقدم لها كل مايمكن أن يقدمه الزوج لزوجته، حتى عائلته استقبلتها بحفاوة ومودة واعتبرت ابنها ابنًا لهم. لكن حدث شيء ما فى العام الذى قضاه لو لو بعيدًا عنها.

ففى هاواى كان لولوشابًا ممتلئًا بالحياة والأمل متشوقًا لتنفيذ خططه التى أعدها لتقدم بلده. وكان يحدث زوجته عن تاريخ عائلته بإعجاب ويحكى عن بطولاتهم فى مقاومة الهولنديين لكنه لم يعد يفعل شيئًا من ذلك الآن، بل سقط فى بئر عميقة لايكاد يتكلم معها فى حين كانت تسمعه بعد أن ينام الجميع يتجول فى البيت وفى يده زجاجة الويسكى. لقد فقد الثقة بالكلمات وأصيب بالاكتئاب، ولم تعرف سبب ذلك إلا

فيما بعدعندما تقابلت مع ابن عمه الذى كشف لها سر التغير الذى طرأ على زوجها. ونصحها بألا تقسوعليه لأنه ضحية للتعذيب والقهرالذى يمارسه نظام سوهارتو. كذلك أخبرها أن وصولهم إلى جاكارتا حدث بعد شهورقليلة من وقوع أبشع مذبحة وحشية راح ضحيتها مئات الآلاف. ففى فترة التطهير التى أعقبت الانقلاب تم استدعاء جميع الطلاب من الخارج، ولم يكن فى خطط لولوأن يعود فى ذلك الوقت. وعند وصوله أخذه رجال الأمن وحققوا معه وتم تجنيده للعمل بعيدًا فى جيانا الجديدة لمدة عام وأخبروه بأنه محظوظ؛ لأن كل الطلبة المبعوثين إلى الكتلة الشرقية كان مصيرهم أسوأ فأكثرهم اختفى والباقون مازالوا فى المعتقلات والسجون.

لكن لولولم يكن يتكلم معها كما اعتاد، لايجرؤ على أن يشرح أسباب صمته أويرد على أسئلتها بل طلب منها ألا تهتم ولا تسأل عما يدور حولها من أحداث. وأخبرها أنها أجنبية تملك حماية، أما هوفسيف الاتهام مسلط فوق رقبته ورقاب الأندونيسيين جميعًا، وما أسهل أن يتفوه المرء بكلمة حتى يجد رأسه تتدحرج من فوق المقصلة. وهكذا بدأ التباعد بينهما.

حين وصلت هى وابنها إلى جاكارتا كان لولويعمل فى وظيفة جيولوجى بالجيش يتقاضى مرتبًا ضئيلًا لايكفى هذه العائلة، فقررت أن تعمل فى وظيفة مدرسة للغة الإنجليزية فى مدرسة تابعة للسفارة الأمريكية حتى تسهم معه وتمكن ابنها من مواصلة تعليمه. لقد ظنت فى البداية أن التغير الذى طرأ على شخصيته يرجع إلى هذه المشكلات المالية.لكن المسافة بينهما ازدادت اتساعًا حتى بعد أن تصالح مع الواقع ومع الفساد.

وعن طريق زوج أخته وصل إلى منصب مهم فى شركة بترول أمريكية وأخذت حياته تتبدل إلى الثراءعن طريق الرشوة، فانتقل إلى أحد الأحياء الراقية وبدأ يركب السيارات الفاخرة. ورفضت هى أن تقبل هذه التصرفات أو تسايرها ورفضت حضور الحفلات التى تقيمها الشركة أولقاء رجال الأعمال الأمريكيين. كان يقول لها: «إنهم أهلك وناسك» وترد هى «إنهم ليسوا من أهلى أوناسى» كان لديها حس أخلاقى قوى مستمد بعضه من الدين وبعضه الآخر من منطق عقلانى يرفض الرشوة والفساد.وعند ذلك توقفت المجادلات بينهما واتفقا على الانفصال لكنهما حافظا على روح المودة حتى ولدت ابنتهما (مايا) وبعد ذلك وقع الطلاق.

عاد باراك إلى هاواى بعد ثلاث سنوات، وبقيت أمه هناك تمارس عملها. لم ير باراك لولو إلا بعد عشر سنوات حين سافر بمساعدة أمه للعلاج فى لوس أنجلوس من مرض الكبد الذى قضى عليه فى سن الواحدة والخمسين.

اهتمت أم باراك بتعليمه وركزت فى دروسها على أن تغرس فيه القيم الأخلاقية. قالت له: إذا أردت أن تتطور إلى مستوى الإنسان،فإنه يلزمك بعض القيم مثل: الأمانة، والنزاهة، واستقلال الرأى. وأخذت تذكره بأن أباه شب فقيرًا فى بلد فقير وعرف من المشقات أكثر مماعرفه لولو لكنه لم ينحرف أويتنازل، وحافظ على اجتهاده وأمانته مهما كلفه ذلك. وعاش حياته طبقًا لمبادئ تتطلب نوعًا من الصلابة، مبادئ تقود صاحبها إلى أرقى أشكال القوة. وطالبتنى أمى أن أحذوحذوه. فليس لدى اختيار. إنها صفات وراثية فى الجينات. ثم أضافت «يجب أن تشكرنى على حواجبك.، كانت حواجب أبيك خفيفة جدا وهذه مسالة لاقيمة لها. لكنك ورثت عن أبيك عقلك وشخصيتك».

وجد باراك فى كلمات أمه (السيدة البيضاء) تعبيرًا قويًا وصادقًا عن تقديرها لمواهب والده الإفريقى الأسود بل رسالة تحتضن السود عمومًا. إذ كانت تعود إلى البيت محملة بكتب عن الحقوق المدنية وخطب وتسجيلات دكتور لوثر كنج.وحين كان باراك يذكرها باستعراضات قوات الكشافة أمام الرئيس الأندونيسى،كانت تذكره بمواكب الأطفال ومسيرتهم من أجل الحرية وتقول له: كل رجل أسود هوتورجوت مارشال أوسيدنى بواتيه. وكل امرأة سوداء هى فانى لوهامرأولينا هورن. أن تكون أسود يعنى أنك صاحب ميراث عظيم،ومصير خاص وأعباء مجيدة لا يقدر على حملها إلا الأقوياء مثلنا.

وفى هذا السياق وقعت عينى على غلاف مجلة «لأيف» على صورة الرجل الأسود الذى يحاول أن يقشر جلده الأسود ويستبدله بجلد أبيض هروبًا من الاضطهاد. إننى أتصور أطفالا آخرين مثلى من السود، قد مروا بمثل هذه اللحظات من الشفافية والتنوير. يقول باراك أعرف أن هذه المقالة كانت عنيفة، أشبه بهجوم شن على من كمين.لقد حذرتنى أمى من المتعصبين وهى تقول إنهم جهلاء وغير متعلمين وينبغى على أن أتجنبهم.

من هاواى إلى نيويورك

عاد باراك إلى هاواى وبشره جده بأنه سوف يذهب إلى مدرسة أمريكية هناك. وعرفت مدرسته مس هيفتى أن أباه من كينيا وقالت إنها عاشت هناك مدة من الزمن تعمل كمدرسة أطفال وأن كينيا بلد جميل ومدهش. وقد خفف كلامها عن باراك هموم اليوم الأول بالمدرسة وجعله يومًا لطيفًا وبعد أيام أخبره جده بأن أباه أرسل برقية وأنه قادم لرؤيته قريبًا .وأخبرته أمه بأنها كانت تراسل أباه من أندونيسا وتعرف أنه تزوج للمرة الثانية أيضا وخلف خمسة أولاد وبنتًا.

احتضن أوباما ابنه باراك بشوق وأعرب عن سعادته برؤيته وبتفوقه فى الدراسة، وبدا الابن خجولًا فقال له أبوه: إن أخوتك فى كينيا متفوقين أيضا فلا تخجل من التفوق. إنه صفة وراثية فى الجينات. نظر باراك إلى أبيه ولاحظ أنه يبدومختلفًا عن صوره، فهو يبدو نحيفًا ، وفى عينيه اصفرار نتيجة إصابته بالملاريا عدة مرات.لقد أعدت له العائلة مكانًا مريحًا فى البيت الذى أصبح يجمعهم جميعًا؛ الجد والجدة وباراك وأمه وأبيه. قضى أوباما شهرًا فيصحبتهم عاد بعده إلى كينيا. وكان باراك سعيدًا بصحبة أبيه وزيارة الأماكن المهمة فى هونولولو. وزاد فخره عندما زارأبوه المدرسة وتحدث مع زملائه فى الفصل ورأى سعادتهم بكلامه وإعجابهم به. مرت خمس سنوات منذ زيارة أبيه.كانت سنوات هادئة ليس فيها ما يعكر الصفو، وهويمارس الشعائر والطقوس التى تنتظرها أمريكا من أطفالها.تقارير هامشية واستدعاءات لمكتب المدير، والعمل بعض الوقت فى محلات الهامبورجر. كان يحس بالمعاناة وضيق ذات اليد لكنه كان يجد راحة فى معرفة أن وضعه يتحسن باضطراد ويقول إنه قلما رأى أطفالا أفقر منه يتظاهرون بالسعادة.وكانت أمه تذكره بأنها انفصلت عن زوجها لولووعادت بعد فترة قصيرة إلى هاواى للحصول على ماجستير فى علم الأنثروبولوجيا.وعاش هووهى ومايا لمدة ثلاث سنوات فى شقة بأحد البلوكات السكنية معتمدين على المنحة التى تتقاضاها أمه.

وعندما كان باراك يحضر بعض زملائه إلى المنزل كانت أمه تسمعهم يتهامسون حول الإهمال الظاهرفى البيت أوعدم وجود أطعمة كافية بالفريجيدير،فكانت تشده جانبًا وتخبره أنها سيدة وحيدة تذهب للدراسة وتعول طفلين وأن الاهتمام بصنع الحلويات ليس من أولوياتها.ورغم رضائها عن مستوى تعليمه الراقى الذى يتحصله فى مدرسته

فإنها لم تكن تتسامح إزاء أى موقف غير لائق منه أومن أى زميل له. ورغم نزوع باراك نحوالاستقلال فإنه ظل على علاقة وثيقة بأمه، وكان يبذل قصارى جهده فى مساعدتها بشراء احتياجات المنزل والقيام بأعمال الغسيل ورعاية أخته مايا.

لكن عندما استعدت أمه للعودة إلى أندونيسيا ١٩٧٧ لدراسة الجانب العملى من رسالتها واقترحت أن يذهب معها هوومايا لإدخالها المدرسة الدولية هناك فإنه رفض، واتفق أن يبقى مع جده وجدته فى هاواى ويعيش معهما فى هدوء ولايسبب لهم أى متاعب. وبعيدًا عنهم جميعًا كان باراك يعانى نوبات من الصراع الداخلى، كان يحاول أن يربى نفسه على أن يصبح أمريكيًا أسود، ولم يكن هناك أحد ممن حوله يعرف معنى ذلك على وجه الدقة.

كانت خطابات أبيه لاتعطيه إلا أقل المفاتيح. كانت تأتيه على فترات متقطعة لتقول له: إن الجميع على خير مايرام ويهنئه على تقدمه فى الدراسة، ويعبر عن ترحيبه بحضوره هووأمه ومايا ليكونوا بجانبه فى كينيا. فى ذلك الوقت.كان باراك يصحب جده أحيانًا إلى الحانة ويرى أصدقاءه من السود ذوى الأصوات الخشنة الذين كانوا يتسامرون مع جده وولاحظ أن أحدًا منهم لم ينتبه إلى أن جده هوالرجل الأبيض الوحيد بينهم أوأن باراك هوالطفل الوحيد أيضا الذى لم يتعد الثانية عشرة. كانت الجرسونة السوداء الضخمة الجسم تقدم الويسكى لجده وتأتى له بالكوكاكولا.

كان باراك يحس بالامتنان لجده وجدته ويقول إنهما ضحيا كثيرًا من أجله، وقد أقبل على الدراسة فى البداية بهمة ونشاط فى محاولة للحفاظ على تفوقه فى وسط جديد شجعه على مزيد من الاختلاط والعمل، إذ وجد أن نصف الفصل تقريبًا من السود. وقد شجعه هذا على ممارسة الرياضة وكرة السلة وشارك بفرقته فى كثير من المباريات. لكن مشكلة الانتماء ظلت هى الهاجس الذى يؤرقه هوزملاؤه السود. كانت موضوع حديثهم المتصل، وكان البعض يرى أنهم يعيشون فى مجتمع من صنع غيرهم أى من صنع البيض الأقوياء وهم ضعفاء لايستطيعون تغييره. وقد أثرهذا التفكير فيهم ففترت همتهم وبدءوا يفكرون فى هجر الدراسة والبحث عن عمل. فى هذا الوقت توقفت رسائل أبيه التى كانت تغذى فيه روح الجد وتشجعه على التقدم.

عادت أمه إلى هاواى بعد أن أكملت بحثها الميدانى الخاص برسالة الماجستير. ولاحظت تدهور مستواه العلمى وانخفاض تقديراته الدراسية على مدى العامين السابقين نتيجة مسايرته لأصدقاء السوء، إذ عرفت أن أحد زملائه قبض عليه وهو يحمل كمية من المخدرات. حاول باراك أن يرجع هذا الأمر إلى سوء الحظ فغضبت لأنه يتهرب من المسئولية. فالركون إلى الحظ هو حجة الفاشلين وطالبته بأن يأخذ نفسه بالجدية وأن يصمم على إكمال تعليمه الجامعى، وقد تم قبوله فعلا فى جامعة كلومبيا بمدينة نيويورك وسرعان ما أحس بالرغبة فى التغيير، فذهب إلى نيويورك لقضاء الصيف وذهب إلى شقة صديقه فى مانهاتن فلم يجده. وفى لحظة انتظاره قرأ خطاب أبيه الذى تسلمه قبيل مغادرته البيت. أخبره والده بأنه سعيد بأن يسمع عنه أخيرًا وأنه عائد من لندن حيث كان يتفاوض حول مسائل مالية تخص حكومته، وأنه يعتذر عن توقف خطاباته بسبب كثرة سفرياته. ويؤكد له أنه يرحب بقراره السفر إلى كينيا عند تخرجه، ويقول له إن انتماءه الحقيقى هناك. وراح باراك يفكر فى هذا الكلام. إن أمامه عدة سنوات على التخرج ولا يعرف ماذا يفعل بحياته.

«هاواى تربض خلفى كحلم من أحلام الطفولة، لا أتخيل أنه يمكننى الاستقرار فيها. وأيًا كان مايقوله أبى، فأنا أعرف أنه جاء متأخرًا بحيث لا يمكننى أن أزعم أن إفريقيا هى وطنى. وإذا حدث وفهمت نفسى على أننى أمريكى أسود، وفهمنى الآخرون هكذا، فإن هذا الفهم لا يرتبط بمكان محدد. إن ما كنت أريده هو مجتمع. مجتمع محفور فى الأعماق أكثر من اليأس الشائع الذى كنا نتقاسمه أنا وأصدقائى السود عندما كنا نقرأ آخر إحصائيات الجرائم. أريد مكانًا أسقط فيه المخاطر وأختبر فيه التزاماتى».

قضى باراك عامًا فى مانهاتن بنيويورك ينتقل من مكان إلى آخر ولاحظ قدرات الإنسان وإمكاناته على الاستعراض وهو يتطلع إلى مستقبله باحثًا عن ثغرة يمكنه أن يدخل من خلالها إلى حياة الناس. وهناك تقابل صدفة مع أخته مايا وأمه التى كانت تعمل لحساب بعض المنظمات الدولية. وقضتا بضع ليالى قليلة معه، ثم انتقلت أمه ومايا إلى مكان آخر. فى ذلك الوقت وجد باراك وظيفة كناس فى إحدى البنايات. أما أمه وأخته فكانتا يقضيان الوقت فى التجول فى المدينة والتعرف على معالمها. وحين يلتقون على الغداء كانتا ترويان له مشاهداتهما وعندما ينتهى حديثهم يبدأ هو حديثه عن

مشكلات المدينة وسياسة المعد مين.ويحدث أمه عما تفعله المنظمات الدولية بدول العالم الثالث إذ تعمد إلى تعويدهم على الاعتماد على المعونات الخارجية.

لمحت أمه إعلانًا عن فيلم «أورفيوس الأسود» ودعتهم إلى دخوله لأنه أول فيلم أجنبى يعرض هناك. لكنه شعر بالملل وفكر فى الخروج قبل انتهاء العرض وحين سأل أمه توهج وجهها فى ضوء الشاشة الزرقاء كوجه طفلة ورأى كمايقول تلك الخيالات البسيطة التى كانت محرمة على فتيات الطبقة المتوسطة فى كنساس، خيالات الأمل فى حياة أخرى عاطفية،دافئة غريبة ومختلفة. كان باراك فى السادسة عشرة من عمره.. وتذكر أنه قضى الصيف يعمل هناك وشعر لأول مرة بأنه رجل ناضج.. وقبل أن يفترقا أخبرها عن خطته للسفر إلى كينيا لزيارة أبيه فشجعته على هذه الخطوة لزيادة التفاهم والتعارف بينهما.

ثم جلست معه وأخذت تحكى له حكاية قديمة بصوت بعيد كأنها تكلم نفسها. لم تكن غلطة أبيك أنه سافر بل أنا طلقته. عنما تزوجنا لم يكن جدك وجدتك سعداء بهذا الأمر.لكنهما لم يستطيعا منعنا وفى النهاية وافقا. كان هذا أفضل شيء نفعله. لكن جدك حسين باراك أرسل لأبيك خطابًا طويلا ورديئًا يقول فيه إنه لايوافق على هذ الزواج. وهولا يريد لدم عائلة أوباما أن تلوثه امرأة بيضاء. ويمكنك أن تتخيل رد فعل جدك هنا. كانت هناك مشكلة أخرى مع زوجة أبيك الأولى. فقد أخبرنى أنهما منفصلان. ولكنه زواج ريفى ولا يوجد له وثائق قانونية تؤكد هذا الطلاق.. فى ذلك الوقت تمت ولادتك. واتفقنا على أن نعود نحن الثلاثة إلى كينيا عندما ينتهى من دراسته.

لكن جدك حسين استمر يكتب لأبيك ويهدده بإلغاء الفيزا. وأصيبت جدتك بالهستيريا. فقد قرأت عن ثورة الماوماوفى كينيا وعن تصوير الميديا بأن الماوما ويذبحون البيض ويقتلونهم بوحشية شديدة، فتأكد لها أنه بمجرد وصولى إلى كينيا سوف تقطع رقبتى وتنزع أنت منى.وعندما تخرج أبوك فى جامعة هاواى تلقى منحتين إحداهما من جامعة نيويورك تتكفل فيها الجامعة بالسكن وتكاليف المعيشة لنا نحن الثلاثة. ولم يقبلها وفضل عليها منحة من هارفارد لاتتحمل فيها الجامعة سوى نفقات الدراسة. وقال كيف أرفض التعليم الأفضل. كان أوباما رجلًا عنيدًا لايفكر إلا فى أن يكون

هوالأفضل. كنا صغارًا وكنت أنا أصغر منه بسنوات قليلة. وعندما جاء لزيارتنا فى هاواى كان يريد أن نذهب للحياة معه فى كينيا لأن زوجته الثالثة قد تركته. ولكننى كنت مازلت متزوجة بلولوفلم أفكر فى هذا الأمر. وبعد عدة شهور اتصل باراك بأمه تليفونيًا ليخبرها أن أباه قد مات وسمعها تصرخ وتبكى فى التليفون. بعد ذلك اتصل بعمه فى بوسطن وأخبره ثم كتب لعائلته فى نيروبى خطاب تعزية دون أن يشعر بأى ألم، شعر فقط بالفرصة التى ضاعت ولم يجد سببًا للتظاهر بأى شىء آخر. وهكذا تم تأجيل زيارته إلى كينيا إلى أجل غير مسمى.. وبعد أيام رأى أباه فى حلم وهويقول له «كنت أريد دائما أن أقول لك أننى أحبك.» فمشى باراك نحوه وعانقه وانخرط فى البكاء ولم يستطع أن يمنع نفسه.

تخرج باراك فى جامعة كلومبيا ١٩٨٣ فى نيويورك، وأخذ يبحث عن وظيفة منظم اجتماعى. وكان زملاؤه يتساءلون عن ماهية هذه الوظيفة. لم تكن لديه مواصفات محددة للوظيفة.كان يتحرك بدوافع الرغبة فى تنظيم مجتمعات السود فى إطار اتحادات أوهيئات مؤسسية تتيح لهم التفاهم والتفاعل فيما بينهم وتمنحهم نوعًا من القوة فى مواجهة التعصب والعنصرية، ويقول إن المجتمعات لم توجد أبدًا كمنحة فى هذا البلد على الأقل بالنسبة للسود، بل لا بد من خلق هذه المجتمعات والنضال من أجلها والعناية بها مثل زراعة الحدائق. فهذه المجتمعات تنموأوتنكمش تبعًا لأحلام الناس – وفى داخل حركة الحقوق المدنية أصبحت الأحلام كبيرة. كان يقول «رأيت أن المجتمع الأمريكى الإفريقى صائر إلى شىء أكبر من كونه المكان الذى ولدت فيه أوالبيت الذى نشأت فيه. فمن خلال التنظيم والتضحية المشتركة تم اكتساب العضوية. لأن المجتمع الذى أتخيله مازال فى مرحلة التشكيل مؤسسًا فقط على الوعد الذى ينبغى على المجتمع الأمريكى الأكبر – مجتمع السود، والبيض، والملونين – أن يعيد صياغته. لقد آمنت أنه على مدى الأيام سوف يتيح هذا المجتمع التفرد والتميز لحياتى. هذه كانت فكرتى عن التنظيم. إنه وعد بالخلاص».

أرسل باراك طلبه بهذه الوظيفة إلى كل منظمات الحقوق المدنية، وإلى كل مسئول أسود تم انتخابه من أصحاب الأفكار التقدمية. وفى النهاية رد عليه أحد البيوت

الاستشارية الذى يقوم بخدمة بعض المؤسسات المتعددة الجنسية، وتم تعيينه فى وظيفة مساعد باحث. ووجد باراك أنه الرجل الوحيد الأسود فى هذه الشركة، واعتبر ذلك علامة عار بالنسة إليه وعلامة فخر بالنسبة لمكتب السكرتارية فى هذا المكان. كانت السيدات السود يعاملنه كابن لهن.ويتوقعن له أن يصبح مديرًا للشركة.وكان هويحدثهن عن أحلامه التقدمية.ولكن نظراتهن كانت تعبر عن خيبة الأمل. كان هناك من يحذره من وظيفة منظم اجتماعى التى يفكر فيها لأنها عمل سياسى. وكان هويشرح أفكاره السامية وأهمية تحريك الفقراء ومساندة المجتمع. ونصحه أحد العاملين بأن هذا العمل لايفيد أحدًا والأفضل له أن يسعى لكسب المال. فالمال هوالذى يحل المشكلات.

رقى باراك إلى وظيفة محررللشئون الاقتصادية. وفى ذلك الوقت تلقى مكالمة من أخته (أوما) التى تركت كينيا وذهبت للدراسة فى ألمانيا، ولم يكن باراك قد رأى هذه الأخت غيرالشقيقة من قبل وكان يعرفها عن طريق الخطابات.التى يتبادلنها. ويتحدثان فيها عن إمكانية تبادل الزيارات بينهما. قالت فى مكالمتها إنها قادمة لقضاء بضعة أيام فى نيويورك وتسأله إن كان يمكنها أن تأتى لزيارته. رحب بها باراك وراح يستعد لاستقبالها وقبل موعد حضورها بيومين كلمته بأنها لن تستطيع الحضور لأن أخاهما ديفيد مات فى حادث سيارة. وأنها ذاهبة إلى كينيا. حاول باراك أن يهدئ من حزنها. وفى الطريق إلى البيت راح يفكر فى إخوته.فى هؤلاء الناس الغرباء الذين يحملون دمه. من الذى ينقذ هذه الأخت من أحزانها؟ وما الأحلام المجنونة التى كان يملكها هذا الفتى الذى قتلته السيارة؟ من الذى لم يذرف دمعة على أهله ؟

ترك باراك ذلك العمل بعد ستة أشهر. وراح يبحث عن وظيفة منظم اجتماعى. وتلقى مكالمة من مارتى كوفمان الذى أبلغه بأنه أسس مشروعًا تنظيميًا ويحتاج إلى شاب أسود للعمل معه. وحدثه باراك عن نفسه، فسأله مارتن لماذا يفكرشخص من هاواى فى العمل كمنظم اجتماعى. وكان مارتن يهوديًا فى الثلاثين من عمره. وقال لباراك «إن معظم أعمالنا تتم مع الكنائس. فإذا أرادت الطبقات الفقيرة والعاملة أن يكون لها قوة حقيقية، فلا بد من وجود قاعدة مؤسسية.ثم سأل باراك عما يعرفه عن شيكاغو، فأجابه بأنها أكثر مدن أمريكا عزلة وانفصالية. فقد انتخبوا من وقت قريب رجلًا أسود

هوهارولد واشنطن عمدة للمدينة، ولكن البيض لايريدونه. وقد أرسل باراك طلبًا للعمل مع هذا العمدة لكنه لم يتلق ردًا. وهنا قال له مارتن: «إذا كنت أسود فى سن الشباب وتريد الاشتغال بالمسائل الاجتماعية، فابحث عن معسكر سياسى لكى تعمل معه.ويمكنه أن يساعدك فى مسيرة حياتك».

قبل باراك أن يعمل مع مارتن مقابل عشرة آلاف دولارفى العام وألفين دولار لشراء سيارة.هكذا حصل باراك على وظيفة مدير مشروع للتنمية الاجتماعية.

وعندما قدم أول تقرير إلى مارتن، قال مارتن إنه ليس بسيئ ثم أضاف: «إذ أردت أن تكون منظمًا للناس، فعليك أن تبتعد عن الأشياء الهامشية وأن تدخل إلى أعماقهم».

تأكد باراك من صحة كلام مارتن عندما قابل (روبى استيل) التى أخبرته عن تصاعد نشاط العصابات – وأن زميل ابنها بالمدرسة قد قتل بطلق نارى فى الأسبوع السابق، وهى خائفة على ابنها ثم قدمته لآباء آخرين يحسون بالخوف والفزع على أبنائهم فاقترح باراك عقد اجتماع ودعوة قائد الأمن للقاءأهل المنطقة والتحدث معهم فوافق الجميع. واطمأن باراك أكثر عند وصول الأب رينولدز رئيس تجمع الكنائس المحلية الذى أخبره أن الكنائس سوف تتضامن معًا –وتعلم الناس إنجيل الحياة الاجتماعية، وأنه سوف يضع اسم باراك على أجندة المتحدثين.

وفى الاجتماع الخاص بمناقشة نشاط العصابات الإجرامية، حضرقس آخر هو الأب (سمول) فأخبره القس رينولدز بأن الأخ أوباما لديه خطة لعقد اجتماع لمناقشة أسباب تصاعدالنشاط الإجرامى.فسأل باراك وهو يبتسم: «ما اسم منظمتك»؟

ورد باراك اسمها «مشروع تنمية المجتمع» فنظر إليه القس (سمول) وتكلم بلهجة ساخرة، وقال إنه يتذكر رجلًا أبيض تكلم عن مثل هذا الشىء،إنه شخص مثير للضحك له اسم يهودى وأنت منضم للكاثوليك. ثم ختم كلامه بأن آخر شىء يريدونه هو أن يرتبط تجمعهم بحفنة فلوس بيضاء أوكنائس كاثوليكية ومنظمين يهود. فتمتم باراك بأن الكنيسة كانت دائمًا تقوم بدور الريادة فى معالجتها للمشكلات الاجتماعية، فأجابه (سمول) بأن الأمور قد تغيرت مع مجىء العمدة الجديد.(يقصد العمدة الأسود) ثم أضاف قائلًا: وأنا أعرف مدير الآمن منذ كان جنديًا صغيرًا ورجال البلدية هنا ملتزمون

بالسلطة السوداء.فما حاجتنا للاحتجاج على شعبنا ؟ ثم نصح باراك بألا يسىء الفهم مرة أخرى لأنه يقف فى الجانب الخطأ.

حاول باراك بعد ذلك أن يتصل بالخدام فلم يرد عليه أحد. وعقد الاجتماع مع مدير الأمن فلم يحضره سوى ثلاثة عشر شخصًا وكانت كارثة. وعندما التقى بمارتن عاتبه لأنه لم يحذره من شخص (سمول). فأجاب بأنه حذره حين قال إن شيكاغو مستقطبة سياسيًا وأن السياسيين يستعملونها لتحقيق مصالحهم. اكتشف باراك أن كلا من سمول ومارتن يعرف أنه فى السياسة كما فى الدين، أن القوة تكمن فى التشدد، وأن فى تشدد شخص ما تهديد لتشدد شخص آخر.. يقول باراك: «حينئذ أدركت، أننى هرطوقى. بل أسوأ فحتى الهرطوقى لابد أن يؤمن بشىء»، إذ لم يكن لديه ما هو أكثر من شكوكه.

سمع باراك من أحد زعماء السود المسلمين قوله: هناك شىء واحد يعجبنى فى الشعب الأبيض هو أنهم يعرفون من هم. انظر إلى الإيطاليين إنهم لم يهتموا بالعلم الأمريكى عندما وصلوا إلى هنا. وكان أول شىء فعلوه أنهم جمعوا المافيا ليضمنوا تحقيق مصالحهم. أما الأيرلنديون - فقد استولوا على قاعدة المدينة ووجدوا وظائف لأولادهم. وفعل اليهود نفس الشىء.تقول إنهم يهتمون بطفل أسود فى الجنوب أكثر من اهتمامهم بأقاربهم فى إسرائيل، إنها مسألة الدم يا باراك، فأبحث عمن هم لك. السود هم الشعب الوحيد الغبى بدرجة تجعلهم ينشغلون بأعدائهم.

ووجد باراك فى هذا الكلام محاولة لتحويل الكراهية نحو البيض. وهى مسألة تتعارض مع الأخلاق الذى تعلمها من أمه. التى كانت ترى أن التفرقة الثرية تكون بين الأفراد ذوى النوايا الحسنة وبين الذين يريدون السوء عن طريق الحقد النشيط والجهل أو غيبة الوعى.إن رهان باراك الشخصى هو فى نطاق ذلك الإطار الأخلاقى، لقد اكتشف أنه لا يمكنه الإفلات منه حتى لو حاول.هذا الإطار ربما كان السود لا يقدرون على تقديمه فى هذا البلد. أوكما يقول إن الكفاح المستمر يجب أن يكون من أجل ربط الكلمة بالفعل،أو ربط رغباتنا المحسوسة بخطة علمية». هذه هى العقيدة التى كانت تدفعنى إلى الأمام لكى أطبق ما قرأته فى الكتب. أليس التقدير الذاتى يعتمد

على هذا ؟، ربما للمرة الأخيرة،أستنتج أن أفكار النقاء العرقى أوالثقافى لا تصلح قاعدة للتقدير الذاتى بالنسبة للأمريكان السود أولى، إن إحساسنا بالكمال ينبغى أن ينبع من شىء آخر أكثر رقيًا من الدم الذى ورثناه.

رغم الصعوبات فقد نجح باراك أوبا فى وظيفته كمدير لمشروع تنمية المجتمعات وهومؤسسة كنسية اجتماعية تضم فى الأصل ثمانى ابرشيات كاثوليكية فى مقاطعة روزلاند الكبرى فى أقصى جنوب شيكاغو. واشتغل هناك لمدة ثلاث سنوات من يونيه ١٩٨٥ إلى مايو١٩٨٨ . وفى غضون سنواته الثلاثة كمدير للمشروع حقق نجاحًا باهرًا أدى إلى تنمية المشروع بصورة مدهشة. فقد ارتفع عدد العاملين معه من شخص واحد إلى ثلاثة عشر عاملًا وارتفعت الميزانية السنوية من ٧٠٠٠٠ دولار إلى أربعة ملايين دولار. وشملت إنجازاته عدة مشروعات مهمة منها برنامج تدريبى للموظفين، وبرنامج تعليمى لإعداد الطلاب للتعليم الجامعى ومؤسسة لحقوق المستأجرين، وعمل أيضا كمستشار ومدرس بمعهد التنظيم الاجتماعى التابع لإحدى المؤسسات.

وفى منتصف ١٩٨٨ سافر باراك أوباما لأول مرة إلى أوروبا لمدة ثلاثة أسابيع، ثم إلى كينيا حيث قضى خمسة أسابيع التقى فيها بإخوته وجميع أقاربه. ورأى مشاهد الحياة الفقيرة فى كينيا ومعاناة الناس هناك. فلا غرابة أن يشبه باراك أوباما عائلته بهيئة «أمم صغيرة، فبين أقاربى من يشبه بيرنى ماك، وفيهم من يشبه مارجريت تاتشر» وذلك لأن أوباما له سبعة إخوة وأخوات من أبيه الكينى ستة منهم على قيد الحياة، إضافة إلى أخت غير شقيقة (مايا) من زوج أمه الأندونيسى وهى التى تربت معه.

أوما تكشف أسرار باراك أوباما الأب

قبل أن يقوم باراك أوباما بزيارة كينيا فى١٩٨٨ حضرت أخته (أوما) لزيارة باراك فى شيكاغو. عانقها بحرارة وكاد يطير فرحًا بأخته التى لم يرها من قبل. حكى لها عن شيكاغوونيويوك وعن أمه وجدته، وحكت له عن هيدليرج حيث تدرس لاستكمال رسالة الماجستير فى اللغويات. وهى لاتتصور أن تعمل فى كينيا ولا فى ألمانيا، وتشكومن الشعور بالوحدة.تشير إلى أبيها بعبارة «الرجل العجوز».

تجول بها باراك فى المدينة وعرج على مكتبه وقدمها لزميلاته إنجيلا ومونا وشيرلى اللاتى احتفينا بها وسألوها عن عقصة شعرها وعن كينيا. وكيف أنها أصبحت تتكلم برقة مثل ملكة بريطانيا. أحست (أوما) أنهم يحبون باراك وأنه أصبح مشهورًا.ثم أضافت: إنها لا تحب العمل بالسياسة لأنها تنتهى بخيبة الأمل.

طلب منها باراك أن تحكى له كل شىء عن أبيها وعن حياتهم فى كينيا. لا أستطيع أن أقول إننى عرفته حقيقة. وربما لا أحد يعرفه.. حياته كانت مبعثرة تمامًا. الناس يعرفون فقط نتفًا قليلة عنه. حتى أطفاله.لايعرفونه. كنت أخاف منه. كان بعيدًا عناعندما ولدت أنا. كان فى هاواى مع أمك ثم فى هارفارد. وعندما عاد إلى كينيا كنت أنا وأخى الأكبر(روى) أطفالًا صغارًا. لقد عشنا مع أمنا فى الريف فى قرية أليجو. فى أليجوكان عمرى أربع سنوات وكان روى ٦ سنوات. إننى أتذكر فقط أنه عاد مع زوجة أمريكية تسمى روث، وأخذنا من أمنا لنعيش معهما فى نيروبى. كانت روث أول امرأة بيضاء أراها.

فى تلك السنوات التى أعقبت الاستقلال، كانت حياته على ما يرام. كان يعمل فى شركة بترول أمريكية هى شركة شل. وكان على صلة بكبار رجال الحكومة الذين كانوا زملاء له فى الدراسة. نائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء كانوا جميعًا يأتون إلى بيتنا الكبير يشربون ويتكلمون معه.. وكان معه زوجة أمريكية وكان هذا شىء نادر. كان يذهب أحيانًا إلى أمى الحقيقية وكأنه يريد أن يقول للناس إنه يستطيع أن يظهر مع زوجته الإفريقية الجميلة حينما يريد، فى ذلك الوقت. ولد إخوتنا الأربعة: مارك وديفيد أبناء روث فى بيتنا الكبير فى ويستلاند.وولد آبووبرنارد أطفال أمى وعاشا معها فى الريف. أنا وروى لم نعرفهما آنذاك. لم يأتوا لزيارتنا.كان الرجل العجوز يذهب إلى هناك بمفرده. ولم أدرك ذلك إلا مؤخرًا، كانت حياتنا منقسمة إلى حياتين. كان صعبًا على روى أن يرضى عن هذه الأوضاع لأنه عاش فى أليجومع أمى.

تغيرت أحوال أبى.إذ ترك العمل بشركة البترول لكى يعمل فى وزارة السياحة. كانت له طموحات سياسية.فى البداية سارت الأموربصورة.جيدة لكن فى عامى ١٩٦٦، ١٩٦٧ بدأ الصراع بين قبيلة جوموكينياتا وبين قبيلة ليو. وكان نائب الرئيس أودنجا من

قبيلة ليووقد بدأ يعارض الفساد واستيلاء القبيلة الأخرى على أهم الوظائف، فاعتقله جوموكينياتا فى بيته.وسكت كثيرون لكن أبى لم يسكت وقال إن القبلية سوف تدمر البلاد. فطرد من وظيفته وسحب جواز سفره. ولم يجد إلا وظيفة فى مصلحة المياه. وبدأت تصرفاته تتغير وأخذ يشرب كثيرًا.

انصرف عنه أصدقاؤه ونصحه بعضهم بأن يعتذر حتى تتحسن ظروفه فأبى واستمر فى التعبير عن غضبه. واعتاد أن يرجع متأخرًا إلى البيت ويصرخ فى روث حتى إنها كانت تعتبره مجنونًا.

تركته روث حين بلغت أنا الثالثة عشرة من عمرى، وبعد أن أصيب فى حادث سيارة قضى على أثره عامًا فى المستشفى، وعشنا بالاعتماد على أنفسنا.عندما خرج من المستشفى زارك أنت وأمك فى هاواى وأخبرنا أنكما قادمان للعيش معنا لكن هذا لم يحدث، وبقيت أنا وروى معه وبسبب الحادثة فقد العجوز وظيفته ولم يعد لنا مكان نعيش فيه.

أصبح يقترض من أصدقائه وكان هذا وقتًا عصيبًا.لم يكن يخبرنا بأى شىء. وبقى منغلقًا على نفسه ومصرًا على التحكم فى حياتنا باعتباره الأب المثالى. فنحن أبناء الدكتور أوباما. ونتيجة لذلك ساءت علاقته بأخى (روى) وصار يتشاجر معه فترك (روى) البيت وبقيت أنا وحدى مع الرجل العجوز. كنت أناقشه فى بعض الأحيان وكان يعتبرنى فتاة صغيرة حمقاء لا أفهم شيئًا.

كان يأتى سكران يترنح وكان يوقظنى من النوم ليتكلم معى ويقول إن الناس خانوه. والشىء الوحيد الذى أنقذنى من هذا الجحيم هومدرسة كينيا الثانوية. كانت مدرسة للبنات محجوزة للبريطانيات صارمة فى نظامها وعنصرية. وبعد أن تركها معظم البيض سمحوا للإفريقيات بدخولها. كانت مدرسة داخلية وقد منحتنى هذه المدرسة بعض النظام. منحتنى شيئًا يمكن أن اعتمد عليه.

لم يستطيع أبى دفع مصروفاتى فأرسلونى إلى البيت.كنت أُبكى طوال الليل لكننى كنت محظوظة. فقد سمعت إحدى المديرات بقصتى فحصلت لى على منحة دراسية. ورغم عنايتى بأبى وخوفى عليه فإننى كنت سعيدة بالحياة بعيدًا عنه فى السنتين الأخيرتين.

بعد ذلك تحسنت الأوضاع.فقد مات كنياتا وعاد أبى ثانية للعمل بالحكومة فى وزارة المالية، وبدأ يملك المال والنفوذ ثانية ولكنه لم ينس أبدًا مرارة ما حدث له. عاش فى حجرة بأحد الفنادق رغم قدرته على شراء منزل. كان يعاشر نساء من أجناس مختلفة ولفترات قصيرة، إفريقيات وأوروبيات من كل لون.تقول أوما، لم أكن أره وإذا حدث وتقابلنا فإنه كان لا يحسن معاملتى.كان يريد أن يدعى أنه هوالأب المثالى. وحين حصلت على المنحة للدراسة فى ألمانيا لم أخبره حتى لا يمنعنى من السفر. وسافرت دون علمه.

وفى ألمانيا بدأت أتخلى عن بعض غضبى منه.وكانت آخر مرة رأيته فيها أثناء رحلة إلى مؤتمر دولى. كنت خائفة لأننا لم نتكلم معًا منذ وقت طويل. لكنه حين وصل ألمانيا كان هادئًا ولطيفًا معى، وأخذنى معه إلى لندن وقدمنى لزملائه بفخر كبير. وفى آخر يوم من زيارته أخذنى للغداء معه وأصر على أن يعطينى بعض النقود. وقال عندما تعودين إلى كينيا سوف أجد لك عريسًا. وحين مات شعرت بأننى خدعت، كما لا بد أن تكون أنت قد شعرت بذلك.

بدأت أوما تبكى وتمسح دموعها بكم قميصها وتقول لباراك، شوف ما فعلته بأختك. كان الرجل العجوز يتحدث عنك كثيرًا ويعرض صورتك لكل شخص يراه ويتحدث بفخر عن تقدمك فى الدراسة.

بدأ باراك يفكر فيما سمعه من أخته. شعر بأن عالمه قد انقلب رأسًا على عقب. لقد تحطم التمثال الذى أقامه لأبيه.تشوهت الصورة التى حملها طوال الوقت.صورة الباحث اللامع، والصديق الكريم، والقائد الناهض. كان أبى كل هذه الأشياء وأكثر لأنه باستثناء هذه الزيارة القصيرة فى هاواى، لم يكن موجودًا معى حتى يفسد هذه الصورة الجميلة، لأننى لم أرى معظم ما رأه القريبون منه فى بعض مراحل حياتهم. انكماش جسد الأب، وضياع أكبر الآمال وبقاء الحزن والأسى.

نعم لقد رأيت ضعف بعض الرجال، رأيت جدى وخيبة أمله،ورأيت لولو ومصالحته

للفساد. لكن هؤلاء الرجال صاروا بالنسبة إليَّ دروسًا أخذ منها العبرة. هؤلاء رجال قد أحبهم، ولكنني لا يمكن أن أقلدهم، رجال بيض ورجال ملونون لا أجد في مصائرهم شيئًا يستهويني.

١٨- رسالة
بناظير بوتو إلى العالم الإسلامى

صدر هذا الكتاب فى الولايات المتحدة عام ٢٠٠٨، قبل اغتيال مؤلفته بناظير بوتو رئيسة وزراء باكستان السابقة بأيام قليلةعنوانه «المصالحة: الإسلام،والديموقراطية، والغرب» وبه رسالة حب للإنسانية، تتوخى الخير لجميع البشر - مسلمين وغير مسلمين - وتعبر عن رؤية ثاقبة للكيفية التى يمكن أن يتم بها تضييق الفجوة بين العالم الإسلامى والغرب.

عادت بناظير بوتو إلى باكستان فى أكتوبر ٢٠٠٧ بعد ثمانى سنوات من النفى، وهى تأمل فى أن تكون عامل تغيير نحو الإصلاح السياسى وتحقيق الديموقراطية. وفى استقبال عاصف نجت من تفجير انتحارى أدى إلى قتل قرابة مائتى شخص من أبناء وطنها، لكنها استمرت تشق طريقها إلى الأمام بقدر زائد من الشجاعة والإيمان كانت تدرك أن الوقت يمضى سريعًا، ولابد من التحرك بسرعة أكبر من أجل وطنها ومن أجل حياتها.

تحكى بناظير بوتوبأسلوب أخاذ تفاصيل حياتها على مدى الشهور الأخيرة فى باكستان، وتقدم أجندتها الجديدة حول الطريقة التى يمكن بهاالقضاء على تيار الإسلام الراديكالى واستئصال جذور الإرهاب، وإعادة اكتشاف قيم التسامح والعدالة الكامنة فى قلب عقيدتها.

فصعـود تيـار التطرف الإسـلامى فى العالم كله أدى إلى اسـتغلال رسـالة الإسـلام السـلمية والتعددية من جانب المتعصبين والإرهابيين. وتـرى بوتوأن أمريكا وبريطانيا تغذيـان الإسـلام الأصـولى عـن طريـق دعـم مجموعات مـن الحكام الذيـن يخدمون مصالحهـا القصـيرة الأجل. وهى تؤمن أنه بتمكين الحكام المسـتبدين فإن الغرب يقوم بدعم الإحباط والتطرف اللذين يؤديان إلى الإرهاب.

وبفضل خبرتها فى حكم باكستان وخلفيتهاالعائلية وتعليمها فى الغرب، أصبحت بناظير بوتوخبيرة بتعقيدات الصراع بين الإسلام والغرب. ففى هذا الكتاب الحافل ببعد النظر والجاذبية تستكشف بوتوالتاريخ المعقد بين الشرق الأوسط وبين الغرب، وتتقصى جذور الإرهاب الدولى عبر العالم، ومن بينها التأييد الأمريكى للجنرال ضياء الحق الذى دمر الأحزاب السياسية، وقضى على استقلال القضاء، وهمش الحكومة القومية وتخلى عن حماية حقوق الإنسان، وانحاز بوكالة الاستخبارات الباكستانية إلى جانب المتطرفين من عناصر الجهاد الأفغان.

إنها تتحدث ـ بصراحة ـ ولكنها لاتخاطب الغرب فقط بل تخاطب المسلمين فى كل أنحاء العالم، لأنها ترى أنهم فى مفترق الطرق بين الماضى والمستقبل، وبين التعليم والجهل،وبين السلام والإرهاب،وبين الدكتاتورية والديموقراطية. فالديموقراطية والإسلام لايتعارضا ن، وبالتالى فإن الصدام بين الإسلام والغرب ليس حتميًا. وتأكيدًا لذلك تعرض صورة للإسلام الحديث تتحدى الاسكتشات الكاريكاتورية السلبية التى تظهر كثيرًا فى الغرب. وبعد قراءة هذا الكتا ب سوف يتضح لنا بصورة أشد وضوحًا مقدار الخسارة التى أصابت العالم بسبب نهايتها المأسوية الفاجعة يحتوى هذا الكتاب على ستة فصول هى:

١ - طريق العودة.

٢ - المعركة فى داخل الإسلام: الديموقراطية ضد الدكتاتورية، والتحديث فى مواجهة التطرف.

٣ - الإسلام والديموقراطية: التاريخ والممارسة العملية.

٤ - حالة باكستان.

٥ -هل صدام الحضارات قدر محتوم.

٦ - وأخيرًا المصالحة.

تحكى بناظير بوتو تجربة عودتها إلى باكستان فى ١٨ أكتوبر ٢٠٠٧ وحياتها على مدى الشهور القليلة قبل اغتيالها فتقول: «عندما هبطت الطائرة فى مطار كراتشى وخطوت أولى خطواتى على أرض المطار غمرتنى مشاعرقوية لم أستطع أن اخفيها. ومثل معظم النساء العاملات فى مجال السياسة، فإننى حريصة وبشكل خاص على الاحتفاظ بتماسكى، وعدم إظهار مشاعرى. فإظهار المشاعر من جانب المرأة التى تعمل بالسياسة أوالحكم يعتبر ضعفًا فى بنيتها الشخصية. ولكن عندما لمست قدمى أرض وطنى المحبوب باكستان لأول مرة بعد ثمانى سنوات من العزلة فى المنفى، لم أستطع إيقاف سيل الدموع المنهمرة من عينى فرفعت يدى تقديرًا وشكرًا وتضرعًا. وقفت فوق تربة باكستان فى رهبة. شعرت أن حملًا ثقيلًا ورهيبًا قد انزاح من فوق كاهلى. إنه شعور بالتحرر. فقد عدت أخيرًا إلى وطنى بعد طول غياب. إننى أعرف لماذا عدت، وما الذى يجب على عمله».

لقد غادرت السيدة بناظير بوتو منفاها فى دبى وتركت زوجها هناك ليكون فى صحبة ابنتيها. أما ابنها بيلاول فهويدرس فى أكسفورد ثم تقول: «اتخذت أنا وزوجى قرارًا مدروسًا وصعبًا. كنا نفهم مخاطر هذه العودة، وأردنا أن نؤكد أنه لايهم ماذا يحدث. لقد اعتدنا التضحية بسعادتنا الشخصية بل وبأحاسيس الحياة العادية وخصوصيتها. فقد كان قرارنا منذ وقت طويل: إن الشعب الباكستانى يأتى فى المرتبة الأولى. لقد تفهم أولادى هذا وشجعونا عليه».

وبعد أن ودعتهم فى مطار دبى نظرت إلى جموع المؤيدين والصحفيين وعبرت عما كان يعتمل فى قلبى: هذه بداية رحلة طويلة من أجل إعادة باكستان إلى الديموقراطية. وأملى أن تكون عودتى هى العامل المساعد على إحداث التغيير. ولا بد أن نؤمن أن المعجزات يمكن أن تحدث.

تقرر السيدة بناظير أن باكستان أصبحت فى ظل الدكتاتورية العسكرية مركز الهوة الرئيسية لحركة الإرهاب الدولية التى تسعى لتحقيق هدفين:

أولهما ـ إعادة بناء الخلافة الإسلامية عن طريق إقامة دولة سياسية تجمع شعوب العالم الإسلامى فى أمة واحدة توحد بين الشرق الأوسط ودول الخليج الفارسى وبين جنوب آسيا ووسطها مع أجزاء من إفريقيا.والآخر ـ هوقيام الإرهابيين بإثارة صدام الحضارات بين الإسلام وبين الغرب عن طريق تفسيرات إسلامية ترفض التعددية والحداثة. وهدف المسلحين- أوأملهم العظيم - وقوع الصدام، بين قيم الغرب وبين ما يدعى المتطرفون أنه قيم إسلامية.

هناك تصدع كبير داخل العالم الإسلامى كان موجودًا ولا يزال، يتمثل فى مواجهة عنيفة بين الطوائف والأيديولوجيات، وبين التفسيرات المختلفة لرسالة الإسلام. فالتوتر المدمر قد وضع الأخ فى مواجهة أخيه. إنه قتل الإخوة التى أصاب العلاقات الداخلية للمسلمين على مدى ألف وثلاثمائة عام. لقد قضى هذا الصراع الطائفى على بريق الحضارة الإسلامية التى تلألأت أضواؤها إبان عصور الظلام الأوروبية فى القرون الوسطى. لقد صار هذا الصراع الطائفى العنيف والواضح بصورة أشد وضوحًا فى العراق حربا أهلية تمزق العراق الحديث إربًا وتمارس وحشيتها فى أجزاء أخرى من العالم وخاصة فى أجزاء من باكستان.

وعن أبعاد الطائفية وآثارها المدمرة تقول بوتو:

لقد تفشت الطائفية فى العالم الإسلامى، واشتد الغليان داخله. فقد صاغ المتطرفون عقيدة دينية متعسفة لتبرير ما يسمونه بالجهاد ضد الغرب. فالهجوم الذى وقع فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بشر طليعة الحالمين بالخلافة بالمواجهة الدموية، أى بالحرب الصليبية النقيض. وبينما كانت صورة البرجين المحترقين تتراءى على شاشات التليفزيون فى العالم كله. فإن الهجوم تم استقباله فى العالم الإسلامى بطريقتين على نحو يائس.

فكثير من المسلمين إن لم يكن معظمهم شعروا بالفزع والحيرة عندما اتضح لهم أن هذا الهجوم الأفظع فى التاريخ كله قد قام به مسلمون باسم الله وباسم الجهاد. لكن كان هناك رد فعل آخر مزعج ومثير للقلق. فقد قام بعض الناس بالرقص فى شوارع فلسطين.

وفى باكستان وبنجلاديش راحوا يتبادلون الحلوى. وفى أكبر بلد إسلامى وهو إندونيسيا خفتت أصوات الإدانة. إن خاطفى الطائرات الانتحاريين كانوا يلمسون عصب العجز فى هذه الأمة. فالبرجان المحترقان كانا يمثلان للبعض قوة إسلامية متمردة، واسترداد لحق إسلامى، أى إعادة سداد لثمن الهيمنة الغربية. وبالنسبة للبعض الآخر كان هذا بمثابة ظهور دينى وما زالت فى مفهوم الآخرين هى عملية إثبات سياسى وثقافى ودينى. عن مواقف النفاق والازدواجية فى الدول الإسلامية تقول السيدة بناظير:

قرابة بليون مسلم فى العالم كانوا متحدين ضد الحرب فى العراق، ويدينون عمليات قتل المسلمين عن طريق التدخل الأمريكى الذى حدث دون موافقة الأمم المتحدة. لكن لا يوجد إلا قليل من الغضب ضد الحرب الأهلية التى تقوم بها الطوائف التى تتسبب فى قتل أعداد أكثر كثيرًا من الناس. فالزعماء المسلمون والجماهير، وحتى طبقة المثقفين يجدون راحة فى نقد القوات الأجنبية التى تقتل المسلمين، أما عندما يقع العدوان من مسلم على مسلم فلا نجد إلا الصمت المميت.

وبناظير ترفض هذا النوع من النقد الذى يدل على ازدواجية المعايير وهنا تكشف بوتوأن هذه الازدواجية ليست وقفًا على الغرب الذى نتهمه بها ليل نهار. وتؤكد أن هذا الموقف غير مريح وغير صحيح من الناحية السياسية ثم تشير بوتو إلى محنة شعب دارفوركمثال يفضح هذا النفاق السياسى وتقول: «وحتى بالنظر إلى دارفور حيث تجرى عملية إبادة جماعية (أى تطهير عرقى تقوم به دولة مسلمة) ضد شعب مسلم، نجد غيابًا واضحًا جدًا لمواقف الاحتجاج، وغيابًا للتغطية الإعلامية الواسعة فى تليفزيونات العالم العربى وفى جنوب شرق آسيا.

كذلك تشير السيدة بوتو إلى المعلومات الواردة من مراكز الأبحاث الغربية، والتى تؤكد على وجود ازدراء وكراهية متزايدة للغرب ولأمريكا بصفة خاصة فى المجتمعات الإسلامية من تركيا حتى باكستان. وتؤخذ الحرب فى العراق على أنها سبب، والوضع فى فلسطين على أنه سبب آخر وكذلك ما يسمونه الجدب الروحى الذى أصاب قيم الثقافة الغربية. وهكذا يسهل علينا أن نلوم الآخرين دون أن نقبل بمسئوليتنا.

ولا تنسى الكاتبة آثار العوامل الخارجية وخصوصًا تجربة الاستعمار التى تركت أثرها الكبير على الحالة النفسية للمسلمين. «لقد تأثرت نظرة المسلمين اتجاه أنفسهم واتجاه الغرب نتيجة لسنوات الاستعمار، واستغلال مواردهم ومحاولات القمع السياسى. ولا يشك أحد فى أن سجل الاستعمار فى معظم البلاد الإسلامية سجل غير جميل. لكن ما فعله الأجانب فى الماضى لايصلح سببًا لتبرير نوعية الحياة التى يحياها المسلمون الآن. فموقف الإدانة يتراوح بين الاندفاع والتهدئة اتجاه الأجانب والمستعمرين، وفى المقابل لانجد فى العالم الإسلامى أية رغبة للنظر إلى داخلنا وتشخيص العلة للتعرف على مكان الخطأ فى مسيرتنا الذاتية».

ثم تنعى موقف التباهى الإسلامى بالقيم السلبية فتقول: ليس من المقبول ولكنه أمر ضرورى فى أى حوار ثقافى جاد أن نشير إلى أن التفاخر القومى الإسلامى قلما يصدر عن تفوق فى القدرة الإنتاجية فى الاقتصاد أوعن تجديد تكنولوجى أوإبداع ثقافى. لقد كانت هذه العوامل جزءًا من ماضى الفرس والمغول والترك ولكنها ليست جزءًا من حاضر المسلمين اليوم. ونحن نرى الآن أن التفاخرالإسلامى يتشخص فى النواحى السلبية، الصادرة عن أفكار يتباهى بها البعض مثل «تدمير العدو» و«تحصين الأمة ضد عدوان الغرب» ومثل هذه البلاغة السامة تهيئ المسرح لصدام الحضارات بين الإسلام والغرب. وهى أيضا كمخدر يجعل المسلمين فى حالة غضب مستمر ضد الأعداء الخارجيين دون أن يتيح لهم أى قدر من الاهتمام بالأسباب الداخلية للتدهور الثقافى والاقتصادى. إن الواقع وكذلك الأمانة العقلية تفرض علينا أن ننظر إلى وجهى العملة.

لقد أصبح البرجان المحترقان رمزًا مزدوجًا لمعركتين تجريان فى داخل العالم الإسلامى حول القيم السياسية والاجتماعية للديموقراطية والحداثة، وحول القدرة الرهيبة على الوصول إلى ذروة المأساة فى الصراع بين الإسلام والغرب. وبالنسبة لهاتين المعركتين أصبح وطنى باكستان مركز الهزة أوقاعدة الانطلاق فى اتجاه التصالح أوالنكبة.

عندما قامت عناصر القاعدة بخطف الطائرات لمهاجمة الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فقد حاولت أيضا خطف رسالة الإسلام.وبهذا العمل فإنها قد أشعلت

المعركة الكبرى فى الألفية الجديدة (والتى يسميها البعض حربًا كونية). إن قتل ما يقرب من ثلاثة آلاف إنسان برىء باسم الجهاد لا يتناقض فقط مع قيم العالم المتمدين وإنما يتناقض أيضا مع مفاهيم الإسلام. لقد استغل الإرهابيون صور الهمجية والوحشية من أجل تحقيق هدف سياسى كما فعل الدياجيون حين استخدموا الإسلام كوسيلة للحصول على منفعة سياسية.

فالذين يحرفون الإسلام بارتكاب الجرائم ضد الأبرياء قد استمروا فى حربهم ضد الحضارة منذ أن شنوا هجومهم على أمريكا. فقد شنوا الهجمات فى مدريد ولندن وفى الرياض وبالى. كذلك قام المتعصبون بالهجوم علىَّ وعلى شعبى فى ١٩ أكتوبر ٢٠٠٧ فى كراتشى، وصبغوا شوارع مدينتى بدماء ١٧٩ شهيدًا للديموقراطية. كان معظمهم من مؤيدى حزب الشعب الباكستانى ومن رجال أمن الحزب الذين ضحوا بأرواحهم من أجل حمايتى.

ومرتكبو هذه الجرائم ضد الإنسانية هم الذين يصفهم القرآن بصفة «الذين ينحرفون عن طريق الحق.» هناك الذين يحتقرون الديموقراطية وحقوق الإنسان محتجين بأنها قيم غربية لا تتفق مع الإسلام.هؤلاء هم الذين ينكرون حقوق الفتيات فى التعليم ويمارسون التمييز ضد المرأة وضد الأقليات، ويسخرون من الثقافات والديانات الأخرى، ويطنطنون بالكلام الأجوف ضد العلم والتكنولوجيا. ويؤيدون النظم الشمولية الوحشية من أجل فرض أفكارهم المتخلفة التى تنتمى إلى العصور الوسطى المظلمة.وهؤلاء ليس لهم علاقة شرعية بالإسلام.

فالمعركة التى تجرى من أجل كسب عقول المسلمين وأرواحهم هى معركة بين دعاة الحداثة وبين المتعصبين، بين الديموقراطية والدكتاتورية، بين أولئك الذين يعيشون فى الماضى وبين الذين ينتمون إلى الحاضر ويخططون من أجل بناء مستقبل أفضل. وفى تسوية هذا الصراع يتحدد اتجاه السلام فى القرن الواحد والعشرين. لأنه لونجح هؤلاء المتعصبون والمتطرفون فسوف تحدث فتنة كبرى قد تكتسح العالم كله وتحدث الفوضى. وهنا يوجد هدفهم النهائى.

قلة من المسلمين المؤمنين بالعنف كانوا من الذين ارتبطوا بالجهاد الأفغانى فى الثمانينات ضد الاحتلال السوفيتى لأفغانستان يؤمنون أنهم قد انتصروا على إحدى القوى الكبرى وبإمكانهم أن يهزموا القوة الأخرى. إنهم يخططون لتحريك جيش «مقدس» عدوانى لكى يحارب الغرب فى أفغانستان أوفى أجزاء أخرى من باكستان عن طريق الهجمات الإرهابية ضد المسلمين وغير المسلمين من المدنيين، وهم يزعمون أن هذه الهجمات هى التى سوف تحرر المسلمين من نير الانحطاط وهيمنة الغرب.

وهنا تتوقف بناظير بوتولتناقش مفهوم الجهاد الذى تقول إنه قد أسيئ فهمه من البعض وتشير إلى مصادر الفكر الإرهابى التى يرجع إليها المتطرفون. وتبدأ بالحديث عن إمام العصور الوسطى أحمد بن تيمية الذى دعا إلى العودة إلى تقاليد المجتمع الإسلامى كما كانت فى المدينة. ووضع خطا فاصلا بين المسلمين وبين الكفرة وأكد على أن للمواطنين المسلمين الحق، بل الواجب عليهم أن يعلنوا الثورة عليهم (أى على غير المسلمين) وأن يشنوا عليهم الجهاد ثم تقول إن خطابه يتناقله كثير من مجموعات العنف السياسى مثل خالد الإسلامبولى (قاتل الرئيس أنور السادات) وبن لادن رئيس جماعة القاعدة. أنهم يضعون حدًّا فاصلا بين الصواب وغير الصواب، والذين لايؤمنون بفكرهم هم الكفرة. وهكذا أصبحت الحرب ضد الكفرة مسألة مبررة فى نظرهم.

أما المودودى مؤسس الجماعات الإسلامية فى جنوب آسيا، فقد كان يؤمن بأن الهوية الإسلامية أصبحت عرضة للتهديد بسبب ظهور القومية فى جنوب آسيا فى النصف الأول من القرن العشرين. ونظر إلى القومية على أنها أيديولوجية غربية واحدية الجانب مفروضة على المسلمين بغرض إضعاف المجتمع وتقسيمه باستبدال المجتمع العالمى المسلم بقوميات فردية تقوم على أساس اللغة والعرق والموطن. فهويرى أن المسلمين كحزب دولى منظم لتنفيذ برنامج إسلامى ثورى وأن الجهاد كمصطللح يدل على أعلى درجات الصراع لإحداث الثورة الإسلامية.

وفى رأى بوتوأن سيد قطب كان واحدًا من أقوى العوامل الثقافية وراء التطرف الإسلامى. وهوناشط إسلامى من أبناء القرن العشرين ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين، استخدم مصطلح «الجاهلية» (وهوتعبير ورد فى القرآن لوصف عالم ما قبل

الإسلام) استخدمه لوصف العالم الحديث. فقد شعر بالاشمئزاز من ثقافة الغرب ومن الحكومات الدكتاتورية فى بلاد الإسلام. ورأى أن الغرب هوالعدوالتاريخى للإسلام وأن النخبة الحاكمة فى العالم الإسلامى هى نخبة فاسدة. واعتقد سيد قطب بأن أى إصلاح فى نطاق الأوضاع القائمة سوف يكون محدود الأثروبدلا من ذلك دعا إلى الجهاد العنيف بصورته العدوانية باعتباره الطريق الوحيد لفرض آرائه وإقامة مجتمع إسلامى عالمى.

هؤلاء الرجعيون الثلاثة يمثلون نمطًا من الفكرالشائع حاليًا فى أجزاء من العالم الإسلامى.وهى ترى أن القرآن لايؤيد تعاليمهم الرجعية. فهم يقدمون البنية الثقافية الأساسية للإرهابيين ولكنهم يمثلون دارًا للمقامرة الزائفة وقلب لمنطق الأشياء.

أما برنامج المصالحة التى تتطرحه بناظير بوتوفتشرحه كالأتى:

«للحيلولة دون وقوع صدام الحضارات، بمنطق العالم الاسلامى على الأقل،يلزمنا أن نضع ثقتنا فى إمكانية التبادل التجارى والتكنولوجى،وفى التعليم وفى القيم الديموقراطية لتسريع العملية التى تمكن المجتمعات الإسلامية من بناء علاقات ثقة مع المجتمعات الغربية.وباستبعاد المواجهة يمكن لنا أن نتعلم قيم التسامح ونتقبل قيم الحضارات الأخرى. ليس عن طريق العزلة وإنما عن طريق العلاقات المتبادلة يمكن للعالم كله أن يعيش فى أمن وسلام.وعن طريق زيادة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتطور الديموقراطى، يمكن للغرب والشرق حماية القيم الإنسانية المشتركة.

وأخيرًا، فإننا لكى نفهم الحضارات المختلفة يلزمنا أن نفهم جوانب القصور التى يمكن أن تدفع إلى الصدام.فنحن نتعامل ليس مع صدام حضارات، بل نتعامل فقط مع صراع واحد يشتعل داخل حضارة واحدة. إن أشد المعارك تأزمًا هى المعركة التى تستهدف قلوب وأرواح الأجيال القادمة من قيادات المسلمين فى كل أنحاء العالم، وليست المعركة مع الغرب. فالمناظرة تجرى داخل العالم الإسلامى بين رؤى مختلفة لمفهوم الأمة الإسلامية وبين تفسيرات مختلفة للإسلام، وحول انعدام التسامح من بعض المفسرين اتجاه التفسيرات الأخرى، سواء فى داخل الإسلام أوخارجه مع الديانات الأخرى.

وسوف يكون التسامح هو العامل الحاسم فى الصراع بين قوى التطرف والاعتدال وبين قوى الديموقراطية والدكتاتورية. بين التعصب والتعليم وبين التعددية والانغلاق، بين حق المساواة للجنسين وبين الخضوع. بين السلفية المتصلبة وبين الحداثة المرنة. وبتعبير آخر، فإن الصدام الحقيقى داخل الإسلام وخارجه هو معركة بين الماضى والحاضر. وحسم هذه المعركة سوف يحدد اتجاه العلاقات ليس فقط بين الإسلام والغرب بل سوف يحدد اتجاه العلاقات الدولية فى هذا القرن. ونحن أحوج ما نكون للتحرك نحو مصالحة حقيقية حتى نتمكن من كسر قيود الفقر والتخلف والخروج من دوائر التطرف والدكتاتورية والإرهاب».

١٩ - بيرل باك...وفن الرواية الصينية

روائية أمريكية اشتهرت بكتاباتها عن الصين وخصوصا رواية «الأرض الطيبة» التى حققت شهرة عالمية وحصلت بسببها على جائزة بوليتزر ثم جائزة نوبل عام ١٩٣٨.

ولدت بيرل باك PEARl SYDENSTRICKER BUCK فى ٢٦ يونيه ١٨٩٢، فى هيلز بورو، فى غرب فرجينيا، وكان والداها، أبشالوم وكارولين أعضاء فى بعثات التبشير التابعة للكنيسة المشيخية المستقرة فى الصين.وكان ترتيبها الطفل الرابع فى الأسرة، ولدت حين كان والداها على وشك انتهاء منحة دراسية فى الولايات المتحدة، وأخذت إلى الصين وعمرها ثلاثة شهور لتقضى معظم الأربعين سنة الأولى من حياتها هناك.

عاشت العائلة فى شينكيانج وهى مدينة صغيرة تقع عند ملتقى نهر يانجتسى والقنال العظيم.كان والدها كثير التجوال فى ريف الصين للتبشير برسالة المسيح أما والدتها فكانت تقوم بخدمة العديد من الصينيات عن طريق صيدلية صغيرة أقامتها بنفسها.

ومنذ طفولتها، تتكلم بيرل باك الإنجليزية والصينية، تعلمت الأولى عن أمها وتعلمت الصينية عن طريق معلم صينى هو، ميتر كونج. وفى ١٩٠٠، اضطرت كارولين وأطفالها أثناء انتفاضة البوكسر Boxer Uprising أن يتم إخلاؤهم إلى شنجهاى، حيث

قضوا عدة شهور فى حالة قلق شديد ينتظرون أن يسمعوا كلمة واحدة عن مصير الوالد. وبعد ذلك عادوا إلى الولايات المتحدة لقضاء إجازة فى الوطن.

فى سنة ١٩١٠، التحقت بيرل باك بكلية راندولف للبنات فى فرجينيا التى تخرجت فيها فى ١٩١٤، وكانت نيتها أن تبقى فى أمريكا إلا أنها لم تلبث أن عادت إلى الصين بمجرد أن سمعت أن أمها فى حالة مرضية شديدة. وفى ١٩١٥ تقابلت مع أحد خريجى جامعة كورنول، وهو مهندس متخصص فى الاقتصاد الزراعى اسمه جون لوزينج باك، الذى حملت اسمه فيما بعد• وتم الزواج فى ١٩١٧، وانتقلا إلى نانشوش فى مقاطعة إنهيوى. فى هذا المجتمع الريفى.الذى يعانى شدة الفقر جمعت بيرل باك المادة التى استخدمتها فيما بعد فى كتابة رواية «الأرض الطيبة» وقصصها الأخرى عن الصين.

وفى ١٩٢١ ولدت طفلتها الأولى، كارول، مصابة بتخلف عقلى شديد. ثم أجريت لبيرل عملية جراحية لإزالة ورم تم اكتشافه فى عنق الرحم أثناء عملية الولادة. فى عام ١٩٢٥ تبنت هى وزوجها طفلة صينية اسمها، جانيس، ومن الواضح أن زواجهما كان منذ البداية تقريبًا غير سعيد، لكنه استمر ثمانى عشرة سنة.

من ١٩٢٠ إلى ٣٣، أقامت بيرل وزوجها فى كامبوس جامعة نانكينج حيث حصل كل منهما على وظيفة فى هيئة التدريس هناك، و١٩٢١ ماتت والدتها وبعد وقت قصيرانتقل والدها للعيش معهما. وبلغت المآسى والتنقلات ذروتها، وفى مارس ١٩٢٧، تصاعد العنف،فيماعرف باسم «حادثة نانكينج».فى معركة مضطربة بين قوات شيانج كاى شيك الوطنية، وقوات شيوعية قتل فيها ملاك الأراضى المصنفين والعديد من الغربيين.. فى ذلك الوقت العصيب قضت عائلة بيرل يومًا مرعبًا فى مخبأ وبعد ذلك تم إنقاذهم عن طريق قارب مسلح أمريكانى. وبعد رحلة نهرية إلى شينجهاى، أبحرت الأسرة إلى أنزين Unzen فى اليابان، حيث قضوا العام التالى هناك.لكنهم عادوا إلى نانكينج رغم أن الأحوال كانت لاتزال غير مستقرة بدرجة خطيرة. وظلت فى الصين حتى ١٩٣٤ باستثناء عام قضته فى جامعة كورنوول حيث حصلت على الماجستيرفى الآداب ١٩٢٦.

فى العشرينيات بدأت بيرل تنشر قصصها فى بعض المجلات مثل The،Nation
Chinese Recorder،Asia and Atlantic Monthly أول رواية كانت، «ريح الشرق وريح الغرب».

EastWind،WestWind التى نشرتها شركة جون داى ١٩٣٠، وقد أصبح ريتشارد وولش، ناشر شركة جون داى هوالزوج الثانى لبيرل ١٩٣٥ بعد طلاقها.عن طريقه نشرت رواية «الأرض الطيبة» ١٩٣١، وظلت من أروج الكتب طيلة عامى ١٩٣١، ١٩٣٢، وحصلت على جائزة بولايتزر وميدالية هاولز فى ١٩٣٥، وتم إعدادها كفيلم أنتجته شركة متروجولدن ماير١٩٢٧. وأعقب ذلك عدد من الروايات مثل «الأبناء» ١٩٣٢، ثم رواية «بيت منقسم» ١٩٣٥وكلهم يشكلون مع «الأرض الطيبة» ثلاثية حول عائلة وانج. بالإضافة إلى - «كل الرجال إخوة» (وهى ترجمة للرواية الصينية «شوى هوشوان» ١٩٣٣)، فى وروارية بيوجرافية لسيرة حياة أبيها وأمها، ثم «المنفى والملاك المقاتل». نشرت فى ١٩٣٦ وفيها بعد تم إخراجهما معًا تحت عنوان «الروح والجسد» ١٩٤٤، و«الوقت هو الآن» سرد روائى لتجارب المؤلفة العاطفية رغم إنها كتبت فى وقت مبكر جدًا فإنها لم تنشر إلا فى ١٩٦٧.. وفى سنة ١٩٣٨ حصلت بيرل باك على جائزة نوبل فى الآداب، أقل من عشرين عامًا بعد ظهور كتابها الأول.

رواياتها وكتاباتها غير الروائية فى تناول عملية المواجهة بين الشرق والغرب. وامتد اهتمامها حتى الهند وكوريا. ودفعها اهتمامها بالتبادل بين الشرق والغرب إلى بعض الأنشطة فى الصحافة والسياسة.

بسبب الأحوال فى الصين، وأيضا لتكون بجوار زوجها ريتشارد وولش وابنتها كارول التى أودعتها فى مؤسسة رعاية فى نيوجيرسى،عادت بيرل باك إلى الولايات المتحدة. واشترت بيتًا ريفيًا، جرين هيلز فارم، فى مقاطعة باك، بينسيلفانيا، وهواليوم عبارة عن معلم تاريخى وطنى. قامت هى وزوجها وولش بتبنى ستة أطفال على مدى السنوات التالية ومنذ عودتها إلى الولايات المتحدة، وهى تعمل بنشاط جم فى مجال الحقوق المدنية وحقوق المرأة. ونشرت كثيرًا من المقالات عن هذه الأزمات. وفى ١٩٤٢أسست هى وريتشارد جمعية الشرق والغرب، المكرسة للتبادل الثقافى والتفاهم

بين الشرق والغرب. ونتيجة لفزعها من معاداة البعض لفكرة تبنى الآسيويين، أقامت بيرل باك وكالة تخصصت فى تبنى الأطفال الآسيويين وذوى الجنسيات المختلطة باسم

(Welcome house Inc) وهى أول مؤسسة دولية لتبنى الأطفال متعددى الجنسيات فى الخمسين سنة الأولى من حياتها. وقد قامت هذه المؤسسة بمساعدة ستة آلاف طفل فى تعيينهم فى وظائف وأعمال ملائمة.

وفى سنة ١٩٦٤، لكى تقدم دعما للأطفال غير المؤهلين للتبنى، أنشأت مؤسسة بيرل باك، التى تقوم بتقديم التمويل اللازم لرعاية آلاف الأطفال فى ستة دول إفريقية. فى سنة ١٩٩١ اتحدت المؤسستان فى منظمة واحدة باسم بير ل باك الدولية.

توفت بيرل باك فى مارس ١٩٧٣، قبل شهرين من عيد ميلادها الثمانين، ودفنت فى جرين هيلز فارم.

وقد استوقفنى وشد انتباهى ماكتبته عن الرواية الصينية عن بداياتها وتطورها وهو شىء طريف ربما لم نقرأ عنه من قبل فى لغتنا العربية.

وقد جاء ذلك فى الخطاب الذى ألقته فى الاحتفال بتسلمها جائزة نوبل فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٨، حيث قالت.

حين أخذت أفكر فيما ينبغى على أن أقول اليوم ظهر لى أنه قد يكون من الخطأ ألا أتكلم عن الصين. ورغم ذلك فهذا حقيقى لأننى أمريكية بالمولد وبالجدود ورغم أننى أعيش الآن وسوف أعيش هناك، حيث أنتمى. لكنها الرواية الصينية وليست الأمريكية هى التى شكلت نشاطى فى ميدان الكتابة. إن معرفتى الأولية بالقصة، بكيفية الحكى أوكتابة القصص، جاءتنى فى الصين. وسوف يكون من الغرور أن أتكلم أمامكم عن موضوع القصة الصينية لسبب شخصى تمامًا. بل هناك سبب آخر يجعلنى أحس بأننى ربما أكون على حق فى فعل ذلك. هو أننى أعتقد أن الرواية الصينية قد ألقت بأضوائها على الرواية الغربية وعلى الروائيين الغربيين.

وعندما أقول الرواية الصينية فأعنى الرواية الوطنية (المحلية) الصينية، وليست هذا المنتج الهجين، الذى يكتبه الكتاب الصينيون المحدثون الذين خضعوا بشدة للمؤثرات الأجنبية وهم يجهلون تمامًا ثروات وطنهم الأم.

لم تكن الرواية فى الصين فنًا ولم يعترف بهذا أبدًا. ولم يفكر أحد من الروائيين الصينين فى نفسه أنه فنان • فالرواية الصينية تاريخها، مجالها، مكانتها فى حياة الشعب حيوية جدًا، يجب أن نراها فى ضوء هذه الحقيقة القوية الوحيدة. إنها حقيقة لا شك أنها غريبة بالنسبة لكم، حقيقة ترافق الباحث الغربى الحديث Modern Schlolar الذى يعترف بهذه الرواية بدافع الكرم الوفير.

لكن فى الصين كان الفن والرواية منفصلان عن بعضهما انفصالا بعيدًا. هناك، كان الأدب كفن هوملكية خاصة للإسكولائيين Scholars هوفن يصفونه ويصنعونه لبعضهم البعض طبقًا لقواعد خاصة بهم، ولم يجدوا فيه مكانًا للرواية، واحتل هؤلاء الإسكولائيون مكانة قوية فالفلسفة والدين والرسائل والأدب، امتلكوها جميعًا، بحكم قواعد كلاسيكية متعسفة، لأنهم هم فقط الذين يمتلكون قواعد المعرفة، لأنهم هم فقط الذين يعرفون كيف يقرءون ويكتبون. لقد بلغوا من القوة درجة تكفى لأن تخيف الأباطرة، ومن ثم رسم لهم الأباطرة طريقة تستعبدهم عن طريق تعليمهم، وجعلوا الامتحانات الرسمية هى الوسيلة الوحيدة للتقدم السياسى، وهى امتحانات صعبة بصورة لا تصدق وهى كفيلة باستهلاك عمر الإنسان كله فى الاستعداد لها، تشغله بالحفظ والنسخ للماضى الكلاسيكى الميت، حتى يمكنه أن يرى الحاضر ويرى ما فيه من أخطاء. وفى هذا الماضى اكتشف الإسكولائيون قواعد الفن الخاص بهم، لكن الرواية لم تكن موجودة هناك، فلم يرونها تخلق أمام أعينهم؛ لأن أفراد الشعب هم الذين يخلقون الرواية، وما يصنعه الأحياء من الناس لا يثير اهتمام أولئك الذين يفكرون فى الأدب كفن. فإذا تجاهل الإسكولائيون الشعب، فسوف يضحك الشعب بدوره عليهم. وقد صنعوا نكتًا عديدة عنهم.

أصبحت طبقة الإسكولائيين كشخصية أدبية مصدر فكاهة الشعب الصينى. وأصبح وجود هذه الشخصية متكررًا فى رواياتهم، وهودائما هونفس الشخصية، كما هوفى الحياة حقيقة، لأن طول دراسة الكلاسيكيات الميتة ذاتها وتكويناتها الشكلية جعلت كل الإسكولائيين الصينيين يشبهون بعضهم بعضًا، كما أنهم يفكرون تفكيرًا متشابهًا. ليس لدينا طبقة مماثلة فى الغرب-ربما أفراد فقط، لكنه فى الصين هم طبقة. وهذه الشخصية

كما يصفونه هنا عبارة عن،أحد مصنفي حروف الطباعة كما يراه الناس. جسد صغير مكرمش له جبهة مستديرة بارزة، وفم مضموم (Pursed) وأنفه أفطس ومدبب فى نفس الوقت. عيناه صغيرتان لا يظهران خلف النظارة، صوته مرتفع متغطرس، يعلن دائما عن قواعد لا تهم أحد غيره. غروره لا حدود له. احتقار كامل ليس فقط لعامة الناس، بل لأمثاله من الإسكولائيين الآخرين جميعًا، شخص يرتدى ملابس كالحة اللون ممزقة، يمشى يتأرجح فى كبرياء، لوقدر له أن يتحرك. لا يمكن رؤيته إلا فى الاجتماعات الأدبية، لأنه يقضى معظم الوقت يقرأ فى أدب ميت ويحاول أن يكتب مثله. فهويكره أى شىء جديد وأصيل، لأنه لا يستطيع أن يصنفه ضمن الأساليب التى عرفها. فإذا كان لا يستطيع أن يصنفه فهوشىء غيرعظيم، وهوواثق أنه هوفقط على صواب إذا قال «هنا فن» فهومتأكد أن هذا غير موجود. ولأنه لا يستطيع أن يدرج الرواية ضمن ما يسميه هو أدبًا، لذلك فبالنسبة إليه الرواية غير موجودة كأدب.

باوهاى، واحد من أعظم نقّاد الأدب الصينى، فى ١٧٧٦ عدد أنواع الكتابة التى تكون الأدب الصينى كله،على النحوالتالى: مقالات، تعليقات حكومية، تراجم شخصية، كتابات تأبين أومكتوبات على القبور، حكم مأثورة، شعر، خطابات مديح جنائزية، وتواريخ. لا ذكر للرواية، كما نرى، رغم أن الرواية فى ذلك الوقت كانت قد وصلت فعلا إلى أوج عظمتها، بعد قرون من التطور بين عامة الشعب الصينى حتى الأنسكلوميديا التى كتبت بأمر الامبراطور العظيم شيان لانج فى ١٧٧٢ كتجميع للأدب الصينى باسم Ssu Ku Chuen Shu لم تضم الرواية بين جنباتها كأدب معترف به.

كان ذلك من حسن حظ الرواية، إنها لم تعتبر أدبًا عند الإسكولائيين ٠ومن حسن حظ الروائى أيضا ! الإنسان والكتاب، أن كانا متحررين من نقد هؤلاء الباحثين ومطالبهم الفنية، وأساليب التعبير، وحديثهم عن المعانى الأدبية وكل مناقشتهم عن ما الفن وما اللافن ؟ كما لوكان الفن شيئًا مطلقًا وليس هوالشىء المتغير، الذى يتبدل عبر العصور. كانت الرواية حرة، نمت حسبما شاءت فى تربتها الخاصة، عند عامة الشعب. تتغذى بأشعة الشمس الحنونة، القبول الشعبى، دون أن تمسسها رياح فن الإسكولائيين

الجليدية الباردة. لقد كتبت الشاعرة الأمريكية إميلى ديكنسون ذات مرة، «الشمس بيت مسكون، لكن الأدب بيت يبحث عن ساكنيه «قالت»، الطبيعة..

هى ما نراه،

الطبيعة هى ما نعرفه

لكننا لا نملك فن القول –

كم تشتاق حكمتنا

لبساطتها.

لا، حتى لو عرف الإسكولائيون الصينيون بنمو الرواية، فذلك فقط لكى يتجاهلوها فى زهو شديد واض. ولسوء الحظ، فإنهم يجدون أنفسهم أحيانا، يكتبون ملاحظات لأن بعض الأباطرة الشباب وجد أن قراءة الروايات شىء ممتع. ثم أن هؤلاء الإسكولائيين المساكين يجدون صعوبة فى القبول بذلك• لكنهم يكتشفون عبارة «المغزى الاجتماعى»، فيأخذون فى كتابة الأبحاث الطويلة حول هذه العبارة لكى يثبتوا أن الرواية ليست رواية بل سجلا له أهمية اجتماعية. فالمغزى الاجتماعى اصطلاح تم اكتشافه حديثًا بواسطة الشباب نساء ورجالا فى الولايات المتحدة. لكن شيوخ أولئك الإسكولائيين عرفوه منذ ألف عام، عندما طالبوا بأن يكون للرواية مغزى اجتماعى حتى يمكن الاعتراف بها كفن.

لكن علماء الصين الكبار عللوا الجزء الأعظم من كلامهم حول الرواية بالقول:

إن الأدب فن

كل الآداب لها مغزى اجتماعى

هذا الكتاب ليس له أهمية اجتماعية

إذن فهو ليس أدبًا.

وهكذا فإن الرواية فى الصين ليست أدبًا.

لقد تربيت فى هذه المدرسة. فنشأت وأنا أعتقد أن الرواية ليس لها أى علاقة بالأدب الخالص، لذلك تعلمت من الإسكولائيين أن فن الأدب، هكذا تعلمت منهم، هوشىء يستنبطه رجال التعليم .

فمن عقول الإسكولائيين خرجت القواعد التى تنظم تدفق العبقرية، تلك النافورة التى تجد مصدرها فى أعماق الحياة البعيدة. أكانت العبقرية عظيمة أوأقل عظمة، هى النبع، والفن هوالشكل المنحوت، كلاسيكى أوحديث،فهوالذى يجب أن تدفع فيه المياه إذا كان ولابد من خدمة الإسكولائيين والنقاد. لكن شعب الصين لا يخدمون هكذا. فإن مياه العبقرية القصصية كانت تتدفق حسبما يودون، كيفما سمحت الصخور الطبيعية، وأغرتهم الأشجار، وأن عامة الشعب فقط هم الذين جاءوا وشربوا ووجدوا الراحة والمتعة.

لأن الرواية فى الصين هى ثمرة الإنتاج الخاص بعامة الشعب. وأنها كانت ملكًا متفردًا لهم. فلغة الرواية هى لغتهم، وليست اللغة الكلاسيكية، التى كانت لغة الأدب ولغة الإسكولائيين. (وين لى) أواللغة القديمة كانت تحمل إلى حد ما نفس الشبه مع لغة الشعب كالشبه بين لغة الشاعر تشوسر واللغة الإنجليزية الآن. رغم المفارقة الكبيرة بأن اللغة القديمة كانت فى يوم من الأيام لغة دارجة Vernacular. لكن الإسكولائيين لم يتماشوا أبدًا مع لغة الشعب الحية المتغيرة. بل تشبثوا بلغة قديمة حتى يجعلونها كلاسيكية، فى الوقت الذى تسيرفيه لغة الشعب وتتقدم وتسبقهم بمراحل بعيدة. فالروايات الصينية، التى هى إذن فى «Pei Hua» أوالكلام البسيط الذى ينطق به الشعب، وهذا، بذاته، كان مؤذيا بالنسبة للإسكولائيين لأنه انتهى إلى أسلوب حافل بالتدفق والحيوية والقابلية للقراءة ويخلومن- أى تكنيك للتعبير فيه. هكذا قال الإسكولائيين (يقصد به المدرسيون).

أود أن أتوقف هنا لكى أستثنى بعض الإسكولائيين الذين جاءوا إلى الصين من الهند، يحملون معهم كهدية، ديانة جديدة هى البوذية. فى الغرب كانت البيوريتانية ـ (Puritanism) وهى مذهب المتطهرين ـ عدوًا للرواية. فى الشرق كان البوذيون أكثر حكمة. عندما جاءوا إلى الصين، وجدوا أن الأدب بعيدًا عن حياة الناس ويموت

تحت الشكليات الخاصة بتلك الفترة المعروفة فى التاريخ بعصر «الأسرات الستة» فرجال الأدب المحترفون كانوا مستغرقين كثيرًا فيما يجب أن يقولوه بخصوص مزاوجة شخصيات مقالاتهم وأشعارهم وكانوا فعلا يحتقرون كل الكتابات التى لا تتطابق مع قواعدهم. فى هذا الجوالأدبى المغلق جاء مترجموالبوذية بكنوزهم العظيمة الطليقة الروح. كان بعضهم هنودًا وكان بعضهم صينيين. فقالوا ـ بصراحة ـ إن هدفهم هوألا يتطابقوا مع الأفكار الخاصة بأسلوب الأدباء ولكن عليهم أن يوضحوا لعامة الشعب ببساطة ماذا يريدون أن يعلموه. فوضعوا تعاليمهم الدينية فى لغة العامة، أى اللغة التى تستعملها الرواية، ولأن الناس كانوا يحبون القصة، فأخذوا هم القصة وجعلوها وسيلة للتعليم.

فى مقدمة كتاب «فاه شوشينج» Fah shu Ching فهوأحد أعظم الكتب البوذية شهرة، يقول الكاتب، «عند إعطائك لكلمات الآلهة هذه الكلمات يجب أن تعطى ببساطة» قد يؤخذ هذا باعتباره المذهب الأدبى الوحيد للروائى الصينى، الذى يعنى بالنسبة إليه حقيقة، أن الآلهة هم بشر وأن البشر هم آلهة.

لأن الرواية الصينية كتبت فى صورتها الأولية لتسلية عامة الشعب. وعندما أقول للتسلية فأنا لا أعنى فقط أن تضحكهم وإن كان الضحك أيضا هوأحد أهداف الرواية الصينية • بل أعنى التسلية بمعنى الاستغراق وشغل الانتباه العقلى كله. أعنى تنوير ذلك العقل بصور الحياة وبما تعنيه هذه الحياة أعنى تشجيع الروح ليس فقط ببصمات عن الفن لكن بقصص عن الناس فى كل الأعمار، وهكذا نقدم للناس أنفسهم ببساطة. حتى البوذيين الذين جاءوا ليتحدثوا عن الآلهة وجدوا أن ذلك الشعب يفهم الآلهة بطريقة أفضل إذا وجدهم يعملون من خلال لغة شعبية عامية مثل لغته •

لكن السبب الحقيقى الذى جعل الرواية الصينية تكتب باللهجة العامية هو أن عامة الشعب لا يستطيعون القراءة والكتابة وأن الرواية لابد أن تكتب حتى حينما تقرأ بصوت عالٍ يصبح من الممكن فهمها بواسطة أشخاص يمكنهم فقط أن يتواصلوا عن طريق الكلمة المنطوقة. فى قرية بها مائتا شخص ربما واحد فقط يمكنه القراءة، وفى أيام العطلات أوالإجازات أوالأمسيات عندما ينتهى العمل يقرأ القصة للناس بصوت

مرتفع. إن ظهور القصة الصينية بدأ بهذا النمط البسيط وبعد فترة أخذ الناس حصيلة من البنسات فى الكاب أوفى كسرولة المزرعة الخاصة بالزوجة لأن القارئ يحتاج إلى شاى ليروى حنجرته، أوربما يدفع له ثمن الوقت الذى يمضيه معهم الذى لولا ذلك سوف ينفقه فى نسيج الحرير. فإذا نمت المجموعة وكبرت بدرجة كافية فإنه يتخلى عن عمله المنظم ويصبح راوية محترف للقصص. وكانت القصص التى يرويها هى بدايات للرواية لم يكن هناك قصص كثيرة مدونة، لم تكن تكفى تقريبًا؛ لأن تروى وتعاد لمدة عام لجموع الناس الذين لديهم - بحكم الطبيعة، مثل الصينيين - حب قوى للقصة الدرامية. لذلك فالراوى بدا فى زيادة بضاعته. فأخذ يبحث فى حوليات التاريخ الجافة التى كان قد كتبها الإسكولائيون وبخياله الخصب يأخذ فى إثرائها عن طريق التعريف الطويل إلى عامة الناس، فهويلبث الشخصيات الميتة منذ زمن طويل لحمًا جديدًا ويجعلهم يعيشون ثانية ؛ فقد وجد قصصًا عن حياة القصور والمكائد وأسماء محظيات الإمبراطور الذين أدوا إلى خراب الأسرة ؛ وهويرحل من قرية إلى قرية فيجد حكايات غريبة خاصة بزمنه فيقوم بكتابتها عند سماعها. كان الناس يحكون له عن تجاربهم التى عاشوها فى الماضى ويقوم هوبتدوينها أيضا من أجل أناس آخرين. وكان يزينها، لكن ليس بتحويرات وعبارات أدبية لأن الناس لم يكونوا يهتمون بهذه الأشياء. لا، كان يحافظ على مستمعيه دائما بالعقل ووجد ان الأسلوب الذى يفضلونه كان هوالأسلوب الذى يتدفق بسهولة، بوضوح وببساطة عن طريق الكلمات القصيرة التى يستخدمونها هم أنفسهم فى حياتهم اليومية، بدون أى تكنيك آخر ما عدا وقفات قصيرة من الوصف، تكفى فقط لإضفاء الحيوية على مكان أوشخص ولا تعطل سير القصة. لا شىء يجب أن يعطل سير القصة. فالقصة هى ما كانوا يريدونه.

وعندما أقول قصة، فإننى لا أعنى مجرد نشاط ليس له هدف أوفعل فقط يخلومن الإتقان،لأن الصينيين أنضج من أن يفعلوا ذلك. فقد كانوا يطلبون دائما قبل أى شىء آخر شخصيتهم الروائية. Shui Hu Chuan يعتبرونها واحدة من أعظم ثلاث روايات لديهم بداية ليس لأنها مليئة ببريق الفعل وناره، لكن لأنها تصور بدقة شديدة مائة وثمانين شخصية بحيث تبدوكل واحدة من هذه الشخصيات منفصلة عن الأخرى.

لقد قلت مرارًا إننى سمعتهم يقولون إن الرواية هى أنغام المتعة، (عندما يبدأ واحد من المائة وثمانين فى الحديث، فإننا لا نحتاج إلى من يدلنا على اسمه. فعن طريق الكلمات التى تخرج من فمه نعرف من هو) فحيوية تصوير الشخصية ـ إذن ـ هى الصفة الأولى التى يطلبها الصينيون من الرواية، وبعدها فإن مثل هذا التصوير سوف يكون هوبأفعال الشخصية ذاتها وكلماتها وليس بشرح المؤلف.

ومن الغريب جدًا، أنه بينما كانت الرواية هكذا تبدأ بدايتها المتواضعة فى محلات شرب الشاى، فى القرى وفى الشوارع المنعزلة خارجة من طيات القصص التى تحكى لعامة الناس بواسطة شخص عامى غير متعلم يقف بينهم، فى القصور الإمبراطورية كانت تبدأ أيضا، بنفس النموذج غير المتعلم. كان من العادات القديمة للأباطرة، خصوصًا إذا كانت أسرة الإمبراطور غريبة، أن يوظفوا أشخاصًا يسمونهم «الآذان الإمبراطورية»، وكان واجبهم الوحيد هوأن يتحركوا ذهابا وإيابا بين الناس فى شوارع المدن والقرى وأن يجلسوا بينهم فى محلات تعاطى الشاى، متخفين فى ملابس عادية ينصتون لما يقال حولهم. كان الغرض الأصيل من هذا ـ طبعًا ـ هو أن يسمعوا إذا كان هناك سخط بين الناس أوبين رعايا الإمبراطور، وبالأخص أن يكتشفوا إذا كانت مشاعر السخط فى تزايد نحو تشكيل حالات تمرد مثل تلك التى كانت تسبق سقوط كل أسرة حاكمة.

لكن الأباطرة كانوا بشرًا ولم يكونوا ـ فى أغلب الأحيان ـ باحثين متعلمين ففى أغلب الأحوال كانوا رجالًا مفسدين ويتميزون بالعناد «فآذان الإمبراطورية» كانت تسمع أحيانا أنواعًا من القصص الغريبة والممتعة، ووجدوا أن سادتهم يهتمون جدًا بهذه القصص أكثر من اهتمامهم بالسياسة. لذلك عندما كانوا يرجعون لتقديم تقاريرهم كانوا يمتدحون الإمبراطور ويبحثون عن الأمور التى تحظى برضاه فيخبروه بما يجب أن يسمع، لأنه يعيش فى مدينة مغلقة هى المدينة الحصينة

Forbidden City، بعيدًا عن الحياة. يحكون له الأشياء الغريبة والمسلية التى يقوم بها عامة الناس، الذين كانوا يتمتعون بحريتهم وبعد لحظات يأخذون فى تدوين ما كانوا يسمعونه ليحفظوه فى الذاكرة، وأنا لا أشك إذا كان الرسل بين الإمبراطور والشعب

يحملون القصص فى اتجاه واحد، فإنهم كانوا يحملونها فى الاتجاه الآخر أيضا، فقد كانوا يحكون للناس قصصًا حول الإمبراطور وما يقوله وما يفعله، وكيف تشاجر مع الإمبراطورة التى لم تلد له أبناء، وكيف أنها دبرت مكيدة مع رئيس الخصيان لكى تقتل المحظية المحبوبة بأن يضع لها السم. كل هذا كان مصدرًا لإمتاع الصينيين لأنه يبرهن لهم، وهم أعظم شعوب العالم ديموقراطية، أن إمبراطورهم ما هو إلا إنسان عادى مثلهم وهو أيضا له متاعبه، رغم أنه ابن السماء Son of Heaven. هكذا بدا هناك مصدر مهم من مصادر الرواية الذى تطور بهذا الشكل وبهذه القوة وإن كان لا يزال يواجه إنكار حقه فى الحياة من جانب رجال الأدب المحترفين.

من هذه الروايات المتواضعة والمتناثرة ـ إذن ـ جاءت الرواية الصينية مكتوبة دائما باللهجة الدارجة، وتتناول كل ما يسلى الناس من قصص البطولة والأساطير مع قصص الحب والمكائد مع العصابات والحروب بكل شىء فى الحقيقة الذى كان مستمرًا فى تشكيل حياة الناس بين الارتفاع والهبوط.

لم تتشكل الرواية فى الصين كما حدث فى الغرب عن طريق قلة من الأشخاص. ففى الصين كانت الرواية دائما أكثر أهمية من الروائى فلم يكن هناك مؤلفون مثل ديفوصينى Defoe ولا Fielding صينى، أوسموليت Smollett، لا أوستن ولا برونتى ولا ديكنز ولا أيضا بلزاك أوفلوبير. لكن كان هناك وما زال روايات عظيمة كالروايات فى أى قطر آخر فى العالم، بدرجة عظيمة بقدر ما يستطيع الإنسان أن يكتب. لو أنه كان قد ولد فى الصين. من إذن الذى كان يكتب هذه الروايات الصينية؟.

هذا ما يحاول أن يعرفه رجال الأدب المحدثين فى الصين الآن والذين جاءوا فى قرون متأخرة. ففى خلال الخمسة وعشرين عامًا الأخيرة، بدا النقاد الذين تدربوا فى جامعات الغرب يحاولون اكتشاف رواياتهم المهملة. لكن الروائيين الذين كتبوها لا يستطيعون أن يكتشفونهم. فهل الذى كتب قصة «شوى هوشوان» هورجل واحد، أوهل هذه القصة نمت إلى شكلها الراهن بالإضافة إليها، وإعادة ترتيبها وتعميقها وتطويرها بهمة عقول كثيرة وأيدٍ كثيرة، فى قرون مختلفة. فمن يستطيع أن يدلنا ؟ لقد ماتوا. لقد عاشوا فى يومهم وكتبوا ما رأوا وما سمعوا ولكنهم لم يذكروا شيئًا عن أنفسهم. إن

مؤلف رواية «حلم الغرفة الحمراء» فى قرن متأخر جدًا يقول فى مقدمة كتابه «ليس من الضرورى أن تعرف أزمنة هان وتانج Han and Tang – من الضرورى فقط أن أتحدث عن أزمنتى إنهم يتحدثون عن أزمنتهم وأنهم عاشوا فى عصر سعيد مجهول. لم يقرأوا عروضا لرواياتهم، ولا أبحاثًا تختص بها إذا كانت تتماشى جيدًا مع قواعد البحث العلمى أوالمدرسى. لم يخطر لهم ببال أن يصلوا إلى نفثة الهواء الرقيقة التى يتنفسها الإسكولائيون – هل كانوا يعتبرون أن مادة العظمة، تصنع طبقًا لهؤلاء المدرسيين. أوكانوا يكتبون كما يحلولهم أن يكتبوا وكانوا قادرين. أحيانًا كانوا يكتبون جيدًا بغير قصد وأحيانًا بغير قصد لا يكتبون كتابات جيدة . قد ماتوا ولفهم نفس الظلام السعيد والآن أصبحوا ضائعين فيه وليس كل المدرسيين فى الصين، الذين اجتمعوا متأخرًا جدا لتكريمهم يمكن أن يبعثوهم ثانية من الموت • لقد غاصوا فى الماضى البعيد بدرجة لا تسمح بإمكانية تأبينهم أدبيًا. لكن ما صنعوه بقى بعدهم؛ لأنه شعب الصين عمومًا هوالذى يحافظ على حيوية الروايات العظيمة، فالناس الأميون الذين نقلوا هذه الرواية لم ينقلوها من يد إلى يد بل من فم إلى فم.

فى إحدى الطبعات الأخيرة لرواية «شوى هوشوان»، كتب Shih Nai An، المؤلف الذى كان له دور فى صناعة هذه القصة «ما أقوله هوما أريد أن يفهمه الناس بسهولة. سواء أكان القارىء طيبًا أم شريرًا متعلمًا أم غير متعلم، فأى إنسان يستطيع أن يقرأ هذا الكتاب. فإذا كان الكتاب مصنوعا صناعة جيدة فهذا غير مهم بدرجة تسبب قلقًا لأى شخص. فوأسفاه، فأنا ولدت لكى أموت. كيف يمكننى أن أعرف أن الذين سيأتون بعدى ويقرءون كتابى سوف يفكرون فيه ؟ إننى لا أستطيع أنا نفسى لوتجسدت روحى فى جسد آخر أننى سوف أفكر فيه ؟. إننى لا أعرف إذا استطعت بنفسى حتى أن أقرأ. لماذا يجب على أن أنشغل بذلك.

ومن الغريب جدًا، أن هناك بعض الدارسين الذين كانوا يحسدون حرية العيش فى الظلام، والذين كانوا مثقلين بأحزان خاصة لم يجرأوا أن يتحدثوا عنها إلى أى شخص، والذين كانوا ربما يريدون فقط إجازة من الهموم الخاصة بنوع الفن الذى كانوا يخلقونه أويبدعونه، فكتبوا روايات تحت أسماء افتراضية متواضعة. وعندما فعلوا ذلك تخلوا عن الحزلقة جانبًا وكتبوا ببساطة وبطريقة طبيعية مثل أى روائى عادى.

لأن الروائى كان يؤمن انه لا ينبغى له أن يكون على وعى بالتكنيك • بل ينبغى عليه أن يكتب كما تتطلب مادة الكتابة • فإذا عرف الناس مؤلف الرواية من أسلوبه أوتكنيكه الخاص به فإنه يكون عند هذا الحد قد توقف عن أن يكون روائيًا جيدًا وأصبح عاملًا فنيًا فى مجال الأدب (أشبه بفنى ميكانيكى أوفنى كهربائى).

الروائى الجيد - أوهكذا كما تعلمت فى الصين - يجب أن يكون فوق كل شيء آخر tsc ran؛ أى طبيعى غير متصنع، هكذا مرنًا ومتغيرًا لكى يكون بكليته خاضعا لسيطرة المادة التى تتدفق خلاله• فإن واجبه الكلى هوفقط هوأن يفرز الحياة كما تتدفق من خلاله وفى جزئيات الزمان والمكان، والحدث لكى يكتشف النظام الجوهرى الكامن فى الأعماق والإيقاع والشكل • يجب ألا نكون قادرين، فقط عن طريق قراءة الصفحات أن نعرف من كتبها لأنه عندما يصبح أسلوب الروائى ثابتًا، يصبح هذا الأسلوب سجنًا له. فالروائيون الصينيون ينوعون فى كتاباتهم لتتوافق كالموسيقى مع موضوعاتهم التى اختاروها.

هذه الروايات الصينية طبقًا للمستويات الغربية ليست مكتملة. فهى لا تسير على خطة دائمة من البداية إلى النهاية،وليست بها لا يزيد شيئًا عن سيرة الحياة تخطيطًا أوحبكة. فإنها طويلة جدًا، مليئة جدًا بالأحداث، مزدحمة بالشخصيات، بين الحقيقة والخيال بالنسبة لمادتها، ووسط بين الرومانسية والواقعية فيما يختص بالطريقة، حتى إنه يمكن لحادثة مستحيلة عن طريق السحر أوالحلم توصف بتفاصيل دقيقة تجبر الإنسان على تصديقها رغم مجافاتها للمنطق أو العقل. فالروايات الأولى مليئة بالفلكلور لأن الناس فى تلك الأزمنة كانوا يفكرون ويحلمون بطرق فلكلورية. لكن أحدًا لا يستطيع أن يفهم عقلية الصين اليوم التى لم تقرأ هذه الروايات؛ لأن هذه الروايات هى التى شكلت العقلية الراهنة، وأن الفلكلور مازال مستمرًا رغم كل الدبلومات وشهادات التدريب الدراسية والباحثين الذين تعلموا فى الغرب،مما يجعلنا نعتقد عكس ذلك . العقل الأساسى للصين لا يزال هوالعقل الذى قال عنه جورج راسل عندما تكلم عن العقل الأيرلندى بأنه أشبه شيء بالعقل الصينى إلى حد بعيد «ذلك العقل الذى يؤمن بخياله الشعبى فى أى شيء. فإنه يخلق سفنًا من الذهب لها أشرعة من الفضة ويبنى

مدنًا بيضاء على البحر ويخلق جنيات عندما يتحول ذلك العقل الفلكلورى الواسع نحوالسياسة فهومستعد لأن يؤمن بأى شىء».

من داخل هذا العقل الفلكلورى الذى تحول إلى القصص وازدحم بآلاف السنين من الحياة، نمت الرواية الصينية أدبيًا. لأن هذه الروايات كانت تتغير أثناء نموها، كما قلت، لم يكن فيها أسماء فردية ملحقة فيها وراء موضوع القصص الصينية العظيمة، ذلك لأنه لا يوجد يد واحدة كتبتها. فمن البداية كمجرد حكاية تنموالقصة خلال نسخ متعاقبة إلى بناء صنعته أيدى كثيرة. ربما أذكر كمثل القصة المعروفة جيدًا The white Snake «الحية البيضاء» التى كتبت أولا فى أسرة تانج عن طريق مؤلف مجهول. إنها حكاية عن عالم ما فوق الطبيعة • بطلها حية بيضاء كبيرة. فى النسخة التالية فى القرن التالى، أصبحت الحية امرأة مصاصة دماء. ولكن النسخة الثالثة تحتوى على لمسة إنسانية أكثر رقة. فالمرأة الشريرة تصبح زوجة مخلصة تساعد زوجها وتلد له ابنًا هكذا تضيف القصة ليس فقط شخصية جديدة بل صفة جديدة ولا تنتهى كحكاية غير طبيعية كما بدأت بل كرواية كائنات بشرية •

لذلك ففى الفترات الأولى للتاريخ الصينى، هناك كتب كثيرة لا يجب أن تسمى هكذا روايات بل هى مصادر للروايات، هى نوع من الكتب التى لوفتحت مثلا لشكسبير ربما كان قد غمز يديه كلتيهما وأخرج منها بعض الحصى وحولها إلى جواهر ثمينة. والكثير من هذه الكتب قد فقدت، لأنها لم تكن تعتبر كتبًا قيمة. لكن ليس القصص الأولى عن هان،التى كتبت بأسلوب قوى حتى أنها مازالت حتى اليوم يقال أنها تجرى كالحصان الجامح وحكايات عن أسر مضطربة تعاقبت --- ليست كلها مفقودة فبعضها مازال موجودًا. فى أسرة منج كتب كثيرة معروضة عنها بطريقة أوبأخرى فى المجموع العظيم المسمى تاى بنج كوان شاى Tai P'ing Kuan Shi، حيث توجد فيها قصص الخرافات والدين، والرحمة والطيبة والجزاء عن الشر أوالخير، حكايات عن الأحلام والمعجزات • والأفاعى والآلهة والربات والكهنة. عن النمور والثعالب وتناسخ الأرواح والبعث بعد الموت. معظم هذه القصص كانت تتعلق بأحداث ما فوق الطبيعة عن الآلهة الذين يولدون من العذارى وعن رجال يمشون كالآلهة، حدث هذا عندما تعاظم تأثير

البوذية بجانب معجزات وقصص رمزية، مثل أقلام المدرسين المساكين التى تتفتح إلى زهرة،وأحلام تقود الرجال والنساء إلى بلاد جاليفر الغريبة والخيالية،أوالعصا السحرية التى تسبح فى الماء وعليها معبد من الحديد. لكن القصص كانت تعكس حياة كل عصر. فقصص هان كانت قوية وتتناول كثيرًا من شئون الأمة وتتمركز حول شخصية رجل عظيم أوبطل. وكانت الفكاهة قوية فى هذا العصر الذهبى، سلسة دنيوية، شهوانية، كما كانت توجد ـ مثلًا ـ فى كتاب حكايات عنوانه Siao Ling، المفترض إنها جمعت إذا لم تكن مكتوبة جزئيًا بواسطة هان تانج سوان. ثم تغيرت المشاهد،عندما ذبل هذا العصر الذهبى، وما كان له أن ينسى تمامًا، حتى أن الصينيين مازالوا حتى اليوم يحبون أن يسموا أنفسهم أبناء هان، مع توالى قرون الضعف والفساد، فإن طريقة كتابة القصص أصبحت لينة وضعيفة، وأصبحت مواضيعها خفيفة أوكما يقول الصينيون: «فى أيام الأسرات الستة، كان يكتبون عن أشياء صغيرة عن المرأة وشلال الماء والطيور».

إذا كان زمن أسرة هان ليس عصرًا ذهبيًا، فقد كان عصرًا فضيًا، والقصة هى قصص الحب التى أشتهر بها. كان عصرًا للحب، عندما تجمعت ألف قصة حب حول الفتاة الجميلة يانج كوى فاى Yang Keui Fei والجارية التى لا تكاد أن تقل عنها جمالا ماى فاى Mei Fei فى حظوة الإمبراطور. قصص الحب هذه عن تانج تقترب أحيانا من حيث الوحدة والتعقيد بما يفى بمستويات الرواية الغربية. ففيها تصاعد للفعل والأزمات، وفيها الحل ولو ضمنيًا. يقول الصينيون: «يجب علينا أن نقرأ قصص تانج، لأنه على الرغم من أنها تتناول أمورًا صغيرة «فإنها مكتوبة بأسلوب يحرك الدموع فى العيون».

من غير المدهش أن معظم هذه القصص لا تتناول الحب الذى ينتهى بالزواج، بل الحب خارج إطار العلاقة الزوجية، ومن المثير للاهتمام حقيقة، أنه عندما يكون الزواج هوموضوع القصة فإنها تنتهى بمأساة٠ هناك قصتان شهيرتان، باى لى شى Pei Li Shi وشياوفانج شى Chiao Fang Chi، تتناولان الحب خارج إطار الزواج، ومن الواضح أنها كتبت لإظهار تفوق المحظيات والجوارى، اللاتى يستطعن القراءة والكتابة والغناء، بالإضافة إلى المهارة والجمال، على الزوجة العادية، التى تبدوكما يقول الصينيون حتى اليوم «امرأة صفراء الوجه» وأمية عادة.

هكذا بلغ هذا التيار من القوة حتى أصبح الزواج الرسمى فى وضع خطر مع زيادة شعبية هذه القصص بين عامة الناس، واستنكرت باعتبارها ثورية وخطيرة لأنهم ظنوا أنها تهدد مؤسسة الحضارة، الذى هى نظام الأسرة. الاتجاة الرجعى لم يكن مفتقدًا، مثل ما نرى فى قصة هيوى تشن شى Hui Chen Chi، وهى أولى الأشكال لعمل متأخر شهير، قصة الباحث الشاب الذى أحب الجميلة ينج ينج Ying Yingوالذى رفضها وقال بحكمة وهويتركها، «كل النساء المتميزات خطيرات، إنهن يدمرن أنفسهن ويدمرن الآخرين. لقد خربن حياة أباطرة. أنا لست إمبراطورًا، وأنا أتخلى عنها». وهذا ما فعله، أمام إعجاب كل الرجال العقلاء. وتجيبه ينج ينج فى تواضع قائلة، «إذا امتلكتنى وتركتنى، فهذا حقك. إننى لا ألومك» لكن بعد خمسمائة سنة ظهرت حرارة القلب الشعبى الصينى وأقامت قصة الحب ثانية. ووضعتها فى مكانها الصحيح ففى النسخة الأخيرة من القصة جعلت من شانج وينج ينج زوجًا وزوجة وتقول فى الختام، «هذا هوالأمل لكل المحبين فى العالم بأن يمكن أن يرتبطوا فى زواج سعيد: وبمضى الوقت فى الصين، فإن خمسمائة سنة ليست زمنًا طويلًا جدًا بالنسبة لانتظار نهاية سعيدة.

هذه القصة، بالمناسبة، هى واحدة من أعظم القصص شهرة فى الصين. لقد أعادها شعريًا شاوتيه ليانج Chao TehLiang فى عهد أسرة صنج Sung Dynasty بعنوان «الفراشة العنيدة The Reluctant Butterfly وثانية فى عهد أسرة يوان Yuan بواسطة تنج شاى – يوين Tang Chai–Yuen كدراما غنائية، عنوانها سوه هسى هيانج Suh His Hsiang. فى عهد أسرة منج، بنسختين متداخلتين.

لا أستطيع هنا أن أحدثكم عن نموهذه الرواية الصينية حديثًا كاملًا، ولا عن تغيراتها بواسطة كتاب كثيرين. فشيه ناى أن Shih Nai An، قيل إنه وجدها فى شكلها الخام فى مكتبة كتب قديمة وأخذها إلى بيته وأعاد كتابتها. وظلت القصة تحكى بعده ويعاد حكايتها. خمس أو ست نسخ موجودة منها الآن على قدر من الأهمية. إحداهما بها مائة فصل عنوانها Shui Hu Chuan النسخة الأولى المنسوبة إلى شيه ناى إن بها مائة وعشرين فصلًا، لكن النسخة الأكثر استخدامًا الآن بها سبعون فصلا فقط، هذه النسخة التى أعيد ترتيبها فى عصر أسرة مينج بواسطة Ching Shen Tan، الذى قال إن

من الكسل أن يمنع ابنه من قراءة الكتاب ولذلك أهدى ابنه نسخة راجعها بنفسه، علمًا بأنه لن يتوانى أحد عن قراءتها. هناك نسخة كتبت بأمر رسمى، عندما وجد المسئولون أنه ليس هناك ما يمنع الشعب من قرائة شوى هيوShui Hu. هذه النسخة الرسمية بعنوان تانج كوش Tang K'ou Chi «الإطاحة بقطاع الطرق» Laying Waste the Robbers، وهى تحكى عن الهزيمة النهائية التى منى بها قطاع الطرق ودمارهم على أيدى جيش الدولة، وحرصًا من عامة الشعب على الاستقلال فإنهم لا يقرءون هذه النسخة الرسمية.

ربما أضيف أن Shui Hu Chuan مترجم منها أجزاء إلى اللغة الفرنسية بعنوان «الفرسان الصينيون» Les Chevaliers Chinois، وقد قمت أنا بترجمة سبعة عشر فصلًا كاملًا منها إلى الإنجليزية بعنوان «كل الناس إخوة» لقد بقيت هذه القصة رغم كل شىء وفى هذه الأيام الجديدة فى الصين أخذت أهمية مضافة، فالشيوعيون الصينيون طبعوا نسختهم منها بمقدمة كتبها أحد مشاهير الشيوعيين وأصدرها من جديد باعتبارها أول أدب شيوعى صينى.

بابلو بيكاسو

(١٨٨١ - ١٩٧٣)

تأليف: سير رولان بتروز

ولد بابلوريزى بيكاسو Pablo Ruizy picasso فى ٢٥ أكتوبر عام ١٨٨١ فى مالقة Malaga على ساحل إسبانيا الجنوبى المطل على البحر المتوسط، وأخذ معارفه الأولى فى الفن عن والده، جوزيه ريزى بلاسكو Jose Ruizy Blasco. وهوفنان أكاديمى متوسط الموهبة. وقد أظهر بيكاسووهومازال طفلًا مقدرة ملحوظة فى الرسم، «إذ كان يسلى أصدقاءه برسم إسكتشات سريعة تتجاوز فعلًا خيال الطفولة البريئة.

انتقلت الأسرة إلى لاكورينا La Coruna فى ١٨٩١ ثم إلى برشيلونة عام ١٨٩٥ وهناك شرع بيكاسوالشاب فى تأكيد استقلاله، إذ وجد له أصدقاء بين طليعة الشعراء والرسامين والفلاسفة الذين كانوا يترددون على حانة (البوابات الأربع) Els Quatre Gats وكانوا يحثون بعضهم بعضًا على السير فى الاتجاهات الفوضوية والاشتراكية، وفى جونفسى تسيطر علية سوداوية نهاية القرن، كانت تيارات الفكر محكومة بالرغبة فى الهروب من القيود الضيقة للمجتمع الإسبانى وهكذا بدأ بيكاسورحلته إلى الشمال فى ١٩٠٠.

كان اتصاله الأول بباريس ذوأهمية عظيمة، لكنه لم يستمر إلا وقتًا قصيرًا نظرًا لإمكانياته المحدودة، وقد أخذ يقسم وقته على مدى السنوات الأربعة التالية بين بارشيلونة ومدريد ثم باريس. فى بارشيلونة كانت عائلته لا تزال تقدم له معونة متواضعة، وهناك رسم عددًا من الصور تصنف الآن على أنها مرحلة حياته الزرقاء (Blue Peried) وفى تلك الفترة بدأ يوقع لوحاته باسم أمه، بيكاسو.

وبدءًا من ١٩٠٤. جعل بيكاسو من باريس وطنًا له، وفى مونتمارتر Montmartre وجد بيكاسوستوديومعروف باسم باتولافوار Bateau- Lavoir حيث كان يحيط به فنانون وشعراء آخرون وكانت عشيقته المخلصة أولفييه Olivier تشاركه الحياة اليوهيمية فى ذلك الحى، وكان من بين أصدقائه هناك ماكس جاكوب وألفريد جارى Jarry وأندريه سالمون وجيوم أبولينار Apollinaire. وكان بيكاسومحظوظًا إذ وجد تجار اللوحات وجامعيها من أمثال: أمبروزوفولاد كار وجيرترود وليوشتين Leo Stein والتاجر الروسى، شوكين ودانيال هنرى كاهنفلر Kahnaviler. الذين استطاعوا تقدير لوحاته وما تتميز به من حيوية فذة، ثم ساندوه بشراء رسوماته. لكن السرعه المربكة التى كان يتابع بها بيكاسواكتشافاته دون اهتمام بالحصول على ضمان مادى.. كانت تسبب لهم هلعًا كبيرًا.

وكان من بين الفنانين الذين عرفوا بيكاسوا جيدًا فى ذلك الوقت الفنان ماتيس وديران Derain وفلامنيك Vlamink، وكان الفنان براك فقط هوالذى تفهم بسرعة تلميحات بيكاسوفى لوحة بنات أفينون Les Demoiselles d`Avignon ذلك الرسم المدهش الذى أنتجه بيكاسوعام ١٩٠٧.

ولولا تفهم بيكاسوالمفاجئ لفن النحت الإفريقى ما كان قد قدر للحركة التكعيبية الظهور. إذ أسهم النحت الإفريقى بقوته البدائية فى إبتكار وتطوير أسلوبه الثورى بسرعة فائقة مما جعله شائعًا معروفًا فى خمس سنوات.

وسع بيكاسومن نشاطه فى عام ١٩١٧ بتصميم مشاهد وملابس لفرقة سرَجى ديجيليف Serge Diaghilev الروسية للباليه وتزوج بعد ذلك بوقت قصير بإحدى

الراقصات Ogla Koklova أوجلا كوكلوفا التى أنجبت له ابنًا أسماه باولو، فى ١٩٢١ - وبدا له أن زواجه ينحوبه بعيدًا عن الحياة البوهيمية فى مونتمارتر ويتجه به نحوالدائرة العالمية الثرية التى احتضنت الفنون بعد الحرب وأضفت على أعماله قيمة عالية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد أكد للمرة الثانية فى ١٩٢٥ استقلاله وكشف عن ازدرائه للذوق الاجتماعى العام بأن رسم صورًا تحمل فى طياتها سخرية وتحريفات عنيفة مناقضة لذوق أولئك الذين كانوا يتوقعون من الفن أن يمنحهم السعادة والتسلية وأن يدغدغ مشاعرهم بالنفاق. واستمر عنف التعبير فى الازدياد وترجم ذلك إلى أعمال نحت ورسم وحفر نالت إعجاب السرياليين لأسباب كثيرة، وعلى الرغم من أنه ظل بعيدًا إلى حد ما عن جماعتهم فإن صداقته الوثيقة لأندريه بريتون Breton وبول ايلورار وفرت حافز الصداقة المتبادلة بينهم والتى استمرت فى حالة إيلورار حتى وفاة هذا الشاعر فى ١٩٥٢.

وظل بيكاسوطيلة هذه العقود يقضى معظم حياته فى باريس يتخللها زيارات متكررة لجنوب فرنسا. وكان يصحبه فى كثير من هذه الزيارات دورا مار Dora Maar التى استطاعت بذكائها وعمق إدراكها أن تكون صديقته الحميمة لسنوات طويلة بعد انفصاله عن زوجته أولجا.

وبحثًا عن مجال أوسع لنشاطه، اشترى بيكاسوقلعة دى بوازيلوب Chateau de Boisegeloup فى نورماندى حيث أنتج سلسلة رائعة من أعمال النحت التى استوحاها من جمال مارى تيريز لابواتيه La Boetie حيث كان يعيش مع زوجته، حصل بيكاسوعلى قاعات واسعة فى شارع Des Grands Augustins دى جراند أوغسطين حيث استخدمها كاستوديو لمدة عشر سنوات.

وكان المناخ السياسى قد أخذ يزداد قتامة فى الثلاثينيات، وبلغ ذروته بالنسبة لبيكاسو باندلاع الحرب الأهلية فى إسبانيا وتدمير جرنيكا عام ١٩٣٧. هذه الحادثة أشعلت نار الغضب فى نفس بيكاسو، هذا الغضب الذى وجد تعبيره فى الرسم الجدارى الذى قدمه بيكاسوفى جناح المعرض الجمهورى الإسبانى فى المعرض العالمى بباريس فى تلك

السنة، واستمر هذا المزاج الغاضب يتحكم فى أعماله طيلة السنوات الأشد ظلامًا التى أعقبت هذه الحادثة، وقد اتسع نشاطه خلال تلك الفترة وامتدت إلى أعمال نحتية تصور الإنسان والنعجة بصورة أكبر من الحقيقة فى واقع الحياة.

فى ١٩٤٦ أصبح بمقدور بيكاسوثانية أن يسافر إلى البحر المتوسط وسرعان ما استقر فى فالوريس Vallauris مع فرنسوا جيلوFrancois Jilat وطفليها كلود وبالوما واستطاع فى هذه المدينة الصغيرة أن يضيف السيراميك والنقش على الحجر إلى مجال نشاطه الواسع، ثم شعر بحافز فى أن يستخدم نفوذه فى الأحداث الجارية، فانضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى كعلامة على تضامنه مع مبادئ الحزب، ثم قام برحلات خاصة لمؤتمرات السلام فى روما ووارسوولندن.

وقد تسبب انفصاله عن فرنسوا جيلوعام ١٩٥٣ فى تفجر عاطفى يتجلى فى سلسلة فذة من النقوش الحجرية التى تصوره بصورة رمزية فى دور الرسام المخلص الكهل الذى وقع فى أزمة التمزق بين إخلاصه لنموذجه الحى وبين إخلاصه لعمله. وموقف النقد الذاتى الذى يمكن تتبعه خلال حياته كلها، خدم بيكاسو كدرع واقية ضد ما كان يستشعره من أخطار الثروة الكبيرة والشهرة العالمية.

وبعد أن ترك مدينة فالوريس استقر عام ١٩٥٥ فى فيلا كبيرة بمدينة كان Cannes، وفى ١٩٥٨ تزوج محبوبته الجديدة جاكلين روك واشترى قلعة فوفنارج القديمة Chateau de Vauvenargues فى جبال سانت فيكتوريا بالقرب من آبكس. وبعد ذلك حصل عام ١٩٦١ على بيت جديد Notre Dame de vie بالقرب من موجانز Mougins فى موقع جميل ومعزول جدًا تحيط به مناظر البحر والجبال، وهناك وجد هووزوجته الشابة الجميلة مهربًا من الفضوليين واستمر بيكاسوفى عمله دون كلل أوضعف ومات فى نوتروداما دى فى فى ٨ إبريل ١٩٧٣، عن عمر يناهز اثنين وتسعين عامًا وهولا يزال ينبض بمشاعر الإبداع والأفكار الجميلة.

«أنا لا أرسم ما أرى لكن أرسم ما أعرف»

بابلوبيكاسو

يعد بيكاسوواحدًا من أشهر الأسماء فى عالمنا المعاصر ورغم هذا، فإن قلة قليلة فقط من الناس هم الذين يعرفون كل جزء فى إنتاجه الضخم الشديد المتنوع بصورة لا تصدق، وحتى هؤلاء الذين يعرفونه جيدًا هم أول من يعترف بأنهم غير قادرين على القول بصدق إنهم كانوا يفهمونه كإنسان أوكانوا يملكون قدرة على التكهن بالموضوع الذى سوف يستولى على اهتمامه فيما بعد. ولذلك نشرت عنه كتب كثيرة وأذيعت كثير من الأساطير حتى نظن أحيانًا أن مصدر هذه الأمور ليس شخصًا واحدًا بل جيش من الرجال يحملون اسم بيكاسو.

ومن المعروف على مستوى العالم كله أنه كان عبقرية ثورية عظيمة قدم فى حياته الطويلة التى امتدت زهاء اثنين وتسعين عامًا كثيرًا من الأعمال التى أسهمت فى تغيير معنى الفن ومظهره أكثر من أى فنان آخر فى القرن العشرين.

فإن أكثر الآراء شيوعًا عن بيكاسوهى التى جاءت نتيجة معرفة الناس به كفنان متمرد. لكن إذا أمعنا النظر بشدة فإننا نكتشف فى أعماله أيضًا دلائل مدهشة متكررة (حيث نتوقع تضاءلها إلى أدنى درجة) ذات قدرة على الاستمرار تربطها أساسًا بألوان التعبير الفنى على مدى العصور. هذه الروابط التى تصله بالماضى ترجع جزئيًا إلى اهتمام بيكاسوالواسع المدى بكل الأشكال الحية للتعبير الإنسانى حتى تلك الأشكال التى لا يعرفها إلا القلة، كما ترجع ـ جزئيًا ـ إلى خبرته التى كانت تسكن خياله من أيام الشباب.

وهى خبرة تحتوى على مفاتيح مهمة توصلنا إلى الأشياء التى كان يحبها والأفكار التى تشغل عقله كما ترجع إلى ذاكرة تصويرية فذة.

هذه المفارقة أوهذا الزواج الغير متوقع بين الابتكار المدهش بدرجة نعجز معها عن اكتشاف أى أثر يقودنا إلى مصادرها وبين التقليد الراسخ، إنما هوملمح دائم لعبقرية بيكاسو، ولولا قوة إبداعه التى كانت تندفع بقوة دافعة هى سخطه الطبيعى على التقاليد الموجودة، كان يمكن لموهبته النادرة المبكرة النضوج واجتهاده فى تعلم الفن أكاديميًا بمعاونة أبيه، أن ينتهى به هذا كله إلى عمل شريف كرسام جيد. لكن شيئين جعلا من بيكاسوفنانًا فريدًا منذ شبابه الباكر - مقدرته الفذة على التعبير عن نفسه كفنان، ثم بحثه الدائب من أجل الوصول إلى فهم جديد ونافذ للحياة.

حين بلغ بيكاسوالرابعة من عمره، سلمه أبوه، الذى كان ينحدر من عائلة برجوازية فى مالقة، سلمه فرشاة ومحبرة لخلط الألوان إعترافًا بأن ابنه قد تفوق عليه. ثم جاء الانتصار الثانى حين انتقلت الأسرة إلى برشلونة واجتاز الفنان الشاب اختبارات القبول التقليدى ونجح فى دخول مدرسة الفنون التابعة للبلدية. وبدلا من استخدام موهبته بالطريقة التى رسمت له، نجده يقيم صداقاته الأولى مع شباب الشعراء والرسامين الذين كانوا يترددون على بعض المقاهى الشعبية، وكانت جاذبيتهم نابعة من أنهم يشكلون من رومانتيكية آخر القرن السوداوية نبضًا ثوريًا صاخبًا.

وبدلا من رسم صور زيتية يمكنم عرضها ببساطة للمواطنين الأغنياء، اختار لموضوعاته صور المنبوذين، والمتسولين العميان وبنات الشوارع ومشاهد المقاهى ومشاهد مصارعة الثيران.

وعلى الرغم من التقاليد العظيمة التى يحفل بها الفن الإسبانى، والتى لم تضعف حساسيته له أبدًا، فسرعان ما ضاقت به حدود برشلونة ضيقًا شديدًا وبدافع الشغف الشديد لاستكشاف آفاق أخرى أكثر رحابة قرر أن يخاطر بكل ما يملك من مال قليل، واتجه إلى الرحيل. ولم يقصد باريس طبعًا ولكنه اتجه إلى الشمال البعيد.. حيث توجد مدينة لندن، إذ توقع أن يجد فى هذه المدينة نساء جميلات وذكيات حصلن على حريتهن

وأن يرى شحاذين يمشون فى الشوارع وهم يرتدون قبعات عالية، لكن فى الطريق كانت باريس هى التى خلت لبه، إذ وجد هناك المناخ الذى يلائم خياله والأصدقاء الذين يمكن أن يلهموه والمتاحف الغنية بالكنوز. لكل هذه الأسباب لم يترك بيكاسو الأراضى الفرنسية إلا نادرًا.

كان بيكاسو يجد دائمًا أقرب أصدقائه بين الشعراء. وكان ماكس جاكوب هو الذى عرفه بألوان المتعة وألوان التعاسة فى حياة البوهيميين فى مونتمارتر.

وقادته سخرية ألفريد جارى اللاذعة وانتقادات أبولينار البصيرة إلى تفكير جديد كان لابد أن يصل به ليس فقط إلى اسلوب جديد فى الرسم بل وأيضًا إلى مفهوم جديد لمعنى الفن. وتعرف بيكاسو على الباليه لأول مرة عن طريق جان كوكتو الشاب الذى التقى به فى لحظة مواتية أثناء الحرب ١٩١٤- ١٩١٨. وأخذ فى الثلاثينيات يتابع كتابات الداديين والسيرياليين باهتمام عميق وأقام صداقة مستمره مع الشعراء من أمثال: تريستان تزارا Tristan Tzara وبول ايلوار Poul Eluard وبيير ريفردى Pierre Reverdey وجاك بريفير Jacques Prevert وميشيل ليريريس Michel Leiris، ولا يجب أن يفهم من هذا أن بيكاسو كان يتجاهل الرسامين، ففى بكورة شبابه أقام صداقة مع دوانيير روسو Dauanier Rousseau وهو فى شيخوخته. وكان يلتقى كثيرًا بماتيس وديران وبراك، فى تلك الأيام التى كانوا ينشغلون فيها بتجاربهم الجريئة مع الألوان التى أكسبتهم اسم الوحوش البرية Les Fauves.

مع ذلك فإن اهتمامات بيكاسو ومشاغله كانت تختلف اختلافًا واضحًا. ففى فترته الزرقاء Blue Periad رسم بيكاسو صورًا للأمومة والطفولة والشحاذين العميان كما رسم بعض التكوينات الكبيرة التى تعبر من خلال رؤى شاعرية عن الشفقة والرثاء كما تعبر عن بعض الأفكار المتجاوزة أو المتعالية Transcendental وكانت هذه الصور مستوحاه من بقايا نشأته الأكاديمية.

وفى ١٩٠٦ خرج من هذه المرحلة باعتقاد قوى بأنه يجب على الفن أن يتحرر من أثر الحدوتة أو الحكاية وأن يكتشف فى الوقت نفسه دافعًا أعمق وأكبر من الرغبة المسيطرة على التأثريين فى عرض تأثيرات الضوء واللون العابرة فى رسوماتهم. كان بيكاسو يطمح

فى إحياء الإحساس بالواقع الذى وجده فى رسوم الفريسكFrescoes لأهل كاتالان Catalan البدائيين كما وجدوه فى النحت المصرى القديم الإغريقى قبل المرحلة الهلينية وكذلك البيزنطى والقوطى. إذ تبدوهذه الأساليب حية بفعل ديناميكية غامضة تجعلها جميلة أحيانًا وأحيانًا أخرى مخيفة مفزعة.

لم تكن هذه الاكتشافات فقط هى الأزمة الكبيرة فى ربيع عام ١٩٠٧ فقد كان بيكاسويعرف دائمًا أنه لا يمكنه تحقيق أى تقدم دون دراسة مستمرة لما يقدمه الآخرون من حلول ونقد أعمالهم نقدًا لا يعرف اللين. وربما كان ماكس جاكوب يقصد موقف بيكاسوحين قال «إن الفن هوالشك Le doute Ce l`art» وقد كان بيكاسوطوال أيام حياته، ورغم نجاحه العظيم، يحتفظ بقدر كبير من التواضع والشك مما يمكن اعتباره أحد الأسباب الرئيسية لقدرته على إنتاج أعمال أصلية حتى فى شيخوخته.

ففى خريف ١٩٠٦ بعد إتمامه لعدد من أعمال الرسم أخذ فى رسم تكوين كبير يحوى عددًامن الأشكال النسائية يمزج بين العمدية والشك فيما يمكن أن تقود إليه هذه الأعمال، هذا الرسم الذى سمى فيما بعد «بنات أفيون» Les Demoiselles d` Avignon وفر له ميدان معركة وأرض اختبار لمفاهيم جديدة،كان من بينها اكتشاف بيكاسو، أثناء قيامه بهذا النحت لأهمية النحت الإفريقى. وفى نوبة انفجار للعنف الثورى أدخل رأسين على يمين لوحة الكانفاس Canvas مما بدا نشازًا غريبًا بالنسبة للأشكال الكلاسيكية وإهانة قاسية لكل التقاليد الجمالية. وعلى حد قول هيرمان ملفيل «فإن هذه الوجوه التى تحمل فى تركيبها هكذا الجحيم والنعيم، تلقى فى روعنا كل غوايات الماضى، وتجعل منا للمرة الثانية أطفالًا مندهشين من هذا العالم».

فى هذا الوقت كان بيكاسوقد اكتسب فعلًا شهرة عالمية عظيمة وودع أيام الفقر والحرمان فى باريس. ولكن الامتعاض الذى سببه هذا الرسم لأولئك الذين كانوا معجبين بأعماله الأولى فى مرحلتيه الزرقاء والقرمزية كان مخيفًا. وقد عبر ديران عن اهتمام أصدقائه وعدم استحسانهم بقوله «يومًا ما سنجد بيكاسوقد شنق نفسه خلف قماشة كبيرة» أما أبولينار فقد لخص هذه الحادثة الشاذة فيما يعد بقوله «لم يكن هناك

شيء أروع من مشهد التحولات التى كان يجتازها». ازدادت درجة الفهم مع مضى الأيام، إذ أخذ بعض الفنانين الآخرين وأولهم براك يرون أهمية الرسم وقوته.

مع ذلك، فإن بعض الفنانين قد أخذوا يشككون فى الاعتقاد السائد بأن الجمال والكمال هما الغاية الوحيدة للفن، إلا أن لوحة «بنات أفيون» أثبتت بقوة مقنعة ولأول مرة وجود قوة سحرية فى الفن البدائى، وأن حيوية الفن القبلى يمكن أن تستعيد مكانتها فى الرسم الغربى المعاصر، وأن الجمال والقبح ما هما إلا جوانب فرعية فى أى شكل تعبيرى ينطوى على هذه القوة العاطفية الديناميكية. فالوسائل التى استخدمها بيكاسوكتحريف الصور بطريقة متعمدة وإزاحة الأطراف والتبسيط الشديد هى خطوات ثورية نحو تحليل وتركيب جديد للشكل كما نراه ثم تشكيله حسب معرفتنا. إن مقولة بيكاسو«أنا لا أرسم ما أرى لكن أرسم ما أعرف» لم تكن ترمى فقط إلى الهجوم على الانطباعين وإنما كانت أيضًا إعلانًا عن موقف جديد إزاء الفن الذى كان يتحتم عليه أن يجد تعبيره فى الأسلوب الذى سمى بالتكعيبية. وهذا الأسلوب ذاته هونتاج فكر هذا القرن واكتشافه وهوتأسيس لتصورات جديدة لمعنى الفن.

وخلال السنوات الستة السابقة على الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ اشترك براك وبيكاسوفى محاولة اكتشاف شديدة الأهمية والأثر وعلى حد وصف براك إذ يقول: «كنا مربوطين بحبل مثل متسلقى الجبال» وراحا يكتشفان كنوز أرضهم الجديدة. وكانت السنوات الأولى التى تعرف بمرحلة التكعيبية قد انتهت فى عام ١٩١١ إلى أزمة حين وصل الأسلوب الجديد عمدًا إلى ضياع الخصوصية وأوغل فى التجريد إلى درجة الكمال مما جعله شديد البعد شديد العزلة. وللإفلات من أسر هذه المخاطر جاء الرجلان بأشياء حقيقية ثبتاها على سطوح الرسومات وأعاد إلى اللون مكانته التى كانت قد تضاءلت لرغبتهما فى تأكيد أهمية الشكل. حدث هذا التغيير بغرض إنشاء علاقة جديدة مع الواقع ومن هنا جاء التكنيك المعروف الآن بفن اللصق (أوالكولاج Collage-) وهى طريقة إدماج قصاصات من الورق والصور والصحف داخل صورة عن طريق لصقها على السطح.

وقد حدث تطور مهم مماثل برسم صورة «سيدة فى كرسى ذى مساند Woman in an arm chair »(لوحة ٧) عام ١٩٦٣، حيث أدخل بيكاسوفى الرسم مفاهيم وتداعيات شاعرية ذات نظام جديد.

فالصورة موجودة الآن فيما يحق لها، إذا صار الشكل منحوتًا وموضوعيًا، وأن ما تحركه فى الذهن من تتابع للصورلا ينبع من محاكاة أشياء خارجية ولكن من خلق كيان واقعى قائم بذاته.

يبدوأن بيكاسوقد اختار أن يعبر عن نفسه بطرق شديدة التنوع، وكأنه قد وجد أن الضرورة تملى عليه أن يثبت أنه لا يرغب فى تأسيس أسلوب جامد أومدرسة ذات طابع محدد، بل يريد أن يواصل طريق الاكتشاف إلى ما لانهاية. فأنتج رسومًا واقعية ذات صفاء كلاسيكى حتى فى أوج فترة التكعيبية ونظامها الصارم. وفى عام ١٩١٨ بعد زواجه الأول عاد إلى موضوع الأمومة والطفولة برؤية جديدة. فالعمالقة الذين كانوا يلعبون مع أطفالهم أويحتضنوهم على شاطئ البحر فى رسومات العشرينيات، قد أضفى عليهم قوة جمالية وتناسب مهيب بدل أوضاعهم من عالمهم الواقعى العادى إلى عالم أساطير هوميروس (لوحة ٨).

وبالمقابل ؛ أنتج من تلك السنوات ذاتها، صورًا مثل «العازفون الثلاثة» {متحف الفن الحديث - نيويورك} ورسومًا أخرى كثيرة من واقع الحياة تتكون من أشكال هندسية مسطحة فى إطار منهجى محكم، وعلى درجة كبيرة من السموالأثرى مثل صورة «العمالقة العراة» لكنها تختلف اختلافًا كاملًا فى أسلوب تناولها.

ورغم ذلك وقعت الأزمة فى عام ١٩٢٥، وهى أزمة عنيفة وبعيدة المدى فى آثارها تذكرنا بما حدث معه حين رسم «آنسات آفنيون»، إذ أنتج بيكاسورسمًا ثوريًا آخر على الخيش Canvas، فى وقت كان يضطرم فيه حزنًا على وفاة أحد أصدقائه القدامى وهذا الكانفاس لا يعتمد على التوازن المعمرى الإستاتيكى للبناء التكعيبى، «فالراقصات الثلاثة» تبرز ملامح العذاب والتشوهات بصورة لم نراها فى أعماله من قبل، إذ تظهر أمامنا تكشيرة جديدة مفزعة كجزء متمم للصورة داخل فيضان من العربدة والمجون. إننا ندرك فجأة أن بيكاسولم يكن يبحث عن حل يحقق التناغم الهارمونى، بل كان يسعى

إلى التعبير عن الصراع الشرس الذى يدور بين القوى التى تخلق الحياة وبين القوى التى تمزقها.

هذه الحالة المزاجية المتشنجة الضيقة، تعاود الظهور فى أعمال بيكاسوخلال العقدين التاليين، فالشكل الإنسانى يتمزق ثم يعاد تركيبه. فالعيون، والآذان،والأنف، والفم تتحرك إلى مواقع جديدة تزين رأس الإنسان بإمارات العذاب أوالفرح، ونحن نتحرك معها، فنرى الوجه من الخلف مثل بروفيل أوكشكل كامل فى لمحة واحدة.

هذه الحيل التى تم اكتشافها من خلال الدهشة والتأمل على مدى عشر سنوات ماضية، صارت هى القاعدة المرنة للغة تأهب للانفجار فى رسم جدارى بالغ الأهمية والخطورة هولوحة الجيرنيكا Geurnica (شكل٣) التى رسمها أثناء الحرب الأهلية فى إسبانيا، وكان من المحتم أن يستمر هذا التفجر فى صور زيتية عديدة رسمها خلال سنوات الاحتلال النازى لباريس، وهى سنوات شديدة الظلام.

لكن بيكاسو اعتاد ألا يسمح لأى أسلوب حتى لوكان من ابتكاره أن يقيد حريته كما اعتاد كذلك أن ينفل ضد حالاته المزاجية مهما بلغت حدتها. فالغضب، والقلق، وضياع الوهم قد أخلى مكانًا لنوع من المزاج الوحشى أوالمتعة الخفيفة، والنساء اللواتى يرسمهن يمكن أن يكن حيوانات خرافية أومخلوقات جشعة لكنهن فى أغلب الأحوال قد خلقن بالحب، والملاحظة الحادة لجالهن تتكشف فى الذكاء المتألق فى عيونهن وفى أحضانهن القادرة على الاحتواء.

لقد لاحظ بيكاسوذات مرة أنه رغم كل شىء، فهوفنان واقعى مثل كل الرسامين الإسبان، والحقيقة، أننا عند الفحص الدقيق نجد أن تشويه الأشياء، وتحريف شكل الإنسان بطريقة عنيفة، خصوصًا فى أعماله التى رسمت بعد ١٩٢٥، إن دل على شىء فإنما يدل على ضيق بيكاسوبالحلول التى تتجه نحوتحقيق توازن هارومنى، لأنه كان مهتمًا فى الأساس بالتصدعات العظيمة التى باتت ظاهرة فى كل مكان بقدر اهتمامه بما تثيره من تناقضات الوقع من توتر.

ولكى يجعلنا نرى بوضوح أكبر، فإنه يرغمنا على أن ننفذ إلى الواقع بكل حواسنا وأن نتساءل عن قيمة المستويات المقبولة التى فقدت معناها وقد قال بيكاسوذات مرة «إن الرجل لا يحب فينوس، إنه يحب امرأة».

لقد لوحظ أنه يجب النظر إلى بيكاسوباعتباره شاعرًا يعبر عن نفسه بالصور المرئية، ورسامًا يخلع على الشعر ثوبًا جماليًا، إن لقاءه بشعراء مثل: بول إيلوار وأندريه بريتون فى أوائل العشرينيات - عندما كانوا يحاولون فى قصائدهم السيريالية وبياناتهم أن يبحثوا عن منابع الإلهام فى الأحلام الغامضة وفى عمليات اللاشعور غير المنطقية - هذا اللقاء قد توافق بالصدفة مع رغبته الخاصة فى الوصول إلى فهم للواقع ونحن قد يسهل علينا أن نتتبع هؤلاء الشعراء لكننا إذا نظرنا إلى أعمال بيكاسوفى مجموعها فسوف يتكشف لنا أيضًا التغيرات الثورية فى أسلوبة تتضافر معها بعض التيمات والهواجس الشخصية التى يمكن أن تعزوها إلى خبرته الواعية، التى ترجع إلى ذكريات طفولتة غالبًا، ومن المثلة الواضحة جدًا على هذا نجد ارتباطه بموضوع الأم والطفل، وبالجسم العارى، وبعض الحيوانات الأليفة، وبالدهشة أوالفزع الموجود فى رأس الإنسان، ثم خوفه من العماء، ومن الموت الذى يلازمه كظله.

هناك موضوعات أخرى كان يعود إليها مرارًا وتكرارًا مثل مناظر الطبيعة والحياة الجامدة بما فيها من أشياء، ومناظر أخرى مألوفة بالإضافة إلى هذا الثالوث الخالد المفعم بالتوتر النفسى - الرسام، والموديل، والعمل الفنى - وقد منحه هذا المدى مجالًا فسيحًا للاكتشافات الجديدة حتى فى أخريات أيامه.

ودراسة هذه التيمات المتوترة تستلزم منا أن نفحص أعمال بيكاسوعلى احتمال أن نجد فيها مفاتيح توصلنا إلى غرامياته وآماله وكذلك إلى معرفة مخاوفه والأشياء التى كانت تثير نفوره واشمئزازه، ومن هذا سوف نتبين أن النحت قد استوعب أفكاره بنفس درجة الرسم حتى أن هذين النوعين من الفنون كانا يتوافقان فى أغلب الأحيان. ففى ١٩٠٦ مباشرة بعد أن فرغ من تلك الصور العارية فى مرحلته القرمزية التى كانت تستوحى بتناسبها الكلاسيكى ورشاقتها آلهة اليونان القديمة، أن ظهرت أولى الرسوم المنحوتة. وظهرت أشكال قصيرة القامة مربوعة، ومقنعة بوجودها الصلب، حدث هذا

بعد أن رسم بيكاسوعددًا من الأشكال البرنزية فى استوديوصديقه النحات الإسبانى جونزاليز.

بعد ذلك جاء اكتشاف بيكاسوللنحت الإفريقى، وهذا الاكتشاف هوالذى أوصله إلى مفاهيم جديدة فى الرسم التكعيبى، هذه البدايات الأولى، أعقبها عدد كبير من الأشكال المنحوتة الصلبة، والكثير من الصور المرسومة بالنحت خلال حياته العملية، إنما تعطى رغبة بيكاسوفى أن يوحد بين هذين الفنين وأن يزود كل فن ببعض الصفات التى تنتمى تقليديًا إلى الفن الآخر.

لقد أشرت من قبل إلى الظهور المتكرر لبعض التيمات فى أعمال بيكاسو وارتبط هذا ارتباطًا وثيقًا بقدرته إلى حياة موضوعه أو إلى وجوده، سواء أكان هذا الموضوع جيتارًا أم قردًا أم شخصيات أسطورية مثل: هارلكان Har lequin والمينوتاور. كل منها يبدومتوافقاً بطريقة غامضة مع فكرة سبق له أن كونها عن نفسه. وهناك أسباب عديدة جعلت هارليكان بشخصيته ومظهره، يستهوى بيكاسو، فهذه الشخصية الأنيقة الجذابة، هى بطبيعتها شخصية تتسم بالمراوغة. فهومحب عاشق، وممثل بطىء الحركة، وصديق روحى للمنبوذين والسكارى والمومسات، إنه المهرج البارع الذى يكذب لكى يقول الحقيقة.

هذه الصفات يمكن أن يقال إنها صفات بيكاسونفسه. وفضلًا عن هذا، فهناك جاذبية مؤكدة للبذلة الماسية ذات الألوان العديدة التى وجدت فى سنواته الأخيرة مكانًا مناسبًا لها فى التكوينات التكعيبية. كذلك فإن هناك لوحات مبكرة لبيكاسو نفسه فى ملابس الهارليكان تثبت بغير شك أنه كان يريد أن يتواجد مع هذه الشخصية الزئبقية ذات المزاج السوداوى وأن يتقلبها كرمزبليغ لشخصيته التى تشبه اللغز.

أما انتحال الشخصية الثانية فقد حدث بنفس الطريقة فى السنوات التى تلت ذلك، وكان السيرياليون قد نجحوا من قبل فى جذب الاهتمام إلى ما تتضمنه قصة المينوتاور من دلالات سيكولوجية عندما قدم بيكاسوفى عام ١٩٣٣ وجوده المزعج فى سلسلة من الرسومات المحفورة على المعادن والتى تعرف باسم «استوديوالنحات». وقد حدث أن ذكر أبولينار فى وقت مبكر من سنة ١٩١٣ وحوش بيكاسو «المهجنة التى تحمل وعيًا مثل أشباه الآلهة فى مصر القديمة».

وكان لا بد أن تمر عشرون عامًا على هذا الأمر حتى يجعل بيكاسوالنحت شاغله الأساسى ولمدة قصيرة، إذ نجد تقديمه المتعمد لصورة لأحد أشباه الآلهة ذى قرون horned demi-god. ويظهر لنا فى ظروف توحى بأنه إذا كان هارلكان هوالرمز الذى اختاره الرسام الشاب لنفسه، فالمينوتاور يتطابق بدقة شديدة مع مفهومه عن نفسه كنحات فى ربيع العمر - إنه قريب جدًا من أرض الواقع، أقل تشردًا لكنه هوائى، وإن كان لايزال هوالطريد المنبوذ من المجتمع لأنه مستعبد لشهواته وضعفه الجسدى بصورة وحشية. يزيد من قوة هذا الانطباع إشارته إلى عاهة فقد البصر التى نكب بها المينوتاور فى بعض رسوم بيكاسوالمنحوته الأخيرة. إن فقدان البصر، وإن يكن كارثة إلا أنه يتيح للنحات أن يستمتع بحاسة اللمس وأن يرقى بها.

ورغم أن الأسطورة تعد وسيلة قديمة وأساسية فى فهم الواقع، فإن بيكاسو لا يقبلها كرمز جاهز. فهويخترع أساطير جديدة كتعبير مجازى عن نفسه وحياته، ومع أن هذه الشخصيات تمثل مشكلاته ومشاعره الخاصة، فإنها تظل مع ذلك شخصيات عامة غير محدودة بزمان أومكان، وأهم مثال على تبديل وضع الأساطير نجده فى لوحة «جيرنيكا» ففى هذه الصورة الرائعة التى رسمت عام ١٩٣٧ بروح الغضب والحزن (إبان الحرب الأهلية الإسبانية) والذى ساعد على وضعها فى بؤرة الضوء حادث تدمير عاصمة الباسك القديمة بقاذفات القنابل التابعة لفرانكو. لقد أجرى بيكاسوعملية الاستبدال بإحساس غريزى واستخدم مفاهيم بدائية مأخوذه من خبرة الحياة العادية مما أضفى على مشهد الكارثة جوًا من الواقعية فاق هول المأساة ذاتها. فالحيوانات، وصورة البيت الذى تشتعل فيه النيران، ثم صورة الشمس المشوهة، قد أخذت نصيبها من الأهمية الدرامية مثل صورة النسوة اللاتى أصابهن الذهول أمام مصرع أطفالهن، فالحيوانات تمحوالصفات الشخصية، وتحدث التطهير وتشدد على أهمية الممتلكات البشرية التى تمثلها هذه الحيوانات.

كانت الحرب الإسبانية التى وجد بيكاسونفسه مشتركًا فيها عاطفيًا بدرجة لم يجربها فى الحرب العالمية الأولى، مقدمة لسنوات من البؤس والحرمان التى قضاها فى باريس المحتلة، وأيقظت وحشية الحرب فى نفسه من جديد وعيًا اجتماعيًا يمكن تتبع

آثاره فى صورة المنبوذين والشحاذين والعميان التى رسمها فى مرحلتة الزرقاء صور كثيرة تعطى دليلًا على ما كان يعانيه من كرب عن طريق العنف الذى يمزق به الشكل الإنسانى ويعيد تجميعه بما يعطى فى أغلب الأحوال معنى الشؤم. وعند نهاية الحرب وجد أن بإمكانه السفر فعاد إلى جنوب فرنسا حيث استأنف عمله بجهد لا يعرف الكلل كرسام، ونحات، ونقاش، وشاعر.

وصلت شهرة بيكاسوفى السنوات الأخيرة حدًا جعل من الصعب عليه أن يظهر علنًا وسط الجماهير. وظل فى عزلته فى نوتردام دى فى Notre Dame -de-Vie يواصل عمله الدائم التغير، الدائم النمومع استطلاعه للاكتشافات الجديدة من خلال شبكة الإعلام الواسعة المدى والموجودة تحت إمرته. كذلك ظلت قواه الإبداعية كما هى دون أن يعتريها ضعف حتى آخر لحظة فى حياته.

وسوف تمضى سنوات طويلة قبل أن نتمكن من تقييم عظمة بيكاسووأهميته تقييمًا حقيقيًا. إن فهمنا له يتطلب فهمًا لأسرار الحياة ذاتها. لكن من الممكن لنا أن نرى بوضوح التأثير الهائل الذى تركه على مجريات الفن فى القرن العشرين.

-نشر هذا المقال فى مجلة «وجهات نظر» إبريل ٢٠٠١.

المؤلف فى سطور

نسيم مجلى

كاتب مسرح ومترجم، له عدد من الكتب النقدية منها: «لويس عوض ومعاركه الأدبية»، «صدام الأصالة والمعاصرة»، «محمد كامل حسين ابن سينا القرن العشرين»، ثم «أمل دنقل أمير شعراء الرفض». بالإضافة إلى أربع مسرحيات هى: «المجنونة»، «المسيح يصلب فى فلسطين»، «لقاء على القنال» ثم «مأساة طبيب الخليفة».

الفهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب